أنور الجندي

Mngool.com

تصحيح المفاهيم

في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى البحث

يقول رسول الله ﷺ :

« لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « إنما ستنقض عرى الإسلام عروة عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية » إن أخطر الأخطار التى تواجه المسلمين اليوم : خطر التغريب . والتغريب هو حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الاستسلام والاحتواء والتحرك من داخل دائرة الفكر الوافد (وليس من داخل عقلية الغرب نفسه) ودائرة الفكر الوافد تختلف فى أنها تحشد الشيء وضده ، وتسوق المذاهب المتعارضة كلها فى خضم جارف (وجودية وماركسية وليبرالية وهيبية ولا معقولية) حتى تسقط النفس الإسلامية ويسقط العقل الإسلامى صريع الخلاف والاضطراب ويتشكل إحساس بالسلبية المطلقة والعدمية . والهدف من حملة التغريب هو إخراج المسلمين من دائرة فكرهم بما يخلق شعوراً بالنقص فى نفوسهم وذلك بالتأثير فى النفس والمزاج والروح الإسلامى لاخراجها جميعاً من مفاهيمها ومواريثها وفرض اعراف جديدة عليها مخالفة لها فى الأصل مباينة لها فى الجذور . وفى مواجهة هذا علينا أن نعرف بأن هناك عالمين منفصلين : قد يؤثر أحدهما فى الآخر ولكنهما لا يمتزجان أبداً ولا يخضع أحدهما للآخر ، ولا يستوعب أحدهما الآخر ولا يحتويه ، هما عالم الإسلام المتميز بطوابعه ومفاهيمه وقيمه وعالم الغرب .

والفكر الإسلامى له من جذوره العميقة وأصوله العريقة ما يجعله قادراً دوماً على التماس التجدد دون أن يفقد الأصالة . والخطر كله يتمثل فى بعض المفكرين من العرب الذين يفكرون من داخل دائرة الفكر الغربى ويتحركون خارج إطار الفكر الاسلامى ومن هنا تأتى أخطاؤهم ويأتى عجز نظرتهم عن

أن نرى الأفق الواسع الممتد . أن هناك منهجاً : لا هو غربى ولا هو إسلامى ، وإنما هو منهج زائف صنعته اليهودية التلمودية الصهيونية وكشفت عنه بروتوكولات صهيون قد أعد خصيصا لإدخال العرب والمسلمين فيه ، فإذا دخلوا أحكم عليهم كالسجن فلا يصلون إلى شىء ، لا إلى معطيات الفكر الغربى ولا إلى أصولهم الأصيلة وإنما يذوبون هكذا فى غير ما أفق ويدورون فى غير ما سماء . إن مناهج العلوم والنفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد التى يقدمها لنا الغرب تنقصها إضافات ، الأولى : طابع التكامل والجمع بين العقل والقلب والمادة والروح والدنيا والآخرة . والثانية : الدور الطليعى الذى قام به المسلمون فى بناء هذه المناهج يوم أن كانت موجهة إلى الحق وإلى الحق وحده وقبل أن يلتهمها الالحاد ثم تستقطبها الصهيونية العالمية إن هناك محاولات جادة لتقديم ثلاثة مناهج للفكر الإسلامى تحتاج إلى يقظة ومواجهة :

١ — ما يسمى علم مقارنات الأديان الذى يقوم بأحكام مسبقة إلى تفضيل الأسبق والأول وهذا يستهدف الانتقاص من الدين الجامع الخاتم وهو الإسلام

٢ — ما يسمى علم الانثربولوجيا : وهو خاص بدراسة الشعوب البدائية وهدفه استخراج مفاهيم وقيم تعارض الكتب السماوية وإعلاء شأن الأساطير والسحر والتنجيم القديم وإعلاء شأن العنصرية والدماء :

٣ — ما يسمى العلوم الاجتماعيه بالاضافة إلى نظرية فرويد وتستهدف إلغاء طابع الفطرة الأصيل فى الأسرة ورد دوافع الإنسان إلى الجنس وإلى الطعام .

وتسيطر الصهيونية اليوم على هذه العلوم والدراسات فيه تحقيق أهدافها التى أوردتها بروتوكولات صهيون .

وتستهدف محاولات التغريب اليوم أهدافا متعددة :

أولا : محاولات إسقاط أسس وقيم وفرائض أساسية كالجهاد مثلا .

ثانياً : محاولات تحريف التاريخ والنصوص الإسلامية كإسقاط رحلة سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى الجزيرة العربية .

ثالثا : محاولة إضافة أشياء ليست أصيلة كالإسرائيليات .

رابعاً : محاولة الفصل بين الأدب والفكر ، واللغـــة والدين ، والدين والمجتمع .

خامساً : محاولة تمويه اقيم بإعلاء القانون الوضعى على الشريعة .

سادساً : إثارة النعرات الاقليميـة والعنصرية بالدعوة إلى القوميات والتجـــزئة .

سابعاً : محاولة التمويه بخلط الأخـلاق الإسلاميـة المصدر بالعادات والتقالية التى هى من صنع المجتمع .

ثامناً : محاولة تأليه العقل أو تقديس العلم أو الدعوة إلى عبادة البطولة .

(٢)

إن الهدف هو الحيلولة دون استئناف المسلمين حياتهم الاجتماعية على أساس الإسلام وذلك عن طريق تركيز المفاهيم الوافدة والتشكيك فى العقيدة الإسلامية وتشويه التاريخ والتراث الإسلامى فى سبيل تأكيد التبعية وفقدان الذاتية وقد آن للعرب والمسلمين أن يتحرروا من هذ المخطط الرهيب بالعلم والعمل . إن الطريقة المثلى للتحرر من الزيف والخطأ من التفسيرات المدخولة : ومن التحريفات والأساطير وأخطاء التهاويل هو شىء واحد : هو التماس المصدر الأصيل . وهو القرآن .

هذا المصدر الثابت الموثق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو السور المتين والحائط الصامد الذى يعتصم به المسلمون فى كل أزمة وكل جولة ومن كل غزو فكرى أو تحدى سياسى أو استهداف إجتماعى ومنهج الإسلام فى القرآن هو أعلى نموذج للمنهج العلمى الأصيل، فهو يدعو إلى إنكار الظن وتحقيق الغرض ونفى الأسطورة والخرافة وأبعاد الوهم والهوى والمطالبة بالبرهان والدليل.

(٣)

إن قواعد الفكر الإسلامى الأساسية قد بدأت ونمت فى حياة الرسول

صلى الله عليه وسلم مستمدة من القرآن وإن هذه القواعد لم تتغير من بعد ولم تجر إضافة شيء اليها فظلت قيمها الأساسية كما جاء بها وحى السماء (القرآن) وسنن النبي فى تفسيرها وتطبيقها وإنما جرت حركة العمل من داخل الاطار الذى رسمه القرآن ، ولقد كان إتصال المسلمين بالفلسفات اليونانية والفارسية والهندية تجربة قاسية انتهت بانتصار الإسلام وهزيمة محاولات سيطرة الفكر الوافدة أو الغزو الفكرى كما نسميه بلغة العصر .

وبقيت الحقائق الأساسية قائمة :

أولا : إن الإسلام ليس دينا كسائر الأديان ولكنه حركة إجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والمجتمع والدولة ومختلف نظم الاقتصاد والسياسة والأخلاق وأن ميزة الإسلام : أن نظرته كلية شاملة وأنه لم يجزىء الحياة بل نظر اليها نظرة جامعة متكاملة كما نظر إلى الإنسان نفسه كوحدة نفسية وجسمية لاتنفصل .

ثانياً : القرآن كتاب الله ومصدر المنهج الإسلامى ، يرسم صورة شاملة للقيم الأساسية وأصول مناهج المعرفـــة والعلوم وسنن الحياة والكون والحضارات والمجتمعات حيث يربط البشرية والكون جميعا بخالقها وبعثها وجزائها .

ثالثاً : الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم (كان ولايزال وسيظل) النموذج الأسمى والمثل الكامل والقائم أمام كل المجاهدين والمصلحين والنوابغ قدوة حسنة وأسوة صادقة ، من نقطة حب الرسول إلى المتابعة له على طريق الحق .

وقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم إثارة تستهدف تحرير البحث العلمى من كل الزيوف :

« ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان :

١ — من إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل ، ٢ — ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، ٣ — ومن إذا قدر لم يتناول ماليس له » .

(٤)

إن الطريقة المثلى للتحرر من الزيف والخطأ ومن التفسيرات المدخولة : من التحريفات والأساطير وأخطاء التأويل هي شيء واحد ، هي : التماس المصدر الأصيل موثقاً ثابتاً لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو بحق : السور المتين والحائط العالى الذى يعتصم به المسلمون فى كل أزمة وكل جولة غزو فكرى أو سياسى أو إجتماعى وقد رسم الإسلام فى القرآن قاعدة المنهج العلمى فهو يدعو إلى إنكار الظن وتحقيق الغرض ونفى الأسطورة والخرافة وأبعاد الوهم والهوى والمطالبة بالبرهان والدليل وبهذا المنهج الأصيل نقول : أنه قد آن للعرب والمسلمين أن يتحرروا من التبعية للنظريات الغربية أو المفاهيم الوافدة وعليهم أن يفكروا بلغتهم وأن يتحركوا من داخل فكرهم وأن يتجاوزوا سارتر وفرويد وماركس ودوركايم .

وعلى المسلمين أن ينتقلوا من الإسلام إلى الإيمان ولابد أن ينكسر قيد التبعية ويتحطم قيد التقليد ويتحرر الفكر الإسلامى من الدائرة المغلقة التى فرضها عليه نفوذ المنهج الغربى الوافد ولابد أن يرتبط مفهوم « التقدم » بمفهوم الأصالة ويتحرك من داخله ، التقدم بمفهومه الجامع : تقدما ماديا ومعنويا استمداداً من المنبع الأصيل ، وأن من أخطر الأخطار أن يدخل العرب والمسلمون فى مواجهة مع عدوهم بمفاهيم وافدة وقيم مضللة وإعتقادات وثنية ولابد أن تفتح اللغة العربية أبوابها لاستقبال العلوم والتكنولوجيا بمختلف فروعها وأنواعها وهذا شرط أساسى لقيام نهضة حقيقية ، فلا بد أن تنصهر هذه العلوم فى بوتقة اللغة التى هى فكر الأمة ووعاء ذوقها وثقافتها ، ولن تستطيع أمة أن تخطو فى مجال العلوم خطوة واحدة إلا إذا كانت مفاهيم العلوم داخل إطار لغتها .

(٥)

ولقد دعا الاسلام معتنقيه إلى معارضة التقليد الأجنبي ، وحذر من

التشبه بالآخرين وحرص على أن تظل شخصية المسلم وفكره وحضارته ومجتمعه متميزة ، وأعلن لذلك حرباً لاهوادة فيها على التقليد وعلى التبعية وحكم على من تشبه بقوم بأنه قد انفصل عن أهله وأصبح من أهل القوم الآخرين . ودعا إلى إعلان التمييز بين الأمم من حيث العادات والأخلاق . وكشف الاسلام عن مدى أثر التقليد فى فقدان الشخصية وأثر التبعية فى عبودية الفكر والعقل . وقد أكد المؤرخون بأن التقليد فى مراحل الضعف إنما يكون فى جوانب الهدم والانحلال ويتركز دائماً على الانهماك فى اللذات فضلا عن أن القوى الكبرى لاتعطى للضعفاء أسرار علومها ، وإنما تلهيهم بفتات الأهواء وبريق الرغبات التى من شأنها أن تحطم المقومات وتدمر النفس البشرية وتجعلها غير قادرة دائماً على معارضة هذه القوى الكبرى .

لذلك فإن الطريق الوحيد للأمم التى تحوطها الأخطار أن تظل دائماً على تعبئة ومرابطة ومن هنا فإن الذين قالوا لنا : أن نسير سيرة الاوروبيين ونسلك طريقهم لم يكونوا صادقين فى النصح والتوجيه .

وحين عمل الإسلام على تحرير أتباعه من التأثير الاجنبي بكل أنواعه ، دعا إلى الحذر من الحرب النفسية التى يشنها أعداء الاسلام والتى تهدف إلى تغيير المعالم الأصيلة لعقيدتنا وفكرنا وثقافتنا ومزاجنا النفسى .

ومن مفاهيم التبعية « إيجاد البديل فى مواجهة الأصيل » والأمم العريقة التى تكامل فكرها لاتكون عادة فى حاجة إلى مفاهيم وافدة ، فإذا نظرت فيها فمن أجل أن تعرف أسلوبها وأهدافها ، مع تقدير الفارق البعيد بين منهج جزئى إنشطارى ومنهج متكامل جامع ، بين منهج ربانى يستقطب النفس الانسانيـــة من جميع أبعادها ومنهج بشرى عاجز عن الاستمرار والدوام . ولقد رأينا كيف أن النظريات التى قدمها الغرب سرعان ما تصدعت وبان فسادها بمرور الزمن واحتاجت إلى إجراء تعديلات بعد تعديلات وهى فى أغلبها تعديلات جوهرية ، ذلك أن تحول الزمن واختلاف البيئات يفسد النظريات ويصيبها بالعطب والاضطراب ويكشف

عن الفارق البعيد بينها وبين المناهج الربانية الثابتة ثبوت الفطرة وقد رأينا ذلك في الماركسية والفرويدية والوجوديه . ومن أخطر الأخطار أن تتخذ أمة الأسلوب الوافد أسلوباً أساسياً لها مع اختلاف المفاهيم والمضامين التي شكلت هذا المنهج في أساسه . ولقد احتاجت بعض المجتمعات إلى وضع مناهج للحياة (أيدلوجيات) لأنها لم تجد مناهج في عقائدها ، أما المسلمون فإنهم ليسوا في حاجة إلى بناء مناهج بشرية وعندهم منهج محكم من صنع العلى الخبير ، الخبير بالنفس الإنسانية « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ولقد كان من أثر انطلاقه الإنسان ليضع لنفسه منهجاً أن فسر الحياة تفسيراً مادياً ، وفسر علاقات الإنسان تفسيراً جنسيا ، وفسر علاقات الإنسان تفسيراً حيوانياً وأباح الربا وأطلق الغريزة وفلسف ذلك كله وأرضى به النفوس الصغيرة حين خالف به فطرة البشرية وحكم الله .

(٦)

أن أخطر المحاولات التي تحتاج إلى الانتباه الوافر : هي محاولة وضع الإنسان في موضع تبرير القيم الغربية باسم سماحة الإسلام وانفتاحه وقابليته للجديد ومسايرته لظروف الأمم والحضارات ، ولا ريب أن للاسلام قواعد كلية لا سبيل إلى النزول عنها وخاصة في مسائل الربا والحدود وعلاقة الرجل والمرأة وعلاقة الأسرة بالمجتمع ، كذلك فللاسلام أصول ثابتة في المعاملات . كل ذلك ليس موضع التبرير أو التأويل ، لأنه هو الدعامة الصحيحة للمجتمع الإسلامي ، أما فيما عدا ذلك فإن هناك محاولات الاجتهاد ، هذا فضلا عن سعة الأطر ومرونتها التي تجعلها كفيلة بالصلاحية لكل البيئات والعصور .

والمعروف أن النظرية الغربية أياً كانت في مجال الاقتصاد أو الاجتماع أو النفس أو الأخلاق هي استجابة لتحديات مجتمع بعينه ، له مشاكله وأزماته وقيمه وعقائده ، وقد قامت على مقياس ذلك المجتمع وحجمه ، ومن خلال واقعه ، فكيف تصلح لمجتمع غيره ، فضلا عن أنها قامت في مرحلة أزمة وضعف

وانحلال فى ذلك المجتمع ولم تكن من معطيات عصور القوة والبناء، فعلى المسلمين أن يتنبهوا إلى هذه المحاذير .

(٧)

هناك محاذير خطيرة تتضمنها دعوة التغريب وعلينا أن نكون واعين لأهدافها :

ـــ هناك دعوة إلى نبذ الماضى والتاريخ والتراث ، ووصفه بكلمة « قديم » وهم من خلال هذه العبارة الغامضة يحاولون هدم الإسلام ، وفى نفس الوقت الذى يدعون فيه إلى نبذ القديم المتصل بالإسلام ، يدعون إلى أحياء الماضى الوثنى والجاهلى والسابق للإسلام والذى تلاشى تماماً ، ولم يعد له فى ضوء الإسلام بقاء بعد أن سحق الإسلام فلول بابل والمجوسية والغنوصية والهلينية وتأليه البشر وعبادة الأجساد والبطولة البشرية .

وهناك دعوة إلى مهاجمة الفصاحة العربية والخطابة والشعر العربى وهى محاولة واضحة الهدف لأنها حين تقصد أحياء العاميات أنما تستهدف البيان القرآنى وخلق لغة أقل من مستواه حتى ينفصل المسلمون عنه ويعجزوا عن فهمه .

أن مفهوم البطولة الإسلامية لا يستمد أصوله من نظرية لمبروزو أو فرويد أو أمىل لدوفيج ولكنه يستمد وجوده الحقيقى من أثر العقيدة والتربية الإسلامية فهى التى أعادت بناء الأفراد من جديد بناء مستأنفاً كما حدث لعمر وسعد وخالد والخنساء وتقدير البطولة فى الإسلام يرتبط بالعمل وليس بالفرد وليس فى الإسلام بطولة تسوق صاحبها لحرب من أجل امرأة كما فعل (أخيل) فى الياذة هوميروس .

والبطوله فى الإسلام تقوم على تخليد الأعمال لا تقديس الأبطال ، والأمر ما قال أبو بكر يوم أن اختار الرسول ﷺ الرفيق الأعلى : من كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت .

• أن أى حديث عن الصراع بين العلم والدين فهو عن دين غير ديننا وعن أفق غير أفق فكرنا أو مجرى تاريخنا وعن محيط غير محيطنا وهى تحديات لم يعرفها الإسلام فى تاريخه ولا مجتمعه .

• ليس فى الإسلام ما يقال من أن نشر العلوم والثقافات هو بديل عن التربية والتهذيب الخلقى ، ذلك لأن العلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير كما يصلح للبناء والتعمير ، لا بد لكى يتحقق استعماله استعمالا صحيحا ، من أن يتم ذلك فى إطار الأخلاق وخير الناس وعمارة الأرض وتقوى الله .

• وإذا قيل لنا أن على الفكر العربى المعاصر أو الأدب العربى المعاصر أن يكون مستقلا فلنسأل ، عما إذا يستقل ؟ هل يستقل عن أصوله وجذوره ؟ هل استقل الغربى المعاصر عن جذورة اليونانية والهلينية والمسيحيه الغربية ؟ وإذا كان الفكر الغربى يعلن أنه ل يفهم فهما صحيحا إلا إذا فهمت الأغريقية واللاتينية فهل من عجب أن يستمد الفكر العربى من الإسلام ويستند إلى العربية .

• القول بأن كل دين قابل للتطور وملاءمة العصور لا ينطبق على الإسلام لأن الفكر البشرى هو وحده الذى يتطور ويطوره أهلة ليوافق العصور والأزمان ، أما الدين الإلهى فان الخالق تبارك وتعالى قد أقامة فى أحكام وتقدير وجعلة قادرا على مواجهه أبعاد المجتمعات والعصور ، لقد وضعه الحق تبارك فى أطر واسعة مرنة قابلة للحركة والتجدد وأما القول بالتطور فى مجال الأخلاق والشرائع فانه يجعل من الدين مجموعه من المباديء النسبية التى ليست حقائق مطلقة ، تتطور وتتطور إلى ما لانهاية وهذا ما لا ينطبق على الإسلام .

• لقد فرق الإسلام بين الأخلاق من ناحية وبين التقاليد والعادات من ناحية أخرى ، فالأخلاق هى القيم التى رسمها الدين الحق وهى التى لا تتعرض للتحول أو التغيير (مفاهيم الخير والشر والحق والباطل) الأبدية الثابتة ، أما العادات فهى من إنتاج المجتمع ولذلك يخطيء رجال العلوم الاجتماعية حينما يحكمون على الأخلاق حكمهم على العادات والتقاليد . ومن هنا نلحظ محاوله الاستعمار والغزو الفكرى فى أعلاء شأن العادات والتقاليد الموروثه لترتفع إلى مكان قداسة القيم أو لكى تطغى على القيم الأخلاقية الأصيلة .

• أن ترتيب البعث على الحياة والموت ليس أمرا مستحيلا ولا متناقضا عقليا بل أن شبهة افتراض أن الموت هو نهاية الحياة هي التي تبعث الريبة والشك في النفس فكيف ينتهي العالم دون أن يفصل في أمره أو تكشف حقائقه، أو يجاب عن أسئلته ودون أن يجزى العاملون فيه ثوابا وعقابا، كيف يمكن أن تنتهي الحياة الدنيا دون حياة أخرى تقدم للناس تفسيراً كاملا وجزاء صادقا .وتقضى الأمور في عشرات القضايا التي أثارها أصحاب المنهج البشرى في معارضة المنهج الربانى ولا ريب أن مفهوم المسئولية الفردية مما يترتب عليه الحساب والجزاء فاقرار البعث مطابق للفطرة ولا يشكل تناقضا عقليا وإنما القول بالصدقة هو العجز عن فهم أبعاد الحياة والموت « أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وإنكم إلينا لا ترجعون » .

وليس فهم الحياة بوصفها معبرا إلى الآخرة بمنقص من هـــدف بنائها وتحسينها ولكنه عامل هام في جعلها أكثر أصالة وعمقا لأنه يقوم على أساس الاتجاه إلى الله وتقدير المسئولية الفردية والجزاء الأخروى ولقد دعا الإسلام إلى العمل والتعمير والاقتحام ثم دعا إلى الرضا بقضاء الله في النتائج .

• ليس الوحى إنطباعا في نفس محمد صلى الله عليه وسلم : فهناك فارق عميق وواضح بين نظم القرآن وكلام سيدنا محمد، فلنحذر خطأ القول بأن القرآن فيض من العقل الباطن وليس وحيا الهيا حتى ليقول بعضهم: أليس الأفضل الإشادة بعبقرية محمد والمعيته وصفاء نفسه بنسبة القرآن إليه، كلا ، لاداعى لهذه الإشادة الزائفة فان الله تبارك وتعالى قد أشاد به بما لا تستطيع البشرية كلها أن تقوله حين أعلن أنه عبده وخاتم رسله ، وأنه بشر يوحى اليه ، والحق أن الهدف من هذه المفاهيم الزائفة هو قطع الصله بين المسلمين والقرآن فانه أن كان القرآن كلام محمد فهو من عمل البشر ومن هنا يفقد معناه الإسمى وينتهى أمر الإجماع عليه ، لقد كان محمد أميا لا يقرأ ولا يكتب فمن الذى أطلعه على أن ما في القرآن مصدق لما في التوراة حتى تحدى به اليهود ، لقد كان علمه بشئون قومه لا يزيد على علم غيره فمن أطلعه على قصص الأولين وصدق الله العظيم : « قل نزله الذى يعلم السر في السموات والأرض » .

• خطر القول بأن كل إنسان حر ، بمعنى أن يرفض التجربة أو وجهة النظر الأخرى أو النصيحة أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولقد استشرى هذا الخطر فقال دعاة الهزيمة بأن على الأبناء أن يشقوا طريقهم دون توجيه ويستعلوا على تجربة الأجيال السابقة ، وهذا مغمز خطير يراد به تحطيم الرابطة الأصيلة بين الأجيال ، وإيجاد الصراع بينها ودفع الأجيال الجديدة إلى التمرد على القيم الأساسية للمجتمعات . ذلك أن الدعوة لا تكون إلى متابعة الناس بقدر ماتكون إلى الناس مفاهيم الدين والأخلاق الثابتة ، التى ربما تختلف عنها الأجيال السابقة فأخطأت هى أيضاً ، أن الشباب وهو الذى يحمل الأمانة فى الغد لابد أن يبنى على الأساس وأن يتحرر من أخطاء السابقين وأن يستمد التجربة والمثل الأعلى والأسوة من النموذج الأكبر : محمد صلى الله عليه وسلم قدوة الأجيال والأمم .

• أن المجاهدة بمعنى معارضة الأهواء والمطامع والكظم بمعنى تأجيل الرغبة ، هو قمة الدين وهو لا يقع تحت تأثير الخاطرة الوهمية التى أذاعها فرويد عن الكبت ذلك أن الكبت إنما يستمد معناه من إنكار الرغبات أساساً واحتقارها وعدم الاعتراف بها ، وهذا مالا يدخل مطلقاً فى إطار المجتمعات الإسلامية التى يقوم الإسلام فيها على أساس الاعتراف بالرغبات النفسية والحسية والجنسية إعترافا كاملا دون إنكار لها ، وأن كان يؤخر الممارسه لها إلى أن تتحقق القدرة المادية ، أن خطر الكبت الذى تفرض الفرويدية أنه يؤدى إلى العصاب لا يتحقق إلا نتيجة الإنكار والاحتقار ، أما الاعتراف مع التأجيل فذلك مما تقبله الطبيعة البشرية وترضاه ولقد هللت طويلا دعوات التربية الحديثة بأن توجيه الأطفال وعقابهم يؤدى إلى كذا وكذا من الأمراض ثم أثبتت التجارب التى أجريت بالإحصاء إلى أن ذلك محض وهم وأن النفس الإنسانية قابلة للتوجيه والتحذير والعقوبة دون أن يحدث ذلك عندها ما يسمى بمركبات النقص أو غيره .

ونحن نؤمن بأن صانع النفس الإنسانية هو أقدر على فهمها وهو الحامى لها وأن ما رسمه لها من مناهج وأساليب تحذير وترغيب وترهيب إنما هو دواؤها وأنه متقبل منها وليس بشاق ولا عسير وليس له خطر ولا ضرر على النحو الذى

تهول به الفلسفات . وأن كنا نريد أن نعرف الخلفيات فلنعرف أن الهدف هو تفكيك عروة الشباب منذ الطفولة وبناء أجيال متحللة مدمرة ورفع يد الآباء عن التوجيه وخلق جو من الكراهية حتى يفقد الشباب ثمرة التجربة والعبرة التى خاضها الآباء وذلك عن طريق هدف بروتوكولات صهيون الصريح : وهو تدمير المجتمعات الإنسانية قبل السيطرة عليها .

* أن خطر دعوات الصهيونية العالمية هى دعوتهم إلى « الجنس » دعوة إلى أن يصبح الناس لا يخجلون من أعضائهم التناسلية، ولقد هاجمت اليهودية التلمودية الآداب الدينية المسيحية حين وجدتها عائقا أخلاقياً دون نجاح هذه الدعوة ومن ثم أخرجت المدرسة الغربية من رعاية الدين وفرضت عليها منهج العلمانية حتى يعلم الشباب فى طفولتهم أسس دعوات الجنس والإنحلال ويهدف هذا حين يطرح فى مجتمعنا الإسلامى إلى هدم صلابة الشباب الذى يحمل أمانة الغد وإسقاط الأسرة التى هى الركيزة الأساسية للمجتمع .

(٨)

إن هناك علما جديداً يولد فى أفق الفكر الإسلامى الحديث هو : علم المواجهة وكشف الشبهات وتصحيح المفاهيم وتحرير القيم .

يقول هذا العلم: قولوا لنا أولا من الذى كتب : نحن لا نعرف الحق بالرجال ولكن نعرف الحق فنعرف أهله — قبل أن نقرأ لا بد أن نعرف من الذى نقرأ له، ونضعه على منصة التشريح ، كما نضع عقله على مائدة التحليل. لقد عرف المسلمون قديماً علم الجرح والتعديل فدرسوا الرجال الذين يأخذ عنهم العلم وصنفرهم ، وعلينا أن نطبق هذا العلم على المعاصرين الذين يتصدرون حياتنا الأدبية والفكرية فلا تبهرنا الأسماء اللامعة ولا الأضواء المسلطة ولا تأخذ بألبابنا الأوراق الناعمة والأغلفة البراقة والصور الملونة فإن الزيف يغلف دائماً ويبهر أما الحق فإن أصحابه فقراء ، كذلك فإن فصل العلم عن صاحب العلم نظرية لا يقرها الإسلام : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه الحافظ أبو ليلى عن حماد عن الشعبي عن جابر : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا وأنكم أما أن تصدقوا بباطل وأما أن تكذبوا بحق » .

ونحن نأخذ العلم الطبيعى والتجريبى عن أى مصدر ، ولكننا لانأخذ عن أحد مفاهيم العقائد ونظرة الانسان إلى الوجود ، فالمسلم لايتلقى أصول فكره إلا من القرآن والسنه .

والقاعدة العامة أن هناك أموراً عالمية مشتركة بين الأمم البشرية جميعها وأن هناك أموراً خاصة بكل أمة . الأمور العامة هى العلم والمعرفة والأمور الخاصة هى الأخلاق والقيم التى تشكل ذوق كل أمــة وروحها ومزاجها أما المعارف العالمية فإنها تنقل لأنها ملك للجميع ، أما الأمور الخاصة فهى لا تنقل ولا تقتبس لأنها مرتبطة بكل خصائص الإنسان وجذوره التى بناها فكره وكونتها عقيدته منذ القرون البعيدة .

ولقد نقل الغرب علومنا دون أن يعتنق ديننا أو ثقافتنا واحتفظ بقيمه ومفاهيمه . كذلك فعل العرب والمسلمون عندما نقلوا العلوم وترجموا الفلسفات أن تخلى أية أمة عن قيمها من شأنه أن يهدم شخصيتها ويذيبها فى الكيان الآدمى . أن هناك محاولة واسعة لحمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب والخروج من ذهنية الإسلام وهدف المحاولة هى إزالتهم بإزالة ذاتيتهم .

* أن هناك أربع شخصيات تبرز الآن ليست هى شخصيتنا الإسلامية الأصيلة : اليونانية الأغريقية ، الفرعونيــة الوثنية ، الجاهلية العربيـة ، الغربية الأوربية والأمريكية .

* إن الاسلام يرفض تأليه العلم وتقديس العقل أو عبادة البطولة .

(٩)

أولا : يقوم منهج المعرفة الإسلامى على أساس التحرر من الهوى والعصبية والحقد ويستمد مفاهيمه من الفطرة وجماع القلب والعقل ، وعلى العقل أن يتخذ من الوحى هادياً ومرشداً وألا فإنه يعجز عن الوصول إلى المعرفة الحقة لعالم الغيب وما وراء المادة .

ثانياً : ليس الإســـلام فى شريعته وفكره وبطولاته تصوراً فلسفيا

ولا تصوراً ماديا ولا تصوراً روحياً ولكنه تصور إنسانى الطابع ربانى المصدر ، يقوم على التوحيد والأخلاق والايمان بالله واليوم الآخر . ولذلك فإن الفكر الإسلامى لايوصف بأنه فكر دينى ولاتوصف اللغة العربية بأنها لغة دينية .

ثالثاً : الفكر الإسلامى لايقر الرأى القائل بأن المعرفة الإنسانية تقتصر على معطيات الحواس أو إنتاج الفكر ، إنما هو أوسع أفقاً من ذلك : أنه يضم وحى السماء الصادق المنزل الذى قدم أصول الشريعة ومفهوم عالم الغيب والذى قدم للإنسان طمأنينة النفس وسكينة القلب وحفظها من التمزق والضياع والغربة .

رابعاً : كان الإسلام قادراً دائماً على تجديد نفسه وعلى إعادة صياغة فكره عما انحرف هذا الفكر وأصابته دخائل تحوله عن جوهره .

خامساً : قد تعالج أى قضية بأحد منهجين : المنهج البشرى المستمد من مفاهيم الفلسفات والوثنيات والمادية وتفسيرات النحل . أو المنهج الربانى المستمد من الدين الحق . أما المنهج الإسلامى فهو منهج متكامل : مادة وروحا ، جامع دنيا وآخرة ، أما المنهج البشرى فهو أحد منهجين : مادى خالص أو روحى خالص وكلاهما ممزق للنفس الإنسانية .

سادساً : يفرق الاسلام بين المعارف الجوهرية ، والمعارف غير الجوهرية التى ليست لها قيمة صحيحة ، والتى تستشرى أبان ضعف الامم وتخلفها وتجتاح السوق كالعملة الزائفة .

سابعاً : إن أبرز مفاهيم الإسلام : النظر إلى ما وراء الظواهر : ظواهر الكون والحياة وما وراء نصوص الكلمات ، دون أن يخدعنا بريق الشهرة ، أو العبارة الخداعة .

ثامناً : تقوم دعوة الإسلام على أساس : التنوع فى إطار الثبات والتغير فى إطار الوحدة .

تاسعاً : ينطلق المفهوم العلمى الإسلامى من قاعدتين ثابتتين : هما الوحى والعقل ، بينما ينطلق المفهوم الغربى من الفروض التى تبدأ بالظن وتوضع

موضع التجربة والقاعدة الصحيحة أن العلم الذي يبني على الحقائق أشد ثباتا وقوة من العلم الذي يبني على القرائن .

عاشراً : قرر الإسلام مفهوم الوحدة في ثلاثة أصول عامة :

• قرر وحدة النفس البشرية فلا انفصال بين الدين والحياة أو الدنيا والآخرة أو الروح والجسم أو الواقع والمثال .

• قرر وحدة الجنس البشري فلا فرق بين أبيض وأسود أو عربي وأعجمي إلا بالتقوى .

• قرر وحدة الدين منذ نوح إلى محمد : توحيد الله وثبات الأخلاق والمسئولية الفردية والبعث والجزاء .

حادي عشر : يقرر الإسلام أن الايمان بالله قوة دافعة تعطي الأمل وتحول دون اليأس وتبعث الثقة المتجددة وتحرض على المعاودة في حالة الاخفاق وليس الإيمان مضادا للمعرفة، والإسلام لا يقف عند مفهوم المعرفة القائم على الحس والتجربة بل يضيف إليه علما آخر جاء به الوحي وسجله القرآن وفيه تفصيل عالم الغيب وعالم الآخرة فقد جعل الاسلام الايمان بالغيب شرطا أساسيا من شروط المعرفة الحقة .

ثاني عشر : يدعو الاسلام إلى التفكر والتأمل في خلق الله :

« قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » .

ويقرر القرآن أن عدم التفكير ذنب وأن البلادة الذهنية معصية :

« وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم

ثالث عشر : التقدم في الاسلام ليس تقدما ماديا ولكنه تقدم جامع بين المادة والفكر . ليست العبرة بالتفوق التكنولوجي بل العبرة بإقامة الفكرة وللعقيدة إطارا يتحرك فيه العلم ويتجه إلى البناء والتعمير وإثراء النفس البشرية

رابع عشر : يقيم الاسلام منهجه الاجتماعي والفكري على الحركة في إطار الثبات ، والإسلام دعائم ثابتة لا يجوز تجاوزها : ثبات الاسلام ازاء الأسرة البشرية والعدل الاجتماعي . ثبات الاسلام أزاء الجهاد . ثبات الاسلام ازاء

تحريم الزنا . ثبات الاسلام أزاء الالتزام الأخلاقى والمسئولية الفردية وثبات الأخلاق . ثبات الاسلام أزاء الحدود (الخمر والقتل والميسر والزنا) .

خامس عشر : هناك مغالطات تقول بأنه : لا علاقة بين اللباس والأخلاق وأن الشهوات لانستثار بالتبرج وتلك مفاهيم تلمودية تذيعها دوائر الفكر الوجودى والأباحى وهى لاتتفق مع مفهوم الإسلام الجامع الذى يرى أن زينة المرء جزء من كيانه الأخلاقى والذى يفرق تفرقة واضحة بين رجولة الرجل وأنوثة المرأة ولا يقبل الخلط بينهما .

سادس عشر : لاسبيل إلى تفريغ كيان الانسان من مضمونه الاجتماعى والنفسى والروحى ، أو النظر إليه على انه ذلك الهيكل البشرى خالياً من الروح والوجدان ولا يقر الإسلام أن هناك صراعا بين الجسم والروح ، وأعلن أن الروح والجسم متكاملان وبذلك أسقط مفهوم الرهبانية القائمة على الرياضة العنيفة وتدمير الجسد من أجل تحقيق الصفاء الروحى . آمن الإسلام بالروح والجسد معا ونظر إلى الإنسان نظرة متكاملة وكرمهما معا ودعا إلى الاهتمام بهما . طهارة باطنة ونظافة ظاهرة وزينة طيبة من غير سرف ولا خيلاء .

(١٠)

أن أى منهج وافد سيلقى فى أفق الفكر الإسلامى خيبة وفشلا وأن الماركسية والديمقراطية الغربية والصهيونية قد عجزت جميعها أن تقدم المسلمين وللعرب ما يملأ أفئدتهم باليقين أو قلوبهم بالثقة وقد لقيت مذاهبهم صعابا جمة فى مواجهة الفكر الإسلامى الأصيل الذى استمد مضمونة من منهج محكم ربانى تعجز أى المناهج البشرية أن تقتحمه أو تستوعبه أو تسيطر عليه وأن هذه المناهج حين تطرح نفسها فى أفق الفكر الإسلامى فإنها سرعان ما ينكشف نقصها ويتبين عجزها عن العطاء الذى تتطلع إليه النفس الإسلامية من خلال مفهومها الجامع المحكم الذى أمدها به الإسلام منذ أربعة عشر قرنا والذى مهما نحى عنها وزيف لها فإنه قائم فى أعماقها متجدد على أيدى المصلحين والقادة ومن هنا كانت يقظتها الواضحة اليوم أزاء ابتعاث الأصالة وتطبيق الشريعة الإسلامية .

الباب الأول

مخاطر في وجه الإسلام

أولا : التغريب

أصبح العالم الإسلامى اليوم مخاطاً بثلاث مخاطر جسيمة ، تهدف إلى توهين قوته ، وتفكيك عراه وتمزيق صفوفه ، كما أصبح مجالا خصبا لدعاة الباطل ، والمزيفين والشعوبية وفى مقدمة ذلك (١) خطر الشيوعية الذى أخذ يكتسح البلاد الإسلامية بشكل مروع ، والذى أدى إلى أن يعرض الصين فى سبيل مساعدة باكستان فى حربها مع الهند عام ١٩٦٥ أن تتخلى عن هويتها الإسلامية (٢) خطر التبشير المسيحى الغربى الذى يجرى فى إطار مخططات صهيونية حيث تتكتل المسيحية واليهودية اليوم لتشكل خطراً مزدوجا ضد الإسلام والمسلمين فالبعثات المسيحية لا تترك وسيلة من وسائل الإغراء والمكر والأطماع للمسلمين إلا اصطنعته عن طريق المستشفيات والمدارس والمكتبات والصحف (٣) خطر الرأسمالية والماركسية ، وكلاهما من منبع واحد ، فالاقتصاد معبود اليوم وعجله الذهبى ، والبنوك مساجده وأجهزة الوعظ والإرشاد هى مايسمى بالاشهار ، إن اسم « تروتسكى » يعنى أقصى اليسار واسم « روتشلد » يعنى الرأسمالية المتطرفة ، يمثلان تموجات العقلية اليهودية ، فالتيار الرأسمالى والتيار الشيوعى أبوهما التيار الصهيونى ، والمعروف الآن أن أرقى الناس ماديا أشقاهم معنويا بكثرة الاستثمار وتعاطى المخدرات لإطفاء لهيب الحق المنادى فى قلوب البشر واستعلاء الفسق والفجور ، حيث لم يعبد العجل الذهبى فى عصر من العصور مثل مايعبد اليوم ، فأصبح الاقتصاد أو العجل الذهبى هو آله العصر . والخطط السياسية والاقتصادية من ماركسية وصهيونية ورأسمالية أو التيارات الفلسفية ليست عقائد بالمعنى الصحيح أى هى تصميمات وتدابير مؤقته بعيدة كل البعد عن إرضاء النفس البشرية والاستجابة لداعى الحق فى الميادين الجسمانية والنفسانية والروحية .

وقد استهدف الغزو الثقافى أمرين أساسيين :

(الأول) تشكيك المسلمين والعرب فى تراثهم وخاصة فى « الدين » الذى اكتشف رجال الاستعمار أنه أكبر عقبة فى سبيل ضمان سيطرتهم على البلاد ، وزعزعة أسس الذاتية الخاصة وفى هذا السبيل قام الغرب بحملة كبيرة لغسل الدماغ الإسلامى وكسب المريدين والاتباع من أهل البلاد واستخدامهم أبواقاً لحملاته .

(الثانى) إيهام العرب والمسلمين أن الحضارة الغربية هى « حضارة عالمية » وأنها ثمرة تجارب الإنسانية ، وعليه فلا مناص لمن أراد التقدم أن يتبنى مفاهيمها ويقتبس نظمها ومؤسساتها وأن يربط مصيره بمصيرها .

ومن هنا كان عمل التغريب ، فالتغريب هو حمل المسلمين العرب على قبول ذهنية الاستسلام والاحتواء والتحرك من داخل دائرة الفكر الوافد وليس (عقليه الغرب) وذلك بإخراج المسلمين من دائرة قيمهم بما يخلق شعوراً بالنقص فى نفوس المسلمين ، وذلك بتحريف القيم الإسلامية والتاريخ وتشويه مبادىء الإسلام ، وانقاص الدور الذى قام به فى تاريخ البشرية ويعنى [التغريب] خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربى ومقاييسه ثم يحاكم الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى من خلالها بهدف سيادة الحضارة الغربية وتسييدها على كل حضارات الأمم ، ولاسيما الحضارة الإسلامية وهدفهم خلق أجيال جديدة من المسلمين تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية والشرقية وإبعاد العناصر التى تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه . وتدمير الشخصيات العربيـة الإسلامية والتشكيك فى عظمتها وفى مقدمتها الرسول الكريم ، وصحابته ، وإبطال الإسلام وتفكيره وأخطر محاولات التغريب وضع البديل فى مواجهة الأصيل والعمل على تقديم بدائل زائفة ذات مظهر لامع ، تحوطها هالة من الضجيج لكل فكرة أصيلة فى محاولة لخنقها ولتحويل الرأى عنها فى ظل طوابع من الاغراء والتزييف وتحت اسم البحث العلمى والعبارات البراقة الخادعة .

وقد بدأت حملة تغيير أصول الإسلام بالدعويين التى حمل لواءها غلام أحمد القاديانى متابعا لفكر أحمد خان ، والباب ، والبهاء ، وهى محاولة لتغيير مفاهيم الإسلام بالقضاء على فريضة الجهاد الماضية إلى يوم القيامة وتوهين الكفاح ضد النفوذ الأجنبى ، وتقريب الإسلام من المسيحية وتمسيح الإسلام بإعطائه طابع التجزئة (تولستوى وغاندى) وقد ساعد على هذا النهج كل دعاة للتغريب . .

وقد كانت محاولات على عبد الرازق ، وطه حسين ، ومحمود عزمى ، ترمى إلى تغيير مفاهيم الإسلام من ناحية فاعليته فى المجتمع . وقد حملت صيحة التجديد والتقدم والتحديث ممالأة الشعوبية والاستشراق والتبشير فى تغريب الإسلام وتمسيحه بينما حملت دعاوى الإصلاح والسلطة واليقظة معادلة هذا التغريب والاحتفاظ بمفهومه الأصيل القائم على القرآن والسنة وإلى الاحتفاظ بالذاتية المسلمة من الانصهار فى غيرها .

(٢) وهناك فى هذا الإطار محاولة أحتواء أبناء العرب والمسلمين الذاهبين إلى الغرب فى البعثات الخارجية ، وقد حدث هـــذا فى إطار مايسمى خبراء الغرب القادمين إلى الشرق ، والذين يحملون أجهزة الرصد والمراقبة الدقيقة فنحن نستقدمهم إلى بلادنا فيعرفون جوانب ضعفنا فإذا ذهب أبنائنا فشكلوهم على النحو الذى يجعلهم أعداء لأوطانهم محتقرين لتراثهم وأخطر مافى ذلك كله أن يدرس طلاب العرب فى بلاد الغرب النحو واللغة والدراسات القرآنية والشرعية . حتى قال بعض المستشرقين إن العرب فى حاجة إلينا لتعليمهم لغتهم ، وهكذا أصبحنا عراة مكشوفين أمام الأعداء ، يعرفون منا مانجهل ، وبذلك يستطيعون أن يتحكموا فى مسارنا وهكذا أصبحوا قادرين على أحداث فعل معين فينا من أجل وجود رد فعل محدد منا ، لفت نظرنا إلى هذا المعنى مسلمة غربية هى (مريم جميلة) التى تقول : يختار الغرب أكثرهم شغفاً وافتتانا بالمجتمع الغربى وأكثرهم كراهية لمجتمعه الأصيل فيصطاد مثل هؤلاء الطلبة فيدمجون إليها سريعا ويختارون ثقافة العدو ويطبقونها فى حياتهم الشخصية ، ويهتم العدو

بتربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم فيهيء لهم كتبا وجرائد ومناهج الدراسة فى الـكليات والجامعات بما يزيدهم كراهـــية واشمئزازا من ثقافتهم الأصيلة ، وتكون سائر المواد الدراسية محرمة وموجهة إلى إحداث تطور فى الطلبة فكرا وتطورا معاكسا لمجتمعهم السابق ووطنهم لـكى ينظروا إليه برؤية العدو ويقبلوا مقاييسه للخير والشر ، وتخلق مناهج الدراسة فيهم مركب النقص والشعور بالتفوق فيما يتصل بالغرب والهدف هو إخراج رجال تتغير أذهانهم وتنقطع صلتهم عن تراثهم وحضارتهم وبلادهم كليا وبالتالى يصبحون عملاء العدو .

(٢)

ثانيا : التبشير

بعد فشل الحملات الصليبية على بلاد المشرق الإسلامى ، فكر الصليبيون فى الغزو التبشيرى عن طريق العلم والطب . واتخذوا من بيروت مركزا لهم فاوقدوا نيران الطائفية بين الدروز والنصارى فى لبنان عام ١٨٦٠ ليكون مفتاحا للتدخل الأجنبى ، وأصبحت لبنان مركزا للدول الأجنبية ينفذون منه إلى قلب العالم الإسلامى وكانت مؤسسات التبشير سهاما مسمومة إلى الكيان الإسلامى .

يقول فيلب حتى فى كتابه : الإسلام والغرب : بعدما فشلت الجهود الصليبية للسيطرة على الإسلام والقضاء عليه فى الحروب للصليبية قامت نزعة جديدة فى الدوائر المسيحية وهى أن تنال الهدف عن طريق التبليغ ، ونشر التعاليم المسيحية وجاء الغزو العقدى مكان الغزو الحربى وهناك ظهرت الحركة التبشيرية إلى الوجود ويقول (زويمر) شيخ المبشرين : إن مهمة التبشير التى ندبتكم الدول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية ، فإن هذا هداية لهم وتكريما ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله ، وبالتالى لا صلة له بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها . .

وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طلائع الفتح الاستعمارى فى الممالك الإسلامية وهذا ماقمتم به خير قيام :

وقد مرت حركة التبشير بثلاث مراحل :

(١) القيام بالخدمات الإنسانية كالتطبيب والعناية بالأطفال المرضى ، حيث يلجأ المبشر المسيحى إلى الجانب الاسلامى لمخاطبة المسلمين ، لأنه يعلم أنه لا يستطيع مخاطبة العقل السليم .

(٢) إنشاء المدارس التى تفتح أبوابها لتعليم أبناء المسلمين وغرس التعاليم النصرانية فى نفوسهم .

(٣) استغلال أحوال المسلمين أنفسهم التى تخدم غرضه فى أحيان كثيرة .

ولقـــد واجه التبشير أكبر عقبة حالت دون تحقيق غايته ، وهى تصور المسلم للنصرانية المعاصرة على أنها صورة محرفة من الوثنية الاغريقية التى لا يمكن بها إقناع العقل الإسلامى الذى لديه أرقى تصور للحقيقة على هذه الأرض ، لهذا فهم يعمدون إلى طريق غير طريق المنطق والجدل والتفكير ، ويتخذون من المصالح والمنافع وتقديم الخدمات سبيلا إلى إغراء فرائسهم وأخطر مافى التبشير : معاهده وإرسالياته التى تقوم الدراسات فيها للمسلمين على أساس من العلمانية والنظر إلى الأديان جميعاً نظرة واحدة وإلى الثقافات والأمم جميعها نظرة واحدة ، والقضاء على روح الدين والوطنية ومقومات الأمة وفكرها واحتقار الثقافة الوطنية وتراثها ويتسع عمل الإرساليات التبشيرية فى مطلع القرن الخامس عشر الهجرى فى أندونيسيا وشرق الهند وفى بلدان إفريقيا وفى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وقد غير التبشير مخططه فى قطاعين :

أولا : (قطاع الطول) : اختفى الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت إلى القاع وحل محله عمل مشترك يواجه الإسلام .

ثانياً : (قطاع العرض) فقد أصبح التبشير مختفيا إلى القاع وارتفع إلى السطح (التغريب) باسم العصرية والحضارة والتقدمية .

ثالثاً : وهو الأهم : حلت محل كتب المبشرين المتعصبين دراسات المستشرقين التى أعطيت طابع العلم فى مظهرها ، واختفت تلك الكلمات البغيضة وبدأت بالتقدير والثناء للإسلام والرسول بدلا من الهجوم عليه ثم انطوت على الدس الخفى وتقديم السموم القليلة المثمرة .

قال صمويل زويمر : إن الذين دخلوا من المسلمين فى حظيرة المسيحية إما صغير لم يمكن له من أهله من يعرفه ما هو الإسلام ، وإما رجل مستخف بالأديان لا يبغى غير الحصول على قوته ، وقد اشتد به الفقر ، وعزت عليه لقمة العيش وإما رجل آخر يهدف إلى غاية من الغايات الشخصية .

(٢)

ولقد اتسمت ظاهرة التبشير فى العقود الأخيرة فى القرن الرابع عشر الهجرى فى محاولة الضغط الشديد الذى تقوم به القوى الثلاث إزاء يقظة العالم الإسلامى وصحوته فأصبحت دعوة صريحة إلى التنصير :

وصيحة التنصير التى تتعالى اليوم فى مطالع القرن الخامس عشر وتنكشف بوضوح فى مناطق كثيرة تطلق على نفسها اسم :

« أنجلة العالم الإسلامى » أى إغراقه فى سيل من الأناجيل بشتى اللغات فقد ترجم الإنجيل إلى ثلاثين ومائة لغة ، وطبعت مؤسسة فورد حوالى عشرة ملايين نسخة ، فضلا عن الطبعات الصينية واليابانية والروسية .

وقد تبين مع الأسف أن بعض أثرياء العرب يدعمون مجالات التبشير المسيحى بأموالهم من خلال الإعلانات التى تذيعها الإذاعات المشبوهة (أمثال إذاعة مونت كارلو) التى هى فى حقيقتها مركز للتبشير المسيحى بكل ماتعنيه الكلمة من معنى ، ومن أجهزتها تنطلق صوت الإرساليات المسيحية غازية آفاق العالم الإسلامى بأساليب تغرى الشباب وتجذبه للاستماع ، هذا فضلا عما توفره الارساليات التبشيرية من وجوه النشاط بواسطة أموال المسلمين المودعة فى بنوك الغرب ، فضلا عما يقدم أمثال فورد أو روكفلر وغيرهم من الشخصيات المسيحية من جهود خارقة ، من خلال المؤسسات التى تم إنشاؤها فى سبيل نشر التنصير عن طريق مايقدمه من خدمات صحية واجتماعية واقتصادية ، وقد تبين بوضوح اليوم أن الارساليات التنصيرية تنشط فى أعقاب المحن الإسلامية وأنها تركز فى

المناطق المضطربة والتى يلاقى أهلها المسلمون اضطهاداً وضيقاً فى الرزق أمثال بنجلاديش ، وتايلاند ، والصومال ، والكاميرون ، وكينيا ، ويقدر عدد المسلمين من ضحايا الحروب بسبعة ملايين نسمة ويبدو فى هذا الصدد تعاون مركب : تعاون بين الصهيونية والشيوعية والرأسمالية الغربية من جهة ، وتعاون بين أجهزة الاستشراق والتبشير ومنظمة الفاتيكان ومجلس الكنائس العالمية ، ومنظمة الإسلام والغرب ، وأداة ذلك مؤلفات ونشرات يحاول من خلالها كاتبها إثبات مواكبة التعاليم النصرانية للعصر الحديث ، والنيل من الإسلام والهجوم على قيمه وتحريف الآيات القرآنية لخدمة مفاهيم مسيحية ، وقد قام المستشرقون والمتعصبون بدور كبير فى تشويه تعاليم الإسلام وتحريفها ، والتقليل من قيمة الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها على البشرية وتقدمها والنيل من القرآن الكريم والحديث النبوى فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم ، وقادة الدعوة الإسلامية من الصحابة والتابعين ، وتتسع دائرة هذا العمل وتمتد من فرنسا إلى إيطاليا ،إلى لبنان ؛ إلى استراليا إلى الهند إلى أندونيسيا .

ويقول تقرير رابطة العالم الإسلامى إن خطة الحوار الإسلامى المسيحى تعتبر من الخطط التنصيرية لنشر العقيدة المسيحية وتيسير سبلها ، حيث تتجمع البروتستانتية والكاثوليكية وتوحدان جهودهما لتنفيذ خططهما المشتركة تحت شعار الحوار مع غير المسيحيين ، وأنه بدراسة نتائج المؤتمرات والندوات المشتركة منذ عام ١٩٧٠ حتى الآن يتبين أن الجانب المسيحى هو الرابح والمستفيد الوحيد من ندوات الحوار التى عقدت فى كل من الرياض والفاتيكان ، وجنيف وإن حركات التنصير هى التى اختارت من يمثلون الإسلام فى الندوات المشتركة ، وهيأت فى سبيل إعداد ذلك عدداً من الخبراء المتخصصين فى مجال الحوار مع المسلمين وتزويدهم بمختلف أصناف الحيل والخداع لزعزعة عقيدة المشتركين فيها من المسلمين ، كذلك فإن هناك محاولة ماكرة خبيثة ترمى إلى استصدار وثيقة وإعلان دولى عن الحرية الدينية تحت ستار حماية النصارى وغيرهم من اتباع الديانات السماوية

القابعين تحت الاحتلال الشيوعى ، ومكمن الخطورة فى هذا المشروع هو فى مفهوم حرية « تبديل الأديان » أو حرية الارتداد عن الإسلام وحرية نكاح المرأة المسلمة من غير مسلم وستكون هـذه الوثيقة لدى إقرارها لاسمح الله سلاحا بأيدى القائمين على حركات التنصير لتحقيق أهدافها الصليبية فى أوساط المسلمين فى غفلة من انتباه ممثلى الدول الإسلامية .

كذلك فإن مخطط التنصير العالمى يرمى فى مجال التعليم والثقافة إلى إنشاء رياضة الأطفال ، والمدارس العامة والفنية المتخصصة ، وإنشاء الجامعات

والكليات وإنشاء كوادر مؤهلة علميا لتولى أهم المناصب وأخطرها فى البلاد امتدادا للامتيازات التى حظيت بها من قبل الاستعمار وقد نجحت العناصر غير الإسلامية والعلمانية فى استغلال مناصبها فى أجهزة الدول الرسمية لغرض دس مفاهيم غير إسلامية ووجهات نظر معادية للإسلام فى المواد الأخرى أو إلغاء مادة الدين الإسلامى حتى فى المدارس والجامعات الرسمية فى البلاد الإسلامية .

كذلك يجرى استخدام الفتيات الأجنبيات لإغراء الشباب المسلم وتوزيع نشرات تدعو إلى الجنس الجماعى تروجها فى لندن جماعه الأب ديفيد الذى يسمى نفسه رسول الحب الجديد .

هـذا فضلا عن السيطرة على وسائل الأعلام العالمية ، حيث يجرى التعتيم العالمى فى قضايا المسلمين وتشويهها وإبراز أنها تمثل ، خطراً داهما على البشرية علاوة على الهجوم المباشر على ديار الإسلام بإدخال فلسفات وأفكار هدامة ودعوات إلى الاباحية والانحلال خلقيا وعقائديا ولهذه المؤسسات مجلات ونشرات دورية فى معظم لغات العالم وخاصة المجلات الخاصة بالنساء والأطفال والمجلات الترفيهية وغيرها فضلا عن الإذاعات المبثوثة فى غرب إفريقيا وجنوب شرق آسيا .

ثالثا: الاستشراق

إن هدف الاستشراق الحقيقى هو تعريف الغرب بنقاط القوة فى العالم الإسلامى لهدمها ، ونقاط الضعف للتوسع فيها والغاية هى توهين العلاقات بين المسلمين والسعى لكسر شوكتهم ويرمى الاستشراق وصولا إلى التغريب المبالغة فى تصوير الأثر العربى أو الأوربى فى الفكر الإسلامى وجعله أساساً هاماً على الرغم من أنه غير ذلك ، وخاصة الترجمة اليونانية ومحاولة الوصول إلى تصور كاذب لأثر الفكر اليونانى فى الفكر الإسلامى عن طريق الفلسفات والاعتزال والنصوص وغيرها وإنكار ذاتية الفكر الإسلامى وأصالته .

وقد حاول الاستشراق خلق مذاهب داخل دائرة الإسلام توصف بالتجديد كالأحمدية والقاديانية ، تستهدف « تأويل » فريضة الجهاد وتزييف طبيعتها القائمة إلى يوم القيامة ، والقول بأنها فكرة قومية إلى أن يستقر الإسلام ، والدعوة إلى سلوك الطرق السليمه فى التعامل مع المحتلين وعدم مقاومة الأجنبى ، وقد تبع ميرزا غلام أحمد ، أكثر من نصف مليون فى الهند فضلا عن إتباعه فى إفريقيا والهدف هو إخضاع المسلمين عن طريق الاعتقاد والقضاء على أقوى دعامة على مدى تاريخ المسلمين للدفاع والمواجهة والمقاومة فى وجه الغزاة .

يحاول الاستشراق وضع مفهوم للإسلام عن طريق جامعات السربون وهارفارد ، وبريستون يعتنقة أبنائنا الذين يسافرون إلى هناك ويأخذون الدكتوراه ، وقد ساهم الدكتور طه حسين فى تنمية هذا المنهج ، وفى مقدمة كراسى فى هذه الجامعات لتدريس اللغة العربيـة والإسلام للعرب والمسلمين القادمين من الشرق ومن ذلك المؤتمرات التى تعقد سواء فى الغرب أو فى الشرق ، ومن ذلك مؤتمر باكو الذى عقدته روسيا والذىأعد له واختار موضوعاته أقطاب اليهود وعلى رأسهم (راديك اليهودى الصهيونى) وقد

كتبت المجلة العسكرية التى تصدر فى موسكو تعليقا على المؤتمر واصفة البيان الذى أصدره بأنه قرآن جديد للمسلمين (راجع كتاب موسكو وإسرائيل : للدكتور عمر حليق) .

* * *

من أكاذيب الاستشراق مايروية القس فون كريمر فى كتابة تاريخ الثقافة فى الشرق من أن اثنين من الفقهاء المسلمين الأوائل : الأوزاعى والشافعى قد ولدا فى سوريا ولا ريب أنهما كانا على علم بكثير من قواعد القانون الرومانى البيزنطى التى استمرت فى صورة عادات قانونية وقد أثبت (فيتز جرالد) أن هذا القول مجرد أسطورة وتاريخيا أن مدرسة بيروت لم تكن موجودة عند الفتح الإسلامى للشام وأن الشافعى والاوزاعى لم يعرفا القانون البيزنطى .

* * *

شهد الباحثون الذين اتصلوا بالدوائر الغربية بأن المفكر الغربى عن طريق الاستشراق أو خارجه قد عجز على إصدار أحكام سليمة أو علمية أو بعيدة عن الأهواء على الإسلام وتاريخه وعقيدته ، يقول فيليب حتى : لقد أقبل الاوربى كقاعدة على دراسة الإسلام إما لتنصير المسلمين أو لخدمة المصالح الاستعمارية وكان لتعصب الغربيين القومى وحماستهم الدينية وجهلهم المطبق أثره الفعال أيضاً وكان استمرار تداول الأساطير الغربية عن النبى وعداء النصارى لديانة توسعية منافسة وخلفية الحروب الصليبية من ذكريات مريرة إلى جانب ما يعنيه من قوة الإمبراطورية العثمانية من مخاوف مانعا حال دون قيام دراسة موضوعية متحررة للإسلام .

ولقد مرت كتب الاستشراق فى السنوات الأخيرة بمرحلة جديدة من حيث الأساليب لا من حيث الخطة ، وهو اتخاذ طابع العلم ، واختفاء كلمات التعصب العنيفة والتحول إلى عبارات التقدير والثناء على الإسلام

والرسول بدلا من الهجوم ، ولكن ذلك لم يكن إلا غلافا براقاً يطوى نحو الدس الخفى وتقديم السموم المتفرقة على فترات متباعدة خلال صفحات البحث ، وبذلك تميزت كتب الاستشراق عن كتب التبشير فى أنها تحاول كسب القارىء العربى والمسلم عن طريق الخداع ، ذلك أن من أبرز أهداف الاستشراق دراسة الفكر الإسلامى بروح مسبقة قائمة على أحكام قوامها سوء النية والتعصب . وقد قيل بحق « الاستشراق هو استخدام العلم فى خدمة السياسة » .

(٢)

يقول هشام بوقمره : إن أخطر أنواع الاستشراق : « الاستشراق الجامعى » الذى تسلط على أبناء العرب المسلمين الذين يدرسون فى الغرب ، ويتصلون بالمؤسسات وخاصة من يتصلون بالمدارس التى أنشئت فى أوربا لدراسة اللغات والثقافات الشرقية وهم يدرسون مواد محددة واضحة الدلالة :

(أولا) نظرية أرنست رينان عن العروق والأجناس مفرقة بين جنسين أحدهما آرى والثانى سامى ، الأول صانع الحضارة ، والثانى لم يقدم شيئاً فى زعمهم ويوضع فى صفه المسلمون العرب .

(ثانياً) : ما حاول أن يصورة هاملتون جيب ، من تناقض بين نوعين فى الأدب العربى هم الطاقة التحليلية والسطحية والتقعر .

(ثالثاً) ما أضافه الاستشراق اليهودى من دعاوى بأن طبيعة العرب طبيعة عدوانية فهى تعتقد الثأر من الفضائل وتحمل فكرة الاستشراق اليهودى المرتكزات التى روجتها يهود حول العرب والإسلام حيث يصدر الاستشراق الغربى من الاستعمار ويصدر الاستشراق الصهيونى من إفساد علاقة العرب والمسلمين بفلسطين .

(رابعاً) : الهجوم على اللغة العربية ، ومحاولة استنتاج مقولات كاذبة عن الفكر الإسلامى جعلوا مصدرها طبيعة اللغة العربية ، ومن ذلك

القول بأن العرب عاجزون عن التقدم من خلال لغتهم ، ولذلك فإن عليهم أن يتركوها إلى العامية التي هي مصدر التقدم ، وقد روجت دعوات الاستشراق للهجات العامية وإحلال اللغتين الفرنسية ، والانجليزية محل العربيـة .

وفي مصر حمل لواء هذه الدعوة القس « ويلكوكس » وفي مؤتمر قرطاج ١٩٠٧ بتونس صدر بيان « موت اللغة العربية » الذي يعلن أن الشعوب المغربية لا يمكن لها أن تحقق التقدم إلا من خلال تخليها عن اللغة العربية واعتناقها اللغة الفرنسية كوسيلة للعلم والثقافة والحضارة ، بينما يمكن للغة العربية في أفضل الحالات أن تبقى لغة العبادات والفلكلور وقد دحض دعواهم الشيخ « الخضر حسين » .

ومن ذلك دعواهم بأن اللغة العربية يختلط فيها الماضي بالمستقبل ولا توجد فيها صيغة للحاضر وهكذا انعكس البناء الذهني السامي الذي يؤكد على فكره الخلود . وقد اطلقت دوائر الاستشراق ما اسمته (الحضارة اللفظية العربية) ومن ذلك دعواهم بأن الفكر العربي فكر بياني وليس برهانياً والعربي يستهويه اللفظة أكثر مما تستهويه المعنى وهو يهتز للايقاع البياني أكثر مما يتأثر بالمحتوى الدلالي .

ولذلك لا يستطيع العربي بشكل عام الاقتصاد في العبارة ، وهذا يؤدي إلى القول بالعجز الفطري (ونقول أن كل هذا الدعاوي المثارة ضد اللغة العربية باطلة ويراد بها التأثير في الفصحى لغة القرآن وعزلها عن الحياة العامة وإلا فإن لكل أمة لغتها وإن ما تقدمه علوم اللغات في الغرب يختلف مع اللغة العربية من عدة وجوه وإن هذه الدعاوي المصاغة بصوره علمية ماهي إلا أحقاد وأهواء) .

خامساً : يعتبر الإستشراق الإسلام تهديداً مباشراً لاوربا في جميع الواجهات لذلك كان موقفه خلال القرون الثلاثة الماضية موقفاً عدائياً ولذلك

فهو يحاول إبراز عدم جدوى الحركات الاصلاحية الإسلامية أو يرى الإسلام مجرد تشويه لليهودية والمسيحية فالمستشرق ما سنيون لا يستهويه من الإسلام غير شخصية الحلاج لأنه يسمح له بإبراز فكره التجسد والتجسيم فى الإسلام وإعادته بذلك إلى المسيحية الكاثوليكية .

سادساً : ومن الموضوعات التى طرحها الاستشراق : هل الحضارة عربية إسلامية أم اسلامية أم عربية ، فالذين يقولون بالحضارة الإسلامية وهم الكثرة يريدون نزع أى فضيلة منها فى العنصر العربى الذى تصبح مساهمته قاصرة على تقديم الوسيلة اللغوية أى التى كتبت بها الحضارة . أما الذين يقولون بالحضارة العربية الإسلامية فهم يريدون أن يبرروا توسع الاستعمار إلى كافة المجموعة الآسيوية التى يصبح تخلفها ليس نتيجة وضع عرقى لأن فى هذه المجموعة من ليسوا الساميين إنما نتيجة وضع معرفى ناجم عن تخلف الإسلام ذاته ، أما الذين يقولون بالحضارة العربية فهم يسعون أساساً إلى إبراز التراث العربى على انه استعمار مسلط من جنس العرب على غيرهم ماضياً وبذلك يرمون إلى قطع الطرق على أى تضامن بين الشعب العربى والشعوب الإسلامية الأخرى فى أفريقيا وآسيا حاضراً .

سابعاً : يقوم على المؤسسات التبشيرية التى توزعت فى البلاد العربية من عهد محمد على رجال تمرسوا بالإسلام وعرفوا جوانبه وحذقوا الطعن فيه ، وقد اختصرت مهمتهم على تثبت ولاء الإقليات المسيحية للغرب والدس على الإسلام لإثارة الحيرة والتساؤل بين المسلمين .

ثامناً : لعبت الإرساليات العربية التى تسافر للتثقيف فى الغرب دوراً كبيراً من خلال نقل المفاهيم الغربية حول القومية والحضارة والعلم إلى أقطارها ، إلا أنها كانت تمتاز بشكل عام بحسها الوطنى وشعورها بالغيرة بالرغم من مرقب الانبهار السائد لديها ، ثم برزت المؤسسات الجامعة فى العواصم العربية والمعاهد التعليمية داخل الوطن العربى .

(٣)

لا يمكن فصل الاستشراق عن التغريب [المؤسسة الأم] ولا يمكن فصل التغريب عن النفوذ الأجنبي الذى يحكم كل هـــذه المخططات : فإن الهدف واضح ويتمثل فى ثلاث عناصر :

السيطرة الإقتصادية : سيطرة رأس المال الأجنبي والربا .

السيطرة الفكرية : عن طريق التغريب وتحويل المفاهيم والقيم .

السيطرة الاجتماعية : من خلال تدمير مقومات المجتمع المسلم عن طريق وسائل الإعلام والسينما والمسرح والغناء والمسلسلات) .

وهناك تيارات صهيونية وشيوعية ورأسمالية من وراء المخططات :

والحقيقة الواضحة أن كل المخططات (تبشيراً واستشراقاً وغزوا ثقافياً وتغريبا فى جميع الجهات — غربية وشيوعية وصهيونية) تتضافر فى سبيل تحقيق غاية واحدة ، وإن اختلفت الخطط والوسائل ، وأن أية دراسة دقيقة تكشف كيف تتقارب الوجودية ، والماركسية ، والفرويدية عن طريق معابر جديدة لتتلاق على خطة ضرب الفكر الإسلامى فى إصالته ووحدانيته ليضل المسلمون ويدورون فى فلك ذلك الفكر البشرى الذى صاغته أهواء الطامعين والطامعين وعباد الذهب والمادة ودعاة الجنس والإباحة وليعجز المسلمون عن تبليغ رسالة الله تبارك وتعالى التى أنزلها رحمة للعالمين ، عن أن يعيدوا الإسلام إلى إصالته الإسلامية التى تعصم النفس والعقل لأنها حضانة نفسية وفكرية قادرة على الثبات أمام الأعاصير .

« إن المستشرقين نفر من الناس جندهم الاستعمار فى ميدان العلم أداة لطمس الإسلام وتشويه حقائقه واصطناع الفتوق فيه ، وأسلوبهم الأثير أن يلبسوا الحق بالباطل وأن يمزجوا بشتى الحيل بين بعض المعارف الصحيحة والأكاذيب المفتراه فى سياق يبدو لقليل الدراية أنه محـــايد لا ريب فيه » .

ولقد كانت فكرة الحروب الصليبية بتخليص بيت المقدس من المسلمين فى حقيقتها سبيلا للسيطرة على الشرق الاسلامى بما فيه من خبرات إقتصادية

ومراكز حربية ، ولقد خابت دول أوربا فى الحروب الصليبية عن طريق السيف فأرادت أن تثير على المسلمين حربا صليبية جديدة عن طريق التبشير فاستخدمت لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات .

وهكذا تبنت الدول الغربية حركة التبشير لمآربها السياسية ومطامعها الاقتصادية فالباعث الحقيقى للتبشير إنما هو القضاء على الأديان غير النصرانية وكذلك هو الباعث على الاستشراق .

الخطة : هى إثارة الشبهات .

الهدف : هو تذويب الشخصية الاسلامية .

وللمستشرقين دوافع دينية ، لأن الاستشراق بدأ بالرهبان وانبعث من الكنيسة وفى الدول الاستعمارية يسير معها ، (بلاشير وماسنيون يعملان فى وزارة الخارجية الفرنسية) ومؤلفات المستشرقين أول ما يوضع بين يدى طلاب الدكتوراه من العرب المسلمين ، وإن كل رسالة عن عدالة الاسلام وتسامحه وانصافه وكشف دسائسه تمنع .

وقد أسقط اندرسون (رئيس قسم الأحوال الشخصية) أحمد خريجى الأزهر فى مناقشة الدكتوراه لأن الطالب المسلم برهن على أن الاسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة ، وكل الذين يمررونهم هم الذين ينقلون بضاعة التغريب .

وأهم مايهدفون إليه :

(١) التشكيك فى صحة رسالة سيدنا محمد .

(٢) التشكيك فى أن القرآن وحى من الله .

(٣) التشكيك فى الحديث النبوى .

(٤) التشكيك فى الفقه والتشريع .

(٥) التشكيك فى قدرة لغة القرآن على مسايره التطور .

(٦) التشكك فى التراث الإسلامى .

(٥)

وإذا استعرضنا كتابات المستشرقين نجد : الغرض والمغالطة والتعصب والتمحل واضحاً فى كل المؤلفات وخاصة كتب التاريخ الإسلامى والعربى وفى مقدمة ذلك ما كتبه (فيليب حتى) من الزعم بأن العثمانيين ليسوا من المسلمين وأن القرآن الكريم من عند محمد وهذه الكتب تدرس فى الجامعات الأمريكية واليسوعية تحت إشراف عمـــلاء الاستشراق والتبشير وتظهر فى مجلاتهم ومؤلفاتهم ، وذلك هدف من أكبر أهدافهم : تمزيق وحده المسلمين وبث الخلاف بينهم ومعرفة أحوال بلادهم وميولهم لضربهم من مقاتلهم .

وفى كتابات (بندلى جوزى) عن الحركات الفكرية فى الإسلام : حقد دفين وشيوعية ماكرة : تهدف إلى التشكيك فى العقيدة وإذابة الشخصية وتشويه التاريخ والتراث وكتابات (صادق العظم) ترديد لمزاعم أعداء الإسلام حول الملائكة والجن والادعاء بأنها كائنات أسطورية وإن الإسلام نقيض العلم ، وإن قصة خلق آدم وحواء فى القرآن أسطورة وفى مجال الترجمة من كتابات المستشرقين إلى اللغة العربية الأصرار على ترجمة ما يثير الشبهات : التشكيك فى مصادر العربية الأولى ، الادعاء ببشرية القرآن ، الشك قيمة الحديث العلمية وإنكار مكانة السنة فى الإسلام ، الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل والقضاء على قوامة الرجل ، الادعاء بأن الفقه الإسلامى مقتبس من القانون الرومانى ، الدعوة إلى أحياء الحضارات السابقة على الاسلام ، وتمجيد العصر الفرعونى والتغنى بحضارته ، الدعوة إلى العامية والتأليف فيها ، واقتباس الحروف اللاتينية ، كتابة التراث بصورة محرفة ، وتفسير التاريخ الاسلامى تفسرا مادياً وماركسيا ، ومن نماذج كتابات السيرة كتاب (حياة الرسول) لمؤلفه (ر . ف . بودلى) ترجمة السحار ومحمد فرج يرمى إلى التشكيك فى أن القرآن من عند الله ، وأن معظم ما عرفه الرسول كان من التوراة والإنجيل فى محاوراته مع ورقة بن نوفل والزعم بأن الراهب بحيرا أثر فيه فى طفولته وأن العقائد والأديان تتشابك فى سوق عكاظ وهذا كله زيف وخطأ ودعاوى باطلة ويذهب بودلى أن هناك رحلات للرسول إلى

الشام ، مع أنه لا توجد إلا رحلة واحدة وهو ابن لعاشره ورحلته وهو بعد العشرين ولكنها محاولات التشكيك وإثارة الشبهات .

وفى مجال التفسير : هناك محاولات جولد زيهر المتهافته فى كتابه (مذاهب التفسير الإسلامى) وتعسفه فى إثبات المذهبية للمجددين ، وقد رد على هذا الأستاذ محمد إبراهيم الشريف فى رسالة عن اتجاهات التمدن فى تفسير القرآن فقال بأن المستشرق يرون أن مفهوم التجديد التفسيرى عندهم هو التعصير والتطوير بأبعاده عن أصله أو بهدمه من أساسه وعليه فلم تستحق عندهم لقب التجديد إلا محاولات الهدم والانحراف عن الحق ، أما ماسوى هذا من أصيل التجديد المرتبط بالكتاب والسنة فهو فى نظرهم رجعية وسبب لتخلف المسلمين لارتباطه بالماضى .

وهناك أخطاء كثيرة لجوميه الفرنسى فى دراسته لتفسيرى المنار والجواهر وجون بالجون الانجليزى فى دراسة عن التفسير القرآنى فى العصر الحديث.

ومن كتابات المستشرق الموغلة فى الخطأ ما كتبه هارمن ، فى كتابه عقائد الإسلام فهو يحاول الادعاء بالباطل بأن لغة القرآن ليست إلا شيئاً عادياً فلغة القرآن — كما يقول الدكتور محمود حمدى زقزوق — لها خصوصية التفرد وقد عجزت العرب عن محاكاة لغة القرآن كما عجزوا عن قبول التحدى الذى مازل قائماً وسيظل قائماً إلى أن تقوم الساعة ، وتتميز لغة القرآن التى أعجزهم تحديها بنظمها وخصائصها إنها تباين كل ما نظمه العرب .

(٥)

أهم مصادر التبشير والاستشراق :

(أولا) : إسرائيليات ابن سبأ .

(ثانياً): كتابات الزنادقة فى الأدب .

(ثالثاً) : مفاهيم دعاة الحلول ووحدة الوجود .

(رابعاً) الإقليمية والدعوة إلى عالم عربى وعالم الإسلامى .

(خامساً) : دعوات القاديانية والبهائية فى إسقاط الجهاد ودين واحد .

(سادساً) : تحريف النصوص بإسقاط رحـــلة إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز .

(سابعاً) : التأويل فى التفسير بما يبرر الواقع أو يتخذ من أصل دينى سلاحاً لتأييد مذهب أو إيدلوجية حديثة .

(ثامناً) : محاولة إسقاط الفرائض بالدعوة إلى الفـكر الباطنى .

(تاسعاً) : إشاعة الأسلوب التوراتى واللبنانى الغربى .

(عاشراً) : معاونة الشعر الحر والدعوة إلى اللغة الوسطى فى النثر والعامية والحروف اللاتينية .

(حادى عشر) : هدم التراث بإبراز السىء منه أو إعادة كتابته عـــلى نحو خبيث .

(ثانى عشر) : إعلاء بطولات زائفـــة كالحلاج وابن عربى وبشار وأبو نواس وتنكيس المتنبي والغزالى وابن خلدون .

(ثالث عشر) : إذاعة المفاهيم المادية والعلمانيه والإباحية .

(رابع عشر) : تشويه التاريخ الإسلامى وفرض التفسير المادى عليه .

(خامس عشر) : التشكيك فى العقيدة الإسلامية ومحاولة الادعاء بأن الأديان كلها موحدة . وإنكار تميز الإسلام بالتوحيد الخالص .

(٦)

تتمثل مؤامرات الاستشراق فى مخططات ماكرة تستهدف جميعها هدم المفاهيم الإسلامية الصحيحة وتقديم مفاهيم باطلة وضالة وليست من الإسلام أساسا .

(أولا) فى مجال الشريعة الإسلامية : يتابع جوزيف شاخت (أستاذه جولدزيهر) فى انتقاص الشريعة الإسلامية ويقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبحث فى إبدال القانون العرفى للعرب بل بحث فى كيف يجعل الرجال يسلكون فيما يختارون حساب اليوم الآخر ، ويرى شاخت أن الرسول هو الذى يقرر ما يبقى ومايلغى أو يعدل من الاعراف والتقاليد والعادات التى كانت سائدة فى المجتمع الجاهلى ويعتبر الإسلام من وضع محمد وقد غفل شاخت كما يقول دكتور أحمد على المجذوب ومن نقل منه (مورد بيجر) عن الطبيعة الخاصة للقاعدة الشرعية الإسلامية فاعتقدوا أنهم قد وقعوا على ثغرة فى البناء التشريعى الإسلامى أو أنهم اكتشفوا عورة فيه فبادروا إلى فضحها وإشهارها ولم يفطن هؤلاء إلى الاختلاف بين القوانين الوضعية والتشريع الإلهى فبينما ينتهى الأمر بالنسبة للمذنب بتوقيع العقاب طبقاً للقوانين الوضعية فإن الأمر لا يعتبر منتهياً بالنسبة لمن يرتكب معصية نهى عنها الله ورسوله والاختلاف بين طبيعة المعصية فى التشريع الإلهى وفى القوانين الوضعية هو السمة المميزة للقواعد الشرعية الإلهية وفى الإسلام صورة الله تبارك وتعالى تختلف عن صورته عند اليهود ، جاء الإسلام لتصحيح الصورة وليعرف الإنسان بالصفات الحقيقية لله الواحد الأحد (التواب الرحمن الغفور الشكور) الذى لا ينحاز لفريق من خلقه دون فريق والذى ليس معاقباً دائماً أو منتقماً أبداً وتتميز شريعة الله عن قانون البشر بالعدالة المطلقة والرحمة الشاملة وتتسم بالتوازن التام بين الحقوق والواجبات وبين النتائج فى حالتى الطاعة والمعصية .

(ثانياً) خطأ ما ادعاه موردبيرجر نقلا عن « شاخت » من أن الاسلام الأول اعتمد على القانون العرفى للعرب فى اهتمامه الأساسى بقواعد الأخلاق ، وهذا كذب محض لأن القانون العرفى للعرب نقضته تماما القواعد الأخلاقية الاسلامية ولم تقر منه إلا ماوجدته سليما غير متعارض مع الفضائل والأخلاق الاسلامية ، فما اتفق من إعراف العرب مع غاية

الاسلام (أمام مجتمع متسق فى نظمه وأحواله وأخلاقه وسلوكه) أبقى عليه وما يتأخر معه منها استبعده وألغاه واستبدله بغيره . وهكذا فعل بوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر وأكل لحم الخنزير والزنا والبغاء والربا وزواج الابن من زوجة أبيه والعصبية الجاهلية عموما والظلم والبغى والاثم وألغى ما كان من شأنه الاساءة إلى المرأة مما كان سائداً فى الجاهلية وأزال كل صور التميز بين الانسان وأخيه فجعل الناس سواسية .

(ثالثاً) خطأ ما إدعاه من أن القانون الإسلامى تطور نتيجة ارتباطه بالتجربة بل لمثل أعلى دينى مضاد للتجربة وهـــذا كلام غريب فالقانون الإسلامى هو تعبير لمثل أعلى دينى إلا أنه ليس مضاداً للتجربة كما زعم شاخت بل العكس هو الصحيح فهو نتاج التجربة ، فالقانون الإلهى يتناول أموراً أثبتت كل التجارب التى مرت بها البشرية فى مختلف عصورها ضرورة التصدى لها بالقاعدة القانونية ، وقد أشار القانون إلى أن القواعد القانونية لم تفرض لمجرد دفع الإنسان إلى الاقتراب من المثل الأعلى الدينى . ومن عوامل اضمحلال الأمم فى الماضى والحاضر عدم التزامها بالقواعد القانونية الإسلامية وخاصة فيما يتعلق بحفظ العرض والحياة والمال والعقل مما أدى إلى شيوع الفساد وتفشى الرزيلة واضطراب الأحوال .

أما فيما يقول من وجود ثغرة بين الوصايا الأخلاقية والقاعدة الشرعية فإنه قول مغلوط ، فليس فى الإسلام وصايا أخلاقية وإنما فيه التزامات تقع على عاتق المسلم ، فالإسلام لم يقتصر على الايصاء : لاتزن ، لاتقتل ، لاتسرق ، ولكنه قرر أحكاما للزانى وللسارق .

ثانياً : كانت الضربة القاصمة التى وجهت للمسلمين هى دعوى العلمانية التى أراد بها أن يعزل الإسلام عن كل ما يدور داخل المجتمعات الإسلامية ، أن جعلها أكثر استعداداً لتقبل الاستغلال الاقتصادى وأكثر طواعية للتبعية الفكرية والسياسية والاقتصادية للقوى الاستعمارية ، وبعد التحرر من السيطرة الاستعمارية وقعت دول العالم الإسلامى فى فخ التبعية الثقافية

والفكرية نتيجة للنظريات الوافده وما أحدثته من مظاهر القلق والاضطراب بين الشباب وقد كان الجيل الذى تلقى ثقافته فى الدول الأجنبية يرى أن الأسلوب الوحيد للتقدم هو اتباع الطريق الذى سلكته تلك الدول سواء أكان رأسماليا غربيا أم شيوعيا شرقيا ، أما المناهج الإسلامية التى تدرس بالمعاهد والكليات فقد كانت عاجزة عن أن تقدم عقيدة الإسلام بمفهومه الجامع كمنهج حياة ونظام مجمتمع ، وبذلك قصرت عن توجيه الداعية الإسلامى العصرى القادر على إقناع جماهير المثقفين الذين جذبتهم أضواء الغرب .

ثالثاً : افتراءات المستشرقين ضد الوحى المحدى وشخصية النبى صلى الله عليه وسلم واجه : الفكر الإسلامى هذه الشبهات وكشف زيفها فى رسائل عديدة كتبها الباحثون المسلمون إيمانا منهم بأن التصدى للمستشرقين وكشف مقاصدهم فريضة أساسية فى هذا العصر لأنها معركة بين الحق والباطل ومن سنة الله فى هذه المعارك أن الحق هو الذى ينتصر .

تقول الدكتورة ليلى زكى قطب : لم يكن الوحى المحمدى خروجا على المألوف الذى تعرض له الأنبياء السابقون فى هذا المجال فلا محل إذن للتعجب والادعاء بأن الوحى المحمدى ليس وحياً من السماء وإن ما جاء فى القرآن الكريم من تشريعات وثروة علمية قـــد استمدها الرسول من الأديان السابقة ولم يدر هؤلاء أن الرسول قد وضع جميع ماسبق من الأديان فى قفص الاتهام بسبب ما تطرق لها من تحريف فان لم يكن مؤيدا من الله بالوحى لما استطاع أن يغير المفاهيم وإن يقوض عرش الجبابرة وإن يأتى بما لم تأتى بمثله الأنبياء المرسلون ، ولقد كان الوحى المحمدى أكمل دعوة قام بها رسول ، أنه يحمل آخر كلمة من الله إلى الناس ، فالوحى المحمدى رحمة عامة للناس كلهم ، وهو بذلك يختلف عن الوحى فى اليهودية أو الوحى فى المسيحية ، فالوحى فى كل منها مقصود على بنى إسرائل فلم يكن هذا الوحى متوجها لغير اليهودى ولم يكن لهذين النبيين اللذين نزل عليهما

الوحى شأن بهداية أحد من الناس غير شعبهما الذى بعثا إليه فالتوراة كلها خاصة ببنى إسرائيل ليس فيها شىء لأحد من الناس ، إنه تشريع مفصل عليهم ، وهو دواء لا يصلح لغيرهم من البشر ، فإذا رجعنا إلى الإنجيل فجميع وصاياه لبنى إسرائيل ومعجزات عيسى كلها لبنى إسرائيل ولكن بنى إسرائيل حرفوا التوراة ، أما المسيحية فهى دين القلب الإنسانى ولهذا تجد دعوة المسيح خالية من المراسم والطقوس .

فالمسلمون لا يطلبون من أهل الكتاب إلا أن يتحدوا معهم فى عبادة الله وحده فلا يشركون معه أحداً من خلقه وينزهونه عن الزوجة والولد وعن التركيب والتبعيض والحلول والاتحاد ، وكان من حكم الشريعة الإسلامية أن عبرت عن الله بكلمة الذات التى لا تعطى مدلولا تجسيديا ولا تجريديا وإن كانت تدل على وجود معنى لا تدركه العقول ولا تحيط به الافهام ووحدانية الذات واحديتها من الأمور التى جاءت دعوة الإسلام لتقريرها وترسيخ أسسها فى العقول والقلوب بالأدلة القاطعة والحجج الدامغة، ونزه الإسلام رب العالمين عن الشركاء والانداد وأثبت له صفات الجمال والجلال والكمال بما يجعله واحداً فى ذاته وصفاته .

البابُ الثانى

أصُــول الإســلام

الاسلام : المنهج الربانى الجامع

تختلف الإسلام عن الأديان ، وعن المناهج والإيدلوجيات فى أنه المنهج الربانى الجامع القادر على الثبات فى وجه متغيرات البيئات والأزمنة ، مع الالتقاء معها ، هذا التميز يرجع إلى الفارق العميق بين الأيدلوجيات التى هى من صنع العقل البشرى ، لزمن معين وعصر معين وبين المنهج الربانى القادر على معايشه مختلف العصور والبيئات دون أن ينال منه التغير ، لأنه يقوم على الفطرة الإنسانية ويكمل فى أطر عامة واسعة مرنة تترك الناس الحرية فى تشكيل تطبيقاتها فى الصورة العصرية دون الخروج على حدود الله وضوابط المجتمع التى قررتها الشريعة لحماية الإنسان وحماية المجتمعات من الانهيار والتحلل . إن هدف الإسلام الأساسى هو إيجاد العلاقة الصحيحة بين الله تعالى الإله المالك الحاكم ، وبين الإنسان بصفته إنسان ، والإيمان إنما يمثل التزام الإنسان تجاه الله تبارك وتعالى : الالتزام بالتفكير والشعور والحياة على طريق الله والالتزام بأن تتحرك إرادة الإنسان داخل الإرادة الإلهية والعمل على جعل كلمة الله هى العليا . وفى الإسلام يلتقى الوحى والعقل لأول مرة والدين من شأنه أن يحرك التاريخ ويحل تناقضات الشعوب وهو المنبع الوحيد للقيم والحضارات والإنسانية : من شأنه أن يرسى التوازن بين النفس والجسم يقدر مافى طاقة البشر وطبيعة الحياة .

الإسلام هو المنهج الربانى الجامع بين العقل ، والقلب ، والدين والدنيا ، والروح والمادة ، فقد تكامل الإسلام فى أحكام الاعتقاد والعمل والأخلاق . والاسلام يشمل فى معناه ماتعنيه فى الغرب كلمة الحضارة المسيحية والدين المسيحى مجتمعين ، وتعاليم الإسلام تضم بالاضافة إلى المعتقدات والعبادات تشريعاً يمكن أن يسمى بلغة العرب : الحقوق المدنية والحقوق الجنائية وحتى الحقوق الدستورية (كما يقول برنارد لويس ، فكل مسلم مؤمن يعتقد أن هذه التشريعات الاسلامية جاءت من المنبع نفسه ولها سلطة وقوة التشريعات الاعتقادية والعبادية نفسها .

وقد جاء الإسلام خلاصة ميراث الأنبياء وما أعطيت البشرية عن طريق الوحى والرسل والنبوات من فكر وهدى وعلم ونور ، وهو الميراث الحقيقى الذى يعتز به الانسان المؤمن وقد تبلور جميعه فى رسالة محمد بن عبد الله ، فى القرآن الكريم والحديث النبوى (وآتيناك الكتاب والحكمة) وقد جاءت رسالة الاسلام للعالمين ليظهره على الدين كله وجاء القرآن مهيمناً على كل الكتب السماوية السابقة له بعد أن جاء مصدقا لما بين يديه منها والاسلام عن طريق القرآن يقدم للبشرية الرؤية الشاملة للتاريخ وموازين القوى - على حد تعبير الدكتورة بنت الشاطىء عنه فهو يستقطب العوامل المختلفة فى تفاعل مؤثر ، كل لها مكانة دون تفرقة ، ومن مجموعها تتكون الصورة : عوامل سياسية واقتصادية وثقافية .

« وقد صهر الاسلام فى وحدته الشاملة أمماً مختلفة فى أصولها وسلالاتها ، مختلفة العقائد والملل ، متفاوتة الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، متباعدة الثقافات والعقليات والألسنة ، من بلاد فارس وما وراء النهر إلى أقصى المغرب على حافة بحر الظلمات ، جمع الفارسى والعراقى والبدوى واليمنى والشامى والمصرى والمغربى أمة واحدة وانصهر ميراث الحضارات العريقة لشعوب المنطقة فى البوتقة الواحدة والتقى المجوس والصابئة والوثنيون وطوائف الملل الدينية على دين واحد ، وتعربت الشعوب من العجم والفينيقيين وأبناء الفراعنة والبربر لأنها أسلمت والعربية لغة القرآن ، كتاب عقيدتها الواحدة ولواء وجودها المشترك فالحضارة الاسلامية عربية اللسان والقيم ، إسلامية الجوهر والروح والنهج ، شاركت فيها شعوب الأمة من أقصى المشرق الآسيوى إلى المغرب الأفريقى ، والقرآن دليل هذه الحضارة الاسلامية الرائدة ومنارها ولواؤها ، وعلى نور هداه صدت غزوات الصليبين وهجمات التتار ، وظل القرآن يتلى فى الدور والأكواخ والمساجد والزوايا وينفذ إلى أعماق القرى ونائى النجوع متفرداً بالسيطرة الكاملة على ضمير الجماهير من أبناء الأمة ، وظل القرآن ينسخ إميتهم بمدد سخى من الوعى ويمزق عن بصيرتهم حجب الجهل وعشاوة العمى وغطاء الغفلة ويلح على عقولهم

وقلوبهم بكلمات الله فى أمة الإنسان وكرامة الآدميين ، فكيف يمكن أن نفهم تاريخنا أو نفسره بمعزل عن هذا القرآن ، بسلطانه الفذ على ضمير الجماهير ووعيهم وهم يتمردون على أغلال الاستعباد ويرجمون صروح الطغيان وهذا مالم يخطئه أعدائنا ، لم يعرف التاريخ هدفا شدت إليه أبصار أعدائنا مثل هذا القرآن ، تسقط كل الأهداف مالم يبق القرآن حارساً لضمير الأمة ساهراً على أمنها بالحق والخير ولواء يجمع شعوبها من مشرق ومغرب ».

عرف الاسلام بالوسطية ، فقد انحرفت اليهودية إلى الفردية الطاغية والمادية المسرفة ثم جاءت المسيحية فانحرفت إلى الروحية الظالمة وإلى النفرة من هذه الدنيا فجاء الاسلام وسطا جعل الفرد متكاملا مع المجتمع وجعل المجتمع متفاعلا مع الفرد وأقام التوازن بين الروح والجسد والعقل والقلب وأقام التكامل بين الدنياو الآخرة وفى الإسلام (الله تبارك وتعالى) هو رب العالمين ورب الناس كافة (اليهود والمسحين والمشركين والكفار والوثنيين وآكلى لحوم البشر) يشملهم جميعا برعايته ويفتح لهم أبواب الهداية (أى التقدم والتحرر) ويقرر الاسلام إن الانسانية كلها أمة واحدة وإن الناس جميعا أسرة واحدة يدعون إلى دين واحد ، وإن مصير الانسان بين يديه لا تقيده إلا سنن الكون وقوانينه التى أن اهتدى إليها أدار الكون وانتفع به . وإن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإن الغاية من الشريعة الإسلامية تحقيق مصالح الناس ودرء المفاسد بحيث توجد مصلحة الناس فثم شرع الله والمسلمون مأمورون رجالا ونساء بطلب العلم من المهد إلى اللحد ، ومعاملات الناس ومعيارها العدل والإحسان ، وليس الاسلام حركة اجتماعية سياسية فحسب ، قاصرة على مسألة الفقر والفقراء ، وإنما جاء الاسلام منهجاً كاملا للفكر والحياة والمجتمع ، والتفسير المادى لايصلح فى فهم الإســـلام .

وهناك مناهج ثلاث لاتمثل الإسلام : منهج العلم المادى ومنهج الفلسفة ومنهج التصوف ، أنها روافد للنهر الكبير الذى هـــو الفكر الاسلامى

الجامع وإن هذه الروافد لا تستطيع أن تصبح مناهج مستقلة وتنفصل عن النهر الكبير لأنها إذا انفصلت تموت ومن قبل استقلت المعتزلة واستعلى التصوف ولكن أحدهما لم يستطيع أن يمثل الاسلام .

وإن إيمان المسلم يقوم على أساس أن ارتفاع الانسان وهبوطه منوطان بالتكليف وقوامه حرية الارادة والتبعية والالتزام الأخلاقى فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليقة . والاسلام لا يعرف الخطيئة الموروثة ولا يحاسب أحدا بذنب أبنه أو أبيه (ولا تزر وازرة وزر أخرى) والاسلام لا يناقض العقل ، وإن العقل يحتم الايمان .

١ — التوحيد

تتردد على ألسنة وأقلام الكتاب عبارة غامضة هى قولهم إن التوحيد يكاد يكون عاماً فى جميع الثقافات والديانات القديمة قال به المصريون القدماء وقال به الأشوريون والبابليون ، والفرس والهنود والصين واليونان على اختلاف فى عدد الإلهة ومكانها ، واختلاف فى تصور الإلهة بعضهم عن بعض أو صلتهم بالبشر (عبارة إبراهيم بيومى مدكور) ونقول ، ولكن التوحيد الخالص لم يعرفه إلا الاسلام الذى أنكر جميع أنواع الشرك والتعدد ولم يجعل بين الله تبارك وتعالى وبين الإنسان حائلا أو وسيطا :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان »

يقول برناردشو فى قصة (الزنجية تبحث عن الله) : إن محمداً خطا خطوة كبيرة إلى الأمام عندما أدخل ديانة التوحيد محل عبادة الأصنام ودعا إلى إعادة النظر فيما أحاط الأديان السابقة من الشوائب وإلى التعرف على الجوهر الصحيح فيها ، إن الوصية الثانية من وصايا الله المذكورة فى التوراة تقول :

لا تصنع تمثالا منحوتا ولا صورة من الصور ، ولا تسجد لهـا ولا تعبدها :

هذه الوصية تجد احتراما من المسلمين أكثر مما تجد من المسيحيين » .

ولا ريب أن مفهوم التوحيد الذى يقدمه الإسلام والتى مانزال نتطلع إليه فى العصر الحديث ، وهو المفهوم القرآنى الخالص على نحو مايعرف فى الصدر الأول من المؤمنين بالإسلام بعيداً عن الخوض فى النظريات الفلسفية والأساليب المنطقية التى درج عليها المتكلمون وبعيدا عن المصطلحات الفلسفية المعقدة والكلمات الفنية الجامدة التى تكد الذهن وتتعب العقل واستقاء العقيدة من النبع الصافى الذى لا لبس فيه ولا غموض .

(٢) جاء الإسلام بالتوحيد الخالص : توحيد الألوهية وكان توحيد الربوبية معروفا عند العرب قبل الإسلام فى الجاهلية كالايمان بالله تبارك وتعالى خالقا ورازقا وكان مفرق الطريق بين الشرك والتوحيد هو توحيد الألوهية الذى لم يقر به المشركون فى الجاهلية حين أخذوا يوجهون عبادتهم إلى الأصنام فلم ينفعهم إيمانهم بتوحيد الربوبية وبقى كثير منهم على الشرك ومات عليه .

فالتوحيد الخالص ينفى أولا أن يكون لله تبارك وتعالى شركاء ينازعونه الألوهية أو يستحقون معه العبادة أو الحب أو الولاء أو الدعاء ولقد رفض الإسلام الوسائط الخشبية والحجرية فهى لا يرجى بها الخير أو يدفع بها الشر، ودعا الناس إلى إسلام الوجه لله ، بأن يقصد الناس ربهم مباشرة وإن كل ماعدا الله فهو فقير إلى الله وكل ماعدا الله فهو ناقص مقهور ، وماعدا الله فهو عبد وإن الله تبارك وتعالى واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ومن هنا فإن على المسلم أن يتحرز من عبادة ماسوى الله ولقد كانت فكرة التوحيد الخالص هى أقسى ما واجه المشركون الذين ما كانوا يريدون أن يعرفوا بمقتضى الوحدانية وهو أن يكون الحكم لله وحده فى حياتهم وشئونهم وأن يتلقوا عنه وحده الحلال

والحرام وأن يكون إليه وحده مرد أمرهم كله فى الدنيا والآخرة وأن يتحاكموا فى كل شىء إلى شريعته وحده .

(٣) تختلف التوحيد الذى جاء به الاسلام عن التوحيد الذى عرفته الثقافات القديمة سواء من المصريين القدماء أو الآشوريين أو البابليين أو العرب أو الهنود واليونان ، وأبرز وجوه الاختلاف : الاختلاف فى تصور الفارق بين الالهة التى يعبدونها وبين الله تبارك وتعالى فالحق تبارك وتعالى فى الاسلام « صمد » لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فهو لا يلابس البشرية ولا شيئاً من الخلائق ، وكذلك فإن البشرية لا تلابسه لا فى وحدة ولا حول ولا اتحاد ولا فيض ولا انبثاق ولا بأى صورة من الصور لافى الواقع ولا فى التصور فهو سبحانه وتعالى لا يقاس بصورة إنسانية ولا يؤله بشراً يرفعه إلى مقامه ، ولا باسم تعدد فى الطبيعة (لا هوتية وناسوتية) ولا بأى صورة أو صفة . إن الله تبارك وتعالى هو أول الأمر ونهايته ، وهو مطلق الحركة فى عالم الأكوان والحياة وكل شىء يتصل به اتصال العبودية فالله هو الرب والانسان هو العبد والصلة بينهما صلة وجود فالله هو الخالق والانسان هو المخلوق وهى صله ارتباط دائم : من الانسان الدعاء ومن الله الاستجابة ومن الانسان التقوى والشكر ومن الله الرحمة والعدل . إن سبيلنا الحق للتعرف على ذات الله وأسمائه وصفاته ليس علم (أصول الكلام) فى نزوعه إلى الفلسفة والاصطلاحات العلمية المعقدة التى تشتت الذهن وتفرق القلب ، ولا ذوق أصحاب الوجد فى انقطاعه عن منهج العلم ، وإنما سبيلنا هو العلم الصحيح الثابت عن الكتاب والسنة والموصل إلى العمل الذى تتحرك به الجوارح منفعلة بوجدان قد علم عن ذات ربه وصفاته ما حركه بالخشية والرهبة والحب وكمال الخضوع والذل . والتوحيد أن يكون العبد يريد الله بحركاته كلها وأعماله كلها لايريد بها إلا الله وأن يكون بعقله وقلبه ونفسه قاصداً إلى الله بجميع أمره ، لايحب مدح إنسان ولا ثنائه ولا يفرح بعمله ، إذا اطلع عليه المطلعون وإذا اثنى عليه أحد حمد الله على ستره عليه (حسن البنا) .

(٤) أن من أبرز الحقائق أن التوحيد ليس وليد التطور العقلى ، فقد دأب الباحثون على تصور نشأة العقيدة بأن التوحيد هو آخر مراحل تطور الألوهية وهم يظنون أن العقل البشرى ظل يترقى حتى وصل من تعدد الاله وعبادة قوى الطبيعة إلى مرحلة التوحيد ويرى البعض أن (اخناتون) هو أول داعية للتوحيد ومن خطأ الاعتقاد أن العقيدة بدأت بعبادة قوى الطبيعة بالرمز عليها فى صورة تماثيل أو انصاب وانتهت إلى وحدة اخناتون البشرية والحقيقة إن البشرية بدأت موحدة ثم انحرفت عن الطريق السوى ، وإن الذين يقولون (ثم جاءت الأديان بالتوحيد) يقصدون اليهوديه والمسيحية ، هم غير عالمين بحقيقه الأمر فى رسالات السماء . ومنهم من يقول هذا من الدارسين للإسلام والتوحيد جاء مع آدم وجاء مع نوح .

(٥) يؤكد القرآن الكريم على أن زمام أمور الكون بجميع أجزائه بيد رب واحد يسير هذا الكون طبقاً لقوانين ونواميس معنيه وهذا ما تدعو إليه الفطرة أيضاً والوجود المستقل الوحيد فى هذا الكون هو وجود رب العالمين الذى لا يحتاج فى وجوده إلى شيء خارج ذاته وكل الأشياء محتاجة إليه وهو المصدر الوحيد الذى يمكن اللجوء إليه والركون عنده بكل مافى الكلمة من معنى ، وإن الحق تبارك وتعالى هو الذى تفرد بعلم الغيب وقد وهب الله الانسان قدرة محدودة تمكنه من أن يكتشف جزء يسيراً من قوانين هذا الكون ، ومن الخطأ أن يلجأ الانسان إلى القوانين المحدودة التى أعانه على اكتشافها فيركن إليها ويعتبرها أساساً مستقلا لمسيرة هذا الكون ، وأن يعزف أويغفل من المصدر الأساسى الذى يتحكم فى هذا الكون وعلى الانسان أن يفهم وجوده كجزء من هذا الكون تتحكم فيه القوانين والعلل التى تسير هذا الوجود فعليه أن يركن ويلجأ إلى من بيده زمام هذه القوانين ، هذا الايمان من شأنه أن يهب الانسان الثقة والصبر والعزيمه والاحساس بالارتباط بقوة جباره لا تفنى ولا تقهر .

٢ — الوثنية

لقد بدأت البشرية موحدة لله تبارك وتعالى ثم جاءت وساوس للفكر البشرى فحالت الناس عن التوحيد إلى الوثنية ، ومازالت البشرية فى صراع مع الوثنية خلال رسالات الأديان لم يتوقف . وتتلخص الوثنية فى عبادة المحسوس المشخص — كما يقول الدكتور محمد البهى — وعبادته تنطوى على تعدد المعبود ، وقد عبدت الجماعات الوثنية مافى الطبيعة من أنهار وجبال وأفلاك وكواكب ، وقد حطم الإسلام الوثنية ، وهاجم تعدد الآلهة ودعا إلى عبادة الله جل جلاله الواحد ، بل إن الإسلام هاجم الشرك الذى وقع فيه أهل الجزيرة العربية حين قالوا أزاء الأصنام [. ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى] ، وبذلك دعا الإسلام إلى التوحيد الخالص ، المبرأ من كل شرك أو شبهة ، وهذا هو الفارق العميق بين وثنية العرب وبين وثنية اليونان التى تعددت منها الآلهة فللحصاد إله وللربيع إله وللحرب إله ، وقد عنى الإسلام بتقديم تصور كامل للحق تبارك وتعالى ولعالم الغيب وللآخرة ، ورسم حقيقة الصلة بين الله تبارك وتعالى وبين الإنسان ، وهى صلة مفتوحة تلقائية لا تحتاج إلى واسطة أو وسيط . جاء الإسلام بما يعد تصحيحا لجميع أنواع الإختلاف والاضطراب الذى وقعت فى الديانات المحرفة والفلسفات المضطربة ، وما يعد ردا على جميع الأخطاء التى وقعت فيها تلك الديانات والفلسفات وبذلك قطع الإسلام الإمتداد الفكرى والثقافى والعقائدى بين ما قبل الإسلام وما بعده عن العرب وعن المسلمين فى كل مكان وقطع امتداد الوثنية فى العالم كله ، وفى هذا يقول أحد الباحثين الأجانب لقد أحدث الإسلام رقيا عظيما فى تدرج العاطفة الدينية فأطلق العقل الإنسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد وبين أيدى الكهنة من ذوى الأديان المختلفة فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ، وهكذا خلص الإسلام الفكر الإنسانى من وثنية القرون الأولى .

ولقد أثبتت وثائق التاريخ أن أول من غير دين اسماعيل (عمرو بن لحى) الذى كان أول من بحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامى ، [وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبة فى النار وكان أول من سيب السوائب .

٣ — وحدة الدين

« تعنى وحدة الدين أن دين الله واحد فى مصدره ، وأن الأديان السماوية حلقات متصلة تسلم كلها إلى الدين الخاتم : [الاسلام] وقد أوصى الله تبارك وتعالى كل نبي أن يؤمن بالدين الخاتم وقد جاء الإسلام متمماً لدين إبراهيم ومرتبطا به ، وجاء الإسلام ليظهره الله على الدين كله ، كما جاء القرآن مهيمنا على كل من سبقه من كتب السماء ، التى كانت كلها فى الأصل على طريق واحد إلى الغاية وإن الكمال النهائى فى التشريع قد تم فى القرآن وقد جاءت الرسالات للأمم أما الاسلام فجاء للإنسانية كلها وثبتت عالميته منذ اليوم الأول والقرآن مصدق لما بين يديه من التوراة والأنجيل .

ولقد جاء الإنجيل بتعديل بعض احكام التوراة إذ أعلن عيسى عليه السلام إنه جاء ليحل لبنى إسرائيل بعض الذى حرم عليهم ، وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الأنجيل والتوراة ، إذ أعلن أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء ليحل للناس كل الطيبات ويحرم عليهم كل الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، ولم يكن ذلك من المتأخر تفضا للمتقدم، وإنما كان وقوفا عند الوقت المناسب ، مثل ذلك مثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل فى الطور الأول من حياته وقرر غذائه على اللبن وجاء الثانى مقرر له طعاماً نشويا خفيفا وجاء الطبيب الثالث فى المرحلة التى بعدها فإذن له بغذاء قوى ، وعلاقة الاسلام بالديانات السماوية فى صورتها الأولى علاقة تصديق وتأييد كلى وإن علاقته بها فى صورتها المتطورة علاقة

تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية وتصحح لما طرأ عليها من البدع والاضافات . ومن الخطأ القول بأن البشرية قد انتقلت من إله إلى إله حتى اهتدت التى التوحيد بعد وقت تجاوز آلاف السنين . لقد نسى هؤلاء إن آدم عليه السلام هو والد البشرية الاولى كان موحداً ثم مضت الاعوام فانتكست الطبائع لدى من خلفه فألهوا المخلوقات من أصنام وحيوان وإنسان . وجاء الأنبياء ليردوا البشرية إلى دين الفطرة كل رسول جاء بعد جاهلية فاشية ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، إن جوهر الدعوة الربانية على السنة الرسل متفق غير مختلف متوحد الهدف ، ما جاء به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد يصدر من مشكاة واحد [شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أنزلنا إليك]والتقدم الاجتماعى يقتضى تغييراً فى بعض الأحكام الفرعية للعبادات والمعاملات . أما أصول العقيدة من لدن آدم إلى محمد فثابتة على سنن الفطرة قائمة على منطق العقل لا تغيير ولا تبديل ، وكان القرآن آخر الرسالات ينهض بحاجات البشرية جميعاً ، إذ ورث الإسلام خبرات الأجيال . أن النصرانية قد قطعت بها كتب السماء دون لبس وجاء الأنبياء كلهم برسالة الإسلام ، والإنجيل مصدق لما بين يديه من التوراة والقرآن مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل .

« محمد عبد الله دراز »

٤ — النبوة

هناك شبهات تطرح فى هذا المجال تقول إن النبوة : تجربة ذهنية فكرية وأن النبى قد أدرك ما أدرك من النبوة نتيجة قدرته على التركيز واستدامته على مستوى تجريدى لا يطيقه غيره ، والحقيقة أن هذا مفهوم الفكر المادى ، الذى لا يعترف بتكامل الروح والمادة ، وأنه من العسير على أى إنسان مهما بلغ به التركيز أن يكون نبياً لان النبوة ليست تجربة ، إن أبرز ظواهر النبوة هو الوحى ، وهذا الوحى يهبط فجأة فى لحظة مجهولة فالنبى كأنه ومضة خاطفة لم يسع إليها ولم يتوقعها . إن أبرز صفات الوحى أنه من خارج الذات

فهو ليس نتيجة فيضان نفسى أو كبت لمجموعه من التأملات احتشدت وتفجرت فى نفس النبى كما يقال والقائلون بهذا هم المكذبين بالنبوة الخائضين بالباطل فى وصفها .

إن النبوة هى اصطفاء ربانى علوى مسبوق ببعض الارهاصات لايعرف التدرج المؤدى إلى ما يسمى النضج فى النهاية ، وهى تكليف إلهى ينفى الإرادة فلا خيار النبى فى أن يقبل أو يرفض ما يأتى به الوحى (ماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) .

٢ — الوحى ركن أساسى للنبوة يعرفه كل أصحاب الديانات ولذلك فقد قال ورقة ابن نوفل عندما سمع بخبر محمد : هذا هو الناموس الذى أنزل الله على موسى ، ذلك أن أهل الديانات السماوية يعلمون أن الوحى وصل أنبيائهم عن طريق الملك جبريل عليه السلام (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما) .

لقد ذكر الله تبارك وتعالى لأهل الكتاب الأنبياء الذين لا يرتابون لاعلامهم إن الوحى إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم كشأن الوحى إليهم فظهر بهذه الآية أنه لا غرابة فى الوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه وقع لكثير من الأنبياء قبله والخصم يؤمن بهؤلاء الأنبياء عليهم السلام .

٣ — ويقول الأستاذ قحطان عبد الرحمن الدورى : إن الوحى أمر خارج عن النفس وهو الأساس الذى يبنى عليه الاعتقاد بالنبوات وهو الطريق الذى جاءت به العقائد والأحكام الشرعية وغيرها ولذلك أهتم كثير من أعداء الإسلام بإثارة الشكوك حول الوحى قال المستشرقون : إن الوحى ما هو إلا حديث النفس وإلهامها (بروكلمان : تاريخ الأدب العربى) أما نحن المسلمون فنعتقد أن الوحى ليس من قبيل الحدس والشعور الباطنى ودلالات النفس والفراسة الشرعية التى غالباً ما تتأثر بالرياضيات الروحية والتفكير

المستديم الطويل ، أى أنه ليس من قبيل الوحى النفسى الذى هو الإلهام الفائض عن استعداد النفس العالية والسريرة الطاهرة لأن هـــذه لاتنشيء المعرفة التامة واليقين الكامل الذى لاريب فيه فلا تسمو بصاحبها إلى درجة النبوة ، بل إن الوحى هو أمر طارىء زائد على الطباع البشرية خارج عن النفس والباطن لا يخضع لأى تأثير يطرأ عليها يتلقاه النبى من الذات الإلهية بواسطة الملك الموكل بذلك والذى يدقق النظر فى كيفية الوحى ومعالمه وما يطرأ على النبى من ظواهر يدرك أن الوحى لا يتصل بهوى النفس والظواهر التى تصاحب النبى حين يوحى إليه تشهد بأن الوحى لم يكن قبل حديث النفس ، تقول السيدة عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا ، وهذا مصداق قول الله تعالى (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) ولا يتحمل هذا الثقل إلا نبى ليرتاض من جسده على تحمل عبء النبوة .

٥ ــ الفطرة

« كل مولود يولد على الفطرة ثم أبواه ينصرانه أو يمجسانه » .

تقوم الفطرة على الإيمان بالله وعدم الإشراك به ، فالفطرة هى التوحيد وعدم الشرك والمقصود بالتنصير والتهويد والتمجيس : محاولة طمس التوحيد الفطرى الذى ولد عليه كل مولود ، يقول الله تعالى فى الحديث القدسى : إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم وأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم . ويقول العلماء بأصول ثلاثة للفطرة : (١) أصل استقلال الفطرة (٢) أصل استطراد الفطرة (٣) أصل إنسجام الفطرة أو استحالة الخلاف بين جزئياتها .

(١) فأصل استقلال الفطرة يعلن استقلال الفطرة عن الإنسان فلا يستطيع ساحر ولا كاهن أن يغير مجراها أو يعدل من قوانينها ولا تتغير هى تأثرا بما يجرى لأى إنسان (٢) وأصل اضطراد الفطرة يعلن استقلال الفطرة عن الزمان فما يثبت فى سننها فى وقت فلا بد أن يكون موجودا

من قبل وسيظل موجودا فى المستقبل فلا يلحقه تغـــيير ولاتبديل (٣) وأصل انسجام الفطرة بمعنى استحالة التناقض بين الحقائق فلا يمكن أن يناقض حق حقاً ، أينما كان وكيفما ظهر ، فى الأرض أو فى السماء ، وما يتناقض حقا إذن فهو باطل يجب أن ينبذ ولا ينظر إليه . وقد قرر الحق تبارك وتعالى (١) إن العالم قائم على الحق (وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق) (٢) أنه لا تبديل لسنة الله فى الخلق ولا تحويل (فطرة الله التى فطر الناس عليها) (٣) ارتفاع التفاوت يستلزم ارتفاع التناقض بمعنى إستقلال الفطرة (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض .)

وأصالة الفطرة تعنى أن الفطرة شيء ثابت وأصيل لدى البشر ، وهى عميقة الجذور فى النفس الإنسانية شديدة الإلتصاق بها ، ولا شك تلعب البيئة المنحرفة دوراً كبيراً فى إخفاء الفطرة وطمسها وتستغل جانب الضعف عند الطفل بحب التقليد الأعمى للآباء . والغفلة بعدم استعمال الحواس هى عقوبة آلهية للذين ينحرفون عن طريق الإيمان .

٦ — سنن الله

سنة الله هى حكمته وطريقة طاعته (ولن تجد لسنة الله تحويلا) مثبتة على أن فروع الشرائع وإن اختلفت صورها — كما يقول الراغب الاصفهانى — فالغرض المقصود منها لايختلف ولا يتبدل ، وهو يطهر النفس ويرشحها للوصول إلى ثواب الله تعالى وجواره . وإذا نسبت السنة إلى الرب كان المعنى : إنها طريقة عامة يجرى بها أمر الله فى عباده (كما قال) [سنة الله التى قد خلت فى عباده] ، يقول الدكتور أحمد حسن فرحات : أول مايلاحظه الباحث فى مصطلح سنة الله القرآنى أنه خاص بسنن التاريخ، والمقصود بذلك أنه لم يستعمل فى القرآن إلا فى هذا المجال ، وهذا لايعنى أنه ليس هناك سنن إلا سنن التاريخ وإنما يعنى أن القرآن استعمل هـذا المصطلح مقصورا على مجال التاريخ وحده لهذا نرى القرآن يقرن دائماً (سنه الله) بالإشارة إلى الأمم السابقة : [

(سنة الله فى الذين خلوا من قبل)

وهذا يعني أن القرآن يقيم التاريخ اعتباراً كبيراً فهو حصيلة التجارب الإنسانية الطويلة التي ينبغي أن تتوجه إليها العناية الانسانية لاستمادة الدروس والعبر واكتشاف السنن التي تحكم تصرفات الناس وسير التاريخ خلال الزمن الطويل . وأبرزها سنة الله في إهلاك المكذبين الذين وقفوا في وجه الأنبياء والرسل وسنة الله في نصر الرسل والأنبياء ومن تبعهم واعتبار سلوكهم وجهادهم ودعوتهم قدوة للمؤمنين (ويهديكم سنن الذين من قبلكم) قال الطبرى وليسددكم سنن الذين من قبلكم من أهل الايمان بالله وانبيائه ومناهجهم ومن سنن الله في الرسل أن يبلغوا رسالات الله ولا يخشون أحداً إلا الله وأن على النبي أن يسير على طريقهم وسنتهم ، وكذلك الكشف عن سنة الله في تعرض الرسل للاستفزاز من قبل أعدائهم (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) .

وسنة الله في محاولة قتل الأمم لرسلها (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) أي يقتلوه أو يحبسوه ويعذبوه ، كذلك نجد في القرآن دعوة واضحة إلى السير في الأرض والنظر في آثار الأمم السابقة التي تشهد بصحة هذه السنن وثباتها (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ومن ذلك سنة الله في عدم قبول الايمان عند معاينة العذاب (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يكن ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك المبطلون .)

وهناك سنة الله في نصر أوليائه على أعدائه : (لو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون ولياً ولا نصيرا : سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وغاية القول . هو ثبات السنن الالهية وحتميتها وعدم تخلفها . وبعض الباحثين يتوسعون في مدلول كلمة السنن حتى تشمل القوانين الطبيعية والكونية في حين يستعملها القرآن خاصة بسنن التاريخ .

٧ — الغيب

كان الطعن فى الإيمان بالغيب من أهداف التغريب هدما للعقيدة الدينية فى أسها وذلك من خلال المفاهيم المادية التى تحاول أن تخرج عن دائرة الإيمان كل ماليس محسوسا باسم العلم والعلمانية وباسم حرية الفكر والتحرر من عبودية التقليد والعلمانية Soeularieur والتحررية Lorslieur مذهبان غربيان مناهضان للعقائد الدينية برزا فى القرن الميلادى الماضى وسرت عدواهما فيما سرى إلى العرب والمسلمين على وجه العموم ويلتقى المذهبان عند الدعوة إلى الاعتماد على الواقع الذى تدركه الحواس ونبذ كل مالا تؤيده التجربة والتحرر من العقائد الغيبية .

ولما كان القرآن الكريم يبدأ فى أولى سوره بعقيدة الإيمان بالغيب فقد كان لابد من الكشف عن زيف هذه الانشطارية التى أصابت الفكر الغربى فى مرحلة انتقاله من المثالية إلى المادية والوثنية الإغريقية مرة أخرى فى تلك المفاهيم الزائفة التى تحاول أن تصور الانبياء بالعباقرة والمصلحين وتزعم أنهم رجال أفذاذ ثاروا على معتقدات عصرهم وحرروا أفكارهم .

كذلك فقد ذهبت الماركسية إلى مثل هذا التفسير المادى للحياة فنظرت إلى الإيمان بالغيب وماوراء المحسوس نظرة الرفض ، جريا وراء نظريات خيالية تقول أن الإيمان بالغيب كان حلا موقتاً لمعالجة الظواهر التى لم يسيطر عليها الإنسان بالعلم ، ولقد تراجع العلم بعد ذلك عن غروره وتبين للعلماء أن هناك عالما غيبيا كاملا كائن وراء عالم الشهادة والمحسوس ، ولكن الفلسفة المادية مازالت تسبح ضد التيار والواقع أن الإيمان بالغيب لايتعارض مع منهج العلم التجريبى ومفهوم العلم لايصادم هذا الإيمان وإن كل دلائل الوجود الآن من علم وتجربة وفطرة تؤيد مفهوم الدين الحق فى أن وراء هذا الكون قوة قادرة تديره يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة « إن الله يمسك السموات والارض أن تزولا » .

ولقد فشلت كل الأبحاث التى حاولت أن تدعى « خرافة المتيافيزيقا » وسقطت إزاء ما كشف العلم نفسه عن جانب الغيب وبعد أن ظهرت معالم كثيرة للتلقى من عالم الغيب كسماع الأصوات الصادرة من بعد ورؤيه الصور التى تحجبها المسافات الطويلة وقد أدرك العلم أن الاعتماد على الحواس باطل فإن لها مداها المحدود فى إدراك حقائق الوجود وإن المادة التى تتكون منها جميع المحسوسات ليست إلا طاقة تتشكل وفقاً لقوانين معينة فى التركيب والسرعة وقد كشف العلم قاعـــدة تحول المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة ، وتبين أن المعرفة عقلية وروحية يقول كريس موريسون (رئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك) أن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم تؤكد وجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة وقد يقودنا هذا الضوء إلى الاعتراف بوجود الخالق الأعظم ، وإن الإيمان بالغيب هو مصدر الرغبة فى الكشف عن كل مجهول .

كذلك فقد تبين للعلماء التجريبين أن وجود عالم آخر خلف هذا العالم المحسوس هى فكرة طبيعية بل وضرورية فى التصور بحكم طبيعة الحياة التى نحياها نفسها ومن المستحيل القول بأن الأمر ينتهى بنهاية هذه الحياة فإن الوجود الإنسانى لا يكون قد حقق الغاية والهدف من الحياة فالحياة لها رسالة ومسئولية وجزاء ولابد من الجزاء فى حياة أخرى والموت ليس نهاية الإنسان ، والحياة فى هذا الوجود مرحلة ، ينتهى بالبعث والجزاء والخلود وتقوم فكره البعث فى الإسلام على أساس الإعتقاد بأن كل إنسان سيكون ملزما بأن يقدم حسابا لعمله وإن سعادة وشقاء الأفراد تعتمد على الطريقة التى قاموا بها بأداء فرائض خالقهم ، ولقد تأكد للباحثين والتربويين فى العالم الإسلامى إن فكرة إنكار المثيولوجيا والغيبيات هى وسيلة لتحطيم القيم الاخلاقية أساساً ، وليس هناك فضيلة تجب لذاتها دون ارتباطها بالجزاء ، الثواب والعقاب وإن وإن الجبرية والقدريه تحول بين إقرار مسئولية الفرد لقاء أعماله فى المستقبل ، ولا ريب أن الايمان بالغيب إيمان بعالم كامل وراء هذا العالم المرئى المحسوس ،

وإن حياة الانسان فى الحقيقة مادة وروح ، وإن العالم مادة وروح ، لا مادة خالصة ولا روح خالص .

وعندما طرح الإسلام مفهوم الغيب الكامل الواضح ، كان ذلك علامة على توقف المسلمين عن الخوض فى الفلسفات ، ومن هنا فقد نفض المسلمون أيديهم عن الجانب الإلهى فى الفلسفة اليونانية المسمى علم الأصنام عملا بالحكمة المنزلة واشتغلوا بالناحية الأخرى وهى الطبيعيات والرياضيات ، كذلك فقد تبين على هذا المدى الطويل عجز العلم عن دخول مجال الغيبيات بوسائله التجريبية . فهو قد قصر عهده على دراسة الظواهر وكشف الخصائص ، وقد حاول العلم ثم عجز عن كشف الروح واخضاعها لسلطانه وتوقف عن محاولة نفخ الروح فى جسد ميت ليرده إلى الحياة أو يصنع تمثالا على هيئة آدمى ثم ينفخ فيه الروح ، ولقد أعطانا الإسلام نظرة كاملة للغيبيات وأمرنا بأن لا نخوض فيها.

ولقد كشفت أبحاث العلم الأخيرة علامات واضحة للغيب فقد ولد العلم الكهرباء ولكن ما الكهرباء : إنها شىء مجهول لم يدرك العلم كونه ، وولد العلم المغناطيسى وما هو المغناطيس : لا جواب : واكتشف العلم الحديث إن الضوء يتكون من تموجات تنتقل مع الأثير وتعرف الأثير بأنه ذلك الذى ينتقل فيه تموجات الضوء ولكن ما هو الأثير : لاجواب ، كذلك الذرة فهى أصغر وحدة فى الوجود ، ولقد تحطمت الذرة وأصبحت اليكترونات وانتج المعمل أزواج اليكترونات ، وعرفنا أنها تيارات فى جسيمات ذات طاقة عالية تأتينامن الفضاء البعيد ، ووصل العلم بعد تحطيم الذرة إلى وحدات أولية تتكون منها الذرة هي النوويات والكترونات والنويترنيات على أى أساس أن تفرض أن هذه الوحدات غير قابلة للتجزئة إلى أجزاء أصغر ، قبل نصف قرن كان الفرض أن الذرة غير قابلة للتجربة (غيب) . وقد ركز المعمل جهوده لاكتشاف سر الخلية وما تزال الخلية الحية لغز الحياة فقد فرض العلماء أن الخلية تتكون من فيروسات وهذه مواد كيماوية معقدة ، الجسيمات والفيروسيات تعتبر كجزئيات كيماوية عادية ، وفى نفس الوقت كائنات حية وهى تمثل الحلقة المفقودة بين

المادة الحية والمادة غير الحية وقد تبين من ذلك كله أن [الغيب] هو الحقيقة العلمية الوحيدة الثابتة . وتأكد إيمان البشرية بعد الأديان بأن الله تبارك وتعالى وحده عنده مفاتح الغيب :

(ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله .)

وتأكد أن المبدأ الأول للعقيدة هي الايمان بالغيب . وإن الغيب ضرورة ملحة لحياة الإنسان لا يقوم بدونها فهم صحيح لأى أمر من أمور الحياة لأن العلم (إنتاج بشرى يتجدد ويتحول ، أما الغيب فهو الراسخ الثابت)والدعوة الاسلامية من الأساس دعوة متكاملة : للدنيا والاخرة وللحياة المادية الروحية لذلك فلا تجد فى القرآن تركيزاً على الدنيا وحدها ولا على الآخرة وحدها ، والآخرة فى المفهوم الإسلامى هى النتيجة الحتمية لعمل الانسان وهى التى يصب فيها سعيه وكفاحه فى الحياة الدنيا وإن مبدأ الإيمان بالغيب مقترن اقتراناً عميقاً بالحياة ومن هنا يتضح لنا إنكار الإسلام لمبدأ الرهبنة ، ذلك أن الايمان بالغيب هو دعوة إلى الاستشهاد فى سبيل الحق ، ومن شأنه أن يلغى الهزيمة فى المجتمع الاسلامى ويضع أمام المسلمين هدف النصر الدائم والتحرر من كل عوامل الضعف والخنوع والاستسلام والفشل .

وبالايمان بالغيب تتكامل المعرفة بين الروح والمادة وتتحقق الصلة بين الانسان والخالق ، أمناً وإيماناً بالرباط القوى الذى يشد كل إنسان إلى الله .

ولقد يحاول بعض التغريبيين الحديث عن ماحدث فى أوربا من موقف إزاء الكهانة والسحر والرهبانية ويطبقه فى الاسلام مع أن الأمر مختلف وأن ما حدث فى الغرب بعد دخول المسيحية إليها لايوجد مثاله فى الاسلام فقد أقر الاسلام مفهوم الغيب وفتح به طريقاً إلى التجريب وهذا يختلف عما يسمونه النظر الغيبي فى الغرب .

كذلك فقد خلط كثيرون بين مفهوم «الغيب» وبين الأسطورة والمعروف أن الأديان السماوية حاربت الأسطورة وإن العقلية العربية الحنيفية التى صنعها إبراهيم عليه السلام عقلية خالية من الأسطورة معارضة للوثنية فقد

كانت الأسطورة محاولة عقلية لملأ الفراغ فيما لا يوجد نص حقيق عنه أما الأديان عامة والإسلام بالذات قد ملأت الفراغ فيما يتعلق بهذه الجوانب فقد أغنت عن الأسطورة .

وقد كانت حقائق الغيب التى أمرنا الله تبارك وتعالى بالإيمان بها هى المصدر الأساسى للحقائق التى تملأ الفراغات الموجودة فى الرؤية الشاملة للكون وللحياة ولما بعد الحياة ولعلاقة الإنسان بالخالق عز وجل والإيمان باليوم الآخر على صورة لم يستطيع العلم معها أن يثبت أو ينفى وجود يوم المعاد . ذلك أن الإيمان بهذا اليوم يعطى الوجود مبرراً ويرفع من حياة الإنسان عبثها ويزيد الإيمان بالله بعداً يقينيا لا غنى عنه . فالإيمان بالغيب ضرورة تتكامل بها رؤيتنا الإسلامية لأن هذا الغيب يكفى لسد حاجة الإنسان إزاء بعض المنعطفات التى يقف أمامها الفكر عاجزاً والتى لا يستطيع العقل أن يرتفع إليها بوسائل المعرفة العلمية التى تتوفر له . والتفرقة بين الغيب والأسطورة يسهم فى تحرير العقل المسلم من تيارات الفكر الوافدة ومن الرجم بالأهواء .

قال القرطبى « الغيب » فى كلام العرب كل ماغاب عنك وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم مما لا تهتدى إليه العقول من أشرطة الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار .

وأورد ابن جرير الطبرى عن ابن عباس أنه قال « الغيب كل ما جاء من الله تعالى (فى القرآن) وجاء فى تفسير المنار : إن الإيمان بالغيب هو الاعتقاد بموجود وراء المحسوس ، يقول الأستاذ فتحى رضوان . فى أصول العقيدة الإسلامية : إذا كان القرآن قد دعانا للإيمان بالغيب فإنه قد أقام سدوداً من نصوصه وآياته لتحمى العقل الإنسانى من أن تهب عليه رياح الدجل والشعوذة ولتصونه من التسلط عليه بالأكاذيب والترهات التى يستمدها أهل الحيلة من أن (الغيب) لايعرفه أحد ، وإنه لاحدود له ليخوض فيه كل من منحه الله لساناً نشيطا . وقد قررت آيات القرآن أن

الغيب لله وحده لايعلمه سـواه وإنّ الله لايطلع على غيبه أحد حتى ولا الملائكة والجن وأن الأنبياء والرسل الذين هم أقرب الناس إلى الله لايعلمون كذلك الغيب وإن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين كـكل من سبقه من الرسل لايعلم كذلك الغيب وإن الغيب ملك لله تبارك وتعالى يستأثر به دون جميع مخلوقاته وعباده ، والملائكة والجن محجوبون عن علم الغيب مثلهم مثل سائر البشر ، وإذا كان الإسلام يدعونا إلى الإيمان بالغيب ويعد هذا الايمان علامة من علامات المتقين ، فذلك لأن الاسلام هو دين العلم جاء ليدعو البشر إلى التأمل فى أنفسهم وفى الآفاق وإن يعملوا ليهتدوا إلى سنن الله فى الكون التى لا تجد لها تبديلا ولا تحويلا وهذه السنن هى بالضبط القوانين الحاكمة للكون والمسيرة لكواكبه وعوالمه ونجومه ثم هى القوانين التى تحكم الانسان الذى لا يزال استقصاء دوافعه وحوافزه وكشف عوالمه ومجاهله مستعصيا على العلماء محيرا لعقولهم فالاسلام جنب الانسانية خطأ الوقوع فى الأنحصار فى دراسة المادة وحدها واعتبارها محل الدرس والسبيل إلى كامل العلم وتصور أن ماتراه وحده هو دنيانا وإن هذا العالم ليس له قوانين خلقية تحكمه وليس له هدف روحى يسعى إليه . يقول الطبيب كاريل : يجب أن نحطم الحواجز التى أنشئت بين أجزاء المواد الصلبة وبين الجوانب المختلفة لأنفسنا فإن السلطة المسئولة عما نعانيه إنما جاءت من فكرة لطيفة (لجاليلو) فقد فصل جاليلو كما هو معروف جيدا الصفات الأولية للأشياء وهى الأبعاد والوزن التى يمكن قياسها بسهولة عن صفاتها القانونية وهى اللون والرائحة التى لا يمكن قياسها ثم قال : الأشياء غير القابلة للقياس فى الانسان أكثر أهمية من تلك التى يمكن قياسها فهذا الكون عند الاسلام كل لايتجزء بمادياته ومعنوياته ، بالظاهر منه والخفى وصدق الله تعالى إذ يقول « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » . « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » .

٨ – الروح

يجمع الاسلام بين الروح والمادة وحين تلتقى الروح بالمادة تنشأ الحياة الأرضية أو تنشأ النفس الانسانية والروح هو مابه حياة المادة ، والروح من أمر الله بمعنى أن علمكم لن يصل إليها ونستطيع أن تنتفع بالروح وإن لم نعرف حقيقتها ، إنها فى داخل كل جسد حى تهبه الحياة والقدرة والحركة فإذا خرجت أصبح الانسان جثمانا هامداً وانتهت مهمته فى الحياة ومسئوليته وعمله ، والحياة إرادة الله تبارك وتعالى وليست شيئاً يدخل ويلتئم مع المادة ليعطيها الحياة . والروح هى إرادة الحياة لمن يهبه الله الحياة ، وكون أن الروح لها كيانا تاماً لايبطل أنها من أمر الله ، وقد جعل الله النفس روحا (ونفخت فيه من روحى) نفخ الله سبحانه من روحه فدخل شىء فى جسد الانسان وهبه الحياة فإذا توقف النفس خرجت الروح والروح وطبيعة علاقتها بالجسد وبالنفس والعقل ، كلها حقائق ذات أبعاد وماهيات معينة والعلم الحديث يعترف مرغماً بوجود علاقة حتمية بين الطاقات النفسية وبين وظائف الأعضاء ولكنه يجد نفسه عاجزاً عن إدراك هـــذه العلاقة فهى حقيقة بعيدة عن المحسوس الذى يعرفه ولكن وجود هذه العلاقة ضرورة منطقية ويقول العلماء أن الروح جسم لطيف يتولد من القلب وينتشر بواسطة العروق فى سائر أجزاء البدن ، والروح هى الجوهر العاقل المدرك لذاته من حيث مبدأ التصورات وهى ما يقابل المادة تارة وما يقابل الطبيعة وما يقابل البدن لأن الروح تمثل القوة العاقلة والبدن يمثل الغرائز الحيوانيـة وإذا أطلق لفظ الروح تمثل منه القوة المفكرة وروح الشىء نفسه وللروح فى القرآن معان (١) مابه حياة البدن (٢) بمعنى الأمر (٣) بمعنى الوحى ، بمعنى القرآن ، بمعنى الرحمة ، بمعنى جبريل ـ وقد اختلف العلماء فى النفس والروح فقال فريق هما يتغايران لأن النفس بعض الروح وقال فريق هما شىء واحد ، لاننا نعبر عن النفس بالروح وبالعكس والروحية هى إيمان المسلم بالمعنويات ولذا كانت المادة ضرورية للحياة فهى واسطة لاغاية وقد انحرفت الحضارة الغربية عن الروحية وانجرفت فى تيار المادية .

الدين : تجديدة

المراد من التجديد : الرجوع بالدين إلى سهولته كما كان فى الصدر الأول وجمع كلمة المسلمين على ما اجتمعوا عليه قبل التفرقة والاختلاف ، وجعل ماعدا القطعى منه مما يعذر فيه كل فرد باجتهاده وكل مقلد باتباع المذهب أو العالم الذى وثق بعلمه من غير تعصب يفرق الأمة الواحدة إلى شيع وفرق .

* * *

يقول الدكتور جلال أحمد أمين : إن المحاولات التى بذلها كتاب لاشك فى إخلاصهم فى سبيل مايسمونه بتجديد الفكر الدينى تحت شعار الاجتهاد أو الإصلاح أو الجديد أو تطوير الدين لملائمة ظروف العصر ، ذلك أن هذا الطريق محفوف بأخطار لاحد لها يخشى منها أن ينتهى فى غمار محاولتنا للتصحيح والاصلاح إلى فقدان أثمن مالدينا وهو الثقة بكمال ديننا وفضله المتميز على غيره . إن قول اللورد كرومر المشهور (إن إسلاما جرت عليه محاولات الإصلاح لايعود بعد ذلك إسلاما)

dream relormod ∞ lain on lonqer

هذا القول يعكس إدرا كا مذهلا للحقيقة . وهى أنك متى بدأت تشكك فى الإسلام وصلاحيته كنظام كلى متماسك فإنك بذلك تسدد أكبر طعنة للإسلام . الصينيون لم يسمحوا لأى مذهب غريب عليهم أن يثير لديهم الشك فى تفوق نظرتهم الخاصة إلى الأمور . الدرس الأساسى الذى نتعلمه من الصينيين هو ألا نشك لحظة واحدة فى سلامة نظرتنا الخاصة وكل عجز فكرى يحاول تشكيكنا فى ذلك يتعين مقاومته وكل محاولة للسخرية فى خصائص أدبنا ومعاييرنا الأخلاقيـة أو لتسخيف مبادئنا الدينية الراسخة أو إثارة الشك حول ملاءمتها للعصر ليست إلا مساهمة فى قتل نفسية هذه الأمة مهما كان حسن نية أصحابها أن من يتأمل التاريخ الاقتصادى للدول التى تفوقت

علينا اقتصاديا وبنت حضارة صناعية متقدمة لن يصادف مثالا واحداً لم يفترق فيه النهضة الاقتصادية وبالذات فيما يسمى بمرحلة الإنطلاق اشعور قوى عارم وبالاعتقاد بالتفوق على الغير أو على الأقل برغبة قوية فى إثبات الذات وبأنها ليست أقل قدراً من الامم الأخرى ، فإذا كان هذا هو حقاً مفتاح النهضة الذى تفتح كل الأبواب المغلقة فإنه لا يكون هناك مفر لأية أمة ترغب فى تحقيق نهضتها منذ ا كتشاف المفتاح الخاص بها (وهو لا يمكن إلا أن يكون مفتاحا خاصاً) .

ومن الغريب ألا ترى أن هذه الطاقة النفسية الكامنة لدى العرب والمسلمين لا يمكن تفجيرها إلا عن طريق الدين . قد يقال نعم ولكن لا بد من المادة تفسيره ونحن نقول حذار كل الحذر أن تؤدى محاولاتنا لإعادة اللمعان إلى الذهب إذا حدث أى خدش فيه .

الباب الثالث

القرآن الكريم

(١)

لقد توالت الشبهات التي يطرحها أعداء الإسلام ولم تتوقف ، وتركزت هذه الشبهات تركيزاً شديداً حول القرآن الكريم . من تلك الدعاوى شبهة ترتيب القرآن حسب نزوله ، وقد جهلوا أن ذلك لو كان أمراً مطلوباً لما فات النبي صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن آيات القرآن وإن كانت قد نزلت منجمة آيات آيات وسوراً سوراً بحسب الوقائع والحوادث وعلى مقتضى الحكمة التي أرادها الله سبحانه وتعالى وهو الشارع لدينه قد نزلت بمكة والمدينة واستمر نزولها ثلاثة وعشرين سنة ، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر أصحابه حين تنزل ويقرأها عليهم أن يحفظوها عن ظهر قلب وأن يضعوها بعد آية كذا من سورة كذا ، ولذلك فقد خابت مفترياتهم في هذه الوجهة ولم تجد من يستمع إليها . ولقد نزل القرآن الكريم على الرسول حسب الحاجة والوقائع لحكمة سامية ، فكان ترتيب الآيات في في سورها ترتيباً توفيقيا من جبريل وقد جمع الصحابة القرآن بعد الرسول مرتباً هذا الترتيب لم يقدم فيه مؤخر ولم يؤخر فيه مقدم ، وقد دلت الأحاديث على أن القرآن في اللوح المحفوظ ثابت على هذا الترتيب وهو ترتيب إلهي لا يجوز مخالفته إجماعا .

ولقد كان من إعجاز القرآن كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة أنه خاطب الناس جميعاً في أجيال مختلفة وأقوام تباينت مشاربهم ، فهو يعطى المثقف والفيلسوف والعامة من الناس ، كل على قدره ، فمن الناس من يصدق بالبرهان والقياس التام ، وهم أصحاب النزعة الفلسفية ومن الناس من غلب عليه مذهب ديني ، أو غير ديني استأثر بلبه وسد مسام الإدراك إذ استولت عليه نحله مذهبيه فتعصب لها واقناع هؤلاء لا يكون إلا بالطب لإدواء النفوس .

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) .

أما الجمهور الأعظم من الناس فهم أقرب إلى الفطرة ، منهم سلامتها ومنهم إخلاصها وبراءتها ، وهذه هي مخاطبة الوجدان.

ولا تقتصر دعـــوة القرآن على قبيل ولا على جيل بل لكل الأجيال

والقبائل والأقوام والألوان ، ولذلك وجب أن يكون القرآن هو المعجزة الكبرى ، فيه من الأدلة والمناهج ما يقنع الناس جميعاً على اختلاف أصنافهم وتباين أفهامهم وتفاوت مداركهم .

ووجب أن يكون أسلوبه الفكرى والبيانى بحيث لا يعلو على مدارك طائفة ما ، يجد فيه العلماء غذاء نفسيا واعتقاديا وخلقيا وصلاحاً إنسانياً ويجد فيه المثقف بغيته والفيلسوف طلبته والعامة من الشعوب دواء نفوسهم وشفاء قلوبهم ، ويرى فيه العادى البسيط علما بما لم يكن يعلم أدركه بأسهل بيان ويرى فيه العالم الفيلسوف الباحث فى نشأة الكون دقة العلم وأحكامه وموافقته لما وصل إليه العقل البشرى كما جاء ذلك بالنص الكريم من سمو البيان وعلو الدليل فتبارك الذى أنزل القرآن ، وقد أبان الباحثون أن القرآن لا يخاطب العقل وحده ولكنه يخاطب كلا من العقل والخيال والشعور .

(٢)

ماقدمة القرآن للبشريه ، من معطيات ومناهج :

أولا : قدم القرآن نظرية التكامل بين النفس والجسم والروح والمادة ، فى دراسة الإنسان ودراسة الأدب ودراسة علوم الاجتماع .

ثانياً : قدم القرآن نظرية « قانون » سنن الله فى الحضارات والأمم وسنن الله فى الخلق والطبيعة .

ثالثاً : قدم القرآن أصول الفطرة فى الزواج والأسرة ، والحلال والحرام وجعل شريعة الله فوق شرائع البشر لأنه لايشرع أحد من البشر للبشر ، ولابد من قوة عليا تشرع للبشر ، وقد تبين للناس فساد مناهج القوانين التى صنعوها فى مجال : الربا (الاقتصاد) الحلال والحرام فى علاقات الرجل والمرأة (الجنس) وفى مجال التكامل فى بناء النفس والحياة على المادة والروح (الاجتماع) .

رابعاً : قرر القرآن قبل ثلاثة عشر قرناً قصور العلم البشرى ولقد فسرت النظريات المبنية على التجربة كثيراً من الحقائق ولكن لم تكتشف حتى الآن حلا عاما يتفق مع جميع الأدلة المعروفة وفى كثير من الأحيان يتضح فشل ماكان يظن أنها نظرية كاملة كافية ، ذلك لظهور حقائق جديدة تناقض النظرية .

خامساً : ثبات النص القرآنى فقد تحدث الباحثون عن التبديل والتغيير الذى حدث فى الكتب المنزلة وأثبت علم تاريخ الأديان فى أوربا وأمريكا هذا التغيير والتبديل أما القرآن فإن علماء الغرب أنفسهم وكثير من المستشرقين يقررون ماقررنا من أن القرآن الذى تقرؤه الآن هو القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ .

(٣)

من عطاء القرآن : تلك المجموعة من الحقائق التى تخالف فكر الغرب :

لا يعتقد القرآن بالخطيئة الأولى ولا الخطيئة الأصلية ، وإذا انحط الإنسان فليس بسبب خطيئة آدم بل بسبب أعماله السيئة ، والقرآن لا يعتبر الأرض ، مكانا للسجن أو العذاب (على نحو ما يقول اللاهوت المسيحى وسجن فيه البشر الآثمون فى أصل تكوينهم بسبب خطيئة أصلية) إن التوراة تلعن الأرض بسبب معصية آدم فيما يبين القرآن أن الأرض دار سكن الانسان ومصدر ربح له وعليه أن يشكر الله الذى أنعم عليه بها ، وأن خطيئة آدم يقع مسئوليتها عليه وحده وقد غفرها الله له ، وكل مولود يولد على الطهر والحق وكل زيغ يزيغه عن طريق الحق يرجع إلى خطأ فى تربيته أو إلى أعماله السيئة .

والإنسان مكرم وليس خاطئاً (كرامة إنسانية وحرية اختيار) وليس الإنسان مجبوراً وليس كائنا آليا لا إرادة له وليس نتاجا انتجته وسائل الإنتاج وليس الجنس البشرى حشد من مخلوقات آلية لا إرادة لها ، وليس هناك فناء للفرد فى المجموع ، والإنسان هو الذى يغير التاريخ وليس دمية تحركها روح العالم (كما قال هيجل) والإنسان ليس حراً يفعل ما يشاء بل إنه

لعمله حدوداً وضوابط فعلية أن يختار سبلا ويترك أخرى . وعليه أن يبرهن بتصرفه الواعي المبني على المسئولية برهانا واضحا على أنه على طريق الله . وقد أعطى الانسان حرية الارادة ضمن حدود معينة .

(٤)

أعجز القرآن البشرية منذ أنزل إلى اليوم ولا يزال متحديا أياها إلى أن تقوم الساعة وهو تحد منوع ، ليس لغويا فحسب ولكنه في كل المجالات والميادين ، فقد وضع الله تبارك وتعالى في هذا الكتاب ما يتحدى به المكذبين ويقول : إني أعطيت لهم في هذا القرآن علما من كل شيء ، أعطيت لهم حقائق علمية لن يصلوا إليها ولا بعد ألوف السنين وحتى تقوم الساعه ، وضعتها في هذا الكتاب حتى قلتم انتهى عقد القرآن وبدأ عهد العلم تكذبكم هذه الحقائق ، فالقرآن سبق العلم وأنبأ بما سيحدث وكشف الحجب عن حقائق لن يصلوا إليها ، بعضها مادى : وهناك الإعجاز اللغوى والبلاغى وتصحيح ماني الكتب الأخرى والنبوءة بأحداث ستقع خلال بضع سنين كحرب الروم والفرس ، ثم أعجز البشرية كلها في ذلك التحدى لكشف أسرار هذا الكون المادى ، هذه الحقائق التي كشفها العلم اليوم وهي مذحوزة في القرآن منذ أربعة عشر قرنا ، وقد احتفظ الحق تبارك وتعالى لنفسه بأمور ثلاث لن يستطيع العلم أن يقول فيها الكلمة النهائية :

بداية الخلق ، واستمرار الحياة ونهاية الحياة ، ومهما تقـــدم العلم وتقدمت الحياة فلابد للانسان أن يموت ولا تستطيع الدنيا كلها بما فيها من علم ومعرفة وتقـــدم أن تمنح إنسانا نعمة الخلود في الدنيا وما زال التحدى قائما .

(٥)

حاول المستشرق جولد سيهر التقاط آيات من القرآن لتصوير الإسلام بصوره عقيدة الجبرية المطلقة . وكان عرضه مشوبا بالشكوك والاضطراب لاثارة الشبهات أكثر منه للوصول إلى الحقائق — على عادة المستشرقين

وخاصة اليهود منهم — كما حاول إيجاد التناقض بالإشارة إلى المحكم والمتشابه ، أو إلى المدنى والمكى ،» وخطأه إن المتشابه ليس هو المتناقض كما استخدم المستشرقون آراء الجبريون الذين كان فى مقدمتهم جهم بن صفوان فى محاولة للادعاء بأن المسلمين تخلفوا وتأخروا لسيطرة هذه الفكرة عليهم وحاولوا أن يربطوا بين هذا المذهب وبين ما آل إليه أمر المسلمين من ضعف وتخلف وقد تصدى لذلك الفيلسوف المسلم محمد إقبال :

« إن الذات الانسانية فى صراعها مع العلم الطبيعى يمكنها أن تبلغ منزلة الاختيار إذا هى قهرت كل الصعاب وإن الذات نفسها فيها إختيار وجبر ولكنها إذا قاربت الذات المطلقة وهى الله « تبارك وتعالى » نالت الحرية كاملة ، والحياة جهاد لتحصيل الاختيار ومقصد الذات أن تبلغ الاختيار بجهادها .

(٦)

هناك دعوى مثارة عما يقال من أن هناك لقاء بين التوراة والقرآن تقول (مريم جميلة : اليهودية التى أسلمت) عندما تصفحت العهد القديم ، والقرآن الكريم . اتضح التضاد فالعهد القديم تاريخ لشعب خاص، أما القرآن فرسالة عالمية موجهة للجنس البشرى . وأسوأ هذه الأخطاء ، نظرية الحق الالهى لليهود فى فلسطين . فالصهيونية وضعت أردأ المظاهر للفلسفة الماديه الغربية واليهود يرفضون المقومات الأخلاقية والقيم الروحية والأخلاق ذات أصل إلهى ، أما إذا كانت الأخلاقيات من صنع الانسان تماما فإنه يمكن تغييرها بالارادة ، إنى اعتقد بالآخرة والقيم الأخلاقية وإننا مسئولون أمام الله، وحينما درست المعتقدات وجدت أن الأديان كلها من أصل واحد ، وبمرور الزمن فسدت وتعددت العبادات فكانت عبادة الأوثان والتجسد . والبوذية، ومبدأ الخطيئة والتثليث والوهية يسوع حيث أدت الى نظرية هيئة الله والتكفير بمسألة الموت على الصليب إلى فكرة شعب الله المختار . هذه الأفكار لا تجد شيئا منها فى القرآن والاسلام .

٧)

أثار القس البروتستانتيى المبشر نلسن الدنمركى فى كتابه :
(أصدق الأقاويل على صحة التوراة والأناجيل)

عدداً من الشبهات حول القرآن الكريم ، وقد رد عليه الشيخ سعدى ياسين بكتابه ، مختصر البرهان فى سلامة القرآن من الزيادة والنقصان) ومنذ قوله من أن الشيعة يزعمون أن لعلى بن أبى طالب مصحفاً جمعه على حسب النزول على غير ترتيب مصحف عثمان سماه مصحف فاطمة قال الطبرسى : أما الزيادة فى القرآن فجمع على بطلانها أما النقصان فهو أشد استحالة .

لقد بدأ نزول القرآن عام ٦١١ ميلادية وانتهى فى ٩ ذى الحجة للسنة العاشرة للهجرة وكان نزوله منجما بقصد التيسير على الرسول صلى الله عليه وسلم والتدرج فى تربية الصحابة ومنها أن الله تبارك وتعالى يتعهد رسوله عند اشتداد الخصام وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتحمل آيات القرآن من الملك حفظا ثم يبلغها للناس ، ويكتبها كتابه الذين كان عددهم يتراوح بين ٦ ، ٤٢ كاتبا وبعد موقعة اليمامة أمر أبو بكر : زيد بن ثابت فى جمع القرآن فقام بمنهجه خير قيام ، وبقيت الصحف عند أبى بكر ثم عمر ثم حفصه ثم جاء عثمان رضى الله عنهم فأمر عدداً من الصحابة بنسخ الصحف فى المصاحف ثم أرسل إلى كل مصر بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

وبعد انتهائه من جمع القرآن الكريم ثم توحيد عثمان للقرآن استشهد الباحث بأقوال عدد من العلماء ورد على فريه نلسن وجولد زيهر فى ادعائهما أن القرآن من كلام محمد فى أثنى عشر دليلا منها الفرق الواسع فى الإعجاز مابين القرآن والسنة واخبار القرآن فى أمور غيبية وقعت كما أخبر .

ثم قال : فلتعمل الصهيونية العالمية والصليبية العالمية ماشاءتا أن تعملا ، فإن القرآن سيبقى الشمس المشرقة والآية الخارقة يدعو إلى الحق والعدل والخير والرحمة والوحدة العالمية وسيأتى اليوم الذى تبصر فيه أوربا الرشد

فتمد بيدها برفق إلى هـــذا الكتاب فتقلده ملتزمة بما فيه من الحكمة والفطرة السمحة كما قال برناردشو « لايمضي مائة عام حتى تكون أوربا ، ولاسيما انجلترا ، قد أيقنت بملاءمة الإسلام للحضارة الصحيحة . والله تعالى قال : (سنريهم آيتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) .

(٨)

قال الدكتور هاشم أمير على فيما يتصل بشبهات القرآن : أن فواتح السور الغامضة جاءت متلوة بسياق المخاطب فى كل السور بلا إستثناء ومن ثم يمكن فهمها على أنها نداء للنبي بحيث لو وضعنا (يا محمد) مكان كل هذه الفواتح لانجلى الموقف وحلت المشكلة واستشهد بمفاتيح سورة البقرة وقال أن الفواتح تشترك فى ظواهر منها أن جميعا الاستثناء فى سياق المخاطب وأنها جميعا لا تؤثر على معنى النص فيما يليها وقال أنها نزلت فى العهد المكى المتأخر حين كان النبى منبوذا من قومه وفى حاجة شديدة إلى التأييد فاحلال (يا محمد) مكانها هو التفسير الوحيد ولا تعطى أى مغزى آخر وراء ذلك .

وتقول الدكتورة بنت الشاطيء : إنه باسترجاع الآيات الاولى من سور العنكبوت والروم ولقمان وصورة غافر والزخرف والجاثية والاحقاف وق ويونس ينهار الدليل لأن سياق الآيات التالية للفواتح من هذه السور ليس خطابا للنبي ﷺ .

وما قاله من نزول خمس من ذات الفواتح فى أواخر العهد المكى والأربع الباقيات مدنية منقوض من أساسه إذا ذكرنا أن السور المكية كلها فى المصحف سبع وثمانون سورة فإذا اعتبرنا المتأخر منها ما يقرب من السبعين لم نجد فى السور ذات الفواتح غير أربعة فقط ما يمكن عده من السور المكية (هى إبرهيم والسجدة والروم والعنكبوت) .

والدكتور هاشم أمير على فى ترجمته للقرآن التى راجت فى الشرق

الآسيوى لايعرف العربية وهو يتجاوز الترجمة إلى التفسير ، وقد وضع أمامه تراث الإسرائيليات فكانت مصدر مادته فى تفسير القرآن .

ماذا قال عن كلمة الوحى الأولى (اقرأ) .

ترجمها (كول) أدع اوناد ولم يجعلها (ريد) وهو أول لفظ يخطر على البال من ترجمة (اقرأ) .

قال عن اقرأ : هذا الأمر بالصياح موجود فى العهد القديم خطاباً للنبى أشعياء قبل القرآن بنحو ثلاثة عشر قرنا كما فى سفر اشعياء (ناد بصوت عال) إرفع صوتك كبوق ، فهل هناك أى شبه بين عبارة سفر اشعياء والقرآن (اقرأ باسم ربك الذى خلق) . وقال : كان شغل محمد سنوات قبل المبعث من يفكر فى حال قومه وما كان يخطر فى ذهنه دائما من قصص قدامى الرسل ، للعرب واليهود والمسيحيين وكيف جذبوا اتباعهم من الضلال ، ومعنى هذا الكلام أن النبى (محمد) ﷺ تطلع إلى النبوة قبل المبعث ، وتأثر بما أبلغ من رسالته .

وهذا القول دخيل على الإسلام وتاريخه ينفيه القرآن نفيا صريحاً .

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) .

(قالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، بل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) .

هذا ما يقدمه مسلم عصرى إلى الشعوب الإسلامية غير العربية من فهم للقرآن بالإسرائيليات وشد نصوص القرآن إلى العهد القديم .

(٩)

وتقول الدكتورة بنت الشاطىء : إن التفسير العصرى للقرآن لمصطفى محمود قد أعاد عرض الإسرائيليات .

(١) إن كل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من ضرب المثال من الرمز وفى العهد القديم يضيف اشعياء يوم الرضوان قائلا : يضع رب الجنود لجميع الشعوب فى هذا الجيل وليمة سمائية ووليمة خمر وفى تراتيل القديس افرايم : ورأيت مساكن الصالحين تقطر منهم العطور وتزينهم ضفائر الفاكهة والريحان).

(٢) « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » الآية يفسرها برؤيا يوحنا اللاهوتى دخان خرج من البئر الهاوية ، لا يقتل الناس وإنما يعذبهم خمسة أشهر .

(٣) تفسير خبر « يأجوج ومأجوج » فى سورة الكهف .

يقول لو فتحنا الإصحاح العشرين من سفر الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتى عن يأجوج ومأجوج فإنا نراه يقول نفس المعانى ونفس الإشارات .

(٤) ويفسر آيات القيامة فى القرآن بما فى رؤيا يوحنا اللاهوتى .

وتأتى الإسرائيليات فى كتب السلف إضافات ، أما فى التفسير العصرى فهى مشدودة شدا إلى أقوال بعينها ، فى كتب بنى إسرائيل على القول بالتنظير والمماثلة ومقطع الرأى فى ذلك :

(أولا) : إن القرآن فى تصديقه للكتب القديمة قبله استصفى منها ما رأى للبشرية أن تتلقاه من ختام رسالات الدين بما هو جوهر العقيدة ومناط الاعتبار والذى استبقاه منها موجود فى القرآن والذى نسخه مما فيها لا يحل أن نقحمه على تفسير القرآن .

(وفى أكبر الخطأ أن يقال أن من آيات الجنة فى القرآن ما قال القديس افرايم فى ترانيمه أو فى القيامة والجحيم ما فى رؤيا يوحنا اللاهوتى) .

(ثانياً) : ومع ذلك فإن التوراة التى بين أيدينا ليست توراة موسى .

(ثالثاً) : خاطب القرآن البشرية فى ختام رسالاته بأسلوب غير الذى كان يلائمها فى عصور خلت .

وما يجوز أن تحمل على كتاب الإسلام ما ليس فيه وكأننا بذلك نفرط في حرمة نصه الموثق ونهدر الجهود التي بذلت وتبذل لتحرر العقلية الإسلامية من شوائب دخيلة يأباها كتاب الإسلام نصاً ومنهاجاً وعقيدة وشريعة .

(١٠)

إن الموقف بالنسبة ترجمات القرآن التي قدمها المستشرقون معروف وأخطائهم محصورة ، أما بالنسبة لترجمات القرآن التي قام بها اتباع القاديانية فإن الموقف يتطلب الكشف عن أخطائها .

وأبرز هذه الترجمات .

١ — ترجمة مولى محمد علي وهو من أتباع مرزا غلام أحمد القادياني وانشق على جماعة القاديانيين وأنشأ جماعة الأحمدية بلاهور .

٢ — ترجمة غلام فريد وهو قادياني متطرف .

٣ — ترجمة محمد خضر الله خان وهو قادياني متطرف أيضاً .

يقول الدكتور أحمد إبراهيم مهنا : إن هذه الكتب الثلاثة لها اتجاه مشترك فاصحابها جميعاً من اتباع مرزا غلام أحمد القادياني ويسمونه جميعاً (المسيح الموعود) وهم لا يخفون انتسابهم إليه بل يفخرون به وتبدو رنة الاعتزاز في حديثهم عنه وللجماعة القاديانيين نشاط واسع في أوربا وآسيا وإفريقيا ومطبوعاتهم كثيرة ومتنوعة ويبدو أن مصادر تمويلهم غنية وسخية ، وهم يركزون في دعايتهم لأنفسهم ومعتقداتهم على إيهام الناس أنهم أشد اهتماما من غيرهم بخدمة الإسلام وخطورة هؤلاء على الإسلام تتمثل في أنهم يعطون صورة براقة عن حبهم لكتاب الله وأنهم يقدسونه في الوقت ذاته يستخدمون آياته في ترويج مفترياتهم وفي نشر معتقداتهم بتفسيرها بما لا يتفق مع مقتضيات اللغة .

حاشيه : استغل اليهود الترجمات المحرفة قصداً وقاموا بطبعها ونشرها وتوزيعها في بلاد المغرب وغانا واتحاد مالي وايبيريا يم د يـا إر

القضاء على حقائق الإسلام لما فشلوا فى هدم بنيان المسلمين وكيانهم من طريق السياسة .

(١٠)

القرآن وأهل الكتاب :

١ — ناقش القرآن الكريم أهل الكتاب فيما انحرفوا فيه حول العقيدة وما أثاروه من خلافات وأساطير ومن أباطيل وترهات .

٢ — رد على افتراءات اليهود التى حاولوا أن يلصقوها بعيسى بن مريم وأمه الطاهرة .

٣ — حسم القضية فى مسألة الصلب وأعلن أنها لم تحدث .

٤ — صحيح العقيدة السليمة فى كل مثار حولها .

٥ — رد على افتراءات الفرق وفى غلوهم فى شان المسيح وأمه ومحاولة التأليه لهما فقرر الحقيقة الواحدة : حقيقة التوحيد الخالص الذى يدين به المسلمون .

٦ - تبرئة الحق تبارك وتعالى عن الولد والشريك .

الباب الرابع

الشريعة الإسلامية

(١)

منذ أن ارتفع أول صوت كريم بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية فى المجتمع الإسلامى ، وقد حشد النفوذ الأجنبى ، والاستشراق والتبشير أسلحته وأدواته فى حرب عنيفة تحاول أن توجه لنقاء الشريعة وطهرها وبهائها الشبهات والسموم فى محاولة شرسة لدفع هذا التيار والقضاء عليه .

وأعداء الشريعة الإسلامية (١) يدخلون إلى البحث وكأنهم أولياء للفكرة ليستطعوا أن يكسبوا الناس إلى صفهم يخدعون ويقـــدمون السموم جرعة بعد جرعة (٢) يعرضون دائما لما يسمونه صور الخلاف والفتن فى تاريخ الإسلام بين السنة والشيعة والمعتزلة ، وماذا يمكن أن تحول الخلافات بين المسلمين وبين الأساس ، خلافات كلها فى داخل إطار الإسلام وهو أمر طبيعى لا غبار عليه ، والعبرة بأصول الإسلام لابتطبيق المسلمين (٣) محاولة معاملة الإسلام والشريعة الإسلامية معاملة المناهج من حيث الكلام عن تطورها ، وعن تغيرها ، وإخضاعها للمجتمعات نفسها وهو مالا يتفق مع ربانية الشريعة وبشرية المناهج الوضعية ، إلى مناقشة لا تكون فى الغايات وإنما تكون فى الوسائل ، الإسلام ليس منهجا قابلا للتغيير ، ولكن على الحاكم أن يطبق المنهج الربانى فهو ملتزم بالأساس لا بمرضاة الناس ولا بالخضوع لتيارات الانحراف والفساد ، وليس للعقل أى دخل فى تطبيق الشريعة أو تفسيرها ، وإنما يقبلها المسلم كما أنزلت ، والعقل مجاله شىء آخر ، ومعداته العمل فى العمران والسعى ، واين العقل البشرى القادر على إبداء الرأى فى الشريعة وإنما العقل جهاز يهتدى بنور الوحى . أن أغلب الأزمات التى عانت منها التجارب التى قامت لإقامة الحكم الإسلامى لم تكن إلا من القوى الخارجية التى لا تريد تطبيق الشريعة والتى تسلط أعوانها فى الداخل للإفساد والتآمر ووضع العراقيل ، ومن الطبيعى أن النفوذ الغربى المتسلط من خلال أنظمة الحضارة والمصارف والمعاملات التجارية والناهب لثروات الأمم الإسلامية ، يعارض بشدة ويبذل كل

ما فى وسعه للحيلولة دون مقام نظام الحكم الإسلامى الذى سوف يقطع يده لمن ينهب ثروات الأمم هو ومن تبعه .

(٢)

وهكذا تجرى محاولات المثبطين ، فى دعوى خادعة تحت اسم الاجتهاد لمواجهة التخلف وهـذا مايسمى بأنه التنازل عن حدود الله لدفع المجتمع الإسلامى فى إطار التبعية للغرب وللربا ، ومؤسساته والإباحيات والتحلل وهذه دعوى مضللة لايقبلها أحد ، ولقد عاش المسلمون حياتهم يدافعون عن الهوية والذات ويعتصمون بحدود الله لايخشون أن يوصفوا بالتأخر أو الرجعية ولن تستطيع التبعية للحضارة الغربية فى انحرافاتها وفسادها أن تحقق للمسلمين إقامه مجتمع صحيح ، إنما هى محاولة لصهرهم فى أتون حضارة منهارة بقبول أوضاعها فى السرقة والزنا والربا تحت أسماء أخرى ومن هنا كانت تلك الصيحة التى تدعو إلى مايسمى الاجتهاد للخروج من الاطار الضيق التى عرفه تراثنا الفقهى ، ولقد كان مجال الفقه الحقيقى هو أمور الدنيا ونظم معيشتها . وما توقف رجال الفقه عن الاستعانة بأهل الخبرة من علماء الاقتصاد والقانون والسياسة ولكن هل يستطيع علماء الخبرة أن يحلوا حراما أو يحرموا حلالا .

(٣)

« وجوه ماركسية تحت أقنعة علمانية » .

إن الذين يرفضون شعارات التقدم هم غالباً يساريون ماركسيون ، وهم أعداء الشريعة الإسلامية ، وهم الرأسماليون على نفس الكراهيـة والعداوة لمنهج الإسلام فى الاقتصاد ، ونحن نعلم أن الرأسمالية الغربية والاشراكية الشرقية كلاهما نتاج ما خرج آدم سميث ونظرياته فى حرية المال والتجارة ورد الفعل الذى جاء به كارل ماركس ونظريته والتناقض بين الرأسمالية والشيوعية تقوم داخل حضارة واحدة وفى إطارها ، وإن المجتمع الإسلامى بعد أن جرب كلا

النظامين أحس بأنهما لايستطيعان العطاء الحقيق وأن للإسلام منهجاً اقتصاديا واضحاً ومختلفا عن كلا المنهجين ، ومفهوم الإسلام ليس هو مفهوم الدين الغربى كما يراه العلمانيون .

ولكن الإسلام نظام جامع متكامل ، الدين بمعنى العقيدة أو اللاهوت هو جزء منه ولكنه يعنى بإقامة منهج حياة . ولن يستطيع الفكر الإسلامى أن يأخذ قاعدة الحضارة الغربية بفكرها المادى ، بعد أن تعززت هذه النتائج الواضحة الآن من فساد المجتمعات وانهيارها أخلاقيا ، أن المسلمين يعرفون مدى الفوارق العميقة بين استعمال أدوات الحضارة وبين قبول أسلوب العيش الغربى وأن تمسكهم بتعاليمهم وقيمهم سيحول دون أنصهارهم فى أتون الحضارة الغربية أو النظام السياسى والاجتماعى للغرب بشقيه ، أن مفهوم الإسلام لكلمات التقدم والتجديد والاصلاح والتمدن هو مفهوم مختلف ، ليس كنسيا وليس مقتبساً من واقع الخلاف بين الكنيسة والعلم ، وليس بالضرورة أن يكون أخذ المسلمين بأحدث مبتكرات العلم وثمرات التكنولوجيا مصدر مشاكل اقتصادية واجتماعية كتلك الذى يواجهها المجتمع الغربى .

ومن هنا كان لابد من مواجهة هذه الطاقة التى تحاول أن تختنى تحت اسم الاسلام ، ربما كان بعضهم له عرق نسب ، يحاولون خلق جو من التمويه والتعطيل والنفث فى العقد لاثارة روح التشاؤم والانتقاص لمحاولات العودة إلى طريق الله ، وإلى تطبيق الشريعة بإثارة شبهات وعقبات على نحو لا يقل خطرا عما يوجهه رجال الاستشراق والتغريب وأعداء الاسلام يصدر هؤلاء عن هدف واضح هو تبرير الأوضاع القائمة ومحاولة تثبيت الواقع المضطرب البعيد عن حقيقة الاسلام ، هذه الظاهرة جديرة بأن تدرس جيداً وأن يكشف زيفها ، وأن تعرى أهدافها الخفية التى تختنى وراء ظاهرات من الادعاء مالغيره على المد الاسلامى والصحوة الاسلاميـــة ، وأغلب هؤلاء الذين يتصدون لهذه الأعمال ، يعملون فى موا كب الحكم ، ويدافعون عن وجود الأمراء ، ويقللون من شأن البناء الاسلامى الذى يملأ قلوب المسلمين آملا بالخطوة القادمة نحو تطبيق الشريعة الاسلامية وقيام المجتمع الاسلامى .

(٤)

من المثبطات والمعوقات مايردده بعض خصوم الشريعة الاسلامية :

يقول الأستاذ جمال صادق المرصفاوى :

(أولا) : أن الادعاء بضرورة التدرج فى العودة إلى الشريعة الاسلامية ادعاء خاطىء لأن من يزعمون يستندون إلى التدرج فى تحريم الخمر ، ويعقلون عن أحكام الاسلام قد اكتملت جميعها فالله تبارك تعالى يقول فى كتابه (اليوم أكملت لكم دينكم) فالتدرج إنما كان لنقل المجتمع من الوثنية إلى التوحيد أما الآن وقد اكتمل الدين فعلينا أن نعود إلى تطبيق شريعة الله كما أنزلها الله .

(ثانياً) : إن هناك من يزعمون أن الدين الاسلامى تشريع متكامل وأنه يتعين قبل العمل به أعداد المجتمع الاسلامى لكى تطبق فيه التشريعات الاسلامية وهذا قول داحض لأن المجتمع الانسانى منذ بدء الخليقة وسيظل إلى يوم الدين تقع فيه الآثام وقد شرع العقاب لحماية الجماعة من الشواذ الخارجين عليها لأن الله تبـــارك وتعالى يزع بالسلطان مالايزع بالقرآن ومن ثم يجب أن يسير الاصلاح فى طريقين متوازيين : الدعوة إلى الفضيلة بالحكمة والموعظة الحسنة والعقاب لمن لم يمتثل .

(ثالثاً) : إن تطبيق الحدود سيؤدى إلى توفير الأمن والاستقرار للمجتمع ، هذا واضح فى الدول التى أخذت بأحكام الشريعة مقارنة بالدول الأكثر مدنية وحضارة فى العصر الحديث وفشلت فى كبح جماح الجريمة رغم استخدامها وسائل العلم الحديث .

(٥)

يقول المستشار عبد الحليم الجندى فى الرد على الشبهات الموجهة ضد الشريعة الاسلامية :

(أولا) : ليست العبادات هى التى تصنع المجتمع الاسلامى ، وإنما

الذى صنع المجتمع الإسلامى والشريعة هو القانون الإسلامى ، وليس الخلق الإسلامى لأن الذى صنع الخلق الإسلامى هو « الحدود » التى تحمى القاضى الذى يطبق القانون الذى يعمل وتسرى من أجله هذه الأخلاق فى الناس .

(ثانياً) القانون المدنى الحالى لم يدع من نقحه عام ١٩٤٨ على مدى بضعة عشر عاماً أنه استفاد من الشريعة وإنما منصوص فى كتاب السنهورى أنه أخذه من (٢٢ قانونا) منها القانون البرازيلى والتنقيحات التى أدخلها ماخوذة من المشروع الإيطالى الفرنسى للقانون المدنى ، فقانوننا المدنى الحالى هو القانون الأصلى الذى كان محتفظا وترجم ثم نقح ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ويعمل به منذ ١٩٤٩ .

ولا يقال أن قانوننا الحالى متفق مع الشريعة لأنه يخالفها فى ساقيه اللذين يقوم عليهما فى نظرية العقد وفى المسئولية . فالقانون المدنى هو حرية الارادة والمسئولية عند التعرض ، هذا هو القانون المدنى فهذان الأثنان يخالف بهما مبادىء الفقه الاسلامى ، الفقه الاسلامى باختصار لا يقبل الضرر أو المغامرة أو إطلاق حرية الارادة على التفقد ، هذا هو المعنى ، لحرية الارادة مع أنها مضمونة لكنها مقيدة ، بانه لا غرر ولا مخاطرة فى التراضى وفى الأحاديث وفى جميع كتب الفقه من ١٤٠٠ سنة ، لاغرر ولا خطر يكون فى التعاقد لأنه إذا كان فى التعاقد غرر وخطر يبطله .

هذه القاعدة الأولى من قواعد التطبيق المدنى وهى حرية التصرف ، حرية التعاقد مقيدة بعدم الضرر وبعدم الغبن . القانون الحالى ليس فيه أى ذكر للغبن وليس فيه أى قيد على المغامرة فى التعاقد ، فالقانون المدنى فى هذه الناحية وهى النصف يخالف الفقه الاسلامى ، الساق الأخرى التى عليها القانون المدنى هى « المسئولية » المسئولية فى الفقه الاسلامى مختلفة تماما وهى مختلفة لا عن القانون المدنى الحالى فحسب ، بل هى تسبقها وتتقدم فتقرر مثلا أن كل مصاب له تعويض ولا تشترط الخطا . أن شرط المسئولية الخطا فالركن الأساسى هو الخطا إذا أحدث ضرراً وشرط التعويض هو الضرر .

الشريعة تقول شيئا مختلفا : إن أضررت بى بعير خطأ أنت تعوضنى أن تضمن الضرر ، هذا شيء تسعى له الآن أوربا من مائة وعشرين عاما السوفيت لم يبلغوه الآن . بل السوفيت يشترطون بالخطأ للتعويض .

الثانية : إن كل إنسان ككل إنسان فى الضرر وفى تعويض الضرر فتعرض ديه واحدة للملك وللراعيه وللراعى ولأى فرد فى الرعية ، هى فى هذا تساوى بين الناس فى إفدارهم ، وتسوى بين الناس فى التعويض الذى يأخذونه.

(ثانيا) مشكلة تقنين جديد عن الحدود . إنها مشكلة ولكن الشريعة تكفلت بحلها وإن لم تتكفل الشريعة بحلها تشككنا فى قدرتها على أن تحل شيئا ، نحن نعلم ما يشوب عالمنا من منكرات ، إنه ليس عالمنا كما يظنون إنه عالم صنعه قانون جيء به منذ مائة عام ، صنع الرداء الذى نلبسه فى المعاملات الاجتماعية ، سيطرة الغنى على الفقير ، سيطره ذى الجاة على الذى لا جاه له ، طريقه البيع والشراء ، طريقه الاجارة ، نحن نبيع ونشترى بالقانون الفرنسى ، شيء مختلف نؤاجر ونزرع بالقانون الفرنسى ، نحن فى عائلتنا نتعامل بالخلق الفرنسى ليس هذا هو المجتمع المصرى الحقيقى ، هذا المجتمع قـــد صاغه قانون حديد ، عمل به من مائة عام فى بيوعه وشرائه وسائر معاملاته ، الشريعة الإسلامية تتكفل بإصلاح هذا بيد سحرية ، استغفر الله بل بصفة إلهية ، وهذه الحدود وما فيها من بشاعة وشناعة هى لم تشرع ليأخذ بها الناس فوراً وإنما شرعت ليعلم الناس إنها ستطبق عليهم ، وكذلك قالوا . الحدود زواجر ، حـدود ، ستسرق ، ستقطع هـذه اليد بنظرة الناس ، علاج ربانى خالص ، اليد التى تسرق ستقطع ، إذن اليد مباشرة لا تحرك هذه هى الشرقة ، الزانى الذى يصنع فى غيبة الناس يرجم علنا وليشهد عليه طائفة من النـاس ، فضيحة الزانى الذى فى السر هو المفضوح فى العلن وفى ميدان عام ، إذن الحدود هـــذه عندما شرعها الله شرعها لنا نحن البشر .

(٣) دعوى نبدأ ببعض الحدود : لا ، التشريع نزل متكاملا ولم ينزل

على تدرج ، القرآن نزل على تدرج لأن الله سبحانه وتعالى يريد له الحفظ ليحفظه الناس ، ونزل مع تدرج الآيات تدرج الأحكام ، وفى هذا التدرج كان بعض القول بالنسخ لتغير الأحوال وكان المجتمع يتطور ويتقدم ولم يمت الرسول إلا وقد أكمل الله الدين وأتم نعمته على المسلمين ووجب من يوم أتم الله هذا الدين أن يطبق كاملا ، أما التدرج الذى نريده وننادى به وقد نادينا بهذا فى كتب منذ عشرين عاما ، التدرج هو أن نقول هكذا : القانون المدنى سنعمله ، نعمل فترة انتقالية ، يصدر القانون اليوم ، ولابد أن يخرج اليوم وإلا فقدت مصر زعامتها وتقول أمامنا فترة ثلاث سنوات لكى يطبق ويكون قد قرىء كفايه .

وضعنا تحت كل مادة ما يقابلها من المجلة أو من قانون قدرى باشا ، قانون قدرى باشا لو طبق من سنة أن طبق لفاق قانون نابليون وما صلحناه وما كنا عدلناه ألا تعديل طبقا للمجتمعات التى يطبق عليها مجتمع ١٩١٤ مجتمع ١٩٤٠ ، مجتمع الثورة .

إذا قطعت يد واحدة فى الجيزة تعطلت السرقات فى الصعيد وفى الاسكندرية حتى ليبيا بمجرد أن تقطع يد واحدة ، أمريكا فيها ستة ملايين سرقة سنة ١٩٧٥ لو قطع يد أمريكى واحد لن يكون ستة أو خمسة مليون سرقة فى العالم .

هذه هى مقدرة الشريعة على العلاج : إن الحدود زواجر .

(٤) ما يقال من أن القانون المدنى أغلبه موافق للشريعة !

هذه مقوله دراجة الآن على السنة الجميع .

الجواب : إن قانون العقوبات الحالى ليس قانونا إسلاميا لأن التعزير فى الإسلام ، وإن نظام السجون اختراع أوربى ، فأصبح فى السجون ملايين من أمريكا ملايين من أوربا وبقيت مؤسسة السجون تنمى نفسها فتزداد تكاليف وتنمى فى المسجون أخلاق السجن فيخرج مجرما على أعلى درجة فيزداد العدد ويترتب على هذا وعلى ازدياد العدد وعلى نمو السجون عندنا إن الجرائم أصبحت

لا يبلغ بها مئات الجنايات لا يبلغ بها لأننا من أين سنحضر لهم السجون ،
، الحدود ، فى علاجها الإنسانى إنها لا تطبق إلا إذا حدث التبليغ كالسرقة ،
الجرائم قبل قانون نابليون كانت عشر معشارها ١٨٨٩ خمس سنين كانت كافية
حتى ترتفع الجرائم وتزداد الجنايات .

والشريعة نظام كامل وهو يحدث الأخلاق الطيبة ، الأخلاق الطيبة تحدثه ، لأن الأخلاق الطيبة لم تحدث القانون الإسلامى بل القانون الإسلامى هو الذى معان دفاق .

(٥) القانون المدنى .

لقد نادينا منذ ١٩٦٤ بالدعوة إلى تجلية مبادىء الشريعة وكان لهذه اللجنة فى فى المجلس الأعلى فضل السبق فى تقنين الشريعة ، القانون الحالى صيغت موارده بطريقة يتفق مع مادرج عليه القضاة ، ١٠٤٠ مادة صنعت على طريقة قانون نابليون وصيغت بتبويب قانون نابليون واكتفينا من العصريه أن يكون التبويب والتقسيم والترتيب .

رجال الجامعه جاءوا يقولون : القانون المدنى جميل والناس ألفوه ولابد أن تستقر المعاملات ، استقر كما تريد فى معاملاتك ، ولكن مجتمعك لن يستقر ، مجتمعك لن يستقر إلا بالشريعة » .

(٦)

دكتور مصطفى أبو زيد فهمى (ك) فن الحكم فى الإسلام :

يقول : إنه أحس بزلزال هزيمة ١٩٦٧ فسأل نفسه ذلك السؤال الذى لابد أنه أقلقنا جميعا ، أما من علاج لكل ماحل ثبا ، أما من طريق إلى إعادة بناء الفرد وإعادة بناء المجتمع ويقول إن تفكيره العميق انتهى به إلى ضرورة العودة إلى الإسلام وإلى كتاب الله ، ليطبق تعاليم الإسلام فى كل حياتنا العامة والخاصة وقال إن الشورى هى أساس فن الحكم فى الإسلام .

ثانيا : إنه يطالب بإعلان الحكم الإسلامى وقيام المجتمع الإسلامى فوراً ويلح فى أن تعود الأمة كلهـــا إلى رحاب الله فوراً وهو يقدم حافزاً

هائلا فهو يرى أن تحقيق ما نطالب به يجعلنا قادرين على إنزال الهزيمة الساحقة بالدولتين العظمتين فى عالم اليوم .

ويقول أنه بعد ثلاثة عشر عاما من إنتقال الرسول إلى جوار ربه نزلت الهزيمة الساحقة بالدولتين العظمتين معا فى عالم ذلك الوقت وهما دولة الفرس ودولة الروم .

ويرفض الدكتور أبو زيد فهمى : « المواءمة » بين أفكار أو مبادىء جاهزة فى أنظمة الحكم وبين الإسلام يقول : إننا لانستطيع أن نكون مسلمين جزئيا على الاطلاق .

(٧)

يقول الأستاذ عبد القادر عوده فى مقدمة كتابه (التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى) :

أن الشريعة على قدمها أجل من أن تقارن بالقوانين الوضعية الحديثة وأن القوانين الوضعية بالرغم مما انطوت عليه من الآراء واستحدث لها من المبادىء والنظريات لاتزال فى مستوى أدنى من مستوى الشريعة والقوانين الوضعية : عقيدة رجال القانون وهى عقيدة خاطئة مضللة من المؤلم للنفس أن تروج هذه العقيدة الخاطئة أو الأكذوبة الكبرى وأن يلقنها الطلبة على أنها عقيده مسلم بها أولى العلم والقائمين على أمر التشريع بالرغم من أنها قائمة على مخالفة الواقع وإنكار الحقائق والجهل الفاضح بأحكام الشريعة ، أن الشريعة تتفوق على القوانين الوضعية تفوقا عظيما فى المسائل الجنائية عامة ، وأن القسم الجنائى من الشريعة صالح كل الصلاحية للتطبيق فى عصرنا الحالى فى المستقبل كما كان صالحا كل الصلاحية فى الماضى .

تبين لى من دراسة الشريعة أن القائلين بأن الشريعة لا تصلح للعصر ، لا يبنون آرائهم على دراسة أو حجج منطقية لأن الدراسة العلمية والمنطق لايقضيان القول بتفوق الشريعة على القوانين الوضعية وبصلاحيه الشريعة

لهذا العصر ولما سيتلوه من عصور وفوق هـذا فالقائلون بعدم صلاحية الشريعة للعصر الحاضر ، فريقان : فريق لم يدرس الشريعة ولا القانون وفريق درس القانون دون الشريعة وكلا الفريقين ليس أهلا للحكم على الشريعة لأنه يجهل أحكامها جهلا مطبقا ومن جهل شيئاً لايصلح للحكم عليه .

أنهم يقيسون الشريعة الإسلامية بالقوانين الوضعية فيقولون : مادامت القوانين التى كانت سائدة حتى أواخر القرن الثامن عشر لاتصلح لعصرنا الحاضر فكذلك القوانين التى كانت سائدة فى العصور الوسطى والتى ظل الكثير من أحكامها معمولا به ، ووجه الخطأ فى القياس أنهم سووا بين القوانين الوضعية التى وضعها البشر وبين الشريعة الإسلامية التى تكفل بوضعها خالق البشر فهم حين يقيسون إنما يقيسون الأرض بالسماء والناس برب الناس ، وكيف يستوى فى عقل عاقل أن يقيسون نفسه بربه وأرضه بسمائه . وجه الخطأ فى هذا القياس أنهم سووا بين الشريعة والقانون وهما مختلفان فى طبيعتهما كل الاختلاف ونستطيع أن نبين مدى هذا الخلاف إذا استعرضنا تشابه كل منهما وميزاته الجوهرية التى تميزه على غيره ، لاقياس بين مختلفين : وإذا صح أن الشريعة تختلف عن القوانين اختلافات أساسية وتتميز بميزات جوهرية فقد اقتنع الناس بان القاعدة أن القياس يقتضى مساواة المقيس بالمقيس عليه فإذا انعدمت المساواة فلا قياس أو كان القياس باطلا .

تختلف الشريعة عن القانون اختلافا أساسياً فى عدة وجوه :

الوجه الأول : أن القانون من صنع البشر أما الشريعة فمن عند الله ومن ثم كان القانون عرضة للتبديل والتغيير أو ما يسميه التطور كما تطورت الجماعة إلى درجة لم تكن متوقعة .

الوجه الثانى : أن القانون عبارة عن قواعد مومن يصنعها الجماعة لتنظيم شئونها وسد حاجاتها فهى قواعد متاخرة من الجماعة أو فى مستوى الجماعة اليوم ومتخلفة عن الجماعة غدا لأن القوانين لاتتغير بسرعة تطور الجماعة ، أما الشريعة فهى قواعد وضعها الله تعالى على سبيل الدوام لتنظم الجماعة

قواعدها دائمة لا تقبل التغير والتبديل وتتميز هـــذا الشريعة بما يملأ نصوصها من المرونة والعموم بحيث تتسع لحاجات الجماعة مهما طالت الأزمات .

وتطورت الجماعة وأن تكون قواعد الشريعـة ونصوصها من السمو والارتفاع بحيث لايمكن أن تتأخر فى وقت أو عصر ما عن مستوى الجماعة .

(٣) أن الجمـــاعة هى التى تضع القانون وتلونه فعاداتها وتاريخها وتقاليدها أما الشريعة فهى ليست من صنع الجماعة وأنها لم تكن نتيجة لتطور الجماعة وتفاعلها كما هو الحال فى القانون الوضعى وإنما هى من صنع الله الذى أتقـــن كل شىء .

(٤) المميزات الجوهرية التى تميز الشريعة عن القانون .

١ — « الكمال » تمتاز الشريعة بالكمال وأنها استكملت كل ما تحتاجه الشريعة الكاملة من قواعد .

٢ — « السمو » قواعدها ومبادئها اسمى من اسمى من مستوى الجماعة .

٣ — « الدوام » : تمتاز الشريعة على القوانين الوضعية بالدوام أى بالثبات والاستقرار بنصوصها لا يقبل التعديل ولا التبديل مهما مرت الاعوام .

٤ — « الشورى » سبقت الشريعة الإسلامية القوانين الوضعية فى تقرير مبدأ الشورى باحد عشر قرنا حيث لم تعرف هذه القوانين مبدأ الشورى إلا بعد الثورة الفرنسية .

٥ — الشريعة تقرر الشورى قاعدة للحكم : لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام ، هذان نصان بلغا من العموم والمرونة واليسر مالا يمكن أن يتصور بعده عموم أو مرونة أو يسر .

(٨)

تم تعديل المادة الثانية من الدستور المصرى الصادر ١٩٧١ الذى تم بعد استفتاء شعبى ١٩٨٠ وهو تعديل له أهميته البالغة فى توحيد اتجاه التشريع المصرى فى كل مجالاته . كانت المادة قبل تعديلها تنص على أن الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع وعبارة النص على هذا النحو كانت تسمح بان يقوم إلى جانب الشريعة نظم قانونية أخرى مستمدة بصفة رئيسية من مصدر أجنبى عن الشريعة .

وكان الواقع القانونى لمصر متمثل فى تعدد مصادر التشريع ، وانفردت الشريعة الإسلامية بحكم مسائل الأحوال الشخصية وقام إلى جانبها القانون المدنى ١٨٨٣ وقانون العقوبات ١٩٠٤ وفى القانونى المدنى المعدل ١٩٤٩ جعلت الشريعة مصدراً من مصادره الرئيسية إلى جانب التقنينات العالمية الأخرى أما فى قانون العقوبات فالوضع يختلف لأنه لم يظهر أى اتجاه لمراعاة أحكام الشريعة عند وضعه أو حتى فى تعديلاته المتتالية الرئيسية إلا ما جاء فى المادة السابقة من أن تطبيقه لا يخل بحق مقرر فى الشريعة ولم يعتبر هذا النص مطلقا قيدا عاما على أحكام القانون إنما كان يجرى تطبيقه فى حالات قليلة جزئية متعلقة ببعض أحوال الإباحة (مثل حق التاديب المقرر للأب على أبيه والمعلم على تلميذه).

أن تعديل المادة الثانية من الدستور الذى ينص على أن الشريعة هى المصدر الرئيسى للتشريع تعنى أن تكون الشريعة هى المصدر الرئيسى وحدها بحيث يمتنع أن يساويها أو يشاركها فى الأولوية التى أعطاها لها الدستور مصدر آخر ويعنى كذلك أن التشريع المصرى لابد أن يكون متفقا مع نصوص الشريعة اللفظية أو قواعدها العامة الكلية .

وقد وضعت الشريعة نصوصاً معينة لعدد محدود من الجرائم العادية هى : —

الحدود (من السرقة والحرابة والزنى والقذف وشرب الخمر) .

كما وضعت القاعدة فى التسوية بين الجريمة وعقوبتها فى مبدأ القصاص فى جرائم الاعتداء على النفس ومادونها .

وفيما عدا ذلك فإن سياسة التجريم والعقاب بالنسبة لباقى الجرائم وعقوباتها تخضع لما يضعه لها المجتمع من ضوابط ومعايير تحقق المصلحة والعدل وهما من أصول الشريعة ومقاصدها .

والواقعة الجنائية لابد وأن يحكمها نص شرعى قطعى الدلالة وأن تتوافر فيها الشروط الشرعية لإمكان تطبيق الحد الشرعى سواء من ناحية الركن المادى للجريمة أو قيام الدليل الشرعى بشروط مما يقتضى العلم بكافة الشروط اللازمة لتطبيق الحد فى جرائم السرقة والزنى والقذف وغيرها من الحدود .

(دكتور جمال الدين محمود)

وقد كان من آثار صدور هذا التعديل أن أخذت المحاكم وبعض رجال القانون يوجهون أحكامهم وجهة إسلامية .

فطالبت محكمة جنح بنى سويف بقطع يد أحد اللصوص كما قررت محكمة عابدين أن الفوائد ليست إلا ربا حرمه الاسلام وأصدرت محاكم أخرى أحكاما بمنع شرب وبيع الخمور .

(٢)

العلاقات الدولية فى الإسلام .

جرت محاولات كثيرة خلال سنوات المد التغريبى لإنكار مفاهيم الدبلوماسية فى الإسلام حتى جاء من الباحثين المسلمين من يكشف هذه الحقائق ، من هذا تلك الدراسة المبكرة التى كتبها الدكتور نجيب الارمنازى والأبحاث التى قدمها الدكتور ضياء الدين الريس وفى الأخير نرى أطروحة الدكتور محمد الشافعى « الدبلوماسية فى الإسلام » وهى دراسة تؤكد عطاء الحضارة العربية الإسلامية فى مجال العلاقات الدولية للأمة العربية الإسلام ، فقد كشفت كيف أن الإسلام عرف نظام السفارة قبل أن تعرفه الدول الحديثة

وقبل أن تقننه معاهدة فينا عام ١٩٦١ كما عرف النظام الإسلامى أسلوب كتابة المعاهدات وكان «على بن أبى طالب» هو الكاتب المتخصص فى كتابتها على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فمنذ أربعة عشر قرنا سبقت الشريعة الإسلامية فقدمت أحكاما عربيه بشان حماية ضحايا وأسرى الحرب قبل أن يهتدى إليها اتفاقات جنيف الأربع المعقودة عام ١٩٤٩ .

أولا : أحكام أسرى الحرب وحظر أعمال الثار والانتقام ضد الجرحى والمرضى والغرقى فى ميدان القتال وقتل الخصم أو إصابته أو أسره باللجوء إلى وسائل الغدر التى نظمتها البروتوكولات الملحقة باتفاقيات جنيف سنة ١٩٧٧ .

ثانياً . كثير من المشاكل الدولية التى مازالت محل نقاش فى المؤتمرات الدولية تناولتها الشريعة الإسلامية بالضبط والتنظيم لأن مهمتها حضارية وتنظيمية تستهدف تنظيم العلاقات الدولية فى مجتمع مفتوح لضم شعوب العالم المعروفة فى ذلك الوقت .

ثالثاً : تنظيم الجماعة الإنسانية على أسس ثابتة واضحة المعالم.

رابعاً : القانون الدبلوماسى جزء من القانون الدولى .

خامساً . الشريعة الإسلامية بمبادئها الخلاقة وماحوته من تنظيمات وأسلوب للتعامل بين الدول مسلمة كانت أو غير مسلمة فى السلم والحرب هى فى الحقيقة تقنين للدبلوماسية سبق غيره .

سادساً : القانون الدولى الحديث لم يصل فى بعض أحكامه إلى ماوصلت إليه الشريعة الغراء فالإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨ اعترفت به الشريعة الإسلامية منذ ظهورها اعترافاً صريحاً مطلقاً وقد جاء الاعتراف فى وقت لم يكن للإنسانية خارج ديار الاسلام حق تجاه السلطة الحاكمة .

سابعاً : أهملت المصادر الدبلوماسية المختلفة أن عمداً أو سهواً دراسة النظرية الدبلوماسية عند العرب وخاصة فى عهد الخلافة الإسلامية وسبب عدم الاهتمام يرجع إلى أن معظم المراجع عربية لم يتيسر لعلماء الغرب يتتبع تطورات الدبلوماسية الإسلامية .

(٢) ما نقل مكتوبا باللغة العربية ليس موحد المباحث أو المنهج ولا هو ميسور للباحثين ولكنه مبعثر من شتى المخطوطات وبطون الكتب .

ثامناً : لم يقدم رجال القانون العرب ، للدبلوماسية الإسلامية الاهتمام الذى تستحقه وردد بعضهم دون قصد دعوى المفكرين الأجانب الذين اعتبروا أن الدبلوماسية البيزنطية هى مصدر التشريع الإسلامى والنظم الدبلوماسية الحديثة وهو أمر غير صحيح على إطلاقه .

تاسعاً : الدبلوماسية البيزنطية كانت تهتم بالنواحى الخاصة بالمراسم وفرق بين الدبلوماسية والمراسم بينما أعطى المسلمون الاهتمام الأكبر للنواحى الدبلوماسية ولم يغفلوا المراسم والنواحى المظهرية (لخصه أحمد يوسف القرعى)

(١٠)

الإسلام أب القانون الدولى .

يقول العلامة مارسيل بواشا : إذا كان المسلمون هم الذين ابتدعوا (علم الجبر) وكانوا هداة الدنيا بأسرها فى المجال التطبيقى للعلوم ، مما نشأ عنه تفوقهم الهائل فى الكيمياء والصيدلة والأبحاث الطبية وعلوم الأحياء والنبات والبصريات والميكانيكا فإنهم هم الرواد فى مجال آخر له أبعاده الإنسانية العظيمة إلا وهو (القانون الدولى) وشرائع الحروب والسلام وسائر العلاقات الدولية فى المجال الدبلوماسى التجارى .

لقد ظل الإسلام سبعة قرون بكاملها مهيمنا على الحياة الفكرية والثقافية لحوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد تسربت أنواره إلى صميم الحياة الأوروبية رغم حالة العداء المتبادل طوال تلك الفترة وما تزال الأبحاث التى تحاول استقصاء التأثير الإسلامى فى العالم النصرانى دائرة منذ بضعة عقود من الزمن .

ولا شك أن التعصب الجاهل والحقد المذهبي قد ساهما كثيراً فى تعمية الحقائق وطمسها من جانب الغربيين حيث تجدهم يهملون نسبة الفضل إلى أهله ويتعمدون إغفال ذكر المصادر التى أخذوها منها فضلا عن أعمال السطو الفكرى وانتحال أسماء لمؤلفات وضعها غيرهم .

لقد سرى أثر الإسلام وشريعته المتسامحة إلى أوربا فى عهدها الإقطاعى المتخلف فكان لذلك أثره العظيم فى مجال القانون بخاصة والتقدم الذهنى بعامه ، أن الشريعة الإسلامية المثلى فى سماحتها قد سهلت عبور الأجانب ورحلاتهم التجارية عبر العالم الإسلامى ، لقد بدأت نهضة الغرب فى إيطاليا منذ القرن الحادى عشر وواكب ذلك ارتفاع الطلب على سلع الشرق وكانت معابر إيطاليا للعالم الاسلامى هى صقليه وسالرمو فضلا عن البندقية وجنوه وبترا لقد كان الكثيرون من تجار إيطاليا يمكثون عدة أشهر من العام فى بلدان البحر المتوسط الاسلامى ، وكانوا على رأس الناقلين لأوربا مستوى رفيعاً من العادات والأعراف والطبائع الاسلامية .

وأهم من ذلك جميعا « الشريعة الاسلامية » للمتاجرة الدولية فالإسلام هو الذى أقر وشجع انتشار مبدأ الحركة البحرية والحق العام فى الملاحة البحرية لسائر الناس وبتأثير روح الإسلام ومبادئه الأممية السامية أصحب أوربا اعتباراً من القرن الثانى عشر للميلاد تؤمن بحرية المرور للجميع فى الممرات النهرية كما تفهم الأوربيون قيمة المعاهدات التجارية ومزايا الحفاظ عليها من النقص والعيب واقترنت بذلك ظاهرة مستجدة فى أوربا هى ظاهرة احترام الأجنبى الوافد للتجارة من غير بلاده كما بدأ يظهر إدراك واضح للضمانات المكفوله بالحصانة الدبلوماسية .

ومن المعروف أن حماية المسافرين الأجانب والتجار هى التزام قديم على الجماعة الاسلامية مكفول بنصوص الشريعة منذقامت للاسلام دولة ،وقدقامت على ذلك شروط الاتفاقات التجارية ، ومن ذلك معاهدة معبودة ١٤٨٩ من سلطان المماليك قايتباى وجمهورية فلورنسا ، أمر السلطان لرعاياه بكفالة أشخاص وأموال سائر المواطنين فى جمهورية فلورنسا فى أراضى مصر وسوريا

وفى عام ١٣٤٠ م وضع أول قانون للبحر ينظم الأحكام التى إقتبسها الغرب من المسلمين عن العمل البحرى التجارى وضماناته ومن أهمها الضمان الإسلامى المعروف ، وهو أن الالتزامات الواقعة على شحن السفينة لاتؤثر على التزامات السفينة ولا ترتبط بها وهو حكم لم يتقرر فى أوربا إلا بعد حرب القرم فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ويمكن اعتبار القانون الإسلامى المنظم لأعمال التجارة البحرية الذى اقتبسه الغرب فى القرن الرابع عشر أول القوانين الدولية التى طبقتها أوربا فهو ينظم أحكام الملاحة البحرية والجمارك وواجبات وحقوق أصحاب السفن والتجار وقباطنة البواخر ووسائل حل الخلافات الناشئة بين التجار بصرف النظر عن قومياتهم الأصيلة أو عن دينهم . وإن ظهور هذا القانون فى دائرة منطقة المتاجرة مع المسلمين فى حوض البحر المتوسط هو الدليل القاطع على أن الإسلام كان الهادى لأوربا والباعث المحرك لنهضتها ومن أكبر ما أفاده الغرب من الحروب الصليبية هو اقتباسهم من المسلمين المهارات البحرية وعلوم البحار وأدوات الملاحة وقد ترجم اليهود علوم المسلمين وتطبيقاتهم التقنية وقوانينهم وثقافتهم العامة إلى اللغات الغربية ولاسيما اللاتينية

وقد ظهرت مجموعة (البارتيدا) الصادرة فى سلامنكا فى أعقاب انتشار كتاب (الولاية) وهو مجلد لخص كل شرائع وأعراف المسلمين بشأن الحروب ورعاية أيتامها وكفالة المتضررين من جرائها وكذلك كفالة الإسلام للمساكين وإيواء السبيل والمقعدين والشيوخ كما حوى فصلا عن حضانات الممثلين السياسية وسلامة العبور عبر أراضى العدو فى الحالات الإنسانية والاستثنائية والتجارية والعقوبات المسنونة لأعمال الخيانة لهذه المبادىء .

وإن كان قد كتب على مجموعة (البارتيدا) إنها عبارة عن أقوال حكماء قدسيين فإن مادة الكتابة وأسلوبه على السواء تنمان بكل بساطة عن وجهه الإسلامى وإن هناك محاولة للتمويه على الأصل الإسلامى للقوانين .

والحقائق الواردة فى المجموعة . إن المواد التى تتعلق بتوزيع الأنفال فى الغرب إنما هى بالكامل وبالحرف لواحد الشرائع التى وضعها القرآن الكريم

وقاس عليها المجتهدون المسلمون ، كما يحدد الحقوق والحصانات الخاصة بالمفاوض الذى يفاوض لإطلاق سراح الأسرى فى بلاد العدو وقد أخذت بالحرف الواحد من المسلمين وثمة فصل آخر عن حقوق وسلامة الرسل فى أثناء الحروب . وينبغى أن نؤكد أن كامل هيكل الفكر الغربى فى مجال التشريع الدبلوماسى الدولى والقوانين الدولية فى الحرب والسلام إنما قام على مجموعة (البارتيرا) وهى المقتبسة عن الشريعه الاسلاميه والفكر الإسلامى وعمل المجتهدين والفقهاء والمسلمين ومع كل الاجتهاد الذى حدث منذ سقوط غرناطة ١٤٩٢ لمحو آثار الإسلام والتستر على فضل المسلمين لم يكن ذلك ممكنا على الإطلاق بعد أن أقام المسلمون حوالى ثمانية قرون هناك وبالرغم من الروح الرهيبة التى واكبت فظائع محاكم التفتيش وكل ماجرى من براكين الحقد على المسلمين لم تحل دون استمرار وضوح التأثير الحضارى الإسلامى إلى مدى بضعة قرون تلت خروج المسلمين وأنه من الأنانية الماكرة واللؤم الرخيص أن يظن أن النهضة الأوربية كانت ستكون ممكنة لولا فضل المسلمين دورهم التاريخى الفذ . لقد كانت مقتبسات فردريك الثانى فى صقلية تشمل أولا تجهيزات الجيش ووسائل تعبئته وتنظيمه وتدريبه وتجهيزه وتموينه ، وثانياً : النظم الضريبية ونظم الجمارك واحتكار الدولة للمناجم وضمان المساحات من الأرض المشاع لكل قرية وغير ذلك كثير ، وفيه جميعا كانت شريعة الإسلام هى النموذج الذى احتذاه الغرب دون اعتراف بذلك أو إقرار به ، أن الأفكار التى اضطرمت فى الغرب عن الحرية وأدت إلى قيام الثورة الدينية ، وكثير من الثورات السياسية فى أوربا إنما كانت حصاد اتصال النصارى بمسلمى الشرق أيام الحروب الصليبية ونتيجة لتأثير التسامح الإسلامى على نصارى الغرب المقيمين بالممالك اللاتينية وقد أصبح هناك شق واسع بين النصارى المقيمين فى الشرق والآخرين الوافدين لنجدتهم فى الحملات الصليبية المتأخرة فى الغرب .

(١١)

الشريعة الإسلامية :

يقول المستشار على على منصور : شريعتنا غنية بكل شيء وحرام أن نتسول ونحن أغنياء ، إعترف علماء القانون فى الغرب بأن الشريعة الإسلامية هى أهم مصادر التشريع ، ما أحوجنا نحن المسلمين إلى تقنين الشريعة الإسلامية وخاصة بعد أن أخذتنا القوانين الوضعية نحو المزالق المستهلكة والفوضى والضياع ، ونتباهى بأننا أخذنا عن أحدث القوانين الوضعية فى الغرب يشدنا سراب خادع اسمه الحرية الشخصية لدرجة أن الزنا وهو أبشع الجرائم اعتبرته بعض القوانين الوضعية من قبيل هذه التجربة الشخصية وكذلك الحال مع شرب الخمر والاتجار فيها .

القوانين الوضعية ترى أن معاقبة الزوج على ارتكاب جريمة الزنا وهى جريمة فى حق الدين والمجتمع كله ، أمر متروك للزوج وحده يقرره أو يمنعه فهو أن تنازل امتنع على القضاء أن يوقع أية عقوبة على الزوجة الزانية حتى إذا عوقبت بالسجن كان من حقه أيضاً بعد ذلك أن يتنازل ويخرجها من السجن والزوج الذى زنت زوجته من حقه أن يزنى خلال مدة خمس سنوات من تاريخ ارتكابها هذه الجريمة دون أن تطوله يد القانون .

هذا كله قبلناه لأننا بعدنا عن الدين وانحرفنا نحو الغرب ولذلك كانت حاجة المسلمين إلى تقنين الشريعة ضرورية .

إن المسلمين فى حاجة ملحة إلى ذلك حاجة البدن إلى الروح ، فهذا الأمر لازم لهم ليكمل لهم إسلامهم فالشريعة الإسلامية أهمل أمرها فى بلاد المسلمين فالعبادة بالصلاة والصوم فقط هى عبادة العجائز . والشريعة الإسلامية قادرة على مواجهة جميع الأحداث فى كل زمان ومكان وفيها الكفاية كل الكفاية لحل مشاكل البشرية جمعاء إلى يوم الدين .

جاءت الشريعة الإسلامية بأحكام قاطعة ملبية لحاجات الناس فى كل مكان

وزمان وجاءت قاطعة فيما يتعلق بالعبادات والعقائد وتركت الباقى للاجتهاد لتكون مرنه مع اختلاف البيئات والأزمنة وأعطت الحرية لاحتكام العقل البشرى احتراما له ، فالله يعبد بما شرع ولكن الفروع التى لا يضر الخلاف حولها لا يضر الأمر على توحيدها حتى لا تصطدم بالزمان والمكان ، وهذه هى التى فتح فيها باب النظر والاجتهاد كـكل الفتاوى التى صدرت من الأئمه وهى التى تكونت منها المذاهب والفقه الإسلامى .

لماذا التقنين مادامت الشريعة موجودة فعلا من خـــلال كتاب الله والأحاديث النبوية وسنة رسول الله .

(جـ) حتى تصبح فى شكل مواد مرتبة ومبوبة وفى شكل مجموعة من التشريعات ليسهل على الإنسان معرفتها والرجوع إليها ويسهل على القضاة والمحامين الاهتداء إلى مايريدونه منها فى أقصر طريق وفى النهاية لتصبح الأداة الرسمية التى تحكم كافة معاملات الناس فى الحياة من خلالها .

إن حاجتنا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية هى حاجتنا إلى طاعة الله فيما لم يحكم فيه بما أنزل الله فنحن كافرون طاغون .

عاش الفقه الإسلامى أربعة عشر قرنا ومازال صالحا لكل زمان ومكان والتشريعات فى أوربا وليدة قرن واحـــد والتشريعات الشيوعية وليدة نصف قرن . وقضاء المظالم عرفه الإسلام منذ أربعة عشر قرنا وهو مايسمى (مجلس الدولة) .

قطعت السعودية فى عهد الملك بن عبد العزيز ستة عشر يدا كانت ثمنا لتحقيق الأمان الكامل فى هذه البلاد الشاسعة ولملايين الملايين من البشر القادمين من الحجاج فى مدى خمسة وخمسين عاما .

(١٢)

القانون الدولى العام

أول من تصدى من الفقهاء المسلمين لدراسة مايسمى الآن « القانون

الدولى العام » : فى كتاب مستقل هو الإمام محمد بن حسن الشيبانى الذى أخرج كتاب « السير الكبير » فى القرن الثامن الميلادى . كما أخرج الماوردى كتابه (الأحكام السلطانيــة) وهو دراسة للقانونين العام الداخلى (كالإدارى والدستورى) والعام الخارجى الدولى وذلك فى القرن الحادى عشر الميلادى (أخرجه صلاح المنجد أخيرا) أما القانون الدولى الأجنبى فإن حركته لم تبدأ إلا فى القرن السادس عشر الميلادى عند فتيوريا وسوارز ، وأول كتاب ظهر مستقلا فى ذلك ويمكن أن يقارن بكتاب الشيبانى هو كتاب جروسيوس الهولندى واسمه (قانون الحرب والسلم) وذلك فى القرن السابع عشر الميلادى أى بعد ظهور كتاب الشيبانى بتسعة قرون وقد أسس فى ألمانيا فى السنوات الأخيرة جمعية الشيبانى للحقوق الدولية وضمت عدداً كبيراً من علماء القانون الدولى والمشتغلين به فى مختلف أنحاء العالم بهدف التعرف إلى الشيبانى وإظهار آثاره العلمية فى هذا الباب وقد أثبتت الدراسة تفوق الفقه الإسلامى فى مجال القانون الدولى العام فى مجالات متعددة :

(١) فى مجال السلم والعلاقات الدولية (٢) مبدأ حرية البحار وحرية التجارة والملاحة فيها (٣) الحرب المشروعة وغير المشروعة (٤) نظرية إعلان الحرب (٥) معاملة المدنيين غير المحاربين أثناء الحرب (٦) معاملة أسرى الحرب (٧) العهود والمواثيق بين الدول .

(ثانياً) مكانة الفقه الإسلامى فى القانون الدولى العام :

القانون الدولى العام الذى ينظم علاقات الدول فيما بينها فى حالتى السلم والحرب ، أثبت ميشيل دى توب أستاذ القانون الدولى العام (لاهاى) ١٩٣٦ أن فيتوريا وسوارز (القرن الثالث عشر الميلاد) هما أول من فكر فى قواعد القانون الدولى العام الوضعى وأنهما كان يمثلان وينقلان فى ذلك القواعد الفقهية الدولية فى الشرع الإسلامى وكلاهما من أسبانيا عاشا بين ١٥٤٦ — ١٦١٧ ثم نقل منهما جروسيوس المسمى أبو القانون الدولى (القرن ١٧) وعنه نقل جميع فقهاء القانون الدولى الحديث .

وقد عدد دى توب ما سبق الإسلام به كل القوانين الدولية وعلى الأخص تنظيم الحرب وقد أورد وصية الخليفة أبى بكر لاسامة كما أورد أوامر الخليفة الحكم بن عبد الرحمن ٩٦٣ فى قرطبة بالأندلس ، وقال فى الختام : هذه هى مختلف القواعد الشرعية الإسلامية التى عمل بها لتخفيف وطأة الحرب فى القرن السابع الميلادى أى منذ بعثة النبى(ص)إلى القرن ١٣ الميلادى فهى إذن سابقة بأمد طويل على الأفطار والمبادى القانونية المماثلة التى بدأت تشق طريقها فى عصر النهضة خلال الهمجية التى استولت على الحياة الأوروبية خلال القرن ١٣ مما يدل على أثر القواعد الإسلامية فى القانون الدولى الأوربى .

يقول الدكتور محمد رشيد قبانى : هناك فترة زمنية تفصل بين ظهور الفقه الإسلامى وبين نشوء القانون الدولى العام واستقرار قواعده تقدر بنحو عشرة قرون تقريبا . ظهر الإسلام فى القرن السابع الميلادى وظهر القانون الدولى العام فى القرن السابع عشر على يد فيتوريا وسوارز ثم على يد خروسيوس، فالفاصل الزمنى بين النظامين إذن يزيد على ألف وأربعمائة سنة تقريبا ومع ذلك فإن القانون الدولى العام لايبدو الآن رغم التقدم السياسى والاقتصادى والعلمى والإجتماعى فى الصورة المتكاملة التى بدأ بها الفقه الإسلامى وقت ظهوره ولم يصل القانون الدولى العام كقانون اتفاق بين الدول إلى بعض ما يقرره فى الفقه الإسلامى من قواعد دولية إلا حديثا وفى النصف الثانى من القرن العشرين ظهر :

— الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ١٩٤٨

— قواعد حرية البحار ١٩٥٨

— قواعد قانون المعاهدات ١٩٦٨

— معاهدات جنيف ١٩٤٩

وقد ألف فى القانون الدولى العام عدد من الباحثين المسلمين المعاصرين

(١) مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام: على على منصور

(٢) القانون والعلاقات الدولية فى الإسلام : صبحى المحمصانى

(٣) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى : دكتور وهبه الزحيلى

(٤) أحكام القانون الدولى فى الشريعة الإسلامية : حامد سلطان

(٥) العلاقات الدولية فى الإسلام : محمد أبو زهرة

ملاحظات عامة .

أولا : عبارة (تحديث الشريعة) هى عبارة زائفة ، لأن الشريعة هى نصوص القرآن والسنة النبوية الصحيحة ولا يجوز عليها هذه الدعوى بحال وهذه النصوص بلغت كمالها واكتمالها منذ وفاة النبى ﷺ والتطور معناه الانتقال من طور إلى طور ولا محل للقول بذلك مطلقا بالنسبة لهذه النصوص ومصدرها الإلهى .

أما القول بتطوير الفقه الإسلامى فهو وارد ، إذا صح القصد إليه لأنه عمل إنشائى وهو مجهود علماء المسلمين لفهم نصوص الشريعة واستنباط الأحكام منها سواء أكانت تتعلق بالجزئيات أو القواعد الكلية التى تتفق مع أهداف هذه النصوص العامة فى القرآن والسنة .

والمعروف أن الشريعة غير الفقه ، فالشريعة هى مجموع أحكام الله تعالى الثابتة عن نبيه ﷺ والتى تنظم أفعال الناس ومصدرها كتاب الله وسنة نبيه أما الفقه فهو عمل الرجال فى التشريع استخلاصا لأحكامها وتفسيرا لنصوصها وقياسا على تلك النصوص فيما لم يرد منه نص وطلبا للمصلحة فيما يعرض من أمور السياسة .

ثانياً : الحرص على ذاتية الإسلام فى عقيدته وشريعته بتطبيقه كاملا غير مطعم بمكونات مستمدة من حضارة غير حضارته وغير متصرف فيه زيادة أو نقصا أو استدراكا أو تحفظاً على مايسميه دعاة التطعيم : مراعاة ظروف العصر ومقتضيات التطور . ومن الخطأ قبول الرأى الذى يقول أن الإسلام فى جوهره دعوة للعقيدة الخالصة وللأخلاق الفاضلة صحبتها توجيهات عامة لتنظيم المجتمع ، إذ أن الاسلام منهج حياة اساسا بجوار العقيدة وجميع أحكام

الشريعه الاسلامية واجبة التطبيق إذ لا يجوز التدرج فى تطبيقها بعد أن أكمل الله تبارك و تعالى الدين وكشفت النصوص على حكم الله فى كل مشكلة .

ثالثاً : إذا كان الإسلام يأخذ بمبدأ الشورى فإنه ليس معنى هذا أن هذا المبدأ ينطوى على الأخذ بمبدأ « سيادة الأمة » إذ أنها غربية الأصل إذ لا يصح القول بأن التشريع فى الإسلام هو التعبير عن إرادة الأمة ذلك أن التشريع فى الإسلام إنما هو تعبير عن تطبيق أحكام القرآن ومن خطأ القول بأن الجماعة أو الأمة هى مصدر التشريع فالتشريع أنزله الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ والرسول فصل هذه الأحكام بحيث كان تفصيله بأمر الله ومن شأن السلطة التنفيذية ، فإن أبو بكر أختار عمر ووافق أهل الحل والعقد على هذا الاختيار وعمر ترك الأمر لمجموعة من أهل الحل والعقد وليس للخليفة ولا لأهل الحل والعقد أن يشرعوا أو يفسروا نصوصاً شرعية أو ينسخوها وأساس الحكم هو الشورى بين مجموعة الأمة لابين أفراد هيئة أو حزب ، والحكم فى شريعة الإسلام إنما ينبثق من الأمة فى مجموعها وهم ليسوا إلا أفراد فى هذا المجتمع يذوبون فيه كما يذوب غيرهم . أن قيام الحكم بتعاليم الإسلام فريضة ماضية إلى يوم القيامة . دعائم الإسلام الثلاث هى (الشورى — الصلاة — الجهاد) وإذا كانت عرى الإسلام تنقض عروة عروة فاولها نقضا الحكم وآخرها الصلاة . ولا شك أن قوة الشريعة لاسلامية هى الطريق الوحيد للخروج من الأزمة التى تواجه المسلمين وهى درع لكل التحديات ولا بد من قيام نظام المجتمع فى إطار الشريعة : منع الربا وتطبيق حدود الاسلام وضوابطه .

رابعاً : أن نظرة واحدة إلى العقوبات الاسلامية توضح أنها شرعت زواجر وجوابر أما معنى كونها زواجر فلأنها تزجر الناس عن الجريمة وتمنعهم عن ارتكابها وقد ثبت كونها زواجر بنص القرآن الكريم حيث قال الله تعالى « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب) ففى القصاص حياة للذين شاهدوا هذا القصاص لا للذين وقع عليهم القصاص فى تشريع

القصاص إذن قمع للشر من النفس الانسانية التى تخالف ماشرع الله ومانظم وما أمر وما حكم وكذلك فهى تمنع من لا تردعه التقوى عن عمل يخالف به أمر الله تبارك وتعالى .

خامساً : تقوم أيدلوجية التشريع الاسلامى على ثلاث مبادىء أو أصول رئيسية : وهى التى تحدد موقف الاسلام أو حكمه بالنسبة لسائر المذاهب والأنظمة الاجتماعية السائدة :

(أولا) الجمع بين المصالح الروحية والحاجات المادية ، إبراز الطابع الايمانى والروحى للنشاط البشرى ، ازدواج الرقابة وشمولها ، تسامى هدف النشاط البشرى .

(ثانياً) الجمع بين المصلحتين الخاصة والعامة وخاصة التوفيق والموازنة بين المصالح المتضاربة (١) المصلحة مناط الشرع (٢) التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة (٣) تقديم المصلحة العامة على مصلحة الفرد إذا لم يمكن التوفيق .

(ثالثاً) الجمع بين الثبات والتطور .

(١) التشريع الاسلامى إلهى الأصول اجتهادى التطبيق .

(٢) الأصول الالهية الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان .

(٣) الاجتهادات التطبيقية الاسلامية تختلف باختلاف الزمان والمكان .

الباب الخامس

الفكر السياسي الإسلامي

الاستعمار

بدأ الاستعمار فى القرن السادس عشر بالأسبانين والبرتغالين ثم تتقبهم الشعوب الأوربية الأخرى ، وبلغت مساحة مستعمراتهم خمس مساحة اليابسة ، وعدد سكانها نحو ثلث البشر أهمها المملكة البريطانية ، وكان تحت يدها (٤٥٠ مليوناً) ثم فرنسا (٦٠ مليوناً) وهولندا (٣٥ مليوناً) البلجيك (٣٠ مليوناً) .

واتفقت الدول المستعمرة على اقتسام الغنائم ، وكلمة الامبريالية كلمة أطلقها الشوعيون على الاستعمار الغربى وهى مشتقة من الأصل الذى اشتقت منه كلمة امبراطور ، وامبراطورية ويراد بها التوسع الاستعمارى ليكون مايشبه أن يكون الامبراطورية قديماً .

وقد عرف الاستعمار (الامبريالية) بأنه قيام دولة يفرض سيطرتها على دولة أخرى ويصحبه ذلك استغلال الدولة المستعمرة للاستعمار مع الاحتلال العسكرى، وإحلال رعايا الدولة المستعمرة محل السكان وطرد السكان الأصلين أو إبادتهم واستغلال الموارد ، كما عرف مصطلح الامبريالية بالاستعمار الجديد ، وهذا ينصب أساساً على الدول الاستعمارية الغربية ،التى عرفت تاريخيا بالاستعمار القديم ثم غيرت جلدها أخيرا وعملت على السيطرة بطريق آخر هو طريق الاحتكارات والأحلاف ومراكز القوى والقواعد العسكرية وما إلى ذلك وذلك لبسط سيطرتها الاقتصادية والسياسية على الدول النامية عن طريق المنح والقروض وتصدير رءوس الأموال الأجنبية مع خفض أسعار منتجاتها من الخامات وبالتالى إلى خفض مستوى المعيشة فيها وزيادة العجز المالى فى ميزانياتها .

الرأسمالية

النظام الاقتصادي للايدلوجية الغربية الديمقراطية ، الذى يقوم على الملكية الخاصة لموارد الثروة ويطلق المجال لحريات الأفراد والمشروعات الخاصة ويعتبر الربح حافزاً أساسيا على التقدم الاقتصادي والاجتماعى وقد بدأت معالم الرأسمالية فى الظهور على أثر اضمحلال النظام الاقطاعى وتدهور النفوذ الاقتصادي وصعود الطبقة الوسطى إلى مجالات الصناعة والتجارة والرأسمالية وثيقة الصلة بالثورة الصناعية التى حدثت فى انجلترا وأوربا الغربية منذ أواخر القرن ١٨ وقد بلغ هذا النظام أوجه حوالى منتصف القرن التاسع عشر :

وقد قام النظام الرأسمالى على أمرين (الأول) على نهب ثروات الأمم المستعمرة (والثانى) على الربا ، ومن ثم فقد استطاع اليهود أن يطرحوا المشروعات التى تقوم على إثارة الغرائز الجنسية وإثارة الميل إلى الترف وانتاج الكماليات ومن ثم انتشرت نظريات حيوانية الإنسان ومادية الكون والتفسير المادى للتاريخ وقد قامت المشروعات التجارية على أساس مؤسسات الربا والصيارفة مؤسسى البنوك وحملة السندات وأصحاب البورصات التى تتجر بالأوراق الوهمية واتصل ذلك بصناعة الأفلام السينمائية الداعرة والصحف الاباحية وتجارة الرقيق والخمر والمخدرات وأدوات الترف والزينة وما وراءها من تقاليد المجتمع المستهتر إلى آخر مظاهر الانحلال والترف التى تقوم على مئات الصناعات فى العالم والتى تعمل كلها فى خدمة الرأسمالية وتحتاج إلى فلسفات ونظريات وأساتذة وأدباء وفنانين تضع وتلقن وتشجع هذه الصناعات ويكون لرأس المال فى هذه الأنظمة تلك القوة التوجيهية لأنه هو وحده الذى يتحكم فى المجتمعات الأوربية ، هذا النظام الربوى الذى يفترض أن تكون جميع القيم الأخلاقية والاجتماعية والانسانية لا قيمة لها إذا شاءت أن تتدخل فى قوانين الاقتصاد ، هذا إلى تسخير الشعوب والحكومات واستنزاف ثرواتها التى هى المادة الخام للصناعات ثم تكون هذه البلاد أسواقا للاستهلاك وبذلك ارتبطت الرأسمالية بطبقة المرابين التى تؤسس بنوك الأقراض والتى أخضعت كثيراً من الأمم الشرقية للاستسلام والسيطرة .

وقد حاول الاستعمار نقل هذا النظام إلى بلاد الإسلام ولكن التجربة فشلت، لأنها تتعارض مع مفهوم الإسلام .

وتقوم الرأسمالية على الاحتكار فى الإنتاج الصناعى والربا واستغلال الطاقة البشرية واحتكار الحكم والتوجيه مع تجاهل القيم الروحية والأخلاقية .

الديمقراطية

معناها الحرفى (حكم الشعب) بما يمثل نظاما سياسيا يقوم على حكم الشعب نفسه باختياره الحر لحكامه . وهو مستمد من النظام اليونانى القديم وقد ارتبطت الديمقراطية بمبدأ سياسى واقتصادى هو الليبرالية والرأسمالية .

وقد جاء فشل الديمقراطية فى بلاد الإسلام نتيجة طبيعية لتعارض هذا المذهب السياسى مع طبيعة المجتمع الإسلامى وبالتالى مع مقومات الأمة التى تقوم على الإسلام ، ويرجع التعارض أساساً إلى قيام النظام الليبرالى على العلمانية التى تفصل الدين عن الدولة وعلى حرية المرأة والتبرج والاختلاط وعلى زيف مفهوم الحياة اليومية والاقتصاد الرأسمالى والنزعة القومية العنصرية — والحرية التى تدعو إليها (الايدلوجية الرأسمالية) لم تمكن الجميع وإنما هى وقف على من يملكون ، ولذلك كانت حرية ناقصة نقلت السلطة السياسية من أمراء الإقطاع إلى الطبقة البرجوازية ومن خلال الأرض إلى أصحاب المتاجر والمصانع ورجال الأعمال . وقد قدمت فنا وأدبا وثقافة تخدم أغراضها بل حاولت أن تستخدم الدين فى الدعوة لمصالحها بل وصلت إلى إضفاء جو من التقديس حول هذه الأفكار بحيث يصبح الهجوم عليها نوعا من البربرية وهجوما على أساس الحضارة الإنسانية وقد تحولت الرأسمالية إلى إستعمار (إمبريالية) فقامت الاحتكارات الرأسمالية . والإمبريالية هى الرأسمالية عندما تبلغ من التطور درجة تتكون فيها سيطرة الاحتكار .

الطائفيـة

ركز النفوذ الأجنبي في إحكام قبضته على البلاد الإسلامية على عدة عناصر هامة انطلق منها واتخذ منها ركائزه . ومنها الأقليات ، وإثارة الطائفية وابتعاث الفرق القـــديمة والنزعات والنحل التى قضى عليها الإسلام . . تقول دكتورة ساوى أبو سعدة : لقد استخدم أسلوب الطائفيـة بنجاح بواسطة القوى الأجنبية فى مراحل مختلفة من تاريخ المجتمع البشرى . فقـد لعبت القوى الصهيونية والاستعمارية على هـذا الوتر ، فأحسنت استخدامه أو تفننت فى إذكائه تحت عنوان « فرق تسد » كما استخدمت فرقا بعيدة عن الدين كليـة إمعانا فى الفرقة . وكان الخلاف بين الفرق والطوائف منـذ أن بدأ بين المسلمين خلافا سياسياً وليس دينيا فالاختلاف لم يكن فى صلب العقيدة الإسلامية وإنما كان خلافا فى الرأى حول طريقة اختيار الحاكم ، التى بدأت بعد مقتل عثمان ولم تـكن هـذه الانقسامات وحدها بل استغل الإستعمار تعدد الأديان ، بضرب عنصرى الأمة فى بعض البلاد فاستقلال الأقليات هى إحدى الوسائل التى كثيرا ما لجأت إليها القوى الخارجية لفرض سيطرتها على البلاد . وكانت عمليات التبشير أساسها بث الفرقة والتميز بين الأديان وقد كان التنافس بين المبشرين دائما على أشده لنشر فكر سياسى معين ، وقد كانت الدول تعتقد أن المبشرين هم طلائع نفوذها ، كما استعملت فرق داخلية كالبهائية فى إيران والقاديانية فى الهند والصائبة فى العراق .

ويقصد بالأقليات فى العرف الدولى فئات من رعايا دولة من الدول تنتمى من حيث الجنس أو اللغة أو الدين إلى غير ماينتمى إليه أغلبيـة رعاياها ، وقد اشتملت كثير من المعاهدات الدولية التى عقدت فى القرن التاسع عشر على نصوص بشأن حماية الأقليات وبرز هذا الاتجاه خاصة فى معاهدات الصلح التى أبرمت بعد الحرب العالمية الأولى على أثر قيام دول جديدة مستقلة تضم أقليات من جنسيات مختلفة ، وكانت مسألة الأقليات من المشاكل التى واجهت عصـــبة الأمم وأثارت كثيرا من العواصف فى

اجتماعاتها وتركز إسرائيل فى المجتمع العربى على ثلاث نقاط : الطوائف الدينية ، الأقليات العرقيه ، العشائر ، العائلات وهو نفس اتجاه الاستعمار الذى جاء بالدعوتين الإقليمية والقومية لايقاظ القوميات حتى بين المسلمين أنفسهم ، فلو علت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية لاخضعت عمليات التحريض التى يقوم بها الاستعمار وإسرائيل .

وتقول دكتورة سلوى أبو سعدة : إن أسلوب الطائفية استخدم بنجاح بواسطة القوى الأجنبية فى مراحل مختلفة من تاريخ المجتمع البشرى . وإن خطورة المذهبية الطائفية كافة إنما تنخر فى جسمنا العربى والإسلامى على الدوام بالإضافة إلى جدية الدعوة للتقريب بين الطوائف المختلفة وإن القوى الصهيونية والاستعمار قد لعبت على هذا الوتر فأحسنت استخدامه أو تفننت فى أذكائه واستخدمت فرقا بعيدة عن الدين كليـة إمعانا فى الفرقة ، وكان الخلاف بين الفرق والطوائف منذ أن بدأ بين المسلمين خلافا سياسيا وليس دينياً فالاختلاف لم يكن فى صلب العقيدة الإسلامية وإنما كان خلافا فى الرأى حول طريقة اختيار الحاكم هذه الخلافات التى بدأت بعد مقتل عثمان ، وتتركز الأخطار حول الشيعة فى ثلاثة خطوط رئيسية .

- فريق يعتقد أن التشيع عقيدة دينية خالصة .
- فريق يرى أنه فكرة سياسية خالصة .
- فريق يرى أنه وجدان عاطفى خالص نتج عما حدث لآل البيت وبالطبع هناك القرائن والأدلة والبراهين لكل فريق .

وتقول أن الفرق الأخرى قد انتهت ولم يعد لها وجود وفى مقدمتها الخوارج ، بل أن الشيعة قد أعلنوا أكثر من مرة أن الفرق الغالية ليست منهم وأن الزيدية والاثنا عشرية قريبان من مفهوم أهل السنة وقد جرت فى السنوات الأخيرة دراسات لتقارب بين السنة والشيعة ، وقد استغل النفوذ الأجنبى الخلاف بين السنة العثمانيين وبين الشيعة الإيرانيين ، وقد

انتهت هذه المحاولة ، وحدث اليوم تقارب بين الأتراك والإيرانيون والعرب فى مواجهة أخطار النفوذ الأجنبى .

وتقول د كتورة سلوى . أن الاستعمار استعمل أيضاً تعدد الأديان لضرب عنصرى الأمة بعضهما البعض ، وإن عمليات التبشير التى يقوم بها النفوذ الأجنبى هى خطة لبث الفرقة والتمييز بين الأديان وإنها تستخدم لتنفيذ سياسيات استعمارية .

كذلك فان البهائية ، هى واحدة من هذه الخطط الرامية إلى زلزلة العقيدة الإسلامية وإشاعة الفرقة بين أبنائها ، وقد تكشف أنها كانت على صلة بالصهيونية العالمية .

وأشارت الباحثة إلى أن طائفة « الصابئة » الموجودة بالعراق وإيران كانت محط أنظار الانجليز والفرنسيين لاستخدامها لتحقيق أهدافهم ، وإن وكلاء بريطانيا فى بغداد ١٨٣٣ عملوا على توجيههم واحتوائهم ، وكذلك سعى كثير من زعماء الغرب على كسب ثقة الأقليات الدينية فى العراق وربطها بعجلة الاستعمار البريطانى ، كذلك فقد جرت المحاولات مع طائفة العلويين فى سوريا فقد أدخل الاستعمار فى روعهم أنهم غير مسلمين حتى يتمكن من الاستعانة بهم فى تثبيت أقدام الاستعمار كما جرى مثل ذلك من الدروز وهى فئة إسلامية حاول الاستعمار مراراً استغلالها . وقد ظهرت فى السنوات الأخيرة رسائل متبادلة بين بن جورين والمسئولين الصهيونيون عن أهمية الاحتفاظ بورقة التقسيم واللعب على الأقليات والطوائف . مما يؤكد أن المنطقة ستظل دائما مطمعا للطامعين عطائها وثروتها وموقعها الاستراتيجى .

الشعوبيـة

عندما ندرس المذاهب الوافدة التى طرحت فى أفق الفكر الإسلامى نجد أن الذين دعوا إليها لم يكونو إلا شعوبيون وافدون ، وقد عرف أن دعاة الطورانية (اشورا وأغاييف) لم يكونوا تركا ولا عثمانين وإنما كانوا من مناطق القوقاز وقد عرف أن الذين أدخلوا الشيوعية فى البلاد العربيـة سواء فى مصر والشام أو العراق كانوا يهودا غربيين وكذلك كان دعاة القومية العربيـة ممن نشأوا فى أحضان الاتحاديين الأتراك أو لم يكونوا مسلمين ، أماالمسلمين منهم فهم جغرافيون لايعرفون إلا أن الإسلام دين لاهوتى كالمسيحية ، كذلك كان ساطع الحصرى الذى كان يعمل فى الإدارة التى أقامها الاتحادون فى تركيا فى أحضان المحافل الماسونيـة وعنهم أخذ مفهوم القومية الوافد الذى نقله البعث فيما بعد ، كذلك كان نجيب عازورى مارونيا يعمل فى الإدارة التركية فى القدس وهو الذى أسس عصبة الوطن العربى فى باريس وهو الذى دعا إلى تكوين دولة عربيـة (هى الهلال الخصيب) دستورها على نسق العلمانيـة وقد ورثها دعاة الحزب القومى السورى (انطون سعاده) وفى دخول الفرنسيين إلى الشام أو دخول الإنجليز إلى مصر كان الأمر كذلك ، كان أعداء الإسلام هم خدام تلك الدول ، ومصدرى الصحف ، وهم الذين أيدوا الصهيونية فى غزوها لفلسطين والذين حاربوا السلطان عبد الحميد وحملوا عليه واساءوا إلى صفحته النقية ويؤكد هذا المعنى الكاتب اليهودى مورد بيرجر حين يقول : إن الطوائف المسيحيـة واليهودية فى العالم الإسلامى والعربى وهى الوسيط الرئيسى الذى بثت بواسطته الأخطار الغربية والمنتجات والأذواق والأخطار إذ كان المسيحيون واليهود هم التجار الأساسيون المصرفيون ، وأصحاب المصانع تمكنوا من بث الأخطار الأوربية لقومهم المسيحيين وهى أخطار علمانيـة تنقصها الصفـة الدينية التى للقومية العربية الإسلامية . ولقد كانت نظرية الشك ونظرية الفكر الحر وحرية الفكر هى وسيلة اليهودية العالمية لإفساد الجماعات

وهدم كل الأديان حتى يتمكنوا من السيطرة عليها جميعاً بعد القضاء على هويتها قضاء مباشراً .

الحكومة الثيوقراطية

قامت الحكومة الثيوقراطية فى أوربا : لما سقطت الإمبراطورية وشعرت الكنيسة بحاجتها إلى سلطة زمنية تستند إليها وبقى المثل الأعلى للشعوب الغربية هو أن تتجمع فى ظل الكنيسة وقد تحققت هذه الأمنية إلى حد كبير آخر القرن الثامن وقام بتحقيقها شارلمان فقد وحد غرب أوربا بعد أن أخضعها لسلطانه وتوجه البابا ليو الثالث (٨٠٠م) فى كنيسة القديس بطرس إمبراطوراً على العالم المسيحى . وسلاح الكنيسة إذ ذاك هو الغفران والحرمان .

ويرجع انحلال الرابطة المسيحية إلى الحروب الطويلة التى نشبت بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، وقد بدأت رابطة الوطنية تحل محل رابطة الدين (القومية ــ الثورة الصناعية ــ الاستعمار)

حيث تركز الديمقراطية السلطة فى الأمة وتقيم الدولة على سلطان الأمة .

الفاشية

الفاشية : تقول أن الدولة تنشىء الأمة والأمة ليس لها أى سلطان الصراع بين الاشتراكية والوطنية فى الفاشية الايطالية والنازية والألمانية أمام تيار الفلسفة الجارف . الفاشية تنكر سلطة الأمة وتقيد الحرية ولا تعترف بالمساواة بين الأفراد . الفاشية حزب من للدكتاتورية وقد أبعدها عن الديمقراطية إن للفاشية دعاة روحانيين : إحداهما كارليل وهو داعية الدين والأخلاق وحكم الفرد وكراهية العنف . والثانى هو نيتشه داعية الالحاد وهو الملهم لحركة التعليم الحاضرة فى أوربا .

القومية

قال زويمر : إن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات وقد وضعت الأمم المستعمرة هذا المبدأ نصب أعينها تحاول تطبيقه فنجحت أكبر نجاح بل كان من المسلمين من نشروا هذه الأفكار ، وعملوا على إذاعتها ، وقد بدأت فكرة القومية فى العالم الإسلامى بعد أن تعالت فى الدولة العثمانية صيحة الطورانية وتتريك الأجناس مما حدا بالعرب إلى رفع لواء العروبة ، غير أن سقوط الخلافة دفع العرب إلى التمسك بالعروبة على أنها وحدة أصغر ، ولما أحس النفوذ الأجنبى أن للعروبة مفهوماً إسلامياً وحلقة فى عقد ومرحلة إلى الوحدة الإسلامية سلط عليها دعاة القومية الغربية يحملون نظرية تفريغها من مضمونها الإسلامى وجعلها مفهوماً علمانياً خالياً من الفكرة والعقيدة والأساس الإسلامى .

وقد حمل لواء القومية العربية مسيحيو لبنان بهدف إسقاط كل تنظيم سياسى يجعل لنظام الإسلام وجوداً حقيقياً وتعالت دعوات الإقليمية والفينيقية والفرعونية لتفسد مفهوم العروبة الصحيح .

ولقد خطت القومية العربية خطوات واسعة وشغلت الناس فى الخمسينيات مشغلة شديدة ولكنها لم تستطع أن تحقق شيئاً وعلت من جديد كلمة الوحدة الإسلامية حتى قالت جريدة لوموند الفرنسية : أمام الزحف الإسلامى لم تعد القومية العربية تتمتع بالتأثير الذى كانت عليه منذ عشرة أو عشرين عاماً عندما كانت أى محاولة من المحاولات تثير حماس الجماهير من الرباط حتى بغداد وحيث يتردد الآن القول فى الدوائر الإسلامية المتشددة بأن القومية العربية هى أمر إختلقه مسيحيو الشرق منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الستينات عندما أرادوا التصدى للاسلام بإعطاء الجماهير مسكن الحماس الشعبى .

ويرى الكثيرون أن فكرة القومية العربية بمفهومها الليبرالى إنما طرحها الاستعمار الغربى فى أوائل هذا القرن رافعاً شعار العلمانية لتفريق الأمة

الإسلامية وتصفيتها بعد أن أعيته الحيل فى ذلك وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير وما نراه اليوم من تفرق آرائهم وانهزام دوله ماهو الأثمرة هذه الفكرة الوافدة . (محمود رشوان)

وقد علق المستشرق هاملتون جب على حركة القومية فقال أن الذين تصدروا حركة القومية نبذوا فى نفس الوقت الجزء الأكبر من وجهة نظر الإسلام الأولى وقبلوا بدلا منها آراء الغرب السياسية الحديثة واضطروا فوق هذا إلى أن يقبلوا أصول هذه السياسة ولواحقها فيما يختص بتكوين الدولة وماهيه القانون ووظيفته وحقوق المشتركين فى الوطن وواجباتهم .

وقد كان من أبرز معالم دعوة العلمانيين لتزييف مفهوم العروبة المترابط مع الإسلام محاولة رفع فكرة القومية إلى نوع من العقيدة لتسقط العقيدة الدينية الإسلامية فى نفوس أصحابها وتحل هذه محلها .

ومن هنا كان خطأ الغلاة القائلون بتقديس الأمةالعربية ووصفها بأنها تجربة رحمانية أو عقيدة ومحاولة إعطاء المعنى القومى طابعا فلسفيا (لا هوتيا صوفيا على هيئة المزامير والتراتيل الكنسية التى يراد بها أغراء الشباب العربى) هؤلاء الذين قالوا أن ظهور الأمة على مسرح التاريخ كظهور الالهام على مسرح الوجدان مع الاهتمام بالجاهلية والتركيز عليها ووصف النبى محمد بالعبقرية والالهام والعظمه والبطولة وتجاهل صفته الأولى الحقيقية وهى النبوة وحمل لواء الهجوم على الفرس والترك رغبة فى ضرب الامتداد الاسلامى للعروبة القائمة على وحدة الفكر والعقيدة وكون اللغة العربية هى لغة الثقافة والعبادة فى العالم الاسلامى كله وأثارة الأحقاد والخصومات بدلا من ذلك ومن أكاذيبهم القول بالعربية قبل موسى وعيسى ومحمد ، والحقيقة أن هذه هى الحنيفية الابراهمية الموحدة التى انحرفت عنها تفسيرات اليهودية والمسيحية وجاء الاسلام ليرد الناس إلى صحائحها وهى بعيدة عن رجس الوثنيات أو عبادة الأمم أو تقديس الأفراد أو التعدد .

وقد استهدفت محاولة تغريب العروبة تحت اسم القومية ومفهومها الوافد إلى تفريغ المضمون العربى من المحتوى الاسلامى وإحلال فلسفة أخرى وعقيدة

أخرى محل عقيدته واستبدال رابطة أخرى برابطة تستهدف فى الأغلب حجب وحدة الإسلام وعزل الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض وإلقاء العداوة والبغضاء بينهما وبذلك تنسف الجسور التى تصل بين الشعوب الإسلامية .

وفى مفهوم الاسلام وحدة الفكر أعلى من الأجناس والعناصر والدماء وليس هناك هذا التقديس الوثنى للدولة أو الأمة على النحو الذى نراه فى المفهوم الغربى ولكن هناك الاخوة الاسلامية والجنسية الاسلامية فأى بلد فيه مسلم واحد فهو بلد إسلامى ولقد كان من وراء إعلاء دعوة القوميات والاقليميات هدف كامن هو الحديث عن اليهودية الصهيونية فى تيار الطورانية والعربية ورد اعتبارهم لاقامة الوطن القومى .

ولقد كشف كانتول سميث حقيقة هذه المؤامرة حين قال : إن تاريخ الشرق العربى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء ومالم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن يثمر الجهود .

ولما كان الفكر الاسلامى لا يتعارض مع دائرة الوطن ولا دائرة الأمة فأنه يعارض التحرك من خارج دائرة القيم الأساسية أوالتشكل الزائف الخادع ، وفق نظرية واحدة لا تمثل الأصيل مما يطرحه اتباع الثقافات الأحسن والارساليات البشرية .

رأى (توينبى) فى القومية الغربية

قال أرنولد توينبى : إن نظرية القومية الضيقة هى التى اعترضت سبيل (الديمقراطية) فأخرجتها عن طورها ومنعتها من بلوغ غايتها ، أعنى بث روح الأخاء بين الإنسانية جمعاء ، لاثارة العصبيات التى قد أدت ولا تزال تؤدى إلى حروب عالمية لا تبقى ولا تذر .

ويقول محمد إقبال : إن الإنسانية لن تستريح أبداً مادامت تسودها هذه النظرية المشئومة التى تقطعها أرباً أرباً بحيث لا يكاد الصدع يلتئم لا فى الأمم المتحدة ولا فى أى منطقة أخرى ، كذلك فيما يتعلق بالاقتصاد وازدهار

الصناعات لا شيء يعوقها مثل نظرية القومية لأنها لاتلبث أن تقيم الحواجز ضد نقل المنتجات والأموال .

ويرى بعض الباحثين أن الفكرة القومية هي عامل من عوامل مقاومة الاستعمار ولكنها تظل حاجزاً له عن الإندفاع إلى الطريق الطبيعي وإلى إكماله الدائرة والشعوب الملونة التي تطلب الاستقلال السياسي والاقتصادى أخذت الديمقراطية ولكنها أرادت أن تفهمها فهما جديدا . فبدأت من نقطة المفهوم الاقتصادى الغربي ولكنهم تبينوا فشل الفلسفات السياسية الديمقراطية الغربية والماركسية وستصبح الشعوب الملونة أكبر عدداً من الشعوب البيضاء التي ضمرت الآن أمام الشعوب الملونة وإن تاريخ تشويه الشعوب البيضاء حافل بالعبر وأهمها عبرة سقوط الحضارة في الغرب أمام المسلمين .

العروبة

يختلف مفهوم العروبة في علاقتها بالإسلام عن نظرية القومية الغربية في علاقتها بالمسيحية الأوربية ، اختلافا كبيرا ، ذلك لأن الإسلام هو الذى أقام العروبة ولم تكن من قبل شيئاً مذكورا ، فجعل مفهومها إسلاميا خالصاً وذلك ما يورده حديث رسول الله :

« إلا أن العربية اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي »

إن الإسلام حين جاء قطع تلك الأصول القديمة كلها من فينيقية وفرعونية وأشورية وبابلية ، وصهرها من جديد تحت لواء التوحيد في فكرة واحدة قائمة على الحق والعدل والرحمة والإخاء البشرى .

ومن العجيب أن أغلب هذه الفروع قد جاءت من الجزيرة العربية أصلا فهي لا تختلف من حيث مبدأها ، إن دعوة الإسلام كانت في صهر هذه الأجناس وإذابتها في توثقة واحدة أساسها التوحيد دون أن يقضى

عليها ، فالإسلام رابطة فكر عميقة الجذور صهرت عصارات الفكر القديم الذي يعيش فى أنحاء العالم الإسلامى واستصفت وردت منه الزيف والوثنية والإباحية والمادية وشكلته من جديد فى دائرة التوحيد ونفت ماسوى ذلك ولا تزال رابطة الفكر أكبر من رابطة الأجناس والدماء ، بل أن رابطة الأجناس فى ظل الدعوات الجديدة قد أخذت تنصهر رويدا رويدا .

إن هناك التقاء بين العروبة والإسلام لاسبيل إلى تمزيقه ، أنه ترابط جذرى ضخم قد تشكل منذ وقت بعيد على مايمثل الإسلام من حيث هو عقيدة وماتمثل العروبة من حيث هى علاقة ممتدة إلى الحنيفية الإبراهيمية ، جددها الإسلام بعد أن أصابها الاضطراب ، والسر فى ذلك أن الإسلام ليس ديناً بمعنى الدين الذى عرفته أوربا حين وضعت نظرية القوميات ، فهو دين ونظام مجتمع ومنهج حياة وهو عقيدة وشريعة وفكر وحضارة .

ولم تكن الدعوة إلى العروبة فى العصر الحديث استجابة لمبدأ القوميات وإنما كانت بمثابة صيحة التجمع فى وجه النفوذ الاستعمارى بعد سقوط الخلافة ، ولذلك فهى لا يمكن أن يكون متحدية للاستعمار ثم تستسلم له ليشكلها على النحو الذى يراه ، متخذا منها عاملا على خلق الصراع حتى تفسد الوحدة الإسلامية من ناحية وحتى لا تستطيع أن تحقق وجودها وهدفها .

(٢) قاعدة الفصل بين الإسلام والعروبة : دعا ساطع الحصرى إلى الفصل بين الإسلام والعروبة ، وكان مفهومه للإسلام أنه دين لاهوتى (يقتصر على العلاقة بين الإنسان والله تبارك وتعالى وفق مفهوم المسيحية) .

والحقيقة أن الإسلام دين ونظام مجتمع ، والعروبة هى من صنع الإسلام نفسه والعرب لم يكونوا شيئاً بدون الإسلام ، ولم تكن الحركة العربية منفصلة عن إطار الفكر الإسلامى وإنما كانت حلقة من حلقاته ، ذلك أن الرابطة بين العروبة وبين الإسلام لم تكن مقطوعة ، كانت العروبة

مرتبطة بالإسلام لا تنفك عنه وكان الإسلام قد قام بالعرب أولا ، وقد حرص رجال الدعوة الاسلامية على الربط بين الوطنية والعروبة والإسلام جميعاً فى إطار متكامل جامع وكشفت وقائع التاريخ أن الفرعونية والفينيقية والبربرية فروع من العروبة وموجات من الجزيرة العربية وأنه لا تضارب بينها وبين الإسلام .

ويرى الأستاذ محمد رشاد خليل أن دعوى القومية العربية كانت حربا على الأمة العربية المسلمة ومنها دعـــوة الناصرية والبعث . هنا الشرك المنصوب لاصطياد السذج باسم حقائق التاريخ : حقيقة النوايا المستترة وراءها فالعروبة تعنى ما كانت تعنيه الشعوبية فى القديم والشعوبية نبذ أطلقه المسلمون الداعون بحقائق دينهم وأمتهم وتاريخهم عن حسن إسلامهم من العرب والفرس والترك على جميع الذين حاربوا الإسلام تحت ستار عصبية الجيش — والعروبة الحديثة لاتضرب الإسلام فقط ولكنها تضرب العرب .

وقد نشأت القومية العربية (العروبة الحديثة) نشأت مريبة فى حجر المدارس الإسرائيلية (الفرنسية والأمريكية)ذات الأهداف التبشيرية الاستعمارية وعلى أيدى المسيحيين اللبنانيين والسوريين خاصة والمارونين اللبنانين على الأخص ، وعملت على تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التى ازدهرت فى البلاد المختلفة التى يشغلها المسلمون الآن وكان للكلية السورية الانجيلية دورها فى بعث النعرة العروبية وهى التى أصبحت الآن الجامعة الأمريكية فمن هذه المدرسة خرجت كل رءوس الثعابين التى نفثت سمومها فى الشام ومصر تحت ستار القومية العربية وأول جمعية سرية كان أعضائها من المسيحيين اللبنانين وكان هدفها الأساسى التفرقة بين العرب والترك ، وكانت تستهدف أحداث انقلاب داخلى ضد الاسلام والجماعة الإسلاميـة تحت ستار الخدمة التعليمية مجندة فى هذا العمل ابناء الطائفة المسيحية المارونية ، كان الموارنة بحكم انتمائهم المشبوه وعلاقاتهم التاريخيـة المدموغة بالخيانة مع الصليبيين قديماً هم أصلح العناصر ولتنفيـذ مخططات الصليبية الجديدة وبذلك كانت

أول جمعية عروبية كانت غير عربية وكانت مكونة من أناس ليسوا عرباً لامن ناحية الانتماء ولا من ناحية الأهداف والغايات . وكان مقولاتهم المضللة أن الاسلام نفسه هو تراث عربي شأنه شأن الشعر الجاهلي واللغة العربية وظهر البعث الذى يشيد برسول الله ﷺ باعتباره بطلا عربياً ويشيد برسالة الاسلام باعتبارها رسالة عربية إسلامية ، وهذا هو خط التخريب ، وهى محاولة وضع الأقلية فى ظل وحدة عربية بدلا من وضعها فى ظل الجامعة الاسلامية وقد صب البعث مفهومه اللبنانى المسيحى فى قالب الأمة : الدعوة إلى أمة عربية تكون منفصلة فى أساسها الدينى الذى قامت عليه وحيث تسوى تسوية كاملة ومطلقه بين المسلمين والمسيحيين فى جميع النواحى على أن يكون الضامن لاستمرار المساواة حماية أبدية من قبل أوربا اللبيرالية وفرنسا الكاثوليكية وكان جرجى زيدان ونجيب العازورى كبير المزيفين لمفهوم العروبة فقد نادى بأمة عربية واحدة للمسيحيين والمسلمين على السواء وجعل حدود الأمة العربية مقصورة على الناطقين بالضاد فى أسيا فقط دون مصر وشمال إفريقيا . وفى نطاق هذا الفكير العروبى : دعوة عزيز المصرى للجمعية القحطانية العربية الفتاة (فارس الحوزى وشكرى القوتلى ١٩١٤ - عزيز المصرى جمعية العهد بعد بعد فشل القحطانية) .

يقول : (إن هذه الدولة المستبرة — تقصد الخلافة العثمانية - ليست دولة إسلامية ويا أيها المسيحيون واليهود العرب اتحدوا مع إخوانكم المسلمين) . نداءات عرقيه تدعو إلى تشجيع المسيحيين فى لبنان وسوريا على الدعوة إلى أمة لبنانية أو سورية ، وبعد قيام الثورة العروبية التى قادها الشريف حسين عقد الزعماء السوريون والفلسطينيون مؤتمرا أعلنوا فيه فيصلا ملكا على سوريا . كانت العروبية حركة علمانية موجهة من المسيحيين اللبنانين والسورين ومن الغربيين واليهود ضد الاسلام والجامعة الاسلامية وقد نشأ جميع الداعين إليها إما فى مدارس تبشيرية خالصة وإما فى جامعات غربية وخاصة فرنسا ، أو فى مدارس عربية ذات منهاج غربى مشبع إلى أقصى حد بالعداء ضد الدين ،

وبفكرة فصل الدين عن السياسة وبالاعتقاد بأن الروابط القومية هى التى توحد المجتمع سياسيا على عكس المعتقدات الدينية التى تفرق بينهم .

من أجل ذلك عملوا على أن يكون الحكم الوطنى مستقلا عن الدين ، ودعم هـذا المبدأ العلمانى فوز كمال اتاتورك ومؤيديه فتشجع العروبيون والقوميون والاقليميون على السير فى الطريق إلى نهايته وسقط عن مصر قناع القرمية كما سقط قناع الفرعونية ، يقول محمد على الزغبى فى كتابه (حقيقة الماسونية) : الدعوة القومية المروج له نتاج ماسونى إذ هى سكين شق بها أتاتورك العرب عن الترك ونفذ لما دعاه فصل الدين عن الدولة وفرض العلمانية وجعل الخمسين ألف مسجد فى تركيا عديمة الأثر فى الواقع .

الإقليمية

كانت الدعوة إلى الاقليمية من بين الدعوات التى طرحت فى أفق العالم الاسلامى للقضاء على الوحدة الاسلامية وقد استهدفت بعث التاريخ القديم السابق على استعراب البلاد بدخول الاسلام ففجرت الدعوة إلى الفرعونية فى مصر والفينيقية فى لبنان والأشورية فى العراق وتشكلت محاولات لاحياء آداب وتقاليد تحمل هـذه الصورة القديمة البالية . قال هاملترن جيب : لقد كان من أهم مظاهر سياسة التغريب فى العالم الاسلامى تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التى ازدهرت فى البلاد المختلفة التى يشغلها المسلمون الآن » وقد قرر أصحاب الدعوات الاقليمية أن يعملوا داخل إطار القومية وإن يندسوا فيه ويسايروا موكبه ويعملون على الانحراف من داخله فألبسوا دعواتهم الانفصالية ثوباً جديدا هو الفنون الشعبية والفلكور وإحياء الأزجال والأمثال والخرافات القديمة لحجب روح الاسلام التى ظهرت فى مجال القرآن والحديث النبـوى والأدب العربى الرفيع .

السلفية

يعنى مصطلح السلفية « العودة إلى المنابع » فالمسلمون حين ترتبطون بالماضى أو التاريخ أو القديم إنما يهدفون إلى استجلاء ذلك الميراث الأصيل الذى قدمه لهم الإسلام ممثلا أساساً فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وما أنشأ ذلك الميراث من تاريخ مليء بالبطولات ومن تراث فياض بالبحث والنظر وخاصة فى مجال الفقه الإسلامى والعلوم التجريبية ، ومعطيات السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية . ولكن نظرة المسلمين إلى الماضى أو التراث ليست نظرة تقديسية ولكنها نظرة تقدير للنفع العام من حيث الاستفادة بالإيجابيات وتجنب الأخطاء والسلبيات . فليس الإعجاب بالماضى عند المسلمين يحمل طابع القداسة — كما يقول الدكتور عبد السلام العجيلى — وإنما يحمل طابع التقدير للدور الذى جاءت به الرسالة السماوية الخاتمة والتعبير الخطير الذى أحدثته فى موازين المجتمعات الإنسانية ، وإن الإعجاب بالماضى ليس قائماً على مسكوكات أثرية أو أوآن فخارية ، أو أهرام أو مبانى أو قصور كما يفهم البعض من الحضارة ولكن الإعجاب ينصب على القيم فنحن نحاكم هذا الماضى إلى العقيدة فكل ما جاء بها وسار على هديها فنحن نعجب به وكل ما خالفها فنحن ننظر فيه بحثاً وراء العبرة مقدرين أن الهزائم التى وقعت فيها الأمة الإسلامية إنما جاءت من تجاوزها أصول منهجها وحدود شريعتها . هذا الارتباط بالأمة التى حملت لواء (لا إله إلا الله) ونزل فيها القرآن وبعث فيها محمداً ، ووصفت بأنها (خير أمة أخرجت للناس) ومصدر الإيمان والإعجاب هو الأمل فى أن تكون الأجيال الجديدة سائرة على هذا الطريق الذى رسمه الله تبارك وتعالى لها (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) فالتقدير والإعجاب يرجع إلى المضمون والقيم وليس إلى عدد السنين ولا إلى استعلاء بالعنصر ، هذه الأمة التى حملت رسالة الله إلى البشرية وما تزال تحملها ، هذه الأمة لها ذاتيه خاصة بين الأمم يريدون طحنها ويجب أن نحافظ عليها ، لنا مفهوم كامل فى كل مسائل السياسة والاجتماعية والاقتصاد والتربية لنا بطولات صنعها الإيمان بالله ، كل حركات التحرر من النير الأجنبى

كانت تحت لواء الجهاد فى سبيل الله وإن اختلفت مظاهرها وطنية أو قومية .

إن هناك مؤامرة للقضاء على ذاتينا وسويتنا عن طريق سموم مطروحة منها : الإقليمية والديمقراطية والاشتراكية وإننا مطالبون بالمحافظة عــلى أصالتنا وطابعنا المميز ، حتى لا ننصهر فى الأقوام ولا نكون هجناء أو أممات .

ولقد حرص ديننا على دعوتنا إلى المحافظة على ذاتينا وإننا سنواجه على مدى العصور محاولة تدمير مقوماتنا من تلك القوى الطامعة فى موقعنا الوسط وثرواتنا ومقدراتنا . فالسلفية هى إداة استمرار وجودنا الأصيل لأنها سلفية تعتمد على المنابع الأصيلة الثابتة لا على الوقائع المتغيرة ،فهى لا تستعلى بالعنصر أو الجنس أو اللون ، وهى مرتفعة عن التعصب الأعمى متسامحة مع الأجناس والملل والاقليات ، عادلة مع القرباء والبعداء ، مفتوحة على الأمم التى تشترك معنا فى العقيدة والثقافة ونعترف أن خير مافى الجاهلية من قيم هى من ميراث الابراهيمية الحنيفية السمحة .

وهناك الدعوة إلى التخلص عن التراث بالطعن فيه ، وهو تيار خاطىء وظالم يحمل لواء العداء للسلفية ، ومن ذلك دعوة إبدال الحرف العربى بالحرف اللاتينى فى الكتابة بحجة أن الحرف أن نقل كلام العرب وأفكارهم مدى العصور عسير فى الالتقاط عاجز عن الأداء معقد فى الاستعمال أو اتهام العربية نفسها بأنها عقبة فى سبيل تقدم العرب ومصدر تخلفهم فى العلوم التقنية بصورة حاسمة ، وأكثر الأدلة التى يقدمها السلفيون ليبرهنوا على قدرة لغتنا على استيعاب مصطلحات العلوم الحديثة . فالطب يدرس باللغة العربية فى جامعة دمشق منذ العقد الثانى من هذا القرن وأين التعقيد فى العربية وأنك إذا أردت أن تتعلم اليابانية لا بد من معرفة ثلاثة آلاف حرف لكى تستطيع الكتابة بها ، أن أخطر ما يواجهها من التحديات هو التحلل من ارتباطاتنا بماضينا بحجة أنه يعوق انطلاق حاضرنا : إن السلفية هى « الإصالة » وهى العودة إلى المنابع ، والخطأ هو أن يدفع العرب المعاصرون تخلفهم عن شخصيتهم ثمناً لما يأخذونه مما يحتاجون إليه ، إنهم بهذا يضيعون أصالتهم . لا بد أن نحافظ على أصالتنا

ونعض عليها بالنواجذ (عبد السلام العجيلي) وقد وقف السلف خلال تاريخ الإسلام كله فى وجه الفرق المنشقة كالخوارج والقدرية والجهمية كما شجبوا الاتجاه العقلى المغالى كالمعتزلة ، والفلاسفة وشجب الاتجاه الروحى المغالى كفلاسفة الصوفية ، وقف ابن تيمية وابن القيم فى القرن السابع والثامن بثبات ضد كل الاتجاهات التى استفحل خطرها فى دوائر علم الكلام والفلسفة والتصوف والتشيع وجاء دور السلفية فى العصر الحديث فى المحافظة على نقاء التوحيد فى العقيدة والعبادة ثم الجهاد للتخلص من نير الاستعمار الغربى الصليبى وقد قامت السلفية بدورها الواضح .

(أولا) معارضة دعوى التجديد وتطوير المفاهيم الدينية خضوعا للنظريات العلمية المعاصرة .

(ثانياً) نقد الفلسفة الحديثة العربية والمعاصرة وشجبها بمنطق القرآن الكريم وعدم الخضوع لتصوراتها التى أخذت فى الزحف على العالم الإسلامى وأحدثت ثغرات فى الجبهة الإسلامية مستهدفة النيل من أصالة العقيدة ووجدتها وشمولها ومن ذلك الفصل بين الدين والدولة (العلمانية) والنيل من السنة وإحلال القوانين الوضعية محل الشريعة وفى مجال الثقافة والتعليم : كان دأبهم تعظيم الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة وإثارة الأفكار المخالفة للسلفية كالقدرية والجبرية والمعتزله وفى المجال الاجتماعى : توسيع دائرة التصوف وتشجيع دائرة الفرق الصوفية أو تكوين فرق الانشاد الدينى بصورة مشابهة للنصرانية كالموالد وبناء مساجد جديدة على الأضرحة وإلهاب مشاعر الجماهير العاطفية عن طريق التفسير الصوفى للدين وسياسياً بتشجيع الفرق المنشقة عن أهل السنة والجماعة ، وابتداع أساليب جديدة كالبابيه والبهائية والقاديانية ومدها بالعون المادى وتمكين اتباعها من الوصول إلى مراكز التأثير إلى جانب إذاعة آرائها والترويج لها تحت ستار الاسلام مع الاعتماد على الفرق التى مازالت تتوارث عقائدها الباطلة المحرفة : كالباطنية والإسماعيلية والنصيرية والدروز .

ولقد حدث لبس شديد بالنسبة لمفهوم السلفية بين الفكر الإسلامي وبين الفكر الغربي ، فبينما هي في الفكر الإسلامي علامة الأصالة ومنطلق التقدم الحقيقي فهي في الغرب عودة المنهج الصوري اليوناني والرهبانية وجمود الكنيسة وبيع صكوك الغفران ، وهذا المفهوم يفزع الغربي اليوم إذ يرى أنه يعوقه عن التقدم المادي بعد تفجر الثورة الصناعية واستخدام المنهج التجريبي في العلوم . وقد تحررت أوربا من السلفية إلى العلمانية التي فصلت بين الدين والدولة سياسيا واجتماعيا طبقا لشعار (دع ما لقيصر لقيصر وما لله) فتحررت الشعوب من قيود الكنيسية التي ضيقت الخناق على حركة التقدم السياسة والاجتماعية (. . .) .

السامية

مصطلح أطلقه العالم النمسوي سلوتزر عام ١٨٧١ وهي تسمية لا تستند إلى واقع تاريخي ولا إلى أسس علمية صحيحة أو وجهة نظر لغوية ولذلك يرى بعض الاختصاصين وجوب تسمية هذه الاقوام بالأقوام العربية . ذلك أن الهجرة من الجزيرة العربية جاءت في موجات إلى شمال الجزيرة وأطراف الهلال الخصيب في موجات متتالية منها ما اتجه نحو بلاد الرافدين وخاصة نحو نهر الفرات ومنهم من استقر في فلسطين وسوريه ولبنان ومن اتجه غربا نحو طورسينا والنيل ولذلك فإن الحضارة التي سميت بالسامية خطأ إنما هي حضارة عربية منبعها ومصدر طاقتها البشرية جزيرة العرب وقد ازدهرت في وادي الرافدين فاستقوت فيه أكثر من ألفي سنة .

العلمانية

العلمانية مصطلح غربي على سبيل التموية ، حيث يظن أن مصدره العلم بينما هو يعني اللادينية Secularism بالإنجليزية LQuique بالفرنسية وجانب الخديعة في التعبير أنه يوحي أن له صلة بالعلم بينما حقيقته

عكس ذلك ، والدعوة إلى (اللادينية) أو ما يسمى خداعا بالعلمانية نشأت فى أوربا نتيجة الصراع بين الحكام ورجال الكنيسة من ناحية وبين العلماء ورجال الكنيسة من ناحية ثانية ، وقد انتهى الصراع إلى ما عرف باسم نظرية (فصل السلطات) وعزل الدين عن التأثير فى الحياة . وهذه النظرية التى واجهت تحديا قائما فى الغرب مع التفسيرات المسيحية التى لم تكن شريعة مستقلة عندما نقلت إلى أوربا لا علاقة لها البتة بالإسلام الذى جاء دينا ومنهج حياة فى نفس الوقت ، والذى لا يفرق بين الدين والدولة أساساً ولا يجد بينهما أى تعارض أو تناقض بل يوجد بينهما تكامل طبيعى . وقد طرحت هذه الفكرة فى أفق الفكر الإسلامى بعد سقوط العالم الإسلامى تحت نفوذ الغرب بهدف حجب الشريعة الإسلامية (سياسياً واقتصاديا وتعليميا) عن التطبيق وتقديم القانون الوضعى ونظام الربا ونظام التعليم اللادينى بديلا عن نظام الإسلام الجامع ، ومن ذيول هذه الدعوة المسمومة فكرة الدين لله والوطن للجميع ، بهدف إقصاء المفهوم الإسلامى عن المجتمع والسياسة .

وبمعنى أوضح فإن العلمانية هى إقصاء القيم الفكرية والروحية التى جاء بها الدين الحق عن الحياة الاجتماعية ، وتحرير الفرد والمجتمع عن الالتزام الدينى والمسئولية الأخلاقية بهدف دفعه إلى التحرر الخارج عن حدود الله والعلمانية ركيزة أساسية لكل دعوات هدم الوحدة الإسلامية الجامعة كالإقليمية والقومية ودعوات الأجناس والعروق والدماء ، ذلك لأن هذه الدعوات إنما تقوم فى سبيل كسر الروابط الروحية والفكرية التى جمعت بين الأجناس والأمم المختلفة تحت لواء واحد مع اختلاف الفروق اللونية والعرقية . والتى جاء الإسلام أساساً لقطع تلك الأصول القديمة وهدمها من فينيقية وفرعونية وأشورية وبابلية وصهرها فى وحدة فكر أساسية « لا إله إلا الله » وكلكم لآدم وآدم من تراب ويقول الباحثون أن العلمانية تعتمد على مصدر واحد للمعرفة هو العقل وترفض المصادر الأخرى كالوحى والإيمان بالغيب وهى بذلك تقف فى الطريق المعاكس لكل دين من الأديان ، والعلم بمفهومه الصحيح برىء من هذا المصطلح المنسوب إليه

ولا ريب أن مفهوم السياده للإنسان ، أو للجماعة أو للأمة أو للشعب فى الحكم والتى تقول بأنها مصدر السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، هذا المفهوم يختلف تماما بل ويتعارض مع مفهوم الإسلام .

ومن أخطاء دعاة العلمانية ما يقولون به من التخيير للمسلمين بين الاسلام والعلمانية أو القول بأن الاسلام لايستطيع أن يواجه التطورات الاقتصادية والاجتماعية التى يواجهها العرب والمسلمون . ولقد رفض المسلمون والعرب خلال أكثر من قرن من الزمان هذا الأسلوب من العمل سواء فى مجال السياسة أو الاقتصاد أو التربية .

وفصل الدين عن الدولة نظرية صهيونية تلمودية عمل اليهود على تنفيذها فى فرنسا بعد الثورة الفرنسية وفى مختلف أنحاء أوربا لدحر النفوذ المسيحى الكنسى الذى كان يرسم حدوداً لليهود فى ازقتهم وحواريهم ويحول بينهم وبين الوصول إلى النفوذ السياسى أو الاجتماعى أو الأدبى وكانت الكنيسة بيدها مقاليد التربية وشئون التعليم وفى سنة ١٩٠٥ بدأت عملية الفصل وخرجت التربية عن نطاق الكنيسة وفى الشرق أول من ابتدع فصل السياسة عن الدين ونادى بها مصطفى كمال أتاتورك وكان وراء ذلك دفع من الاستعمار الذى غذى هذه الأكذوبة وعمل على شيوعها وكانت الخلافة فى نظره حجر عثرة يجب التخلص منها ولا يمكن التخلص منها إلا بالتخلص من العقيدة الاسلامية نفسها باقتلاعها من نفوس أصحابها وقد سلح أتاتورك تركيا الإسلامية عن العقيدة الاسلامية بقانون وبرنامج وضعت خطواته فى محافل أوربا الماسونية ولم يكن عن إرادة الشعب التركى العميق الاسلام الذى لم يثبت أن عاد سريعاً إلى أحضان الاسلام .

ولما كانت (العلمانية) لفظ يحمل فى طياتها اللادينية **Secularism** ونصها أيضاً باللغة الفرنسية LQïque (لابيك) فإنهذان النصان يلتقيان عند معنى واحد هو اللادينية ومعناها عزل الدين عن الحياة ، والاحتكام على نظريات علمية ونظم وضعية . خداع العناوين فى أنه يوحى بالعلم والبحث عن المعرفة ، استخدمت العلمانية لتقديم تفسيرات من صنع البشر لحركة

الكون والحياة وموقف الانسان منها وتأثيرها على قيام المجتمع وتوجيهها . وخطأها فى أنها تعمل على إحلال الطبيعة محل القدرة الآلهية ، أو إحلال الصدفة ، وقد استخدمت كل الانجازات المادية فى حضارة الغرب لتمكين النزعة العلمانية . وبدت آثار العلمانية فى المدارس والجامعات فى البلاد الاسلامية واضحه وكان لها آثارها فى عقيلة الشباب المسلم وطرح شعارات تهدف إلى عزل الدين عن الحياة وحبسه فى دائرة العبادات .

* * *

إن الثنائية التى مارسها الغربى بين العلم والفن أو بين العقل والوجدان والتى عمقتها كلتا التجريبين الأوربين : الوضعية والنظرية ، هذه الثنائية هى التى شلت فاعلية الأفكار والعقائد الغربية ، وحدت من قدرتها على تحريك الانسان وتربيته ومن أجل أن يكون متوحداً متوازياً وهى التى ملأت بالتالى حياته المعاصرة بالتفاهة والخواء حتى تضيق زرعا بالعلماء وتهش للنجوم السينمائيين والمغنيين والراقصين .

والسؤال هو : هـل العلمانية الغربية استطاعت أن تحقق أهداف الإنسانية الشاملة والوصول به إلى غاياته الكبرى ، هل استطاعت المعرفة العلمية أن ترفع البشر إلى مصاف عليا . إن العقل وحده لا يمنح الانسان القدرة على فهم تكوين المعتقد أو السيطرة عليه والتعامل الايجابى الفعال فى نسيجة الفذ ومن ثم لابد من أسلوب أكثر شمولا يضع إلى جانب العقل طاقات الانسان الأخرى .

* * *

إن التمييز بين نوعين من العقلانية يعرفتى أوربا وفرنسا خاصة . نوع فكرى اعتقادى يفرض فكرته اللادينية على المجتمع ويتخذ منها موقفاً عدائياً من الدين وتعتبر العلمانية دعوة اجتماعية فلسفية ذات مضمون قابل للحلول محل المضمون الدينى حتى على الصعيد العقدى الخالص .

هذا النوع يرفض التعايش مع الدين مبدئياً وينكر عليه انفراده بمجاله الروحى أو يحصره فى نطاق فردى ضيق . أما النوع الثانى وهو العلمانية بمعناها المحايد أو القانونى الشكلى فهو الذى يفصل بين الدين والحكومة (بين الدين والمجتمع) ولا بين الدين والفرد تاركا للدين حريته الكاملة فى مجالاته الروحية والتعبدية والأخلاقية — الاجتماعية متجها فقط نحو تنظيم الجانب الرسمى بقوانين وأنظمة تعامل المواطنين سواسية فى المجالات الحقوقية بغض النظر عن دياناتهم وقد يقبل دعاه البعث هذه العلمانية الثانية .

إن مصطلح العلمانية لم يوجد فى التراث الفكرى العربى القديم ، إن معنى Secaler لا يعنى فى قاموس السلفية غير معنى واحد هو (لا دينية) وقد جرى الناس على ترجمتها علمانى أو مدنى وهى تسميات مهذبة للادينية تحاول أن تستر بشاعتها بأسماء سائغة مقبولة من الواضح أن كل ماليس دينيا فهو لا دينى ولعل أوجز تعبير عربى عن هذه الحقيقة فى الإسلام هو قول أحد الباحثين الغربيين : الإسلام ليس دولة دينية ولا هو دين للدولة إنما الإسلام دين وهو فى نفس الوقت دولة (هو غارث) مؤلف كتاب الجزيرة العربية ويقرر برنارلويس إنه لا توجد فى الإسلام مصطلحات تميز بين المقدس والدنيوى أو بين الروحى والزمنى لأنه لا يقبل حتى ولا يعرف الانفصام الذى تعبر عنه هذه السلسلة من المتضادات التى تؤدى إلى الانشقاق والصدام بين الكنيسة والدولة ، بين البابا والإمبراطور ، بين الله والقيصر .

وقد كان المستعمر الأجنبى الغربى الذى يحتل أقطارنا لا يخفى ارتياحه لهذه العلمانية بل كان يشجعها ولأن ذلك كان يؤدى إلى تفريغ مفهومنا الإسلامى من أصالته وروحه .

الصهيونية

صدر كتاب ارثر توستلر (القبيلة الثالثة عشرة) : امبراطورية ، الخزر وميراثها فى لندن ١٩٧٦ وقد اثبت توستلر إن اليهود الحاليين : ليسوا من بنى إسرائيل القدامى ، وليسوا ساميين بالمرة وإنما هم من أصل آرى قوقازى أنهم حيث أحفاد أجداد لشعب الخزر الذى عاش فى ٧ — ١١ م فيما بين البحر الأسود وبحر قزوين .

وفيما بين نهر الفولجا وجبال القوقاز ، والذى اعتنق اليهوديه لأسباب سياسية محضة من منتصف القرن ١٨ م كما أثبت أن اليهود ليس لهم تراث حضارى مشترك وكل ما يصدر عنهم ليس سوى جزء من ثقافات وحضارات الشعوب التى عاشوا وما زالوا يعيشون فيها .

وقد كان نهوض الخزر فيما بين ٧ — ١١ م ثم كان هجوم الدولة الروسية على دولة الخزر وتقويضها ، ثم كان السقوط الذى استمر بين ٩٦٥ / ١٢٤٢ والذى أحدثه تدمير العاصمة الخزرية والغزو البيزنطى الروسى لدولة الخزر ثم كان الخروج أى هجرة الخزر وفرارهم إلى دول أوربا الشرقية حيث انحدر منهم معظم اليهود وقد اثبت الباحث أن اليهود الحاليين من أصل خزرى اعتماداً على مقارنة اللهجات الألمانية الفرنسية بلغة (الايدش) التى بدأ ظهورها فى شبه جزيرة القرم والتى كانت داخلة ضمن الامبراطورية الخزريه قبل سقوطها ، وعدد الأدلة التاريخية والانثروبولوجية التى تثبت أن اليهود ليسوا جنساً واحداً وإنما هجين أجناس بما يثبت أن خصائص اليهود ليست وراثية وإنما هى نبتة أحدثتها التأثيرات البيولوجية والاجتماعية ، وقد جاء هذا فى مواجهة الادعاءات الصهيونية التى تروج للحق التاريخى لليهود الأوربيين فى فلسطين باعتبارهم ساميين وباعتبارهم بنو إسرائيل أو أنهم شعب الله المختار :

وهكذا اثبتت إثر كوستلر الدعوى الأساسية التى تقوم عليها الصهيونية العنصرية ، والتى تدعـــى أن كل من تدينون بدين موسى عليه السلام يرجعون إلى أصل عنصرى واحد ، فقد أثبت أن يهود الاشكنازيم وهم أهل السيادة فى المجتمع الصهيونى وزعماؤه المسيطرون ليسوا ساميين أى ليسوا من ذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام وإنهم يرجعون إلى أصل أسيوى فهم أصلا من الخزر وإنهم كانوا وثنيين ثم اعتقوا الديانة اليهودية فى فى القرون الوسطى ثم رحلوا إلى مناطق بولندا وليتوانيا فى أوربا الشرقية، وقد وجد المؤلف من قراءاته للتاريخ وتحقيقاته أن الخزر قد اختفوا فجأة فى منطقتهم تلك فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه كثرة من اليهود الاشكيناز فى شرق أوربا مختفطين بزيهم الجزرى (القفطان والطاقية) ويستغرب المؤلف قصة تبنى الاشكيناز رفع لواء الدفاع عن الساميين وهم ليسوا ساميين بالمرة ويشكك فى أن يكونوا هم أول من مارسوا عداء السامية واخترعوه ويقول إن الادعاء بأن اليهود اليوم يمثلون عنصراً هو كلام باطل فما هم الأقوم لا تجمعهم حضارة أو ثقافة واحدة ولكن مجرد عادات وتقاليد تكونت لديهم من تراث المجتمعات التى نشأو فيها ويقول إن الحقيقة التى ينبغى عدم تجاهلها إن قليلا جداً من اليهود من يمارسون طقوس الديانة اليهودية ، وأن اليهود فى غالبيتهم غير متدينين ويقول إن حل مشكلة اليهود فى العالم لن تكون إلا بأن يذوبوا فى المجتمعات التى نشأوا منها وأن ينسوا إلى الأبد أفكارهم البالية القائلة بأن عليهم رسالة عنصرية وتاريخية يؤدونها . إنما هم بشر عاديون لهم ما للناس وعليهم ما عليهم ولن يستريح العالم من أفكار اليهود السوداء النازعة إلى الشر والأذى وحب الذات والشعور بالامتياز العنصرى إلا إذا اهتدى اليهود إلى التعقل والذوبان فى المجتمع البشرى بعد أن تحقق أنهم لا ينتمون إطلاقا إلى أصل واحد .

(٢)

ويقول أن اليهود قد بذلوا الكثير فى سبيل تغليب باطلهم على حق الإنسانية حين حرقوا دوائر المعارف وفرضوا مفاهيم العهد القديم على المدارس المسيحية فى أوربا وأمريكا وحولوا الفكر التلمودى المدمر إلى نظريات وأيدلوجيات لهـا طابع علمى يدرس فى الجامعات أمثال علم الاقتصاد السياسى والتحليل النفسى ومدرسة العلوم الاجتماعية والداروينية والماركسية والرأسمالية والقومية .

وكذلك تلك المحاولة الخطيرة غير الجدية التى تحاول بها إسرائيل تجميع تراث شعبى عربى قديم ونسبته إليها تستهدف القول أن أى شعب له تراث شعبى فإن هذا الشعب عريق أصيل ومن وراء هـذا ادعاءات يطرحونها عن طريق علم مقارنات الأديان لاضفاءهاله من التزير للديانة الموسوية بوصفها أول ماعرفت البشرية التوحيد أو القول بأن بعض الكلمات العربية تعود إلى أصول عربية ، وكذلك فكرة الوعد وخرافة شعب الله المختار ، وقد دفع اليهود هذا الفكر التلمودى فى ظل النفوذ الاستعمارى إلى البلاد الإسلامية تحت أسماء كثيرة منها اسم الفكر الحر وتحت اسم البهائية وتحت إسم الماسونية وتحت اسم العلمانية وأخطر من هذا احتواء اليهودية للمسيحية . ومحاولة فرض مفاهيمهم على البروتستانت الذين يؤمنون بالعهدين القديم والجديد ولهذا تنصب الدعايه اليهودية على مخاطبة العاطفة الدينية عند البروتستانت وتطالبهم كمؤمنين بالتوراة العمل على إعادة شعب الله المختار إلى أرض الميعاد وحتى يوجد اليهود المبرر والحافز عند المسيحيين لمساعدتهم والوقوف إلى جانبهم ابتكروا فكرة العدو المشترك للحضارة المسيحية واليهودية واقنعوا الغرب المسيحى بأن هـذا العدو يتجسد فى الإسلام ولهذا يجب على اليهود والنصارى أن يتعاونا للتصدى للإسلام والمسلمين . وقد استغل اليهود عقدة الكره التاريخية لدى الغربيين للمسلمين والتى ترسبت فى نفوسهم منذ الحروب الصليبية بهدف استنزاف طاقات الطرفين فى حروب يكون الرابح فيها اليهود ويؤكد دكتور الفريد لنيتال : اليهوى الأصل :

أن ليس لليهود أى علاقة بفلسطين والشرق الاوسط يقول : أن ما يسمى بالحنين اليهودى إلى فلسطين هو أكذوبة اخترعها الصهيونية فى القرن التاسع عشر لتكون مرتكزا لما يسمى بالقومية الأوربية التى سادت فى تلك الفترة فى أوربا ، أن معظم اليهود لاتربطهم أية جذور بفلسطين لأنهم ليسوا منحدرين من منطقة الشرق الأوسط ، أن اليهود الغربيين (الاشكنازيم) الذين يحكمون إسرائيل الآن لاعلاقة لهم البتة بالشرق الأوسط أو فلسطين . أما السفاديم الشرقيون فربما كانت لهم علاقة لأنهم عاشوا حياتهم فى الشرق الأوسط بشكل عام وليس فى فلسطين وهؤلاء لم يطالبوا بدولة يهودية ولم يعتنقوا الصهيونية بل الصهيونية هى التى اقتحمت عليهم حياتهم واستقرارهم وهناك يهودى إسرائيلى استوطن فى فلسطين ويهودى صهيونى لم يهاجر ، ويهودى لا صهيونى ولكن غير معاد الصهيونية ويهودى معادى للصهونية . أما اليهود الصهيونيون فقد استطاعوا فرض نظام محكم عجيب لايستطيع الأقلة من اليهود الجهر بآرائهم بحرية حتى غير اليهود يتجنبون الجهر بآرائهم خوفا من أن يتهمهم الصهيونيون بتهمة العداء للسامية التى استطاعت أن تجعل منها الوجه الآخر للعداء الصهيونية .

والآن ماذا انتج التحدى الصهيونى بالزحف على الأرض العربية .

أولا : إلقاء البلاد فى أحضان الشيوعية .

ثانياً : غلبة مفاهيم السياسة والعراك السياسى على مسائل القيم والمفاهيم

ثالثاً : من أجل سيطرة قيادة سياسية عسكرية تسمح بالإنطلاق الاجتماعى والأخلاقى عن طريق الأفلام والمسرحيات .

رابعاً : من أجل حرق أذهان وعقول وأذان الناس إلى الإذاعات الأجنبية تقدم الإذاعات الوطنية كل فاسد .

* * *

ويتحدث مؤلف كتاب (سفر تكوين الفكرة الصهيونية) عن هرتزل وايتتال وبرجر وردونسون بوصفهم فلاسفة هذا المنهج الذى امتد لأكثر من قرن من الزمان ويتضمن سلسلة من الصراعات بين أوائل الصهيونين من الحاخامات الذين حرفوا المعنى الدينى الحقيقى لنبوءة خلاص اليهود من البيئة والشتات وبين رجال الدين اليهودى المتمسكين بمبادىء الشريعة الموسوية ثم بين الدعوة الصهيونية كحركة عنصرية وبين المفكرين الليبراليين بما فيهم عدد كبير من المفكرين اليهود المقادين للصهيونية والذين يمثلهم فى عصرنا الحالى مكسيم دودنسون والحاخام المربيرجر والفريد ايتال. ويقول ليست الصهيونية سوى محاولة لاقتحام فكرة القومية على اليهود وهو أمر يتناقض أساسا مع مبادىء الديانة اليهودية ومع طبيعة الحياة اليهودية وأن الدعوة الصهيونية لم تكن دعوة قومية على أساس النضال فى سبيل السيادة السياسية على أرض قومية تقف عليها بالفعل وإستنادا إلى لغة قومية تتداولها بالفعل . أما الصهيونية فقد كانت بلا أرض وبلا لغة متداولة فالدعوة الصهيونية لم تنبثق من أرض فلسطين وإنما من شرق أوربا رغم أنه فى ذلك الوقت كانت توجد مجموعات من اليهود المتدينين فى فلسطين لم تخطر لها قط فكرة القومية بل أنها قاومت بشدة الدعوات الأولى للصهيونية .

التقدم

غلب على الفكر الغربى الحديث مفهوم التقدم : بدعوى أن التقدم المادى يجب أن ينطلق ولا يتوقف ولا تحول أى عوامل أخرى دون استمراره وهذا المفهوم مغاير لمفهوم الإسلام الذى يجمع بين التقدم المادى والروحى معا ، والذى لايرى صحة نظرية التقدم المرتبطة بدورة الزمن ، فإنه لايشترط أن كل تقدم مادى يتبعه تقدم معنوى .

ويرى الباحثون أن نظرية التقدم المرتبطة بدورة الزمن قد تعرضت لامتحان شديد فى العصر الحديث ، وبعد توالى ظواهر تنبىء عن الأزمات

فى العالم الغربى المتقدم مثل انتشار الرزيلة واتساع نطاق المخدرات وضلال الشبان فى متاهات التمرد على المجتمع واتخاذ الغريب من الملابس والأزياء واتساع نطاق الجريمة المنظمة والإرهاب . والتقدم فى مفهوم الإسلام فى تقدير الباحثين هو الترقى الأخلاقى والحث على التسامى والارتقاء والسمو لكسب الفضائل التى بدونها لايصبح الإنسان إنسانا ، هذا وقد خطأ بعض الباحثين مفهوم التقدم الغربى بوصفه تقدما مادياً خالصاً ، وقالوا أنه يجب أن يسمى التغير لأن التقدم يحمل معنى الارتفاع فوق جميع عوامل التخلف معنويا وماديا ، أما التغير فقد يكون تخلفاً أو تقدما من نموذج ومثل أعلى ، ذلك أنه بالرغم من التقدم المادى فإن الإنسان لم يخفف من أنانيته وأحقاده وظلمه وتعطشه لسفك الدماء ، ويقول هارى بارنز : أن غرائز الإنسان بالرغم من التقدم المـــادى قد زادت ضراوة وحدة ولا زال الوحش راقداً فى أعماق الإنسان المتحضر ، إن الإنسان اليوم مخلوق ضعيف العقل فى يده قنبلة يمكن أن يحطم بها نفسه وغيره ، ويرى البعض رأياً مخالفا لرأى أصحاب نظرية التقدم المطلق ، وهم الذين يقولون أن التاريخ فى سيره يأخذ اتجاها منحدراً مستندين فى ذلك على أن العصر الذهبى للإنسان تحقق فى عصر النبوة ثم الصحابة والتابعين وبعد القرون الثلاثة المتصلة أخذت مراحل الانحدار تزداد كلما افترق المسلمون شيعاً وأحزاباً متعددين عن تلقى الإسلام حسبما فهمه السلف .

ولكن هناك ما يبعث على النظر بأن الأمم قد تتخلف حينا لأنها تركت مقاليد التقدم الحقيقى كما حدث للأمة الإسلامية فى هذه الفترة وأنه إذا عادت الأمة إلى التماس قيمها ومفاهيمها الأصيلة مستمدة إياها من المنابع الأولى فإنها تستطيع أن تعود مرة أخرى إلى امتلاك إرادتها وقوتها ، وهـــذا ما توحى به علامات التغير الحادثة الآن فى المجتمعات الإسلامية بعد أن تكشف للمسلمين أن التماسهم مفاهيم الغرب فى الحضارة والفكر لم يحقق لهم أى تقدم حقيقى ، وأن أسلوب التقدم الحقيقى يكمن فى التماس الأصالة والتماس نفس الأسباب التى إنتصر بها المسلمون الأولون وبنوا بها مجتمعهم وحققوا بها نهضتهم .

وبذلك يمكن القول بأن التقدم ليس نظرية قائمة على التقدم المادى المتصل ، وليست نظرية قائمة على أن التقدم كان ثم توالت الهزائم ، ولكن المفهوم الإسلامى الصحيح هو أن المسلمين إذا أصابتهم الهزائم عليهم أن يلتمسوا من جديد منهجهم الأصيل ، عندئذ يعودوا إلى الصدارة .

الثـــورة

هذا مصطلح ارتبط بالتغيرات التى تتعلق بأنظمة الحكم والسياسة ، ووقع الاختلاف بين مصطلح الثورة ومصطلح الإنقلاب وقد ارتبطت كلمة الثورة بالعنف واستخدام السلاح وسفك الدماء ، بينما ارتبط الإنقلاب بالتغيير الإصلاحى والتمرد والفتنة والعصيان واعتبرتها بعض المعاجم مجرد تغيير فى شكل الدولة أو تعديل فى الحكم تصاحبه هبة شيمة وكل هـــذه المعانى ترتبط بالثورات الفرنسية والإنجليزية ولا صلة لها بالإسلام فلم يكن الإسلام ثورة ، وكذلك من الخطأ إطلاق كلمة الثورة على الإسلام ، وكذلك فيما يتعلق بمصطلحات الديمقراطية أو الاشتراكيـة ، فالإسلام دين ربانى منزل لم يرتبط بأى عامل من عوامل الثورات أو الإنقلابات فقد جرت هذه المحاولة كلها «لا» تيار » من هذه التيارات وليس الإسلام ثورة بالمعنى اللغوى ولا هو ثورة بالمفهوم العصرى الحديث الذى يعتنقه الثوريون . فالثورة انقلاب كامل شامل سريع عنيف على الأوضاع القائمـة وقضاء حاسم على الرجال القائمين على تلك الأوضاع وعلى كل محافظ من القـديم مهما كان القديم ، وتغيير كامل لـكل الأنظمة والتقاليد والأخلاق بالحديد والنار والسجون والمشانق ولم يكن الإسلام كذلك. وإنما كانت ولا تزال دعوة الإسلام إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والثورة الفرنسية ثورة لادينية معادية للدين أثر الماسونية والصهيونية فيها واضح مشهور ومعنى الحرية فيها واسع يشمل حماية القانون لـكل الأعمال والأقوال التى تهز القيم الدينية والخلقية والاجتماعية وهى ثورة تغرق الجماعة فى التشكيك فى عقائدهم وقيمهم

وتطلق لشهوات الناس العنان وتمد-ق الود فى التصور والسلوك لأنها لاترى على الدولة التزاما دينيا أو خلقيا تجاه الجماهير .

إن الذين يصفون الإسلام بالثورة لا يعرفون خصائص الإسلام ، إن الثورة تنتهى وتستنفذ أغراضها فإذا ما قيل أن الاسلام ثورة فإنه يمكن أن يقال من بعد أنه استنفذ أغراضه وليس فى الاسلام ثورة اجتماعية إنما هو رسالة السماء إلى البشرية منذ كانت البشرية . والمعروف أنه عندما قامت الدعوة الاسلامية لم تشغل نفسها كثيرا بهدم الوضعيات الجاهلية بقدر ما شغلت نفسها بالدعوة إلى إقامة البناء الجديد ولما صعب عليها ماجرت إلى الحبشة وإلى المدنية .

الباب السادس

المذاهب الوافدة

الايدلوجيات

١ — يحاول التغريب أن يقدم للأمة الإسلامية ذات المنهج القرآنى المضىء بديلا زائفاً تحت اسم الأيدلوجيات : الاشتراكية والتقدمية والثورية وغيرها من أقراص التنويم الممثلة فى غزو فكرى منظم ومحكم . وهل استطاعت هذه الإيدلوجيات فى أوطانها التى نشأت فيها أن تحقق شيئاً ذا بال حتى يمكن نقلها إلى محيط عاش منذ أربعة عشر قرنا فى إطار منهج ربانى قرآنى أقام به مجتمع وبنى به حضارة تشهد الدنيا جميعاً بفضلها على الحضارات وعطائها الذى لم يتوقف ! ؟

إن أول ما يهدف له هذا المخطط هو التشكيك فى كل القيم والمبادىء السامية الإسلامية ، والتقليل من شأن الأخلاق ، وتصوير الدين كعائق فى عملية التطور والنهضة على نحو ماتذهب إليه الأيدلوجيات العلمية التى تعتبر الاقتصاد الآلة الحقيقى . وقد أصيب المجتمع الإسلامى نتيجة لهذا الغزو بضرب من التفكك الأخلاقى والعقائدى ، ومن نتائجه مانراه من أحقاد على الساحة العربية ، ومايضمر الأخ لأخيه من عداء ومن انهيار خلقى وفساد دينى ، وقد أجهد المنظرون العرب هذا الوافد بعد أن أخذوه من الغرب ولفقوه باسم الدين عساهم يبررون اعتناقهم لهذه الإيدلوجيات وقد منيت هذه الأنظمة بالفشل الذريع فى عقر دارها ، ذلك أن الفكر الإسلامى الأصيل لايفصل بين الاقتصاد ، وبين ماعداه من نواحى الحياة الأخرى ، والعالم الاسلامى عاجز تمام العجز عن إيجاد العلاج الناجع ، لقد تجول المسلمون طويلا فى سوق الايدلوجيات ونسوا أن منهج الاسلام هو الدواء الوحيد الصالح لهم ، ويجب أن يكونوا على ثقة بأن مشكلات الأمة الاسلامية لن تحل إلا بالاسلام ، فلنحذر مقولات الماديين والعلمانيين التى يرددونها من أن الأخلاق مجرد مقولات زائفة ومبادىء عديمة الشأن .

٢ — وهكذا حاول الغرب أن يضع أهواءه ومطامعه فى أسلوب له

طابع علمى براق ، أقامه على موازنات لها مداخل وأسس ونتائج ، وأطلق عليها اسم الايدلوجيات ، ليخفى ما وراءها من هدف ، ولما كان الغرب قد ورث المسيحية وهى مجموعة من الوصايا ، ولم تكن دينا له شريعة بعد أن فصلت نفسها من أساسها اليهودية ، فقد كان عليها أن تضع منهجا بشرياً للمجتمع يرسم لها أساوب السياسة والاقتصاد ، فهى لم تلبث أن عادت إلى قوالب الأغريق القديمة وحاولت أن تبنى على مفاهيمها الوثنية بالرغم من الطابع المسيحى الظاهر ، وقد كانت نظرية الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية مستمدة من الفكر اليونانى أساساً بعد أن وقع الخلاف بين الدين والعلم وانحسر سلطان الكنيسة واستعلى العلم بعلمانيته وانصرافه عن الأساس الدينى ، ولقد تطورت هذه الايدلوجيات تطوراً واسعاً وسريعاً وانتقلت من الرأسمالية إلى الاشتراكية بعد توسع النظام الصناعى وظهور طبقة العمال فكانت الايدلوجية الاشتراكية رد فعل للأيدلوجية الرأسمالية ، ومازالت تجرى فى طريقها بالاضافة والحذف والتغيير ، لأنها من الفكر البشرى القاصر عن أن يحيط بأسرار النفس البشرية والمصوغ بأهواء أهله ، فقد ظهرت هذه الدعوات حين عجز الدين عن العطاء وحين انفصلت الأخلاق عن الدين ، وأن كل نظرية من هذه النظريات لم تلبث بعد مرور زمن ما أن تكشف عجزها عن الاستمرار فعدلت بنظريات أخرى ، ولا تزال تحتاج بين حين وآخر إلى التغيير لأنها غير قادرة على الثبات والعطاء الدائم ، وهذا هو الفرق بينها وبين منهج القرآن الخالد الثابت على الزمان ، فقد تصدعت الرأسمالية والفردية ، والماركسية والوجردية وعجزت عن العطاء ، ولقد كانت مقابل الايدلوجيات الأساسية فى اعتمادها على الفلسفة المادية وإنكار الخالق والعجز عن فهم التكامل بين الروح والمادة ، والعلم والدين ، والدنيا والآخرة .

٣ — وقد كان أخطر ما فى هذه الأيدلوجيات محاولة الدول المستعمرة فرض مناهجها على العالم الاسلامى الذى كان له تشريعه الاسلامى ومنهجه الأصيل فى نظام الحكم وبناء المجتمع ، فقد عمدت القوى الشيوعية والرأسمالية

على السواء إلى فرض مفاهيمها وبث عشرات التيارات فى أفق الفكر الإسلامى لإضعافه واحتوائه وصهره فى بوتقته . وقد ثبت الإسلام صلباً عنيداً فى وجه هذه المحاولة الخطيرة المستمرة ، فانكسرت على صخرته كل المحاولات فى جميع الظروف ، واثبتت التجربة فساد التطبيق الديمقراطى والشيوعى على السواء ، وعجزت هذه الايدلوجيات عن أن تستجيب للنفس المسلمة ، أو تحقق لها مطامحها ، وجرت كتابات كثيرة فى الكشف عن جوهر الإسلام وسعته وعالميته إزاء هذه الأيدلوجيات القاهرة ، الانشطارية ذات الأساس المادى المحدودة الأثر .

وكشفت حركة اليقظة الاسلامية هذه الأيدلوجيات على أنها فرضيات قد تصلح فى بعض البيئات التى قامت فيها نتيجة تحديات خاصة ولكنها لا تصلح فى مجال الفكر الاسلامى الذى يؤمن بالله رباً ، ويؤمن بالفكرة الجامعة بين الروح والمادة والعلم والدين كما أبانت عن أن هذه الأيدلوجيات ليست إلا حطام الفكر البشرى الوثنى المادى الاباحى القديم الذى عرفته حضارات اليونان والرومان والفرس والهنود والفراعين ، وهو فكر لم يثبت أمام رسالة السماء وإن دعوة الإسلام حين جاءت فقد أعلنت بدأ عصر الرشد الفكرى الذى تحطمت فيه كل هذه الدعوات الباطلة وأشرقت على الإنسانية مفاهيم التوحيد الخالص والعدل والرحمة والاخاء البشرى .

٤ — وقد تبين أن مختلف الدعوات التى تحمل لواءها الأيدلوجيات المعاصرة فاسدة الأساس فقد عمدت إلى الفلكلور لدراسة الشعوب البدائية لاحياء الوثنيات التى هدمها الاسلام كما أنها أخضعت العلوم الانسانية لمناهج العلوم التجريبية والمادية ، وكان علم الأديان المقارن دعوة إلى هدم مفهوم وحدة الدين على مدى الأجيال ومحاولة القول بأن الأمم بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد بظهور اليهود ، وهو قول مناهض للحقيقة فإن البشرية عرفت التوحيد منذ رسالة نوح الأول وتوالت عليها رسالات الأنبياء بالتوحيد كذلك فقد كانت الفرويدية هدماً للأخلاق ، وكانت الماركسية دعوة إلى إعلاء لقمة العيش وتفسير التاريخ البشرى كله على أساسها .

ثم إن هذه الأيدلوجيات أعلنت شأن العنصر واللون والعرق والدم وأعادت الانسانية إلى دعوة ذميمة حرمها الاسلام وأزالها حين قال : كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

وقد أصبحت أيدلوجيات الدول الكبرى اليوم مصالح وليست عقائد ، بمعنى أنها تبرير لمصلحة أو نفع ، كما يقول الدكتور رشدى فكار:حين نرى تقلب هذه الأيدلوجيات وتلونها فى هذه الدول نفسها تمشياً مع المصالح ، فقد أصبحت تمثل الغش والنفاق والكذب كما وصفها (برتراندرسل) بقوله (اللاخلاقية العالمية) لإسعاد الانسان عن طريق تفجير القنابل الهدروجينية .

٥ — وقد كان على حركة اليقظة تصفية الفكر الاسلامى من تلك العناصر الأجنبية ، توضيح معالم المنهج الاسلامى ، وبناء موقع محصن فى مواجهة تحديات الأيدلوجيات المعاصرة وتحليلها فى ضوء المنهج الاسلامى الشامل لحقائق الانسان والكون والحياة .

ويرى بعض الباحثين أن كلمة الأيدلوجية صنعت وتطورت لتكون بديلا لكلمة الدين الخطيرة عندهم ، وهى تعبر عن عالم جديد للأفكار الاجتماعية والدينوية ، واتخذت كسلاح لمحاربة المعتقدات الدينية السياسية المتسلطة التى استغلها النظام القديم فى الاحتفاظ بقبضته الباطشة ويقول أحد الباحثين : إن الهدف من مصطلح الآيدلوجية هو القضاء على الرمز الثابت المتصل بالدين ، فى عصر ما يسمونه النظم السياسية والاجتماعية ، حيث تتولى الأيدلوجيات وليس الدين إعادة تفسير الرموز الأساسية للعقيدة الأدبية وهو يعنى عودة أوربا إلى وثنيتها الرومانية والأغريقية القديمة ، ولكن بأشكال ووسائل عصرية ولقد عمدت محاولات صناع الأيدلوجيات إلى عدم الخضوع للتاريخ أو الأخلاق أو العلم بل عملوا على تطويقها كأدوات سياسية تحقق انقلاب كل القيم لاعادة تشكيل موقف الأنسان الأدبى ، ومن هذا كله نجد أنفسنا مخطئين غاية الخطأ فى متابعة مثل هذه الأيدلوجيات فى عالم قد رسم لنا فيه الاسلام منهجاً جامعياً صحيحاً لا يخضع لاهواء البشر ولا ينتقص

حقيقة الكون والحياة من خضوعها لله تبارك وتعالى ولا لا لناس مفهوم غير مفهوم القرآن الذى يقضى بعشوائية الإنسان والتزامه الأخلاقى ورسالته فى تعمير الأرض .

٦ — الإيدلوجية بالنسبة للاسلام :

الإسلام فى كل مكان وزمان هو القانون الإلهى لحياة الناس وليس مجرد نظارية .

منهج الحياة شامل متكامل جامع للجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية بحيث يتأكد أن العقيدة هى الأساس للشكل الإقتصادى وليس الاقتصاد هو الأساس .

إن كلمة نظرية هى مجموعة الأفكار التى ينظمها أساس فلسفى تجاه تفسير الوجود والحياة والإنسان تفسيراً ينشأ عنه مذهب اعتقادى ، ومن ثم يقوم عليه نظام ومجتمع . وهذه هى الإيدلوجية فى لغات الغرب حيث ظهرت أهمية النظرية فى الصراع الفكرى فى نهاية القرن ١٨ فى محاوله بعض الفلاسفة الألحاديين فى أوربا إلى بناء مثل على جديد للحياة الغربية يقوم على ثورة الصناعة أى على أساس دينوى إنسانى غير إلهى وغير دينى وبالذات غير مسيحى .وكان أول استخدام لهذا التركيب الفلسفى النظرى المضاد للدين على يد زعماء الثورة الفرنسية .

٧ — وفى الغرب لقد اتخذت كلمة (الإيدلوجية) التى صنعت وتطورت لتكون بديلا لكلمة الدين الخطيرة عندهم ، وهى تعبر عن انقلاب جديد للأفكار الاجتماعية والدينوية وما تزال تتخذ كسلاح لمحاربة المعتقدات الدينية والسياسية المتسلطة التى استغلها النظام القديم فى الاحتفاظ بقبضته الباطشة .

ومن هذا ما اتجه إليه الايدلوجيين منذ القرن التاسع عشر أى تفويض الفلسفة القديمة والعقل القديم من أجل ما أرادوا أن يصنعوه من الفلسفة الحديثة والعقل الحديث ، فكانت هذه الايدلوجيات التى لا ترتبط أساساً بالتاريخ أو الأخلاق أو العلم إلا لتطويعها كأدوات سياسية تحقق انقلاب

كل القيم لإعادة تشكيل مواقف الإنسان الأوربي وغيره فيما بعد تجاه تراثه وبالتالي تجاه ذاته ، وهكذا وقع الإنقلاب الايدلوجي في الأفكار من أجل القضاء في البداية وفي النهاية على هذا الرمز الثابت وهو الله الذي لم يعد له عند المذهب الجديد أي فائدة في عصر ما يسمونه النظم السياسية والاجتماعية الدنيوية ، حيث تتولى الايدلوجيات وليس الدين إعادة تفسير الرموز الأساسية للعقيدة الأوربية على نحو تجعلها تشغل الأذهان فقط بهذه المحن التي يخوضها الإنسان الحديث في حياته وهو يحدد مواقفه منها وبذلك عادت أوربا إلى وثنيتها الرومانية والإغريقية القديمة ولكن بأشكال ووسائل كما تسميها « إيدلوجية عصرية رائعة مروعة » وقد بدا ذلك حين قام فلاسفة التنوير اليهود التلموديون ببناء مايسمونه المثل العليا للحضارة الغربية على أساس دنيوي وإنساني خالص ، أي على أساس علماني غير ديني وبالذات غير مسيحي .

ولقد كشف كثير من علماء الفكر الغربي عن أن (الإيدلوجية) لنظام ثابت لايثبت كثيرا المتغيرات ، وسرعان ماتحتاجها العوامل ومن ثم تصبح منهجا جامدا يحول دون رؤية الجديد الدائم ، هذا من ناحية الفكر الغربي أما من ناحية الإسلام فإن الأيدلوجية نظام بشرى لا يمكن أن يتجاوز جيلا من الناس أو مكانا من الأمكنة ولا تستطيع الايدلوجية البشرية المرتبطة بزمن وبيئة أن تقدم شيئاً صالحا لعصور أخرى أو بيئات أخرى فهي لاتلبث أن تحتاجها الأحداث والتحولات .

٨ — من أكبر أخطاء استعمال المصطلحات الغربية استعمال كلمة «أيدلوجية» بدلا من كلمة عقيدة ، وهو مايختلف اختلافا واسعاً بين المعنى في الإثنين ، ولو أنه قيل أن كلمة أيدلوجية تستعمل بدلا من كلمة « منهج » أو نظام لكان ذلك معقولا في المقارنة ، والمقارنة بعيدة جدا بين كلمة منهج وكلمة أيدلوجية .

فإن المنهج الإسلامي هو منهج رباني جامع مانع ، محكم الأداء مرن ، متفتح على متغيرات الزمن والبيئات وقادر على العطاء في كل الظروف

والأحوال ، وهو منبعث من إيمان نفسي عميق والتزام أخلاقي وإقرار بالمسئولية الفردية والجزاء الأخروى ومتكامل بين المادة والروح والعقل والقلب فلا يمكن أن توازيه كلمة أيدلوجية بأي حال .

الداروينية

ظهر كتاب « أصل الأنواع » سنة ١٨٥٩ فكان نقطة تحول في التاريخ الفكرى الغربي ، من حيث أنه إستغل اركين النظرية المادية وفكرة حيوانية الإنسان ، ومنه انشقت مذاهب الماركسية ، والوجودية ، كما أنه أعان على تشجيع الدعوة إلى نظرية التطور الدائم ، الذى يخرج عن كل قواعد الثبات من حيث حمل « سبنسر » فكرة التطور البيولوجى فنقلها إلى عالم الاجتماع . فانتقلت الداروينية إلى أن تكون أساسا للفكر الواسع للروحيات والمعنويات والنظر إلى الإنسان على أنه مادة وتأثرت بذلك مفاهيم الأدب والنقد والاجتماع والتربية ومن أخطر ما دعت إليه الداروينية القول بأن الإنسان والقرد من أصل واحد ، وقد شاعت هذه النظرية ، وحملتها أوهام التلمودية إلى كل مكان للغض من مفهوم الإنسان الذى كرمه الدين الحق ، وامتهانه بأنه كان قرداً ثم توالت الاكتشافات للجماجم عبر أكثر من مائة عام فاثبتت فساد نظريته فى هذا الصدد وكشفت عن رأى مطابق لرأى القرآن الكريم من حيث أن كل نوع من الخلق كان مستقلا ، فالإنسان حسب بيان القرآن كان إنسانا منذ أول يومه ، خلق بعملية الخلق ، فى يوم معلوم ثم انتشرت منه السلالة البشرية ، ولقد أكد الباحثون أن نظرية داروين ماتزال بعد مائة سنة نظارية بحته قائمة على فروض فرضها داروين ولم يكن معه دليل عليها ، وهى لم تصل إلى أن تكون حقيقة واقعة (Fact) يقول الأستاذ المودودى : إن نظرية داروين هذه قمة رأس النظريات الباطلة التى ناصبت الإنسان العداء فى هذا الزمان وعملت للقضاء على إنسانيته ، فقد ساوت أن تجعل الإنسان يعتقد بأنه ليس إلا حيوانا كسائر الحيوانات ومن نتائجها أن بنى آدم لا يتعاملون فيما بينهم فى أي شعبة من

شعب الحياة إلا كما تتعامل الوحوش في الغابة ، ومن تأثيرها أن الإنسان بدلا من أن يستمد القوانين والمبادىء والمناهج لحياته من مصدر من المصادر السامية إنما يبحث عنها فى حياة البهائم والوحوش ، وهى التى قد عرضت على الإنسان نظام الحياة الطبيعية الحقيقية ».

ويرى الكثيرون أن نظرية داروين تخالف القرآن صراحة فهى تقول عن الإنسان الأول (وهو أبونا آدم) أنه كان ناقصاً فى تكوينه العقلى والجسمى لايعقل ولا يدرك ولا يتكلم ، والقول بهذا يترتب عليه نفى كل ماجاء فى القرآن من قصة آدم وحواء ، والجنة ، والملائكة ، وإبليس ، ويجعل هذه القصة خرافة من الخرافات لأنه لايعقل أن يكون محور تلك القصة الخطيرة إنساناً لا يعقل ولا يتكلم ولا يدرك . فالقرآن الكريم قد نص على أن الله تبارك وتعالى قد جعل من هذا الإنسان الأول (آدم) خليفة فى الأرض وجعله أرقى من الملائكة فهماً وعلماً قال تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وقال (وعلم آدم الأسماء كلها) فالقرآن يصف آدم بالعقل والإدراك وتحمل التكاليف من أمر ونهى ، وقد بنى داروين نظريته فى النشوء والارتقاء على افتراضات وتقديرات وتخميات تحتمل الخطأ والصواب ، ولم يقمها على أسس علمية قاطعة ، وقد قال أحدث العلماء فى هـذا الصدد : (مبيفرت) : إن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً فلا يمكن أن يحكم بأن الإنسالة سلالة قرد أو غيره من البهائم ولا يحسن أن يتفوه بذلك .

الفرويدية

قام فرويد بترويج مذهب الجنس تحت اسم التحليل النفسى (١٨٥٦ — ١٩٣٩) فكان أن بدا فى عالم الأدب وفى المجتمع الأوربى ظاهرة جديدة هى ظاهرة شرعية التحلل والإباحة ونتيجة لمذهب فرويد قد ظهرت الوجودية وفى ١٩٠١ وقف الدكتور هافاوك أليس فى محكمة الجنايات في لندن يسأل عن كتاب ألفه في الحب والعلاقة الجنسية بين الرجل

والمرأة وذكر أشياء كثيرة مكشوفة وانتشر مذهب الاباحة في الأدب والتحلل من قواعد الدين والخلق (أوسكار وايلد — لورنس) وقد رفض كثير من الباحثين لانحراف اتجاه علم النفس الحديث فقال دكتور محمد منسى السيد سالم أنه ركز على الجانب الشرير من الانسان، وفسر ببعض الغرائز كل سلوك الانسان حتى أنه أرجع فكرة الألوهية نفسها إلى عقيدة جنسية بجعل الانسان يحول خوفه من أبيه الذي ينافسه في حب أمه إلى خوف وهمى لقوة عليا . فالجانب الخير من الانسان عند كثير من المدارس النفسية الحديثة ما هو إلا مخاوف طفولية تقف في وجه الغرائز من الأدب ومن التقاليد الاجتماعية ، ومن هذه المخاوف نشأ الضمير ونشأت الأخلاق ونشأت فكرة الألوهية والسلوك الإنسانى من تفكير وإرادة وعاطفة . أما النظرية الاسلامية فإنها تصحح هذه الخرافات المعاصرة بأن الإنسان يحمل فى طياته جهازا مزدوج الاتجاه ، محور منه يتصل بعقل الانسان ومحور آخر يتصل بغرائزه ولم ينشأ أحدهما من الآخر ولكن كلاهما يؤثر فى الآخر فقد يتأثر عقل الانسان بالجوع والخوف والشهوة وقد يتحكم العقل فى الغرائز ويكبتها .

أما أن العقل نشأ من الجسم وغرائز الحياة فهو خطأ لا يقره القرآن أو العلم حيث لا نبرىء النظريات النفسية المعاصرة من الغرض والهوى فهى حقاً لم تقم على النزاهة العلمية بل قامت على خلفية عدائية للكنيسة وصل بها إلى الحد الذى ترفض معه وجود خالق للحياة وما عليها وراحت تزهق ضميرها الأعوج فى إفتعال تفاسير للخلق تستغنى بها عن الله الخالق والصواب الذى يحترمه العلم هو ما أقره القرآن من الإنسان مخلوق كريم متميز بخصائص تجعله سيداً وخليفة على هذه الأرض وهى العقل والتفكير والحرية والارادة ، بالاضافة إلى كونه جسدا يأكل الطعام ويتناسل ، وتضيف النظرة القرآنية للنفس بعدا غيبيا نعرف آثاره ولا نعرف تركيبه هو التاييد الآلهى لمن اختار طريق الحق والغواية الشيطانية لمن اختار طريق الباطل والنفس البشرية محصلة لقوى روحية وعقلية ، وغريزية ، والنفس الانسانية روح تميل إلى الحق وغريزة تنزل إلى الأرض وبينهما عقل يفكر وإرادة تختار .

٢ — خضع فرويد للأساطير واتخذ منها منطلقاً لنظرية علمية وأخطر ماخضع له (المأساة اليونانية) — ذلك أن جو المأساة : هو جو الصراع بين الإنسان والقدر مع انتصار الأخير وهو يتمثل أحسن تمثيل فى مسرحيات أيسكيلوس وسوفوكليس وبوربيدس فى اثينا فى القرن الخامس قبل المسيح ، وقد قضت المسيحية على الأدب المأساوى لأن عذاب المسيح قد كفل (الخلاص) وأتى بالغفران (فى تقديرهم) وكلما لاحت فى المسيحية بوادر المأساة عدت خروجاً على الدين كالزندقة المانوية التى تنكر انتصار المسيح أى انتصار مبدأ الخير على مبدأ الشر ، أو كالزندقة البلاجية التى تنكر الخطيئة الأولى ومن القصص التى تدور حوادثها فى جو المأساة (الاخوة كرامازوف) لدوتستوفسكى ولا يتفق جوها بين القصصين ومولى ديك الكاتب الأمريكى هوفان مع الجو الفكرى للقرن التاسع عشر ، وهو جو انتصار النزعات الفكرية والعلمية والإيمان المتقابل باضطراد مع تقدم الإنسانية . ويعتقد همان أن كتابات فرويد بعثت من جديد جو المأساة فى تفكير الإنسان المعاصر .

وعلى الرغم من أن التحليل النفسى يرمى إلى تحسين حال المريض فإن فرويد كان أميل إلى التشاؤم منه إلى التفاؤل ، فهو يصرح بعدم وجود الدليل الكافى للحكم على ضرورة إنهاء العلاج بالتحليل أما رأيه فى قصور الإنسان دون الوصول إلى الكمال فلم يستمده من المسيحية بل من دارون بتطور الانسان ابتداء من الحيوان ذى الخلية الواحدة هو الذى قضى عليه بالموت . وقد استعار فرويد من المأساة اليونانية المواقف والشبهات للتحدث عما يعترى النمو النفسى من عقبات (عقدة أوديب) أو الصراع بين إله الحب وإله الموت والتنبؤ بانتصار الموت فى النهاية ، وهؤلاء الناقدون ينكرون على فرويد نظرته الضيقة إلى مفهوم الاعلاء لأن فرويد ينكر الاستقلال الروحى ويعد الحالات النفسية العليا كالالهام الشعرى والحب الصوفى مجرد تحويلات وأقنعة للغريزة الجنسية .

الروحية الحديثة

إن محاولة دعاة الروحية الحديثة حين يستحضرون أرواح الموتى : سواء أكانوا مسلمين أم نصارى أم يهود أم بوزيون ، وقولهم بأن هذه الروح يعيش صاحبها فى سعادة وهناء هى محاولة لتدمير مفهوم الدين، واستخفاف بالأديان وتكوين مفاهيم دينية جديدة تحاول أن تصور أن كل الموتى يذهبون فى صعيد واحد وكلهم يشعرون بالسعادة حتى وإن كانوا وثنيين أو ملحدين وهذا يخالف تماماً مفهوم الأديان المنزلة . إن الذى يقف وراء هذه الدعوى هى الصهيونية العالمية الهدامة بكل أجهزتها وفى مقدمتها الماسونية التى تعمل على محو العصبيات الدينية والقومية ، لكى تتمكن من استخدام مخدوعي المسلمين والنصارى وغيرهم من أهل النحل على اختلافها فى خدمة أهدافها تحت ستار الانسانية التى تجمعهم جميعاً . ولكى تمحو من وجه الأرض كل عصبية فلا تبقى إلا عصبية اليهود لدينهم وقوميتهم ، وعند ذلك يصبح العالم بأسره أمام اليهود قطيعا من الأغنام لا تجمعه جامعة ولا تربطه رابطة يسوقونه إلى حيث يريدون .

إن من أخطر المخاطر دعوة ما يسمى بالانسانية والحقيقة الواحدة التى تكمن وراء الأديان كلها (ذلك أن تفسيرات الأديان فى العصور المختلفة قد غيرت كثيراً من الوجهة الحقيقية التى جاءت بها رسالات السماء) وهذه الدعوة تستهدف فى حقيقة الأمر إنحلال الأمم والشعوب على اختلافها خدمة للصهيونية العالمية وحدها وقد وضح تماماً أن مجالس استحضار الأرواح وسائط للتمويه والخداع ، وإن الأرواح المستحضرة ليست بأرواح بشرية ، وإنما جن تكذب على الناس وتشككهم فى دياناتهم بطريق غير مباشر ، ذلك أن الحقيقة كما يقول الأستاذ محمود ناظم نسيمى) : إن أرواح الموتى لا سلطة لبشر عليها فيحضرها ولا يستطيع التصرف دون إذن بها فالأحاديث الصحيحة تدل على أن الروح بعد بعد الموت يتلقاها ملكان فتصعدان بها إلى السماء ، فيؤمران أن ينطلق بها إلى آخر الأجـــل إلى قيام الساعة فليست الروح حرة التصرف فى عالم ما بعد الموت تفعل ما تشاء بدون إذن ربها ولا سلطة لبشر على تلك الأرواح يستحضرها

أو يستجوبها أو يسخرها لاستجواب الآخرين ، وبذلك يتأكد بطلان دعوى مستحضرى الأرواح بأن الأرواح التى تحضر فى الجلسات هى أرواح موتى البشر ، فأرواح الموتى ليست حرة فى تنقلاتها وتصرفاتها لأن أرواح البشر تسأل بعد الموت عن عقائدها وترى مقعدها من الجنة أو النار وتنعم أو تتعذب بنعم أو لذات خاصة بعالم البرزخ تختلف باختلاف درجات اليقين والايمان فكيف تكون تلك الأرواح المستحضرة أرواحاً بشرية ، إن استحضار الأرواح وسؤالها عن المغيبات نوع من الكهانة ، وإن اعتماد الكهانة وتصديق أخبارها محرم فى شرع الله تعالى بقوله ﷺ (من أتى عرافاً فسأله فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً) .

إن مجالس استحضار الأرواح الخالية من الايحاء والدخل إنما تحضرها أفراد من الجن فهى نوع من الكهانة وإن ما تقدمه من معلومات هو خليط من الصدق والكذب فلا يجوز تصديقها ولا اعتماد أخبارها ولا الاعتقاد بأنها أرواح موتى البشر .

ولا شك أن أعلام الصهيونية العالمية تروج لهذه المفاهيم لتجعلها أداة تسقط الاعتبارات الدينية والقومية فى العالم فلا يبقى إلا عصبية اليهود لدينهم وقوميتهم فإن المؤمن الواعى يكتشف هذا التدليس ويتخذ من الإقرار بوجود أرواح بين ظهرانينا لا نشاهدها دعما لإيمانه بالغيب الذى أخبر عنه رسول الله ﷺ كعالم الملائكة وعالم الجن وعالم البرزخ أو ما بعد الموت .

الروتارى

أجمعت الابحاث التى كتبت عن منظمة الروتارى أن هدفها هو تحطيم العقائد الدينية العالمية جميعاً ، لخدمة اليهودية ، وهو هدف وارد فى بروتوكولات صهيونية وغرض أساسى للحركة الماسونية وانديتها . ويتحدد موقف الروتارى من الدين فى إقرار هذه المنظمة باعتبار الدين مسألة غير ذات قيمة بالنسبة لاختيار العضو أو فى العلاقة بين الأعضاء وإنما تيار من الناس أصحاب التأثير

فى الحياة العامة يستشعرون بطريقة عملية أن الدين لا تأثير له ، ويمحون من رقابتهم كل توجيه من شأن أديانهم أن تحتم عليهم شيئاً تجاه الآخرين وتجعل رابطة العمل المادية أقوى وأمتن ، والنتيجة الأخيرة لهذا الموقف توفير الحماية للأقلية الدينية فى مجال الأعمال المهمة ، والقصد الخفى هو حماية اليهود فى مجال النشاط الاقتصادي وتحرص نوادى الروتارى على تلقين أعضائها قائمة بالأديان المعترف بها لديها مع إعطائها قيمة متساوية فكلها أديان سواء أكانت بشرية أو منزلة) والقائمـــة حسب الترتيب الأبجدى التى وضعتها المنظمة البوذية ، المسيحية بكنائسها المختلفة ، الكونفوسيوسية ، الهندوكية ، اليهودية ، المحمدية . وهم لا يقولون الإسلام ويحرصون على ربط اسم الدين الإســلامى بشخص النبى لوضعه كغيره فى قائمة الأديان البشرية وقد قامت الروتارى بالعمل على تقريب وجهات النظر بين اليهود وغيرهم ، وبحث مشكلة السلام وشروطه بين الشعوب القاطنة فى حوض البحر المتوسط ، وقد أقام رامز الاتاسى مع بروفسور بارز فى جامعة غرناطة حواراً نشر حول قضية هامة هى « محاولة الذوبان فى حضارة الغرب » . وتتحدث دراسة جمعية الإصلاح الاجتماعى فى الكويت عن أن أندية الروتارى ليست إلا مؤسسات صهيونية ، ذلك أن اليهود لم يكتفوا بالماسونية السرية رغم أنها تتشكل بأشكال مختلفة فى بلاد العالم وتبعاً لطبائع كل بلد ونظمه أقاموا هيئة أخرى منفصلة تؤدى بعض مهامها تحت ستار الإخاء الإنسانى وسموها (اندية الروتارى) والغرض الظاهرى هو النظر فى الشئون الاجتماعية والاقتصادية بإلقاء المحاضرات ، أما الغرض الحقيقى فهو أن يمتزج اليهود بالشعوب الأخرى باسم الإخاء والود ثم يحاول اليهود أن يصلوا عن هذا الطريق إلى جميع المعلومات التى تساعدهم فى تحقيق أغراضهم اقتصادية كانت أم سياسية أم صناعية أو نشر عادات معينة تعين على التفسخ الاجتماعى وتمنع العادات والتقاليد ، وزرع تقاليد وبدع جديدة باسم (الموضة) مرة والثورة على التقاليد

مرة أخرى ومواكبة مجتمعات لا يتفق مع مشاربنا ولا تسير مع أمزجتنا وتركيبها الاجتماعى والاعتقادى ومن ثم يذوب المسلمون بالذات فى عصرهم ويقلدون الغير فيما يضر ولا ينفع ، ويربطهم بالقشور ويقطعهم عن الواجب ويحجبهم عن موروثهم الثقافى وتقلهم الحضارى وهنا تذهب ريحهم .

البهائية

تكشفت دخائل البهائية فى مصر (مارس ١٩٧٢) وكان نموها من سيئات حكم محتوى من القوى الغربية والماركسية ، فقد تنامت هذه النحلة الخطيرة خلال عقد الستينات ، كما تنامت الماركسية والبعثية والعلمانية وقد كشفت التحقيقات عن اعترافات مثيرة أدلى بها المنتمون إليها ، والبهائية - كما يقول محمد فهمى عبد اللطيف ليست مجرد دعوة تتصل بالعقيدة الدينية كما يفهم بعض الناس ولكنها دعوى تنطوى على أغراض خبيثة من التحلل الأخلاقى والاجتماعى والتحلل القومى والوطنى تحت شعار من الأوهام الإنسانية التى تستهوى بعض الضعفاء والمخدوعين وقد استغلت السياسة الاستعمارية هذه الدعوة منذ ظهرت فى منتصف القرن الماضى فى إيران كما استغلتها الصهيونية فيما بعد ، واتخذوا منها أداة لاثارة القلاقل والخلافات وإشاعة التحلل الأخلاقى والدينى وإزالة العصبية، الدينية والقومية ، حتى تكون الأرض ممهدة لأطماع الاستعمار وأغراض الصهيونية وتحقيق غايتها باسم « الانسانية » التى تدعوا لها البهائية . ومذهب وحدة الإنسان هو مذهب فى السياسة يقابل مذهب وحدة الوجود عند المتطرفين من الصوفية وأصحاب الاعتقاد بالحلول فهم يسقطون التكاليف الدينية عن الإنسان ويعفونه عن التمسك بالمفاهيم أو التعاليم بعد أن يقطع الأودية السبعة التى حددوها لما يسمونه بالسياحة الروحية والوصول إلى الله ولقولهم :

إنه لا معنى للتكاليف إذا ما اتصل الانسان بالله ، ومن التناقض فى كلام هؤلاء البهائين انتظارهم أن يكون الانسان مسلما أو مسيحياً او يهودياً أو بوذياً ويقولون أن هذه الأديان قد مضى زمانها وأن الالتزام بالتدين بهذه الأديان

هو الذى أثار التعصب وصنع العداوة بين الناس ، على أنهم يقولون فى نفس الوقت يجب أن يكون هناك الانسان البهائى فقط ، ثم هم يتمثلون بآيات القرآن والانجيل والتوراة ومما يزيد فى الريبة أنهم يختفون دائماً خلف مذهب الجماعة التى ينفثون سمومهم فى أوساطها ويخدعونها عن حقيقة دعوتهم ومآربهم ولقد أحاطت الريبة تلك الدعوة البهائية منذ أن نادى بها فى طهران رجل اسمه ميرزا على عام ١٨٤٤ وقد تصدى العلماء والحكام لهذا الرجل فقتل وصلب وذبح عدد من اتباعه ، ثم خلفه على الدعوة النائب بهاء الدين عام ١٨٦٣ ولقد صارت الدعوة البهائية أداة فى يد الاستعمار وفى خدمة الصهيونية على عهد عباس عبد البهاء الذى تولى أمر هذه الدعوة وأقام فى عكا ، فى الوقت الذى كانت تركز فيه الصهيونية أطماعها على فلسطين وتحاول أن تصل إلى هذه الأطماع بشيء من الوسائل بعد أن رفض السلطان عبد الحميد مطلبهم فكان البهاء داعيه الانجليز ثم اليهود .

الفرعونية

كانت الفكرة الفرعونية من الغموض إلى الحد الذى جعل من الصعب شرحها وقد قضت على من عملوا بها فتخطوها (نجيب محفوظ وسلامه موسى وهيكل وعنان) إلى اتجاهات أخرى، وقد بدأ أن التوفيق بين الإسلام والفرعونية أو بين العروبة والفرعونية هى محاولة عقيمة . ولقد تبين من مراجعات الأحياء أن فرعون رمز لنوع من الحكومات الاستبداديه البائدة فالفرعونية نوع من النظم التى ينهض عليها الحكم الاستبدادى الجائر ، هذا النظام يقترن بما يتفق من الأوضاع الاجتماعية والصور الفعلية التى تبرز الظلم وتستطيب الخنوع وتساعد على الترفيه عن الطبقة المحدودة الحاكمة التى تستند إلى ماتخترعه من أسانيد الحقوق المقدسة ، ولا يجد المصرى المشوق للحياة الصحيحة فى شعار الفرعونية من قوة الدفع إلى الحريه والمساواة ما يجد المسلم فى كلمة الإسلام ، ومع انفتاح كل قبر يتراءى ذلك الكابوس الخانق التى تتحرك معه ذكريات عصور وأحقاب أجهدها الظلم الاجتماعى والتخلف العقلى (محب الدين الخطيب) .

الأنثربولوجيا

هذا العلم ينطوى على مؤامرة خطيرة تمسك الصهيونية التلمودية بخيوطها من أجل تحقيق أهداف خطيرة ، وقد كشف هذا الدكتور زيدان عبد الباقى الأخبار (١٩٧٧/١١/٣) حين قال: ليس لعلماء علم الإنسان (الأنثربولوجيا) أن يحتجوا على تقرير عالم النفس الاجتماعى يبلز الذى يؤكد وجود تعارض بين قضايا البحث الأنثربولوجى والأخلاق أو على حكمه على الأنثربولوجية بالاستقراطية العلمية اللاأخلاقية للأسباب التى أوضحها هذا العالم الكبير ، إن عليهم أن يسلموا بها ، وذلك أن الطريقة فى البحث الأنثربولوجى القائم على الملاحظة الشخصية يعتمد على الانطباعات الذاتية وكل ما هو ذاتى وليس بموضوعى . علماً بأن الأنثربولوجيا قد نشأت بتشجيع ورعاية الاستعمار لكى يتمكن من قهر الشعوب المختلفة وامتصاص ثرواتها تحت زعم العمل على الرضى بها وهذه الأنثربولوجيا لايقرها قانون الأخلاق كما يؤكد ذلك علم الاجتماع . إن حركة التحرر والاستقلال جعلت من الاستعمار عملية غير مربحة ، ومن ثم كف الاستعمار على تمويل البحوث الأنثربولوجية . وبالتالى فلا يجوز للجامعات أن تحل محل الاستعمار فى تمويل الأنثروبولوجية إن وظيفة أنثربولوجى لا توجد إلا فى البلاد الاستعمارية .

التطور

ناموس التطور من طبيعة الحياة ولكنه ليس ناموسا مستقلا ، ولكنه مرتبط بنظام الثوابت والمتغيرات ، ومن هنا كان فساد فكرة التطور المطلق الذى قالت به الفلسفات المادية،ولما كان النظام الربانى فى العقيدة ثابتاً ومرتبطا بالأخلاق بما يعنى ثباتها فإن فكرة التطور فى الدين والأخلاق فكرة فاسدة بالنسبة للإسلام ومعنى التطور فى الفكر أنه ليس هناك قضية ثابتة وأن جميع القضايا الفكرية متطورة ومتغيرة ، وهذا التطور قد لاينتهى عند حد ، وإذن فهناك النسبية باستمرار ، وهناك النسبية المطلقة ، وهناك أيضاً الخطأ المستمر ، ما دمنا نقول بالنسبية والتطور فليس هناك الثبات ،

والمذاهب والأيدلوجيات البشرية لعجزها عن الإحاطة بالعصور والبيئات — وهو ما لا يحيط به إلا الدين الربانى وحده — فهى فى حاجة إلى تطور وتغيير دائم ، لأنها سرعان ما يصيبها العطب إزاء متغيرات الحياة والزمن ، ومن هنا ظهر فساد إدخال فكره التطور فى الدين الحق ، وإن الحقائق الدينية لا تتغير بتغير الأهواء والعواطف ، أو العصور والبيئات .

ومن هنا فلا بد من فهم القانون الأساسى للحركة والتطور ، وهو قانون مترابط بين عنصر الثبات وعنصر الحركة ، بين القيم الموروثة والقيم المكتسبة ، بين الثبات والتغيير ، وعلينا أن نحترس من ارتفاع صيحة التغيير المندفعة التى تحاول القضاء على الجوهر الثابت أو اتهام هذا الثبات بالجمود والمحافظة . ولا بد من الحرص على الجوهر القائم الدائم .

الأسطورة

نظرية فريزر صاحب علم مقارنات الأديان قامت على أساس أن الدين قد تطور من عبادة الأب ، إلى عبادة الطوطم ، إلى عبادة قوى الطبيعة ، إلى عبادة الأفلاك ، إلى عبادة الأصنام ثم وصل إلى عبادة الله الواحد الأحد .

ومعنى هذه النظرية : أن الدين من صنع البشر وأنه ليس منزلا من عند الله ولا هو فطرة فى القلب ، قالت النظرية أن الإنسان هو الذى خلق ، وأن الله (جل وعلا عما يقولون علوا كبيرا) من ابتداع العقل البشرى .

ولا يعترف الإسلام بأى نظرية عن تطور الأديان ، وينكر إنكاراً باتاً النظرية القائلة بأن البشرية مرت بثلاثة أدوار :

(الخرافة — التدوين — العلم) .

كما ينكر النظرية الأسطورية الطمطومية عن نشوء الأديان التى تدعى

أن الابن أراد الاعتداء جنسياً على أمه فمنعه أبوه فقتله فتقدم فنشأت المحرمات وإن فكرة الألوهية بدأت بعبادة الحجر والحيوان والإنسان ثم الإله ثم العلم .

وقد قرر القرآن أن الإسلام ابتدأ ببداية البشر وكانوا لايحيدون عن التوحيد ، ثم حدثت انحرافات بتقديس بعض الأشياء ثم نسوا بمرور الزمن أن هذه مجرد واسطة فعبدوها من دون الله .

٢ — والأسطورة فى اللغة هى الأكذوبة والأساطير هى الأباطيل فيما نسميه بالخرافات وفى التنزيل (إن هذا إلا أساطير الاولين) وواحد الأساطير أسطار واسطر واسطور ، وقد نشأت الأساطير فى زمن متأخر من حياة الإنسان وكانت كلها تدور حول الآلهة فى الأساطير الدينية ، وهى القصص التى كان يرويها الكهنة فى طقوسهم فى المعابد وعن معارفهم فى الكون وما يبدو للناس من ظواهر وخوارق .

وفى تاج العروس هى الأباطيل وقد كانت شائعة بين العرب وقد وردت فى القرآن تسع مرات وكلها تدل على أنها القصص ، وكان المشركون إذا سمعوا شيئاً من القصص الواردة فى القرآن قالوا : إن هذا إلا أساطير الأولين ، أما كلمة خرافة وجميعها خرافات فقد أطلقها العرب على الحديث المستملح من الكذب والعرب الذين نسبوا بناء تدمر إلى الجن لم ينسبوا بناء الأهرام إليهم مع أن الأهرام أحق أن تنسب إلى الجن لغرابة بنائها وضخامتها ولكن العرب جاءوا إلى مصر بعد الإسلام بعد أن وضح تفكيرهم بالرسالة السامية وغربت عن عقولهم الخرافات .

وكان من حسن حظ الإسلام أن بدأ تاريخه مكتوبا ، أو مرويا رواية تقرب من أن تكون مكتوبة ، ثم جاء الإسلام بالعلم والحث عن التفكير فقل تسرب الخرافة إليه حتى أن أسلافنا لما رأوا عدداً من المبالغات فى ثنايا التاريخ الدينى والسياسى والثقافى سموها بالإسرائيليات إذ جزموا أنها من صنع بنى إسرائيل اليهود فى محاولاتهم تشويه الإسلام .

ولقد كان أعظم تحـول حققه الإســلام هو الانتقال من الخرافة والأسطورة إلى الواقع وذلك بالامتناع عن تضحية الكائن الحى إزاء أسطورة فيضان النيل بإلقاء فتاة وكان البديل إلقاء رسالة عمر بن الخطاب التى تقرر أن النيل يقبض من عند الله .

وقد عرفت الآداب غير العربية ألوانا غالية فى الخرافة أمثال الالياذة الإغريقية ،والشاهانامه الفارسية والرامايانا الهنــدية والأساطير المصرية ، وتتميز الأسطورة الإغريقية بأنها تقوم على الجرأة فى الإنطلاق من الضوابط وتجمع الأساطير الإغريقية إلى تعدد الآلهة حماقات البشر المنسوبة إلى الآلهة وشهواتها ونزواتها وهى تتمثــل فى عبادة الطبيعة وعبادة الأجساد .

الوجودية

طرحت المذاهب المادية الغربية فى أفق الفكر الإسلامى عشرات من المفاهيم والدعوات ، من أخطرها مذهب الوجودية ، الذى ظهر فى الفكر الغربى على أثر سقوط فرنسا تحت سنابك الألمان وتهدم كيانها الاجتماعى ومن ثم فهى دعوة لتأكيد الذاتية باسلوب مادى ، ومن ثم فهى ليست دعوة طبيعية فى مرحلة طبيعية من مراحل الحياة الاجتماعية ولذلك فهى فلسفة مرحلية لا يمكن أن تعيش ، ولا يمكن أن تنقل إلى مجتمع آخر ، وهى فى ضوء الإسلام دعوة إلى هدم عقيدة الالتزام الأخلاقى والمسئولية الفردية ، وتحريض على الانفلات من القيود والإنطلاق من الغرائز حيث تبرر الوجودية الانحراف بدعوى الحرية ، وتغضى عن القيم الأساسية وتطلق عنان الأنانية والأباحية وترسى كل وسائل الإغراء فى طريق الانسان ، فضلا عن أنها تؤله ذات الانسان وتفلسف انحرافه وتعفيه من آية التزامات خارجية فى وقت تقلل فيه عبء المسئولية ، ولاتذهب الفلسفة الوجودية إلى دراسة الانسان من جميع جوانبه فتقدم له منهجاً كاملا ، ولكنها تعلى من شأن الذات الفردية إلى حد المرض وتجعلها الحقيقة الوحيدة التى يجب أن ينطلق الانسان منها وينتهى إليها وهى - كما يقول الأستاذ غارى التوبة -

لا تمثل حلا بالنسبة لمشاكل الإنسان ، وفى ضوء الإنسان يتعارض مفهوم الفردية الأنانية الوجودية مع مفهوم الإسلام الجامع الذى يرسم منهجاً جامعاً للإنسان فرداً ومرتبطا بالمجتمع . ومن فساد منهج الوجودية إلغاء التراث الإسلامى وإهمال القيم الأساسية التى جاء بها الدين ، ولقد واجهت الوجودية المجتمع الغربى بحلول فاسدة لم تستطع أن تحقق شيئاً ، وتجربه الوجودية فى مطروحاتها وتطبيقاتها تدل على إنهيار حضارة الغرب وفشل فلسفاته ، وحضارته فى تأمين الاستقرار والاطمئنان للمجتمع ، وحاجة الإنسانية إلى مصدر آخر ، أكثر تكاملا وليس هذا سوى الاسلام العظيم الذى يقدم الوسيلة الحقيقية للفرد والمجتمع جميعاً حيث يقدم الموازنة بين عنصرى الانسان الفردى والجماعى .

ولقد ذهب الكتاب الوجوديون كل مذهب فى تلقين الناس فلسفتهم ، والحديث عن مشاكل الانسان وإن حلها يأتى عن طريق الحرية الوجودية وقد ثبت أن ما تقدمه الوجودية هو محاولة فاشلة لانقاذ الانسان من أزمته الحقيقية لأنها تصدر عن مفهوم مادى بينما أن الحل الحقيقى لمشكلة الانسان إنما تتمثل فى الجمع بين القيم المادية والقيم الروحية ، وأن أزمته ومأساته فى الفصل بينهما ، وهو فصل عرفته الفلسفات الغربية واليونانية منذ وقت بعيد ، هذا الفصل من شأنه أن يعلى جانب المادة وفقدان جانب الروح والمعنويات ومن ثم تبرز صيحات الضياع والعبث والتمرد والغثيان ، والعدم ، ولا سبيل إلى إعادة الانسان إلى طبيعته ، إلا بتأكيد وحدة الذات الانسانية الجامعة بين المادة والروح .

ويرى الدكتور عماد الدين خليل أن مشكلة الانسان الخالدة هى البحث عن الخلود ، والتوازن بين جانبى المادة والروح ولقد حل الاسلام هذه المشكلة ، فقد جاء الاسلام للإنسان بالخلود عندما علمه أنه على موعد مع الله وأنه سوف يبعث بعد موته ليحاسب على مدى فاعليته فى الحياة الدنيا .

(وإن ليس للإنسان إلا ماسعى وإن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) كما قدم التجربة الوجوديه الكبرى وهى تجربة التوازن بين القيم الروحية والقيم المادية التى بدونها لايتوحد الانسان مع ذاته ويحقق وجوده ويتخلص من عذاب التمزق والازدواج ، ولما كان التمزق مصدره اليأس من الغيب والخلود ومدافعة المصير المحتوم الذى ينتظر الجميع دون جدوى ، فقد حل الاسلام له هذه الأزمة ، وهى الأزمة التى يقاسيها الانسان البعيد عن الله . ويرى الدكتور عماد الدين خليل أن القاعدة التى تنطلق منها الوجودية قاعدة مادية ، تقوم على إغفال العامل الروحى فى كيان الفرد وتحويل الانسان إلى إنسان مادى . ولا يقضى على التناقصات الداخلية فى الذات الانسانية إلا شىء واحد ، هو توحيد عنصرى الروح والمادة ، غير أن الوجودية أنكرت القيم الروحية وشوهت الانسان . والقضية الأخرى التى تواجه الانسان بالتحدى هو الموقف من الموت ، والوجودية بناء على انكارها لله تعالى لاتعترف بوجود بعث وجزاء عن سعى الانسان فى حياته الدنيا ومن ثم فهى تطبع نفسية الانسان بطابع الخوف ، وتكون مصدراً للقلق ، ولا شك أن الفصل بين القيم الروحية والقيم المادية يصيب الانسان بالتناقض الداخلى والازدواج النفسى ، وهكذا كلما ساد الظلام يلمع الاسلام دائما بإعجازه ليحدد للإنسان معالم الطريق : ذلك أن الاسلام أنزل وتكامل ليكون العقيدة الأخيرة للبشرية دونما تناقض مع طبيعتها الأصلية من جهة ودونما تجاهل لعناصر ماساتها من جهة أخرى . وقد أقام التوازن دونما طغيان قيمة على قيمة ؛ ذلك لأن الانسان بفطرته الأصلية متوازن ولكن الظروف التاريخية المادية المنحرفة هى التى مزقته داخليا بين أخطاء معالجات أرسطو وأفلاطون من ناحيةومحاولات الروحية الشرقية من ناحية أخرى ، فالاسلام يستخدم عنصرى الفكر والنفس للوصول إلى هدفه ، وبذلك يقضى على التناقض الداخلى أو التمزق بين الروح والمادة . . وبالنسبة للموت فهو يقدم فكرة البعث والجزاء كركن أساسى من عقيدته وقد وضعها على أسس منطقية ونفسية عميقة الجذور فى كيان الانسان

بل إنه جعلها أساس السلوك الأخلاقى فى الحياة الدنيا وبهذا قضى على اليأس من الفناء وأبعد شبح العدم عن مصير الإنسان ، والإيمان بحقيقة البعث والجزاء لايقضى على يأس الإنسان وتخوفه من المصير المظلم فحسب ، وإنها يمنحه قوة نفسية خارقة يستطيع بها أن يغزو الكون ويحقق المعجزات ، أما فكرة العدم التى تثيرها الوجودية فترتبط بها أفكار اللاجدوى وضياع الجهد الإنسانى وهذه الإخطار تدفع الإنسان أما إلى اليأس التام أو الانتحار .

(٢) ويرى كثير من الباحثين أن مذهب الوجودية هو من الإخطار التى داهمت بها اليهودية التلمودية الفكر البشرى الذى ابتدعه سارتر فى فرنسا ودعابه إلى التلبية المطلقة لرغبات النفس حيث ينمى من ضمائر الناس شعورهم بالألم ، فقد استغل هذا المذهب الخطير شغف الإنسان بالحرية. فنادى بها للصوص والفجار والملحدين وروج لها فى صور مختلفة عبر العصور والأزمان حتى رأى الناس اليوم قراصنة السموم يحملون اسم الحرية ويستبيحون أقوات الشعوب وأعراضها ويقول دكتور عامر النجار أن الوجودية الملحدة أخطر صور الإلحاد فى عالمنا المعاصر وهى تعرض فكرها بأساليب جذابة خادعة وتدعو الإنسان إلى التحرر من كل قيد أو ارتباط وتحطم كل القيم والفضائل .

الاجتماع والعلوم الاجتماعية

طرحت الفلسفة المادية مفهوماً مفصلا للعلوم الاجتماعية ينفصل فيه الجانب المادى عن الجانب الروحى ، ويبرز فيه الجانب المادى ويختفى الجانب الروحى تماماً ، وقد يكون هذا نتاج تطور الفكر الغربى بعد انفصاله عن المسيحية ولكن طرح هذه المفاهيم فى أفق الفكر الإسلامى الجامع بين المادة والروح من شأنه أن يحدث إثارا خطيرة ، وهذا يعنى الاختلاف العميق بين الثقافات الغربية والثقافة الإسلامية ، أما فى مجال العلوم المادية فإنه لا خلاف عليها لأنها من جهد البشرية كلها .

أما بالنسبة للعلوم الإنسانية فان الأمر يختلف لأنها تدخل فى تكوين

الوجدان وأركان بناء الشخصية — وتهمين على توجيه الفكر والسلوك فى الإنسان ، ولذلك يمكن تلوينها وصبغها بما يتفق مع الميول والأهواء .

ويقول الدكتور عبد الفتاح بركة : إنه من الخطأ البين أن ننظر إلى هذه العلوم الإنسانية نظرتنا إلى العلوم المادية من حيث كونها علوما مشتركة صالحة للتطبيق فى كل زمان وفى كل مكان وفى كل مجتمع فإن تاريخ أمة ماليس هو تاريخ أمة أخرى ، وليس مناط افتخارها واعتزازها نفس الشىء كما أنه من الخطأ البين أن يدعى أنه يمكن الاستغناء بحقائق العلوم المادية عن تلك العلوم الانسانية أو إخضاع العلوم الإنسانية لحقائق العلوم الماديه ، ويرى الدكتور بركة أن قضية العلوم الإنسانية بما فيها علم الاجتماع قضية من أخطر القضايا خاصة بالنسبة لمجتمعنا الإسلامى من حيث أن التعارض فيما بينها وبين المجتمعات الغربية فى الأسس والمبادىء التى ينتمى عليها التصور العام للكون والحياة والوجود تعارض لا يسهل التقريب فيه وأن علم الاجتماع الذى يسود اليوم والذى تتدارسه فى معاهدنا وجامعاتنا علم مبنى على أسس ومبادىء قوامها التصور الغربى الذى يختلف اختلافا كاملا عن التصور الإسلامى للكون والوجود . ويرى الدكتور محمد المبارك أن هــذا التصور الغربى لعلم الاجتماع فى الغرب يحصر الوجود كله فى الإنسان والطبيعة ويرى أنه جزء منها ونوع من أنواعها ، وأن الطبيعة وجدت نفسها هكذا من غير موجه لها وأن العقل وحده طريق معرفة الحقائق وليس ثمة طريق آخر وليست المثل الأخلاقية والمفاهيم الحقوقية إلا وقائع أو حوادث كالحوادث الطبيعية نشأت وتطورت فهى غير ثابتة ، والإنسان نفسه إنما هو حيوان اجتماعى مفكر فحسب وليست النفس الانسانية إلا مجموعة من الغرائز . هــذه الخلفية العقائدية مشتركة بين معظم الاتجاهات المذهبية الحادية وغير الحادية ، وأن حاولت الالتفاف بأثواب علميــة محايدة لتبدو بعيدة عن سبق التأثر بهذه الاتجاهات ولكن هذه الخلقية العقائدية تبدو من خلال الجزئيات

والمسائل كقضايا مسلمة وحقائق مصطلح عليها غير قابلة للشك والمناقشة .

ومن الواضح البين إن هذه الخلفية العقائدية الغربية تقف على طرف التباين مع مالدى المسلمين والعالم الإسلامى بعامه من نظرة إلى الكون والوجود وأن العلوم المادية تختلف عن العلوم الإنسانية وأن ما يقرره الغرب بشأن مفهوم العلوم المادية لا يتفق مع نظرتنا نحن المسلمين .

يقول دكتور بركة : وعلم الاجتماع كغيره من العلوم الإنسانية متأثر بفكرة الباحث ومذهبه واتجاهه وإنه لا يمكن أن يتخلص الباحث من معارفه وعقائده السابقة إلا فى القليل النادر الذى ينبنى على كون هذه العقائد نفسها تتطلب منه الحياة والنزاهة والتجرد وهو مالا يوجد فى المذاهب الغربية رغم كثرة الدعاوى وارتفاع أصواتها . هذا النموذج هو (أوجست كونت) الذى يعزى إليه علم الاجتماع الحديث فعلى الرغم من أنه سبق بكثير من الجهود المجهدة فإن هذه العملية نفسها قد لبثت ثوباً معيناً بسبب اتجاهه الخاص فى إنشاء هذا العلم .

لقد انطلق فى إنشاء علم الاجتماع من منطلق رغبته فى إصلاح المجتمع وتخليصه من عوامل الاضطراب والتناقض ولقد رأى أن السبب الرئيسى فى فساد المجتمع يرجع إلى فساد الأخلاق وأن فساد الأخلاق يرجع إلى فساد الفكر واضطراب طرق الفهم ، وفساد الأخلاق أدى إلى فساد شامل فى مختلف نواحى المجتمع وإقامة منهجه على المنهج الوضعى وإلغاء المنهج الغيبى الدينى وانتهى إلى قانون أسماه قانون الأحوال الثلاثة وجعله قانوناً عاماً للتطور الاجتماعى (١) الفهم الدينى (٢) الفهم الميتافزيقى (٣) الفهم الوضعى . ويقصد أوجست كونت بالطريقة الوضعية أن يفهم الظاهرة بنسبتها إلى سببها المباشر وإلى القانون الذى تخضع له كأن يفهم ظاهرة النمو فى النبات على النحو الذى يشرحه علماء النبات.

قال الدكتور على عبد الواحد وافى : إن قانون الحالات الثلاث ظاهر البطلان من عدة وجوه : وإن المنهجين الأولين يعتريهما الفساد والخلل وذلك راجع إلى تصور الدين والقوى الغيبية عندهم وهو يختلف جملة وتفصيلا عن تصور الإسلام وتصور المسلمين ولقد أخطأ علم الاجتماع الغربى فى محاولة

التخلص من المعوقات التى كان تحبط بهذا العلم فى نشأته فى الغرب وعلينا أن نحترس من أخذ قضايا العلم من معاهد البحث الغربى باعتبارها حقائق مسلمة ، لأن ذلك سوف يترك أثره غير المباشر فى نفوس طلابنا وناشئينا باعتبار أن الأسس والمبادىء التى بنى عليها مبادىء مسلمة مع أنها تتعارض مع مبادئنا وأسسنا ، وهنا يقع التمزق المفتعل بين العقيدة والعلم مما ليس له وجود فى تاريخنا ولا فى تراثنا ومما لاينبغى أن يترك له محل فى حياتنا العلمية الحاضره أو مستقبلها المنتظر . والمبدأ العلمى الذى تخضع له العلوم الإنسانية فى بيئة الإسـلام هو المبدأ العلمى بدون اختلاف : التجرد والنزاهة وطلب الحق والحقيقة من أجل الحق والحقيقـة دون غرض أو ميـل أو هوى ، ولا يمكن أن يقال أن الباحث المسلم حـين يبحث فى العلوم الإنسانية يكون ملونا لعقدته ودينـه لأن مبادئ عقيدته ودينه لا تفترق أو تخالف تلك المبادىء العلمية الضرورية لنزاهة البحث وسـلامة النتائج فإذا انحرف الباحث فى بحثه لغرض أو هوى فليس ذلك راجعا إلى مبادىء دينه ، وإنما يكون راجعاً إلى انحرافه عن مبادىء دينه وعقيدته . أن العلوم جميعاً مادية وإنسانية يمكن أن تكون علوما عامة لاتختلف فيها الشعوب والأجناس لولا مايعترى العلوم الإنسانية من هذه المعوقات التى تفرضها عليها الأهواء والمبادىء التى لايتفق مع طبيعة العلم . وقد استوفى ابن خلدون الأسس والمبادىء الضروية لنزاهة العلم وتجرده والباحثين الذين يريدون أن يفرضوا مبادئهم الفلسفية واتجاهاتهم المذهبية على تفسير الظواهر والواقعات الاجتماعية ويريدون أن يتصيدوا من هـذه الظواهر والواقعات مايؤيد هذا المذهب منحرفون عن المنهج العلمى الصحيح .

(٢)

وقد ذهب الباحثون المسلمون فى الغرب إلى محاولة فى الأصالة من أجل وضع نظرة إسلامية أصيلة لعلم الاجتماع ركزت على العناصر الآتية :

أولا : أن ملامح حركة التغيير الاجتماعى التى يحتاج إليها الأمة الإسلامية فى حاضرها لابد أن تكون إيجابية مؤثرة وليست سلبية انطوائية .

ثانياً : تثبيت التوحيد ليس كعقيدة فحسب ولكن كحقيقة علمية يسهل اثباتها . حيث يعانى المسلمون اليوم مشكلة ممارسة علوم ترتكز على تجاهل المعتقدات الإسلامية ، وعليهم أن يبرهنوا على أن العلوم الاجتماعية الإسلامية ترتكز على أسس ثابتة وحقائق مثبتة عقلياً ومنطقيا فى حين أن العلوم الاجتماعية ترتكز على فرضيات لم يسبق لها أن نوقشت عقلياً ومنطقياً .

ثالثاً : تفسير التاريخ : تفسيرا مرتبطا بمبادىء (سنة الله فى الكون) وليس مجرد أحداث متتالية بلا أهداف . ويؤدى هذا الفهم أو هذا التفسير إلى تزويد العالم الاجتماعى الإسلامى بما يفتقر إليه من فهم للأفكار والمشكلات المعاصرة العالمية .

رابعاً : أن سعى الأقطار الإسلامية وراء التطور التكنولوجى مهما كان الثمن قد جعلت العلوم الاجتماعية عاجزة عن معالجتها لمشكلات المجتمع الخلقية والروحية وما يسود المجتمعات الإسلامية من تقبل صامت لانتشار الكحول والجريمة والترف والمخدرات والشذوذ الجنسى وغير ذلك .

خامساً : على الباحث الاسلامى مواجهة العلوم الاجتماعية غير الملتزمة بالقيم ، مؤكداً أن المجتمع لا يمكن أن يدرس دراسة موضوعية تحت ذلك الشعار وأن الحل للمشكلة هو العلوم الاجتماعية الملتزمة بالقيم واعتبارها المنطلق الفكرى للبحث .

سادساً : قاعدة الانسجام هى المنطلق الحقيقى للتفاعل الاسـلامى مع المجتمع .

(١) الأصل : الاباحة مالم يرد نص أو تحريم .
(٢) الضرورات تبيح المحظورات بقدر .
(٣) مسئولية المسلم : فردية وجماعية نحو خالقه

(٤) مسئولية الفرد بنسبة قدراته وأعماله مرتبطة بأهدافه .

(٥) كل عمل المسلم حلال إلا إذا لم يقصد به وجة الله .

(٦) الروح الاسلامية تعتمد على الاعتدال والانسجام والواقعية والتكامل

(٧) قدم القرآن للمسلمين القدوة الحسنة فى شخص رسول الله :

(٨) الاحتفاظ بالذات الانسانية والطهر والنمو وهى معقوقات الحياة الاسلامية للفرد .

سابعاً : على المسلمين فى المجتمعات الغربية (١) التحرر من الالتحاق بالمجتمعات الكبرى (الضياع) أو الانسلاخ من المجتمعات الكبرى (العزلة) ويجب عليهم إبراز الكيان الاسلامية والشخصية الاسلامية وسط المجتمع الغربى برفض سلبياته وقبول إيجابياته .

ثامناً : إن تعريف الشخصية : هو أن الشخصية الانسانية المنتجة لابد أن تكون إسلامية فالتفسير السيكولوجى الغربى قد أهمل التركيب الفطرى الروحى للإنسان مما سؤدى بلا شك إلى (لا إنسانيه) الانسان الة ثانوية بجانب مخترعات الانسان نفسه وحتمية التوازن فى النفس الانسانية كشرط أساسى من شروط الفعالية والايجابية فى الانسان .

الباب السابع

مفهوم الإسلام في الثقافة والفكر

أولا :

طابع الفكر الإسلامى

(الجامع بين الثوابت والمتغيرات)

وردت كلمة « فكر » على صيغ مختلفة وفى مواضع مختلفة فى القرآن ، كما وردت : كلمات عقل ولب وصيغتهما فى مواضيع كثيرة .

(١) التفكير فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار .

(٢) النظر فى أصول النفس الإنسانية .

(٣) النهى عن التقليد على شاكلة غير المؤمنين الذين يقدرون الحياة المادية وحدها والنهى عن الكبائر .

والتفكير هو استعمال العمليات المنطقية والعقلية للحصول على المعارف سواء كان السلوك حسناً أم سيئاً . والتفكير هو الرجوع إلى النفس وإلى الكون لسبر أغواره حتى يعيش الإنسان محفوفا بهالة من نور ، هذه العقيدة التى يتمسك بها المؤمن حتى يحمى نفسه من أن تلعب به رياح التيارات المغرضة والموسوسة والضالة أو المغضوب عليها وعلى أصحابها ويستحيل أن يعيش الإنسان بدون نظرة شاملة إلى الكون ، وللعقيدة عليه نور مقصدها ربط الإنسان بنفسه لا بأن يتمزق الإنسان المسلم مثلما يتمزق فى الغرب وقد أيقظ الإسلام الفكر الحى ليعمل العقل فى كشف معجزة الخلق الكبرى فى الإنسان وفى الكون من حوله وكان محمد صلى الله عليه وسلم وخاتم النبيين والداعين إلى عبادة الله وحده والتفكير فى خلقه .

والفكر الإنسانى فى القرآن الكريم له خصائصه القائمة على أساس من :

(١) الالتزام الإنسانى العام .

(٢) الاستجابة لنداء الفطرة والوحى ومن الخطأ أن تستعمل كلمة

(أيدلوجية) بدلا من كلمة (عقيدة) أو تستعمل كلمة (التزام) بدلا من كلمة (إيمان) في حين أن كلمة (إيمان) لها من العمق ما يسبر أغوار النفس ، العقيدة مدخل لنوع من الاستقرار في النفس ، هذا الاستقرار لا يحظى به الإنسان مالم يقيمه على العلم ولا ريب أن الضوابط التي وضعها القرآن الكريم على المجتمعات من شأنها أن تنقذ هذا المجتمع من جميع الأخطاء والانحرافات التي شهدها التاريخ والحضارات .

(٢)

أبرز خصائص الفكر الإسلامي التي تميزه عن الفكر البشري :

(١) تقدير العقل وربطه بالقلب ، والتقاء الروح بالمادة .

(٢) احترام الشخصية الإنسانية في إطار العدل والحرية والرحمة .

(٣) الإيمان بالعلم والاعتماد على التجربة .

(٤) الاعتقاد بالجزاء والبعث وبقاء الروح بعد فناء البدن .

(٥) الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة .

وإن الفكر الإسلامي قد تشكل وتكامل قبل الاتصال بالفلسفة اليونانية وقد عارض (الجمود) الذي يزري بقيمة العقل ويحط من كرامة الإنسان ، و (التعصب) للمذاهب البشرية و (التقليد) الذي يفرض التبعية ويقرر الفكر الاسلامي أن كل مايصادم قوانين الكون ونواميس الوجود لايدوم وإن كل شيء يبدأ من نقطة ثابتة وينتهي إليها (حركة في إطار الثوابت) وإن كل شيء يبدأ صغيرا ثم ينمو ويتكامل .

(٣)

ولقد حاول الغزو الفكري والتغريبي هدم الوحدة الفكرية بالقضاء على (منهج الحجاج الإسلامي) ومنذ قدوم اللورد كرومر إلى مصر ١٨٩٣

وقد أمكن الوصول إلى قلب الأزهر (١٩٢٩) بالتأثير فى البيان الإسلامى واللغة العربية ، فالبيان لإسلامى — كان ومازال — هو السلاح البتار فى مواجهة حجج أصحاب الديانات وقد نقص منهج الدراسة فى الأزهر وتقلص بحيث لايسترجع الباحث الأزهرى النظر فى كتب السلف الكبرى وكان فى ذلك محاولة للقضاء على القدرة الذهنية فى التمييز بين الصواب والخطأ فى المناظرة ، مثل كتب الآمدى الذى يضع قاعدة فى سطر واحد ثم يجادل عنها فى أربعين صفحة ، وهى الخاصيـــة التى خافها المستشرقون والمبشرون لأنها تحول دون وصول شبهاتهم ، فكان وكدهم فى القضاء عليها بمثابة إعدام لروح الأزهر واستبقاء قشرة الأزهر ليقطعوا الصلة بين المعاصرين وبين تراث السلف . ولقد أعطوهم المذكرات وحالوا بينهم وبين الكتب الأصيلة — لهدم القدرة الأزهرية فى الدفاع وقد هدمت ، فإن التعليم القائم يحول دون الاتصال بكتب السلف بهدف إعجاز الأزهريين عن النظر الإسلامى فكان التطوير بذلك عملا تغريبيا مقصوداً (الفكرة نقلناها من الدكتور سعاد جلال) .

(٤)

يتساءل الفكر الغربى فى دهشة ، ويحتر عن الاقتناع فى شأن الربط بين الدين والدنيا فى المنهج الربانى ، ولغلبة المفهوم المادى عليه فهو يعجز عن الجمع بين الروح والمادة وبين الثبات والتطور ، وبين المصلحة العامة والخاصة ، بينما استطاع الإسلام فى منهجه الجامع إقرار التناقضات الاجتماعية الموجودة فى الحياة واعتبارها كالسالب والموجب للتعاون والتكامل لاللصراع والافتعال حيث يعمل الإسلام على التوفيق بين هذه التناقضات لا على جحد أو نفى أحدهما الآخر ، وفى بعض الحالات يغلب أحدهما على الآخر بصفة مؤقتة ، وبقدر الضرورة وذلك لإعادة التوازن وتحقيق التعاون الذى هو مبتغاه .

ولقد عاش الفكر الغربى بين تيارين : تيار المنطق الشكلى المجرد الأرسطى الذى يقوم على أساس أن كل مافى الوجـــود (مادة وفكرا) ثابتاً

ثم انتقل منه مباشرة إلى تيار المنطق الجدلى الديالكتى الهيجلى ، الذى يقوم على أساس أن كل فى ما فى الوجود (مادة — وفكرا) فى تغيير مستمر بسبب ما يحمله فى محتواه من تناقض يؤدى إلى إنشاء وضع جـــديد .

أما الفكر الإسلامى (استمداداً من القرآن الكريم) فإنه يجمع بين التيارين فيجعل الثابت بمثابة الدائرة ويجعل المتحرك فى داخل الدائرة ، ومن هنا كان الإسلام فى منهجه وفكره . أصول ثابته وتطبيقات متغيرة .

الثابت وهو الآلهى — والمتغير هو البشرى (أو ما يسمى اجتهادات الفقهاء) فى الاقتصاد ، فى الفقه ، فى السياسة على أساس الجمع بين الثبات والتغير مع الالتزام بأصول عامة وفتح باب الاجتهاد فى التفاصيل .

ويحقق هذا الفهم الاقرار بأنه لا تطور مطلق (الثوابت والمتغيرات) ولا ينفرد عنصر بنفسه (التكامل بين العناصر) والدين والدنيا والدين والدولة (الآلهى والبشرى) والارادة الفردية والالتزام الأخلاقى على أساس الاقرار بمفهوم التوحيد الخالص ، والنبوة والوحى ، والتحرر من مفهوم الخطيئة وأثاره فى الأدب والفن ، وتفضيل الأخلاقية على الجمالية (وهذا أثره فى الفن والأدب) ويحول دون الصراع التطبيقى بكل أشكاله .

(٥)

يتمثل مفهوم الاسلام على هذا النحو

(أولا) الجمع بين الروح والمادة .

(ثانياً) الجمع بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة .

(ثالثاً) الجمع بين الثبات والتطور .

(١) إقرار الاسلام للتناقضات الاجتماعية الموجودة فى الحياة واعتبارها كالسالب والموجب للتعاون والتكامل لا للصراع والاقتتال بل هى تقوم على نظره الجامعة أساسا (الثبات والتطور — الفرد والجماعة — الماديات

والروحيات) ويعمل الاسلام على الابقاء على هذه التناقضات والتوفيق بينها ، وفى بعض الحالات تغلب إحداهما على الأخرى بصفة مؤقتة وبقدر الضرورة ، وذلك لاعادة التوازن وتحقيق التعاون الذى هو مبتغاه .

(٢) المنطق الشكلى المجرد الارسطى : يقوم على أساس أن ما فى الوجود (مادة وفكر) ثابتا .

(٣) المنطق الجدلى الديالكيتى (هجل) ، يقوم على أساس أن كل مافى الوجود (مادة وفكرا) فى تغير مستمر بسبب ما يحمله فى محتواه من تناقض يؤدى إلى وضع شيء جديد .

أما الاسلام فإنه يجمع بين المنطقين الثابت (وبداخله المتحرك) .

رابعاً : هناك أصول ثابتة وتطبيقات متغيرة :

الثابت هو الالهى والمتغير هو البشرى (اجتهادات الفقهاء) فى الاقتصاد — فى الفقه — فى السياسة (الجمع بين الثبات والتغير ، الالتزام بأصول عامة وفتح باب الاجتهاد فى التفاصيل .

(استكملنا مفهومنا بما نقلناه من كتابات الدكتور شوقى الفنجرى)

(خامسا) محاولة لفهم نظرية التكامل والتجزئة .

١ — وقف هيجل عند حد محدود ، ولم يستطع تجاوزه إلى الغاية والماديون يقفون عند حد الظاهر والمادى ولا يصلون إلى المعنوى . نور البصر لم يتجاوزه إلى نور البصيرة ، عرفوا السنن الكونية ولم يتجاوزوها إلى صاحب السنين وصانع الوجود جل جلاله .

٢ — الذين أخذوا أسلوب (العقلانية) أو أسلوب (الحدسية) أسلوباً لفهم الحياة عجزوا عن الوصول إلى الغاية .

٣ — الذين أخذوا أسلوب التجزئة وقفوا عند اليهودية التى اجتاحتها الفلسفة الاغريقية أو المسيحية التى احتاجتها مفاهيم الأفلوطينية .

٤ — الذين وقفوا عند التصوف — أو العلم — أو الاعتزال ولم يكملوا الطريق وكذلك الذين وقفوا عند الأدب أو السياسة أو النظرة الوطنية أو النظرة القومية ولم يكملوا الطريق ، الذين وقفوا عند آثار البيئة والعصر ، ولم يكملوا الصورة بالتاريخ والعنصر الثابت الممتد فى النفس الإنسانية والحياة .

٥ — إن النظرة الوطنية أو الإقليمية هى نظرة ناقصة من عدة جهات :

١ — ناقصة بحكم أنها نظرة إقليم من أقاليم كثيرة (جغرافيا) (الإمتداد الجغرافى) .

٢ — ناقصة من حيث أنها نظرة على مرحلة من التاريخ (الامتداد التاريخى) لقد حمل الإسلام أمانة (التكامل) ممثلة فى الأبعاد المتعددة للفكرة الواحدة ولم يقصرها على النظرة المعاصرة أو البيئة المحدودة .

وهذا هو الفارق بين فردية وانشطارية الفكر الغربى (بشقيه) وبين جماعية وتكامل الفكر الإسلامى .

ومن هنا فإن نظرية الثوابت والثوابت والمتغيرات هى مفهوم إسلامى أصيل . ولن يستطيع الفكر الغربى أن يصحح مسيرته إلا إذا اعتنقها .

(٦)

هناك اختلاف واسع بين الفكر الربانى (الدين) والفكر البشرى (الأيدلوجية) والإسلام يجمع بين الدين بمفهوم العقيدة والفكر بمفهوم التجارب العلمية ولكنه يخضع التجارب العلمية لمفهوم الإسلام الجامع ، ففى الإسلام (تكامل الدين والعلم) .

والحضارة الحديثة عجزت عن أن تعطى الإنسان المفهوم الجامع الربانى والأخلاقى للحضارة فنشأت لقيطة شوهاء منقطعة الصلة بين الروح والمادة

الإنسان ثنائية (منفصلة بين الروح والمادة) وكذلك المجتمع والحضارة ، وقد اختارت دول الغرب وجهة نظر واحدة ، منفصلة عن الدين بمفهومه الربانى الجامع وهو ليس الدين الذى ثارت عليه أوربا ، فالدين الذى طاردته أوربا كان تفسيرات مختلطة ، ولذلك فقد أعاق التقدم العلمى والاجتماعى .
يقول ميلر بروز : إن الدين يجب أن يظل ثابتاً فى إصراره على إخضاع العالم الطبيعى والمادى للعالم الروحى وعلى إخضاع الزمنى للايدى ، ويجب ألا يسلم قيد أنملة للدنيوى والمادى ، غير أنه ينبغى أن يعلم أن أهدافه تشمل توفير المعيشة الطبيعية والاجتماعية الحسنة للناس فى هذه الحياة على الايدع الحركات السياسية والدينوية تحتكر الجهاد ضد الفقر والمرض والجهل بل يقوم هو بهذا الجهد فلست العناية بالحياة الآخرة تستلزم عدم الاكتراث بالحاجات الإنسانية فى هذه الحياة . ولما كانت هناك حياة وراء هذه تصحح فيها أخطاء الحياة الدنيا فإن الذين سينعمون بها هم أولئك الذين وهبوا أنفسهم فى هذه الحياة لإرادة الله فى خدمة الإنسان وخدمة الإنسان جزء أساسى من خدمة الله وهى أمتن طريق ضوان الله فى الدنيا والآخرة » .
إن الدين لا يكافح التكنولوجيا . إن الإسلام لم يكن بالمقصود بالثورة عليه إبان النهضة الأوربية ، إنما الذى كان مقصوداً هو الدين الكهنوتى الذى لم يكن هو الدين الإلهى ، وإنما كان ديناً مشوهاً تعرض له الإسلام بالرد والنقد قبل أن تثور عليه أوربا ، غير أن أوربا لم تكن على علم كامل بنظام الإسلام ولا بموقفه من الأديان السابقة عليه . إن المهمة الإنسانية : هى الاستخلاف عند الله جل شأنه فى الأرض .

فالانسان مخلوق لله ، وليس كما يتصور بعض الفلسفات إن الله خلق العالم ولا يعلم عنه شيئاً ، معنى الخلافة دوام الصلة بينه وبين خالقه أو مستخلفه . من أهم عوامل ذلك أن الله أودع فيه علم (وعلم آدم الأسماء كلها) عجزت عنه العوالم الأخرى ، فالانسان بمقتضى هذا العلم مرتبط بالله وحده ، وفى نفس الوقت يختلف بهذه المسيرة عن الملائكة فضلا عن ميزات أخرى .

قد أعطى الإنسان ميزة على الملائكة : هى القدرة على عمران الأرض والقدرة على الاتصال بالله ، لقد عمرها ولم تفترسه وحوشها واستطاع أن يخترق باطنها ونجح فى مهمته وذلل الله له كل شيء ، ومن الطبيعى فى طريق مهمته أن لا يغلب الجانب المادى على الروحى ، ولا الروحى على المادى ، فإذا تغلب جانب على جانب خرج على الشكل الطبيعى للإنسان وخرج على أمانة الإنسان ورسالة استخلافه وتغليب المادى إنسلاخ عن الخلافة لله وتغلب الروحى ارتقاء على الملائكة وهروب من عمارة الأرض . فالاتجاه بالانسان إلى الروحية الخالصة ليس هو الوضع الطبيعى والاتجاه إلى المادية الخالصة انحراف عن مهمته .

(ثانيا) مفهوم الإسلام الجامع

فى الفكر والثقافة

يختلف موقف الفلسفات والأيدلوجيات الغربية المعاصرة من الانسان عن موقف الاسلام فبينما تخضع الفلسفات الانسان لما يسمى بالعقل الكلى الذى يعمل فى قلب العالم عند هيجل أو المادية التاريخية لماركس وانجلز ، فى تبدلات ظروف الانتاج أو بصفة عامة فى خضوعه لعالم المادة نجد أن الاسلام يقف موقفا مختلفا فهو يقف إلى جانب الانسان فى مواجهة العالم كما يقول الدكتور عماد الدين خليل « إن القرآن يتيح منذ البدء مركزاً ممتازاً للدور البشرى على الأرض فهو من جهة خليفة الله على الأرض ، والذى قدر له أن يصنع أحداثاً تاريخية بإرادته واختياره سلباً وإيجاباً :

[إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً] .

[ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها] ، [لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى] .

كما أن كتلة السماوات والأرض قد سخرت لأداء مهمته هذه ، ومن ثم تجىء إرادته الحرة فى صياغة الأحداث ، صدوراً عاقلا مديداً يخضع له كل ما بعده ،

ويشكل كما يشاء هو ، مع تأثره بطبيعة الحال بنواميسها وعلاقاتها المادية أو أبعادها وأحجامها ومساحاتها . ولكن الكلمة الأخيرة فى الصياغة تجىء دائماً على يد الانسان الفاعلة المتفننة القديرة ، أكثر من هذا فإن (القرآن) يصعد الموقف ويتجاوز به كل ما من شأنه أن يحيطه بالغموض وعدم الوضع فتحسم المسالة بهذه الآية القاطعة :

[ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا] .

وهكذا يتبوأ الانسان مركزه المنطقى ، العادل فى الأرض سيداً للعاملين فهو يخضع ولا يخضع ، ويصوغ ولا يصاغ ، ويخطط وينفذ ، ولا يتخذ مجرد أداة لتنفيذ خطط الطبيعة ومتطلبات العلاقات المادية .

إن القرآن يضع الانسان فى المصاف الذى أنزلته منه المذاهب الوضعية درجات درجات وهو موقفه العادل الذى ينسجم وقدراته المعقدة المتنوعة المتشابكة ، وقد مكنه من التغيير والتبديل بما يشاء هو لا بما تشاء قواعد المادة تحت قدميه » .

(٢)

لقد حاولت العلوم الانسانية الأوربية وصم الانسان ، واستنقاص معطياته فوصف بالحيوان تارة أوأنه خاضع لجبرية المجتمعات وأنه ليست له إرادة مستقلة ، ومن ثم فليس عليه التزام ومسئولية وأعلن سارتر أن الانسان مجرد نذوة تافهة وجاء أتباعه ليتحدثوا عن « لاجدوى الانسان » .

ومن مراجعة نظرة الفكر الغربى عن الانسان يبدو منذ اللحظة الأولى تعارضها مع الفطرة فدعوة « نيتشه » إلى قتل العاجز أو المريض أو تركه يموت دون العمل على شفائه وإبادة الضعفاء هى من صميم المعارضة للفطرة ، وقد لقى نيتشه مصيراً مظلماً غاية الظلام نتيجة دعوته إلى اعتمدها الاستعمار مبرراً لظلمه فقد عاش نحو عشرين عاماً وهو فى جنون يكاد يكون مطبقاً ، إذ كان فى الدور الأخير من السلفس ، وهو مرض لم يقعد جسمه فقط بل أمات ذهنه ، وقد مات

مغموراً لم ترثه جريدة ولم تذكره جامعة حتى بعثه اليهود من بعد وقالوا : لقد رتبنا نجاحه كما رتبنا نجاح دارون وغيره.

كذلك فقد كان إبطال (دستوفسكى) شواذ ومرضى وجميع أبطال (فرويد) شواذ ومرضى ، وكذبت التجربة قول فرويد بأن كظم الشهوة الجنسية يؤدى إلى اضطراب الشخصية ، وتبين فساد استغلال فرويد للأساطير وبخاصة ما أطلق عليه (مركب أو ديب) وهو أن الطفل يحب أمه حبا جنسيا ويجد لذة جنسية فى الرضاع ، وكانت كتابات هافلوك اليس فى الجنس والبغاء ودعوة ولز إلى كتابة التاريخ البشرى العام دعوة صهيونية ، ولقد روج سلامة موسى لهذه الآراء وعاش حياته كلها ينقل عن فرويد وماركس، مايرضيه ويشفى أحقاده ليهدم قيم الإسلام عن الإنسان .

(٣)

ويعارض الفكر الإسلامى الفكر الغربى فى قضية (التكامل والانشطارية) ففى مفهوم الإسلام أنه مامن جانب مادي إلا وله جانب روحى مكمل له فالنظافة والطهارة الظاهرية لا قيمة لها أن لم تكن هناك طهارة القلب ونقائه . والإعداد المادي بالعدد والأسلحة لابد أن يصحبه إعداد روحى بالفداء والتضحية ، والاعداد المادى له جانبه الآخر الكمى يكمل الكيفى ، ومن ذلك جمال الوجوه الذى لا يكتمل إلا بجمال الخلق وفى ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم (اللهم أحسنت خلقى فأحسن خلقى وحرم وجهى على النار) تبدأ بعض الفلسفات من الثوابت وبعضها تبدأ من المتغيرات ، وكلاهما ناقص أما نظرة الإسلام الكاملة فهى تجمع بين الثوابت والمتغيرات، وهى تجرى حركة المتغيرات داخل إطار الثبات . وبعض الفلسفات تقول بسبق الماهية على الذات كالوجودية وبعضها يعتبر الذات سابقة على الماهية (الماركسية) ولكن الإسلام لايقر أحدهما ، ويرى أن كلاهما فى نسق واحد لايسبق الآخر وإنما تسبقهما إرادة الله تبارك وتعالى ، وفى الإسلام تكامل الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

والأسلوب الحسن فى الإسلام لايكفى ولكن لابد معه صدق الإيمان وأخلاص النية : وحسن الأداء : (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام).

وفى الإسلام : حسن المدخل مع حسن المخرج . (رب ادخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق).

ويجمع الإسلام بين الواقعية والمثالية . ولا بد من العنصرين معاً فى حالة تعادل ، وبنسبة صحيحة حتى تبقى الأمة متماسكة فإذا غلبت الواقعية أصبحت طينة الأمة جافة لاتقبل التشكل وكلما اعتدلت نسبة المزج بينهما فى أمة من الأمم كان تقدمها أوضح وأسرع .

(٤)

ولا يقر الإسلام فكرة العقلانية كأساس للمعرفة ، أو الاعتماد على العقل البشرى وحده باعتباره مصدراً للمعرفة ، فهناك المعرفة الوجدانية أيضاً . فالعلم الذى وصل الإنسان إليه اليوم إنما وصل إليه بتقدير الله تبارك وتعالى وأن هذه المفاهيم موجودة فى الكون منذ مئات السنين ولكن الله تبارك وتعالى كشفها للإنسان فى الوقت المعلوم ، ليستخدمها فى صناعة التقدم والرفاهية . وقد ميز الله تبارك وتعالى الإنسان عن سائر مخلوقاته بالعقل ومن هنا كان للعقل دور بارز فى الحياة . أن العقل البشرى لم يخترع هذه الأشياء أى أنه لم يوجدها فى هذا الكون وإنما ذلك علم الله كشفه للإنسان ، والدليل أن العقل البشرى لم يخترع هذه الأشياء ولم يوجدها فى الكون ولكن الله تبارك وتعالى كشف له هـذه الأشياء ، أنها كانت موجودة منذ وقت بعيد ولكنها كانت فوق قدرة العقل البشرى ، ثم كشف الله تبارك وتعالى عنها للبشر وأعطاهم العلم الذى يمكنهم من استخدامها ومن الخطأ مايدعيه رجال الفكر الغربى من نسبة هذه الكشوف إلى العقل والحقيقة هى نسبتها إلى الله تبارك وتعالى ، وهذا من أخطر مفاهيم العلوم الغربية هى نسبة عطاء الله إلى الطبيعة وغيرها وإنكار فضل الله .

والمعتمدون على العقل البشرى ، هم الماديون الذين لا يمثلون مفهوم الإنسان الصحيح والذين ينهارون تماما عند أول صدمة يظهر فيها عجزهم عن تحقيق مايريدون وفشلهم فى تنفيذ ما يخططون .

ومن هنا علت نسب الانتحار والجنون بين الناس الذين يقصرون النظرة على عقولهم وأن اليأس نوع من الحياة يعيشه الإنسان ذلك الذى يظن أنه قادر ومسيطر ثم يكتشف أنه لاشىء .

وقد أثبت كثير من العلماء المعاصرين ما قرره الاسلام قبل أربعة عشر قرنا من أن العقل البشرى قد عجز عن كشف الحقائق المجردة وأن استطاعته محدودة بالظواهر ، أما مجال الحقيقة ومكانها فهو جماع العقل والنفس وأن الانسان لا يمكنه الوصول إلى درجه النضج الكامل إلا إذا استخدم عقله مع قلبه .

(٥)

إن التماس مفهوم الاسلام فى الثقافة والفكر من شأنه أن يغير النظرة المطروحة الآن فى المجتمع الاسلامى والمستمدة من المفاهيم الغربية وخاصة فى مجال الاقتصاد والأدب والسياسة وفى العبارات المستعملة والأساليب وطريقة الحوار نفسه ، وبالنسبة أيضاً للإعلام الذين يعطى لهم التبرير بينما هم فى حكم المفهوم الاسلامى غير ذى أهلية . وهناك دعوة ملحة إلى تحذير المسلمين أن يخلطوا تصوراتهم القرآنية بالتصور الغربى البشرى لأنه يميل إلى الوثنية والأباحية والعلمانيـة ويقوم على الظن وماتهوى الأنفس .

ولا ريب أن أخطر ما يواجه الأمة الاسلامية للقضاء على ذاتيتها المنفردة هو خطر التبعية للفكر الوافد سواء أكان شرقياً أم غربياً وتتجلى التبعية اليوم فى أننا نواجه أسلوبا للتربية قدمه (دموى) ومفهوم للنفس قدمه (فرويد) ومنهج للاجتماع قدمه (دوركايم) ومضمون للأخلاق قدمه ليفى بريل وتصور للفن قدمه فلان وهكذا .

ومفهوم « التقدم » في الغرب مفهوم مادى صرف ، لايتوقف أمام أى حاجز أمافى الإسلام فهو مترابط جامع بين المفهومين المادى والمعنوى بحيث لايضحى بالمعنوى من أجل المادى ، ويختلف مفهوم التقدم فى الإسلام عن مفهوم التقدم فى الغرب فيما يقول العلامة الفرنسى مسمر :

أن تقدم العلوم فى الغرب فى وقتنا هـذا حصل رغما عن الدين ، أما فى دين الإسلام فالعكس من ذلك أنه - أى الدين الإسلامى - لايستطيع أن يبقى على قيد الحياة إلا بانتشار العلوم فإن بين الإسلام والعلوم رابطة كلية ، والغربى إذا صار عالما ترك دينه .

والانشطارية : هى أخطر مصادر أزمة الانسان الحديث وأزمة الحضارة والفكر الغربى المعاصر اليوم ، وهى فكرة دخلت أساسا إلى تفسيرات الدين الغربى المسيحى ، ثم نمتها اليهودية التلمودية حتى أصبحت ظاهرة عميقة تفصل تماما بين الروح والمـادة والعقل والقلب والله والانسان والدين والحياة ويتم معها إعلاء شأن العقل والمادة وتقديس الجنس وعبادة الفرد .

(٦)

وفى شأن صلة العقل بالقلب :

يقول الدكتور محمد البهى : يحدد القرآن مكان القلب فإنه فى الصدر ، ويحدد كنهه ودانه فيجعله مركز الفهم والتعقل « لهم قلوب لايفقهون بها » فجعل الانسان يفقه ويفهم بقلبه « فتكون لهم قلوب يعقلون بها » (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) فينسب إلى القلوب عمل العقل والفكر ويجعله مركز المسئولية (فإنه آثم قلبه)

وهكذا القلب يأثم ويعصى ويطيع وينفذ . ويجعله مركز الايمان والكفر (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) و (من يؤمن بالله يهد قلبه) فالقلب مكان الايمان والكفر (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه)

ويجعله مركز الاحساس (وألف بين قلوبهم) فالترابط بين المؤمنين هو ترابط الشعور والإحساس العميق (ولو كنت فظا غليظ القلب) ويجعله مركز الوعى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) ويجعله مركز الذوق (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) فالقلوب كما تشمئز تفرح وتستبشر والقلب فى انضمامه إلى السمع والبصر يكون الخصائص الإنسانية فى الإنسان ، غير أن الإنسان يتميز عن الحيوان بالقلب مع السمع والبصر وهى مدخل الادراك والتعقل . (افرأيت من اتخذ إلهه هواه) هذا الذى اتبع هواه وأغلق عليه قلبه وعطل سمعه وبصره هل يستطيع أن يصل إلى هداية الله - ليس هناك فى الوجود عدا الله من يمكنه منها . هكذا يكون القلب فى تقدير القرآن أن ينظر إليه على أنه هو المركز الذى يتفرع منه وتنتهى إليه شرايين الإنسانية ، فإنه فى نظر الإسلام هو مصدر التوجيه والقيادة فى الإنسان الذى يضله ويهديه » .

(٧)

ولا ريب أن الطبيعة البشرية فى الإنسان فى حاجة إلى توجيه إلهى ، هو الدين ، وهو فى حاجة إلى موقظ هو القرآن ، ذلك أن طبيعة الإنسان لا تتخلف : إن الإنسان خلق هلوعا ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات إن علاج الطبيعة الإنسانية وتقويمها هو فى الإيمان بالله والإيمان بالله يقتضى أن تكون صلة الإنسان بربه وقت الميسرة والصحة والجاة والعلم على نحو صلته به سبحانه فى وقت العسرة والشدة والضعف والمحنة والحاجة فالمسلم يتصل بالله فى حالة كربته فيفرج عنه الشدة ، وفى حالة رجائه فيديم عليه النعمة ولا ريب يقوم الدين الحق فى مواجهة مركب النقص ، فهو الذى يستطيع أن يرد الثقة إلى النفس فى مجالات مركبات الخوف القلق والتمزق - سنة كونية دائمة ومن صميم هذه السنة أن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان حراً فى فعله مختاراً غير مقهور ولا مجبور وليس فى علم الله شىء من معانى القهر أو الالزام ولا يعتذر الإنسان بالقضاء والقدر إذ لو صح ذلك لبطل

التكليف ولكان بعث الرسل وإنزال الكتب ودعوة الناس إلى دين الله ووعده بالثواب والعقاب باطلا وعبثا . والقضاء والقدر هو النظام الذى خلق الله عليه الكون وربط فيه الأسباب والمسببات والنتائج والمقدمات وإرادة الإنسان هى مسئوليته عن عمله داخل إرادة الله التى تتكيف فى ثلاث مواقف [الموت - الرزق - الحادث] فالإنسان ذو حرية واختيار فى حياته ، يفعل الخير مختاراً فيثاب والشر فيعاقب والإنسان ذو استعداد للخير والشر ، ولا يسمح الإسلام أن يضل الإنسان أو ينحرف عن أوامر الله ثم يعتذر بالقضاء والقدر ، ولو صح ذلك لبطلت التكاليف ، ثم إن الإنسان وأفعاله الاختيارية ليس إلا جزءاً من أجزاء الكون لحالة كون الإنسان فاعلا مختاراً فهو مكلف مسئول .
ومن العقائد الباطلة التى أقحمت على الاسلام ، فكرة الجبرية وفكرة الزهد- والحرية فى مفهوم الاسلام أن لا يصبح الانسان عبدا لشهواته ولا عبدا لغير الله فالاسلام يربأ بكرامة الانسان من أن يخضع لسلطان غير سلطان الخالق جل وعلا ويأنف من أن يكون الانسان عبدا للانسان وفى ذلك حرص الاسلام على معارضة كل عبودية للعباد ومن إحساس الرجل بأنه أقل من سواه كما حرص على صيانته من الخضوع لغير الله لا فرق بين الكبير والصغير والغنى والفقير ، والأسود والأبيض . والكظم قمة تكامل الشخصية ، وهو معارضة صريحة للفرويدية والمجاهدة تعنى السير ضد تيار الاهواء والمطامع والرغبات المذلة لقد باتت البشرية عالمة الآن بفساد نظرية فرويد ومحاولة دفع الانسان إلى الجبرية وتحطيم إرادته ونسبة الفساد والخطأ إلى المجتمعات بينما يستطيع الانسان المؤمن بالله أن يعارض التقاليد التى تختلف مع عقيدته ، وإن يستمسك بالعزائم ليحفظ شخصيته من الانهيار والتحلل والفساد حين تسقط فى خضم الشهوات والآثام ولعل أبرز علامات قوة الشخصية التى يصفها الإسلام ، ببناء الإرادة هو التحرر من الهوى والعصبية فيكون الإنسان قادرا على أن يغير رأيه فى الأمر حتى تبين له الحق ، وإن يحكم للعدو حكمة للقريب والصديق .

(٨)

إن هناك محاولة تغريبيه ترمى إلى احتواء الفكر الإسلامى فى إطار الفكر العالمى والأممى ، وهناك وسائل كثيرة لدفع هذا المخطط إلى غايته : أهمها نظرية الفكر الحر وحرية الفكر وهى وسيلة اليهودية العالمية لإفساد الجماعات وهدم كل الأديان حتى يتمكنوا من القضاء عليها جميعها بعد إثارة الشبهات حولها ، وسلاحهم فى هذا نظريتى الشك والسخرية . وقد برع الدكتور طه حسين فى آداء هذه الرسالة لتمكنه من الأسلوب العربى . ويتم هذا الاحتواء عن طريق إحياء وابتعاث نظريات قديمة كالباطنية والشعوبية ، عن طريق دعوات مجددة : كالقاديانية والبهائية . بل إن هذه المحاولات تصل إلى حد القول بأن القرآن وحده يكفى فى التشريع والاعتقاد والعبادات رغبة فى هدم السنة التى هى شقيقة القرآن وينطلق الإسلام التطبيقى عن طريق أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم . وهناك الدعوة إلى نبذ القديم ، وتحرير العقل من الغيبيات وكل هذه دعوات ترمى إلى الهجوم على الإسلام ولكنها تتحرز وتحتاط وتريد التلمودية أن تعمل على تغليب فكرة الجبر على حرية الإرادة حتى تسيطر على عقول الناس وقلوبهم وتدفعهم إلى الفساد وتحت اسم فساد المجتمع وعدم مسئوليتهم الفردية . إن فكرة (وحدة الوجود) دخيلة على الإسلام وهى تنقض مفهوم الاسلام المتكامل الشامل فى وحدة الله وتنزيهه عن الخلق وهى فكرة معارضة لمفهوم التوحيد والدين الحق . خاضت فيها الفلسفات الغربية والشرقية والتصوف وتفسيرات المسيحية .

وهى نظرية باطلة تقوم على قولهم بأن الله (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا عظيما) ليس كائنا خارجا عنهم بل هو كائن حال فيهم وهو نفس مايقول به الحلاج وابن طفيل ولا ريب أن القول بحلول الخالق فى المخلوق أو تجسد الخالق هو من المعتقدات الباطلة التى تناقض مبدأ (التوحيد الخالص) لأن الله تبارك وتعالى هو الخالق الباقى وأن الانسان ما هو إلا ظاهرة تفنى وتزول والكائنات لاتوجد لذاتها بل تستمد وجودها من خالقها

تبارك وتعالى . إن فكرة وحدة الوجود تحاول القضاء على قواعد أربعة أساسية فى بناء الشخصية الانسانية :

(١) حرية الارادة . (٢) القول بالخير والشر

(٣) المسئولية للفردية . (٤) الالتزام الخلقى .

والاسلام يقرر أن الانسان له أفعاله الاختيارية وإرادته وعليها تقوم المسئولية الفردية وإن إرادة الانسان هى مصدر حسابه وجزائه ، وأنه ليس للإنسان إلا ماسعى ، وإن الخلفاء لا يؤخذون بجرائر سابقيهم وأسلافهم وإن كل امرىء بما كسب رهين « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » (البقرة) . إن القول بوحدة الوجود نفى للألوهية وإثبات للكائنات وحدها ، بل إن عبارة وحدة الوجود هى عنوان آخر للالحاد فى وجود الله وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط ، ومادام لا يوجد شىء وراء هذا العالم فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى لقول بنكرانه . والقول بوحدة الوجود تفكير هندى قديم ، حيث يتصورون أن العالم أزلى أبدى ، وإن الأرواح تخرج من أجسادها لتعود فى أجساد أخرى وقد تكون أجساد حيوانات وأن قصة الحياة تدور فى هذا النطاق المحصور وتبدأ من حيث تنتهى .

ولا ريب أن القائلين بفكرة وحدة الوجود (ابن عربى - ابن الفارض ، الحلاج ، ابن سعيد) مخطئون فإن هذه النظرة تنقض تعاليم الأنبياء وتخالف شريعة الاسلام .

الصورة الفنية

يجب أن تفرق تفريقا واسعا بين الحقيقة الانسانية والصورة الفنية إن الصورة الفنية هى بمثابة إقامة عالم جديد خيالى مختلف عن عالم الواقع ومن الخطأ تحكيمه فى قضايا المجتمعات والانسان والحياة خاصة وأنها تعتمد على الأسطورة واللامعقول وتقوم على انتقاء الأحداث المثيرة ، وإشمال

الغرائز الجنسية عن طريق الفن ، ومحاولة تعبير خلق الله بالرسم وتصوير الجانب المظلم من النفس الانسانية والجانب المسف من طبائع البشر ، فالفن هو محاولة تقليد الطبيعة ، ويقوم الفن الغربى على الصراع بين الانسان والآلهة ، وتقوم المأساة على أساس أن يتحطم البطل المصارع للقدر ، وفن القصة أساساً له أصل وثنى يقوم على مفاهيم المعبد والكهنة والطقوس والقرابين فالقصة تعطى الفنان سلطة غير شرعية بالخروج عن الحقيقة التاريخية فى سبيل الحبكة الفنية ومن ذلك دعاوى عبادة الحياة ، وعشاق الحياة ، والقول بأن الدنيا رواية هزلية وعبادة البطل ، وعبادة الجسد ، والعرى .

الباب الثامن

الاجتماع الإسلامي

(١)

فى مجال الاجتماع الإسلامى تطرح شبهات كثيرة ، من أخطرها الفصل بين عقيدة الإسلام ونظامه الاجتماعى وهى الفكرة التى دعا إليها محمود عزمى فى الهلال — ١٩٣٣) حيث دعا إلى التمييز بين العقيدة والنظام باعتبار أن الإسلام دين لاهوتى فظهرت عبارة الإسلام والإسلامية التى رددها الكثيرون بمفهوم غربى . والحقيقة أن مفهوم الإسلام قائم على دعامتين :

(أولا) الارتباط بين جميع حلقاته (المادة والروح — القلب والعقل — الدنيا والآخرة) .

ثانياً : الارتباط بخالق الكون والبعث بعد الموت ولا يعترف الإسلام بأى نظرية عن تطور العائلة على أساس أن المرأة كانت مشاعة فى عهد البشريه الأولى ثم تكونت العائلة بمرور الزمن بفعل عامل اقتصادى إذ أن القرآن يخبرنا إن الإسرة تكونت فى بداية البشرية ولم يخل منها جيل من الأجيال . وقد فشلت فشلا ذريعاً كافة النظم المفتعلة وكل محاولة منحرفة للقضاء على الأسرة وكل تجربة تشل الأسرة سيكون مصدرها الفشل وإن نجحت نجاحاً جزئياً بالنسبة للنظر القصير . قال تعالى : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيراً ونساء . ولقد تبين فساد النظرية الوافدة التى تقول بحرية أفراد الأسرة كل فى طريقة وسيطرة الزوجة على الأسرة وفى بحث استغرق ثلاث سنوات وشاركت فيه أربعة آلاف زوج وزوجة إن الأسرة التى يسيطر عليها الرجل بتفكيره وتدبيره أسعد حالا من الأسرة التى تسيطر على الزوجة أو حتى يشترك فيها الزوج والزوجة فى اتخاذ القرار ، هذا البحث قامت به ثلاث جامعات أمريكية وفرنسية وبريطانية ويرى البحث أن الأسرة الريفية القديمة هى المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه الأسرة ، أما الأسرة الحديثة التى تعتمد على الزوجة فقط . أولا تعتمد فيها الأسرة لا على الأب ولا على الأم فهى اتعس العلاقات الاجتماعية التى عرفها الإنسان.

(٢)

وما تزال قضية المرأة هى كبرى قضايا التغريب التى تركز عليها محاولات تغريب الأمة الإسلامية فى شأن تضحية الأسرة المسلمة والأطفال وهناء البيت من أجل عمل المرأة الذى لم يحقق حتى الآن شيئاً ذا بال . إن التجربة معروضة اليوم أمام المفكرين للنظر منها على نحو منصف . هل تستحق تضييع أجيال الشباب والفتيات جيلا بعد جيل من أجل استمرار المرأة فى هذه الغواية المضللة : غواية العمل فى سبيل قروش قليلة يدعى أنها تساعد الرجل فى مصروف البيت وأين هو الرجل ذى الكرامة الذى يقبل أن تقدم له زوجته مالا يعينه على أداء مسئوليته ، إن أغلب هذا المال ينفق فى زينة المرأة ومصاريف انتقالها وفى تفاهات الترف المنزلى الذى لا تقدم ولا يؤخر ، لقد برزت فى الرجل المسلم اليوم تلك الغيرة على المرأة وتلك الكرامة التى تأبى أن يطعم الرجل من مال يقدمه المرأة بعد أن تمر بعشرات المراحل من الذل والخديعة والغرور والنفاق والإغراء خلال حياتها العملية التى يكفى فيها أن تزاحم فى تلك المواصلات المضطربة وأن تترك أبناءها فى الصباح دون أن تعنى بهم أو تقدم لهم بسمة الصباح فى فنجان اللبن ، تتركهم للخادمات اللاتى لا يرحمن ولا يعرفن العاطفة، واللاتى لا تستطيع عاطفتهن أن تعطى هؤلاء الأبناء شيئاً ، فتنشأ قلوبهم قاسية لأن رحمة الأمهات لم تخترقها ، ويعشن حياة مضطربة فيها كثير من الحقد والخوف والانتقام . كذلك فإن الإسلام لا ينظر إلى المرأة والرجل نظرة واحدة فهو يحرم العلاقات الحرة بينهما ، وقد أخذ العلماء منذ بدء العصر الحديث يسخرون من هذه القوانين وأطلقوا عليها مخلفات العصر الجاهلى وقالوا : إن الرجل والمرأة متساويان ويرثان النسل الإنسانى بطريقة متساوية ولسوف تكون جريمة كبرى لو أقمنا العقيدة فى طريق علاقاتهما الحرة وقد انتجت هذه الفكرة مجتمعاً جديداً فى الغرب غير أن التجارب الطويلة المريرة التى مرت بها الانسانية بعد هذه الاباحية هى أقصى ما عاناه البشر فقد ثبت بعد هذه التجارب أن المرأة والرجل لايتساويان فطريا ولا طبيعاً وأن أى مجتمع يقوم على أساس مساواتهما سوف يحدث اضطرابا شديداً والحقيقة التى أعلنها الإسلام (١) أن الرجل والمرأة يختلفان كل الاختلاف فى نوعية كفاءاتهما الطبيعية وإن اعتبارهما متساويين

إنما هو مخالفة كبرى لقوانين الطبيعة فى حد ذاتها (٢) لقد أباح الإسلام تعدد الزوجات وأثيرت ضجة كبرى ضد هذا التشريع وأطلق عليه كلمة الرجعية ولكن جاءت التجارب العملية تثبت أنه كان تشويهاً مناسباً للطبيعة الإنسانية لأنه سدباب تعدد الزوجات إنما يفتح عشرات الأبواب الفاجرة غير الشرعية وتشير هيئة الأمم إلى أن العالم يواجه الآن مشكلة الحرام أكثر من الحلال فى شأن المواليد وإن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت إلى ٦٠ فى المائة وفى بعض البلاد إلى ٧٥ فى المائة وتقول الأمم المتحدة أن البلدان الاسلامية محفوظة من هذا الوباء لأنها تتبع نظام تعدد الزوجات ، لقد استطاع هذا القانون الإلهى الحكيم أن يحمى البلاد الإسلامية من كارثة محققة وما تزال قضية المرأة هى كبرى قضايا التغريب التى يركز عليها فى مجالات تغريب الأمة الاسلامية فى شأن تضحية الأسرة المسلمة والأطفال وهناء البيت من أجل عمل المرأة الذى لم يحقق حتى الآن شيئاً ذا بال ، إن الأمر المعروض الآن على الأجيال هو كشف حساب المكسب والخسارة فى تجربة المرأة بالعمل على النحو الذى دفعتها إليه قوى التعزيب وهل يمكن تضحية الأسرة والطفل والزوج فى سبيل الاستمرار فى هذا الاتجاه تحت خداع القول بأن المرأة تعين زوجها على مصاريف البيت .

قالت سيمون دى بوقوار (السكانية الفرنسية) : إن حركة تحرير المرأة هى أكذوبة كثيرة . اخترعها الرجل ليضحك بها على المرأة .

(٢) الايمان بالله وخدمة المجتمع وفق منهج الاسلام : دعامتان يقوم عليهما العمل الصالح فلا يكون العمل صالحاً من غير الايمان بالله، إيماناً يوفر التحرر الروحى من رواسب المطامع المادية (إنما يتقبل الله من المتقين) ولا يتحقق الايمان بالله بصورة عملية من غير خدمة المجتمع والمسلم برفض الفساد ويقاوم الانحراف ولن يغمض له جفن ولن يهدأ له بال إذا ظهرت فى المجتمع بوادر الانحراف فيندفع نحو التغيير والإصلاح وكل عمل (قولا أو بذلا) قام به الفرد والجماعة مالم يكن طبقا لمنهج الإسلام فهو باطل . ولا نشدان للإصلاح خارج منهج الإسلام ، هؤلاء الذين يتوهمون أن فى الديمقراطية حرية ومساواة أو فى الاشتراكية

سعادة ورفاهية . لقد ظهر زيف الديمقراطية وفشل الاشتراكية (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) هؤلاء الذين صاروا اتباعا للغرب أو الشرق إنما يحملون معاول الهدم لكل صالح والفساد لكل عامر . لقد خلق الله تبارك وتعالى الإنسان والحياة وجعل له شرعة ومنهاجا يتمسك بها ويرفض أهواء الذين لايعلمون ، وكيف يخدم أمته ويدافع عن بلاده ويسعى لسعادة الآخرين ، وخلق الله تبارك وتعالى الإنسان والموت ليعلم كيف يسمو بنفسه فيسخوا بما يملك فى سبيل الله وكيف يعمل ولا يخاف غير الله وكيف يبلغ رسالة الله ويخشاه ولا يخشى سواه ، وعليه أن يضحى حتى يجود بنفسه شهيدا فى سبيل الله :

(٣)

والمجتمع الإسلامى مجتمع متحرك متطور ، به طاقات عقائدية هائلة ، تدفع نحو الأفضل فترفض الركود والجمود . والجمود الملحوظ على غالبية المسلمين فى عصرنا الحاضر ظاهرة طارئة يتبرأ منها الإسلام ، كرسها الاستعمار بمختلف وسائله لتستقر فى أعماق أوضاعنا (قابلية التخلف) التى حاربها الإسلام العظيم بلا هوادة فى جميع منطلقاته العقائدية إن حرية الفرد والمجتمع فى ظل التمسك بالإسلام كفيلة بأن تدفع (الواقع) نحو الرقى والتقدم ، بصورة صاعدة يظل فيها السعى حثيثاً نحو تغيير الواقع ، وتغيير الصالح بالأصلح ، فلا محل فى ظل الإسلام للخضوع والقناعة بما هو قائم فعلا حتى ولو كان صالحا ، ذلك ليظل يوم المسلمين خيرا من أمسهم ويظل غدهم أفضل من يومهم ، وعلى طول المدى .

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب : فى هذا المنطلق قوله :

من «تساوى يوماه فهو مغبون »

(٤)

العوامل الثلاث التى تضمن سلامة المجتمع وقـــدرته على النهوض والتقدم:

١ — التخلص من التبعية للدول الصناعية الغربية وخاصة فى المجال الاقتصادى .

٢ — التعاون بين المسلمين .

٣ — الاهتمام بقضايا النماء الاقتصادى والاجتماعى على أساس المشاركة الإسلامية .

٤ — على الدول الإسلامية أن تزرع قمحها وطعامها ولا تعتمد على الغرب .

٥ — على الدول الإسلامية أن تصنع المواد الخام وتعلم الصناعات .

(٥)

على المسلمين مقاومة العدوان الذى تقوم به القوى الكبرى لنشر الفساد والإسراف فى المجتمع الإسلامى فى محاولة لعزله عن طريق الحق ، هـذا العـدوان هو من أسباب دمار الحضارات وشقاء البشرية فى الدنيا والآخرة

إن الإســـلام كمنهج اجتماعى يمنع من محبة أعداء الله لأنهم أعداء الإنسانية وهو لا يمنع من التمتع بالطيبات ولكنه يمنع من أن يتحول الإنسان الكريم إلى إلى عرض مادى دون قيم أو موازين ، وحين يصدق إيمان المسلمين بالله تبارك تعالى ورسوله وقرآنه فإنه يستطيع أن يتحرر من ضغوط المادة ودوافع الغريزة ونزوات الذات وألوان الوهن والضعف البشرى ، وتنتظم حياته وفق القيم الأساسية فيتجاوز شوطه سنن هـذه الحياة الدنيا

إلى الرغبة فى العيش الأبدى وتسمو أهدافه على حرث الدنيا ومتاعها إلى نعيم لا يحول ولا يزول . أن من أولياء الأهداف الاستعمارية :

(١) أن يبتعد المسلمون ولاسيما الشباب منهم عن دينهم وينغمسوا فى حب المادة وينصرفوا إلى اللهو والعبث وأن يعتادوا المجون والفجور .

(٢) أن يؤمنوا بالحضارة الغربية بمعتقداتها ومناهجها وقواعدها ونظمها وقيمها وموازينها باعتبارها سبيلا للنهضة وطريقا للتقدم وأسلوبا للحياة .

(٣) أن يشنوا حربا شعواء على الإسلام ويحملوا حقدا أسوداً على المتمسكين به ، ويسخروا كل الوسائل المتاحة لتكريس قابلية التخلف والاستعمار فى نفوس المسلمين للحيلولة دون انتشار وعى العقيدة والجهاد ولابد من بناء المجتمع الإسلامى على الثبات ميدان الجهاد .

ولا بد أن يتركز العمل للدعوة الإسلامية فى مجال تصحيح الانحراف الخلقى ، وبيان أثر النظريات الاقتصادية المعاصرة المدمرة على المجتمع وأن تكشف عن جوهر الإسلام المضىء المشرق ، الذى يستطيع أن يقدم للإنسان فى أى بيئة وعصر وجيل الحياة الكريمة العادلة المستقرة ، وإن يقارن ذلك بإخطار القانون الوضعى لتوضيح قصوره عن تحقيق العدل فى المجتمع ولا بد من الرد على شبهات المذاهب المادية وتوضيح مقاصد الإسلام وعطائه فى بناء الأمم والمجتمعات والحضارات ما يغنى الأمم عن كل حضارة أو منهج سواه .

(٦)

على أثر تجدد الإسلام فى عصر اليقظة وصولا إلى الصحوة ،استيقظت الدوائر الاستعمارية وجندت مؤسساتها لمحاربة خطر الإسلام ، فشنت حملة لترجمة إمهات الكتب فى (المذاهب والفرق الإسلامية) وتقررت حلقات دراسة مركزة عن الإسلام فى جامعات أوربا وإسرائيل ووضعت الخطط لإجراء مسح ميدانى للأحزاب والمنظمات والجمعيات الإسلامية فى العالم

وصدرت أوامر لتحركات عسكرية لتطويق المناطق الإسلامية تحت ستار تأمين تدفق البترول . وجرت المحاولات لاثارة التعصب القومى والمذهبي وإشعال نار الطائفة حتى يتناحر المسلمون ويتنازعون فيما بينهم فيفشلوا وتذهب ريحهم ومن ذلك بث الشائعات الكاذبة المغرضة وإثارة الأحقاد المندرسة ونكأ الجراح القديمة المندملة من أجل إثارة الفتنة والبلبلة فى مجتمع الاسلام لتشتيت شملهم وتبديد جمعهم ليصبحوا طوائف وشيعا وأحزابا متنافرة . ولا ريب أن الاسلام قادر على أن يوحد كلمة المسلمين ، ولا بد من الاعتصام بحبل الله من أجل توحيد الكلمة . ولا ريب أن محاولة حصار النهضة الاسلامية ، هو دليل على انهيار الحضارة الغربية المادة وتفسخ المجتمعات الضالة وإفلاس القوى الظاهرة ، وإن اتفاق أعداء الاسلام على مطاردة اليقظة الاسلامية إنما يمثل ذعر القوى المناوئة للإسلام .

(٧)

إن خطط أعداء الاسلام تهدف إلى أمرين :

* تمييع شخصيتنا الاسلامية لاقصاء الاسلام عن الحياة .
* ترويج المبادىء الوافدة لتركيز القابلية للاستعمار .

ويجرى تمييع الشخصية الاسلامية عن طريق إثارة روح القوميات والاقليميات والابقاء على القانون الوضعى بما أشاع من فساد فى المجتمعات ، وإقامة علمانية الدولة تحت شعار الدين لله والوطن للجميع

وفى سبيل ترويج المبادىء الوافدة يركز التعريب على الاهتمام بحضارات الفراعنة والرومان واليونان والفنيقين والبابليين والآشوريين والاشادة بمآثر كورش والعرب العارية وإهمال أعظم تحول فى تاريخ البشريه وهو الذى فجره نبى الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم وأرسى قواعد المجاهدون الأبرار من صحابته واتباعه . إن هناك خطة قائمة ترمى إلى اقصاء الاسلام عن آداء دوره فى تنظيم

حياة الأمة الإسلامية وسيادة القوانين الوضعية ، وقد أدت هذه الخطة إلى حجب وتأجيل وتعطيل أغلب وأهم أحكام الاسلام ولا سيما فى مجال الاقتصاد والمال والاجتماع وسياسة الحكم والعلاقات الدولية ونحوها ، ومن أجل كسر هذا القيد يمكن تحقيق الخطوات الضيقة الشريفة بتطبيق بعض أحكام الشريعة الاسلامية المقدور على تطبيقها ، وعدم تعليق تنفيذ الميسور منها على قيام الدولة الاسلامية لذلك فإن الحفاظ على ظهور الاسلام يتطلب القضاء على الوسائل الرامية إلى إشاعة التحلل من الإسلام وذلك بالتمسك بتقوى الله وتطبيق الميسور من الأحكام الشرعية وتزييف سياسة الهاء المسلمين بالمشاكل الجانبية وذلك بالأصرار على قيام الأمة نفسها بفعل الواجبات وتحرك المحرمات . ومن شأن ذلك أن يفتح الطريق أمام تحقيق منهج الاسلام . وتلك هى المسئولية الإسلامية اليوم ، التى تقوم على الاستجابة لدواعى العقيدة وتقوم بأداء الالتزامات الفردية والاجتماعية إيمانا بالانقياد الصادر لأحكام الله وابتغاء وجهة الأعلى ، ولا ريب أن تربية هذا الشعور بالمسئولية من شأنه أن يوسع دائرة التطبيق العملى ، ومقاومة مؤامرات التغريب ولا بد من أداء الفرائض العبادية والإجتماعية لأنها متكاملة لا تسقط أحدها بأداء الأخرى ، ولقد كان التقاعس عن النهوض بالمسئولية الفردية والاجتماعية من أخطار الأمراض التى ساعدت على شيوع المنكرات وتعطيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأتاحت أوسع المجالات للعدو للسيطرة على مواردنا ومقدراتنا .

علينا أن ندفع بقوة إلى الأمام ظاهرة جدارة الإسلام بقيادة البشرية وهى ظاهرة تتأكد يوماً بعد يوم ومن شأن هذا الدفاع أن يؤدى إلى هزيمة المذاهب والايدلوجيات يوماً بعد يوم ، ولنذكر الحقائق الثلاث :

أنزل الله القرآن : ليكون للناس منهج حياة .

نزل الله الميزان : ليقوم الناس بالقسط .

أنزل الله الحديد : لتكون القوة أساس بناء المجتمع الإسلامى وسيلة لتنفيذ شريعة الله تعالى .

إن أعدائنا يهدفون إلى التخلي عن القرآن وألا تطالب بالعدالة ولا نملك القوة لنستسلم إلى الذل والهوان .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » .

ه سوى الإسلام بين الناس وألغى الفوارق والامتيازات وحرم العصبيات الجاهلية .

ه وضع الإسلام أساس العدالة القضائية والاجتماعية .

ه أوجب مقاومه الظلم والجور والاستبداد .

ويريد الذين يعادون الإسلام دوام إثارة الثغرات والعصبيات وتعميق الأحقاد الطبقية وإلهاب المشاعر القومية وإدامة الصراعات والنزعات الطائفية والفرقة وتمزيق شمل الأمة .

(٨)

دعا الإسلام إلى حماية الطفولة فدعا إلى حسن اختيار الأمم وإن لايكون الأب سكيراً أو عربداً أو غيرها من الوراثيات الصحية كما دعا إلى الأسوة الحسنة (أن يكون مرتفعاً عن الشبهات من نصرانية أو مجوسيه أو غيرها) ودعا إلى التوجيه والتثقيف وأن يكون الأب حازماً وحاسماً (لا ترفع عصاك عن أهلك) ودعا إلى تربية الزوجة أولا والشعور بالتبعة والمسئولية وطابع الإسلام ومفهومه هو :

التميز الواضح بين شخصية الرجل وشخصية المرأة والحيلولة دون امتزاجهما أو تحول إحداهما إلى الأخرى ، وعلى المرأة أن تعرف ماهى الصفات التى تمثل رجولة الرجل والتى يكون فيها الرجل أهلا للاقتران بها .

٩ ـ الماضى

فى الشرق تزداد الدعوة إلى انتظار الماضى وإحتقار الماضى، يدعونا إلى ذلك دعاة التغريب ، ولكن كتاب الغرب يفهمون الماضى على نحو آخر ، يتمثل فى أقوى صورة فيما يقوله سيشرون الذى يقول : إن الحاضر ليس سوى امتداد للماضى ونحن لا يمكننا أن نفهم أوضاعنا ومشاكلنا الحاضرة وأن نعالجها معالجة صحيحة وأن نرسم الطريق إلى المستقبل إلا بالرجوع إلى الماضى وإدراك الأسباب الفاعلة والعوامل المؤثرة إلى خلق تلك المشاكل . والصعوبات التى تجابهنا كلها لها جذورها وأصولها فى التراث الذى تسلمناه من الأجيال السابقة كما ورثنا عن الماضى المشاكل، كذلك نكتسب فى تجربة وحكمة . إن الذى يجهل ماحدث قبل ولادته سيبقى دوما طفلا . (٢) أن لانهيار الأمم أسباباً كثيرة من أجلها وأقساها قطع العام بالماضى . « إن من جملة ما ينهب النفوس من نيران الظلام فى هذا العصر هو قطع الصلة بالماضى إلى قطع الصلة بالحكمة التى قام البرهان على استمرار حقيقتها فإذاقطعتالصلة بها قطعت رأسك قبل أن تقطع الصلة بها) الحاضر مبنى على صلة الوصل العظيمة التى تربط بين الإنسان والغير ، والغير بمعنى الإنسان الآخر ، الغير بمعنى العالم الذى نعيش فيه ، ولا أقول الغير بل أقول مايروج فى الفكر من ربط الصلة بينه وبين باطن الإنسان، هو الحق المطلق الذى فطر الانسان على محبة الاطلاق فيه وله ومنه وإليه وهو الله . أى نقطة التوصل تكون بين الانسان وغيره : والانسان والعالم وبين الانسان والله . وهى المعرفة وهى نقطة الوصل أيضاً فى الحاضر ليكون هذا الحاضر مشرقاً والمستقبل واضح المعالم بالتخطيط والعام بالواجب .

(نسوا الله فأنساهم أنفسهم)

الحقيقة إن الإنسان لا يستطيع أن يقطع ما بينه وبين الماضى :

١٠ — روح مصر

إن القول بأن روح مصر نشأ من تأثير الوسط الطبيعى فى شعب مصر أو من عوامل قبل نزول دين موسى ودين عيسى ودين محمد قول باطل فإن كل مافى روح مصر من عوامل القوة إنما مرده إلى التوحيد الذى جاء به إبراهيم وموسى وعيسى ثم جاءت به الرسالة الخاتمة : رسالة محمد ﷺ أن كل ما ينسب إلى مصر من إيجابيات سواء من قدرتها على الاحتفاظ بمظهرها أو مكافحة الغزاة بصلابة أو الاحتفاظ بوجودها أو صهر كل من يفد إليها بروحها فإن ذلك يرجع إلى هذا الإيمان بالله تبارك وتعالى وحده وليس إلى عامل آخر من تجربة أو عنصر أو وسط مما يردده الكثيرون .

وهل يمكن أن يوصف العرب بأنهم فاتحون أو الترك بأنهم غزاه وهم فى حقيقة الأمر مسلمين ، وهل يمكن أن يوضعوا على درجة واحدة مع الفرنسين والإنجليز .

١١ — البطولة

مفهوم البطولة فى الإسلام يختلف عن مفهومها فى غيره من المجتمعات والثقافات المختلفة ذلك أن الإسلام يجمع بين النظريتين الاجتماعية والفردية فى كل متسق جامع ، فالبطل يأتى نتيجة حاجة المجتمع إليه ثم هو يصنع المجتمع آنفاً . والبطولة فى الإسلام تتمثل فى مثل كامل هو النبى محمد صلوات الله عليه وسلامه رسولا من لدن ربه فهو الذى نشأ فى الجزيرة العربية ثم هو الذى أخرج الجزيرة العربية من الظلمات إلى النور وغيرها وغير العالم كله ، وهداها إلى مفهوم التوحيد بإذن ربه ووحيه . ولقد كانت البطولة العربية قبل الإسلام بطوله الكرم والشجاعة والنجدة فاحتفظ لها الإسلام بهذه القيم بعد أن غير مدلولاتها وبواعثها فلم يعد الكرم من أجل المفاخرة به أو النجدة من أجل المباهاة بها ،

أو الشجاعة من أجل الظهور، بل أصبح ذلك كله من أجل التماس مرضاة الله . ومن ثم فقد نقاها الإسلام من زيف الفخر والمباهاة وحررها من التوجه إلى غير الله ، ولقد كان مفهوم الاسلام فى تكريم البطولة بعيداً عن الأحجار فقد كرم الاسلام عمل العاملين ولم يكرم الأفراد لذواتهم وبذلك سما بالقيم العملية وحال بين الأبطال وبين التقديس أو عبادة الأبطال الذى عرفته الأمم الأخرى فأنكر الفكر الإسلامى لا يخلد لبطل لحمه ودمه ،أو يصنعه من الحجر والجرانيت وإنما خلد عمله وذكره ، وكذلك فهم المسلمون أن البطولة ليست فى الفرد ذاته وإنما عمله فإذا أختار الرسول محمد صلوات الله عليه وسلامه الرفيق الأعلى فعلى الرسالة أن تبقى وتستمر ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات وقد عزل عمر خالداً عن القيادة أوج النصر خيفة أن يفتتن به الناس به وليعلمون أن الله هو صانع البطولة والأبطال . والبطل المسلم يلتمس بعمله وجه الله ولا ينسب لنفسه شيئاً من الفخر وقصة صاحب النقب معروفة ذائعة. ولقد رسم القرآن الكريم صورة رائعة للبطولة وجعلها دائماً فى مواجهة المسلمين لتكون العبرة قريبة إلى نفوسهم وكان أبطال القرآن أبطال مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم ولا يحنون رؤوسهم للعدوان ولا يخافون غير الله ولقد كان البطل دوماً فى مفهوم الاسلام(استجابة) لحاجة الامة والمجتمع يبعثه الله فى وقت الأزمة ليصلح به الأمة ثم هو بعد ذلك يضع الأحداث ويقود اتباعه إلى مرحلة جديدة على ذروه موجة من موجات التقدم .

(٢) فى مفهوم الاسلام يكون تقدير الشخصية فى كونها نموذجاً مستناً بسنن رسول الله ، عاملا على الدفاع عن العقيدة ، على طريق القرآن فى إطار حياة فاضلة عاملة فى سبيل الخير والحق ، يضيف جديداً إلى البناء القائم فى مجال الثقافة أو الحضارة ويكون الاحتفال بالأعلام بالتعريف بأقدارهم واستخلاص العبرة من حيواتهم بما نستنهض الغرائم والهمم ودعم الثقافة وتجديدها.

ولا تستبعد أن تتوافر المزايا فى شخصيات لم تحظ بالشهرة فى عصرها ولم يكن لها ذيوع الذكر على نطاق واسع ، وإن خمول الذكر لا يعنى خمول القدر ، والنقص فى الشهرة لا يستتبع فى جميع الأحوال النقص فى المقدرة .

الانفجار السكانى

إن الغرب يعمل جاهداً على زيادة النسل فى أوربا وأمريكا ويضع لذلك مغريات لا حد لها ليشجع الأسر على التناسل ، وفى نفس الوقت هو الذى يحمل لواء الدعوة إلى تحديد النسل فى البلاد الإسلامية ، ففى أوربا مكافآت عالية لكل أبوين عن الطفل الثالث وفى روسيا ميدالية فخر الأمومة للأمهات المنجبات لأكبر عدد ممكن من الأطفال . أما فى بلاد الإسلام فإننا نجد الحملة الواسعة المثارة تحت إسم الانفجار السكانى وبينما يجمع العلماء على أن العالم يواجه كارثة إذا تقلص نموه السكانى (كما تقول بول برليس) فى كتابه القبيلة البشرية (١٩٦٨) .

وإن المواد البروتينية الموجودة فى البحار لاتزال بكراً ، وإن ما إستعمل منها حتى الآن لا يزيد على ٧ر٥ فى المائة وإن الزيادة السنوية تبلغ ٣٠ مليار طن ، بينما يستعمل الإنسان ٦ ملايين طن . فإن هناك محاولة لا تتوقف بإقناع المسلمين بخطر زيادتهم .

يقول البروفسور خورشيد أحمد الأستاذ بجامعة كراتشى فى بحثه الضافى عن سوء نية الغربيين والتخطيط الاقتصادى لادامة سيطرة الدول المتقدمة على الشعوب النامية : ما يلى :

« إن آسيا والعالم الاسلامى هى أكبر مناطق الأرض اليوم ازدحاما بالسكان وما عدد السكان فى البلاد الغربية إلا قليل وأن هذا التفوق السكانى سوف يقضى على الأسس التى أقامها الغرب لسياسته فى العالم منذ القرون الخمسة الماضية ،وعلى ذلك التفوق الفنى والعامى الذى كان له على الشرق والذى به استطاع أن يقيم احتكاره السياسى على العالم .

وقد آمن الاستعمار بأن الغرب بوسعه أن يحتفظ باحتكاره السياسى على العالم إلى أبعد الأبعاد على الرغم من قلة سكانه ، ولكن الأوضاع الحالية والحقائق الجديدة

فى العالم قد فندت هذا الخيال الخاطىء وأماطت اللثام عن وجه الحقيقة وأنه لأجل التناقص المستمر فى عدد سكان البلاد الغربية فقد ظهرت بوادر الانحطاط والأفول فى السياسة بعد الحرب العالمية الأولى وبخاصة أن خطة تحديد النسل ضررها أكثر من نفعها من الوجهتين السياسية والاجتماعية وكان من نتائج ذلك أن فقدت فرنسا مكانتها العلمية شيئاً فشيئاً ، وأعان المارشال بيتان عقب الحرب العالمية الثانية أن الأسباب الأساسية الرئيسية التى عملت على توهين فرنسا وإزاحتها عن مكانتها العالمية هى قلة عدد الأطفال والسكان . وقد بدأت آثارها السيئة فى حياة انجلترا وغيرها وأوجست خيفة من آثارها السويد وألمانيا وفرنسا وانجلترا وإيطاليا .

وشعرت هذه الدول بحاجتها الماسة إلى إعادة النظر فى خطه بشأن عدد السكان ، ولذا فهى تبذل الآن جهودا متتابعة لزيادة عدد سكانها بدلا من تقليله – إلا أن الغرب لن يستطيع مع كل هذه الجهود أن يزيد عدد سكانه إلى حد يستطيع معه أن يحتفظ بمكانته السياسية ويبقى متربعا على عرش السياسة العالمية - بل الذى لاشك فيه أنه سيكون عاجزا فى المستقبل عن مقاومة الشرق والعالم الإسلامى مهما بذل من جهود لزيادة عدد السكان فى أقطاره .

ومن هنا يتبين لنا :

(أولا) : ارتباط أبعاد هذه المحاولة الخطيرة التى يقوم بها الغرب لإيقاف النمو السكانى والتفوق البشرى .

(ثانياً) : إيقاف القدرة على استعمال التكنولوجيا والسيطرة عليها وتحويل إرادة المسلمين لتوجيه مقدراتهم وثرواتهم الاقتصادية والمالية إلى طريق الاستهلاك والترف .

ثم يقول الدكتور خورشيد : إن هذيان أمريكا وكل ما يبذل من النصائح والمواعظ فى حل مشكلة السكان إنما هو نتيجة - إلى حد كبير - لشعورها بخطر تلك النتائج والمؤثرات السياسية المتوقفة على أساس تغير الأحوال فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية .

وهكذا يتبين لنا : لماذا يخطط الغرب وينظم ويساعد على تحديد النسل بالنسبة إلى العالم الإسلامى فقط ، دون أن يشير إلى حقيقة الموقف ودون أن يشير إلى طبيعة التحول الاجتماعى والحضارى الذى أدى بفساد المجتمعات الغربية وسيرها فى طريق الانهيار بنضب معين (الوالديه) فيها نتيجة لتخلخل الأسرة وانصراف المرأة الغربية عن رسالتها واستعمال حبوب الحمل والإجهاض ووأد البنات قبل أن يولدن ، وتعاطى المخدرات وانتشار الجرائم والعنف والشذوذ الجنسى وأخيرا الانتحارات المتوالية وبخاصة بين الشباب والمراهقين.

إن علينا أن نأخذ ما يأتى من الغرب بحذر ، وأن ننظر إلى مصالحنا بعد دراسة الخبراء لكل ظاهرة من الظواهر وذلك فى إطار التعاليم الإسلامية حتى نعيش فى أمن وسلام ، إن الطاقة البشرية هى أغلى الطاقات بخاصة إذا كانت إسلامية .

(٢)

يقول الدكتور نبيل صبحى : أن هناك سرا وراء حماس الدعاة الغربيين لحملة تحديد النسل فى العالم الثالث ودعمهم المالى الضخم . النشرات تقول : إن التضخم السكانى العالمى يتسارع بشكل سيؤدى إلى نقص الغذاء بل والمجاعة فالمصادر محدودة ، بينما التعداد البشرى فى ارتفاع مستمر بدون ضوابط ولا بد من تحديد النسل إذا أردنا الإبقاء على التوازن بين مصادر الطبيعة وسكان المعمورة .

تقول مجلة هيئة الصحة العالمية : لدى كوكبنا الأرضى مصادر كافية لتغذية كل سكانها بأسلوب مرض الآن ولعشرات السنين المقبلة (٨ أبريل سنة ١٩٨١) متى كانت مؤسسات فورد وركفلر تحس بآلام المسحوقين فى العالم الثالث وتخاف عليهم نقص الغذاء الذى قد يحصل فى المستقبل البعيد ، كما يدعون ، لماذا يهملون المجاعة الدائمة الآن فى إفريقيا كالصومال والحبشة وأوغندا وتشاد وغيرها ، ولماذا لا يهتمون بالمذابح الجماعية التى يرتكبها طغاة العالم ، شرقا وغربا بالرغم من شرعة حقوق الإنسان .

يقول روجيه جارودى : إنه من العــــار أن نسمع للمؤتمر السكانى الديمغرافى فى بوخارست يقول : أن إنجاب أقل عدد ممكن من الأطفال يجنب العالم مشاكل الجوع فى الوقت الذى نعرف جيدا أن باكستانيا أو هنديا يستهلك أقل مما يستهلكه زميله الأمريكى فى كالفورنيا بأربعمائة مرة وهذا يعنى بكل بساطة أن عشرة آلاف من المواليد الأمريكيين أكثر خطورة على التوازن العالمى من أربعة مليارات من المواليد الهنود أو الباكستانيين . والمسألة إذن ليست فى تحديد النسل كما طالب مؤتمر بوخارست لأن الداء قائم فى أسلوب ونمط النمو الاقتصادى الموجود فى الغرب بينما يمكن الدواء والحل فى ضرورة تغيير تصرفات وأهداف العالم الغربى ، ولا ينبغى أن يعزب عن بال أحد أن التعليم المادى الذى ترنع المجتمعات الغربية فى بحبوحته مبنى على بؤس سكان العالم الثالث وهم أربعة أخماس المعمورة ، وليس من المعقول أن يستمر خمسمائة مليون من الغربيين فى تنعمهم ورفاهيتهم ، بل فى بذخهم فى الوقت الذى يوجد فى الضفة الأخرى من العالم حوالى أربعة مليارات من الجياع يعيشون فى فقر مدقع .

(٣)

يقول الدكتور مالنباوم : العالم الثالث وغالبيته مسلمة هو موضوع الدعوة إلى تحديد النسل : « إن النمو الاقتصادى يستهلك زيادة السكان ويبقى مستوى المعيشة على حاله : فساد حكومات العالم الثالث ويقول الدكتور كيبنال تعليقا على قول البروفسور مالنباوم (سبتمبر ١٩٦١) : لقد زاد مجمل الإنتاج القومى ٥٠ فى المائة مابين ١٩٥٠ / ١٩٥٩ فى بعض دول أمريكا اللاتينية رغم أن الزيادة السكانية كانت ٣ ٪ أى أكثر من أى زيادة سكانية فى سائر جهات العالم وهناك أمثلة مشابهة فى الصين الشعبية والمكسيك ، هناك بديل عن تحديد النسل ، هو الاستقرار السياسى والأمنى للمجموعات والنفسى للجماعات . تحديد النسل عالم الشمال يركز فيها أماله فى الإبقاء على مستوى رفاهيته على حساب آلام المعدمين والمحرومين فى عالم الجنوب .

(٤)

تقول مجله تايم (أكتوبر ١٩٧١)

لتحديد النسل فى العالم الإسلامى صلة بالسياسات التى يخططها أعداء الإسلام لبلاد الإسلام ، فإذا ما قام أحد المفكرين المسلمين بتسفيه دعوة تحديد النسل وربط تنظيم النسل على مستوى الفرد والمجتمع بمدى الضرورة الشرعية التى يقدمها العلماء العدول فى إطار الشريعة الإسلامية إذا قال هذا أنبرت له أبواق الغربيين والمستغربين بالتهم تكال له زوراً وتهبانا ، رجعية وتعصب وتأخر وانغلاق بينما لم تهاجم الأبواق إسرائيل وزعمائها .

قال بوجوريون عام ١٩٠٦ كانت أمنيتى رؤية مليون يهودى فى هذا البلد (فلسطين) واليوم ١٩٧١ يحتاج لثمانية ملايين وليس لدينا إلا ثلاثة ملايين . كل يهودية قادرة لاتلد على الأقل أربعة أطفال صحاح تتهرب من واجبها تجاه الشعب اليهودى .

يعلن العالم الفرنسى رنيه أدمون أن الإنتاج الغذائى يكفى لسد حاجيات سكان الأرض وإن البلدان النامية بنوع خاص لن تجد المواد الغذائية اللازمة لمقابلة تزايد سكانها فمنذ عام ١٩٥٩ أى منذ ١٧ سنة إلى الآن لم يرتفع الإنتاج الغذائى بالنسبة للفرد بل يقهقر فى بعضها كالهند وبنجلاديش وأندونيسيا ومعظم دول أفريقيا السوداء الواقعة فى وسط القارة أو مناطقها الشرقية ، وهذا مايفسر المجاعات التى استشرت فى السنوات الأخيرة ، يموت كل سنة خمسة ملايين إنسان من سوء التغذية .

ديون العالم الثالث تبلغ الآن ١٤٠ مليار دولار فلابد فيها من دفع ثمن سياسى إذا أرادت البقاء والثمن السياسى إنمـــا يعنى الخضوع والانحياز . الولايات المتحدة أكبر مصدر للحبوب فى العالم تعتبره سلاحا استرتيجيا أرهب من القنابل الهيدروجينية .

(٥)

يقول ارثر كرمول : إنه لمما يعجب الناس فى البلاد المتقدمة إعجابا نظريا يزداد أن عدد سكان الناس فى البلاد غير المتقدمة ,وذلك أنهم يرون فى زيادتهم المضطردة خطراً داهما على مستواهم الرفيع فى المعيشة وعلى سلامتهم فى السياسة . يقول ميك كارل : إن أهل الشرق لن يلبثوا إلا قليلا حتى يطلعوا على حقيقة هذا الجرم ثم لايغتفرونه لأهل الغرب لأنه استعمار من نوع جديد يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة ، ولاسيما الأمم السوداء إلى مزيد من الذل والخسف حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ لسيادتها وقيادتها للعمل وهى لذلك تدعوها إلى العمل على نشر حركة تحديد النسل ، ومنع الحمل فى بلاد آسيا وإفريقيا فى نفس الوقت الذى تعمل فيه البلاد الأوروبية على زيادة سكانها وتستعين فى ذلك بأحسن ماعندها من أساليب الدعاية . يقول العلامة علال الفاسى : أن أكبر الخطر أن تدرس حركة تحديد النسل منفصلة عن سياقهـــا السياسى والتاريخى فنحن لا نستطيع أن نفهمها على حقيقتها إلا داخل نطاق التحدى فإذا أضفنا إلى هذا الخطط الصهيونية لإجلاء العرب عن فلسطين وتهجير أكبر عدد ممكن من اليهود وخلق حركات داخل كل بلد إسلامى من الأقليات التى يصل فيها التعصب إلى الانفصال عن الوطن الوالد ، عرفنا أن التنقيص فى عدد المواليد لا يخدم إلا قضية الاستعمار والصهيونية .

إن سكان الولايات المتحدة يمثلون (٦) فى المائة من مجموع سكان الكرة الأرضية ويستهلكون ثلث النفط وربع الحبوب ونصف الفوسفات ومايستهلكه أمريكى واحد من المواد الغذائية يساوى ما يستهلكه خمسمائة هندى ، مايستهلكه الأمريكان يعادل استهلاك ٤٠٠ مليار هندى فضلا عن إلقاء ما يزيد عن الحاجة فى البحر من اللبن والبرتقال والقمح .

(٦)

دعوة تحديد النسل والسموم التى تطرحها :

تبين أن المجتمعات القبلية والإفريقية التى تضطلع فيها المرأة بمسئولية الزراعة تنخفض منها معدلات الخصوبة بدرجة أكبر من المجموعات التى لاتوجد منها للنساء أنشطة اقتصادية ولذلك يجرى إيجاد دور تؤديه المرأة فى التنمية الاقتصادية للحد من كثرة الإنجاب ، كذلك فإن التعليم يبدد شعور المرأة بالخوف أو النقص فلا تتجه إلى كثرة الإنجاب لتأمين حياتها إذا استمرت الخصوبة فى مستواها الحالى الذى يقدر بـــ (٣٨ر٥ لكل أم فى المتوسط) فإن عدد السكان سوف يرتفع إلى ٥ر٦٩ مليون عام ٢٠٠٠ أى بزيادة ٨٩ فى المائة من عام ١٩٧٦ وسوف يرتفع إلى ١٤٣ مليونا بعد خمسين سنة .

والزواج المبكر يؤدى إلى إطالة التعرض للحمل وارتفاع الخصوبة وقد كانت الحرية غير المقيدة لإيقاع الطلاق وتعدد الزواج والتفسير الذى يلقاه المجتمع من أن الدين يحث على الإنسان الكثير ويحض على ترك هذا الأمر بغير تدخل إنسانى خشية الوزر أقول أن هـــذا العامل أسهم فى زيادة السكان » .

كل هذه المعلومات تطرحها وسائل تنظيم الأسرة لتدمير مخطط التفوق البشرى فى العالم الإسلامى وتحطيمه والله غالب على أمره .

ولن يستطع التعليم ، ولا تأخـــير الزواج ، ولا إقامة المعوقات من من فرض موقف معارض لطبيعة الأمور ، وعلى الذين يرغبون فى التخفف من متاعب النمو السكانى أن يبحثوا عن وسائل أخرى باستغلال هـــذه العناصر واستخدامها فى النماء .

ومن الخطأ على المسلم أن يقول أن الأرض لا تحمل حلا لمشكلة الغذاء لأن الله تبارك وتعالى قرر أنه أودع كونه الحل لكل مشكلة ، الكون

يحمل الرغد (يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله) من أين تأتى مشاكل المادية والخوف (فأذاقها الله البأس والجوع والخوف) وقد أعلن الله تبارك وتعالى أنه قدر فى الأرض أقواتها وأنه أودع فى هذا الكون كل حاجته ، الحل هو تمكين القلب الإنسانى (القلب الذى يعقل) ويشجعه على ذلك . الأصل فى الكون المادى يحمل من نعم الله والآءه مايحل مشاكل الإنسان المادى . يحمل إجابه مقنعة يصل إليهـا الإنسان بالسعى والكد والكشف عن مصادر الرزق .

الباب التاسع

التاريخ الإسلامي

(١)

لابد من تقديم مجموعة حقائق أساسية فى مفهوم الإسلام للتاريخ ، يختلف بها عن المفهوم الغربى :

أولا : يبدأ تاريخ المسلمين منذ بدأ الخليفة وينتهى تاريخهم يوم يجمع الله الرسل وهو صراع بين دعوتين . دعوة الله ودعوة الطاغوت ، ونزاع بين معركتين : معركة المؤمنين ومعركة الكافرين ، واصطدام بين منهجين : منْهج الإسلام ومنهج الوثنية ، وهو فى مجموعة حلقات متصلة بقيادة الأنبياء والرسل فى مواجهة الوثنية والمادية .

ثانياً : ليس تاريخ الإسلام مايسمى تراكم التناقضات فى العلاقات الناشئة عن طبيعة وسائل الإنتاج ، وليس هو مجرد أحداث توافرت لها أسباب معينة صدفة فافرزت نتائج عفوية تحكمت فيها ظروف الزمان والمكان .

ثالثاً : وحدة الأمة الإسلامية عبر التاريخ كله وحدة واضحة فى مسارها ودعوتها ، ومنه يتبين أن منهج الله تعالى واحد ، وإن تعددت فصوله ومنهج الوثنية واحد وإن تعددت صوره وامتحان الله تبارك وتعالى للمسلمين وابتلاء المؤمنين واحد غير التاريخ ومنهج تربية المسلمين وتأهيلهم للجهاد واحد عبر التاريخ ووعد الله المؤمنين بالنصر واحد عبر التاريخ وسنة الله تبارك وتعالى واحدة عبر التاريخ .

« يريد الله أن يهديكم سنن الذين من قبلكم » .

« وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

رابعاً : رسالة الأنبياء واحدة من لدن آدم (عليه السلام) إلى محمد ﷺ فى مواجهة الوثنية والمادية والاباحية (ظهر الفساد فى البر والبحر) ، (زين للناس حب الشهوات) .

خامساً : الدعوة إلى الله هى العمل الدائم المستمر فى مواجهة المحاولة البشرية الدائمة التى تعمل على طمس معالم التوحيد وإذاعة الوثنية وتنتهى المعركة دائماً بانتصار أصحاب الحق ويزيل الله وجود الأمم والحضارات التى خرجت عن طريق الله . « عن رسائل الإصلاح »

(سادساً) لا يعرف التاريخ البشرى فترة لم يكن الدين فيها مؤثراً إيجابياً فى حياة الإنسان وجميع الأنظمة السياسية والاجتماعية التى قامت منذ بداية التاريخ قامت على معتقدات دينية وإن الدين أسرع مؤثر فى الأخلاق لا يدانيه مؤثراً آخر.

وسر قوه الدين العظيمة ، هى كونه العامل الوحيد الذى تتوحد به منافع الأمة ومشاعرها وأقطارها ، ويقوم الدين مقام جميع العناصر التى يتكون منها روح الأمة : ويرجع ذلك إلى قوة تمكن المعتقد فى النفوس .

(سابعاً) يرد (ارنولد توينبى) قيام الحضارات العالمية الكبرى إلى الأديان . ويرى أن وراء كل حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية ، فالعقائد الدينية هى التى تسير مجرى التاريخ ، وإذا كان هناك مستقبل لحضارة ما ، فذلك فى حدود الدين ، وبسبب منه فالدين هو العامل فى إنشاء الحضارات على مدى التاريخ . الوازع الدينى هو الذى حمى الضعفاء من النساء والأطفال والعبيد ضد شرور الأقوياء ، ويقول : لن تحقق البشرية وحدتها المرتجاة من غير مشاركة الله فلو أسقطت المرشد العلوى من اعتبارها لاندفع الانسان إلى الفتنة والتنافر ، وهو ما يجافى طبيعته القائمة على الألفة والمعاشرة ، والبناء الاجتماعى يزداد قوة كلما ازداد الإنسان قدرة على أن يرتفع بحياته إلى تحقيق الاحتياجات المعنوية لطبيعته الاجتماعية فإن ملكوت الله هو ميدان العمل الوحيد المسلم به أخلاقياً والدين هو الذى يهيء للنفوس البشرية إكتساب زعامة ملكوت الله على الأرض والإنسان يساهم بقسط غاية فى الضآلة فى سير التاريخ الدينوى وهو قسط يكفل له تأدية دوره فى الأرض ولكن على أنه مساعد ذو إرادة لإله يضفى سلطانه على جهود الإنسان لتأدية رسالته فيكون لها قيمة ومعنى ربانيين .

(محمود الشرقاوى)

(٢)

التفسير المادى للتاريخ الذى عرفه الغريب لا يصلح لتفسير تاريخنا الاسلامى بل إن التفسير المادى نفسه ما استطاع أن يقول الكلمة الأخيرة التى لا تترك مجالا لجديد يقال فى تفسير التاريخ ، بل إن الإنسانية لم يتوقف سيرها عند ماركس — كما تقول دكتورة بنت الشاطىء ، بل تابعت سيرها وقد تقدم علم الإنسان فأدرك أن الجماعات والشعوب ليست أفراداً فى قطيع يخضع لنمط واحد من السلوك وتضبطه قواعد صماء كالتى تضبط قطعان الدواب وشهد عصرنا أحداثا كبرى فى حياة الأمم والشعوب أضافت إلى موازين القوى قيما إنسانية لم تدخل فى حساب الماديين ونقول . عرضت العامل المادى على تاريخنا فلم يقبله الأمن حيث اتصاله بالعامل الدينى الذى يلقانا حيثما رجعنا البصر فى الوجود التاريخى لأمتنا ، مستقطب سائر العوامل الأخرى مادية ومعنوية فى تفاعل مؤثر لا يغلبه أى عامل منها .

ما من كتاب طالعته فى الحضارات الأولى والتاريخ القديم لم يكشف عن سيطرة العامل الدينى وعمق نفاذه فى الشرق مهد الحضارات ، مهد الأديان والرسالات ، هذا يعنى ارتباط التاريخ الحضارى لشرقنا العريق بالعقائد الدينية ، معتقدات دينية وأساطير دينية سابقة عــلى اليهوديه والمسيحية والاسلام فيها عناصر شبيهة بما جاءت به الرسالات السماوية . تعقبت مصر القديمة فى التوحيد والايمان بالبعث والحساب فى الحياة الآخرة ، إن القرآن فيما يقضى علينا من مصائر الأمم الغابرة يزودنا بوثائق تفسير دينى لتاريخها ، كما يوثق كل ماجاء فى قصص الأنبياء وشرائعهم فإذا كان مثل هذا التوثيق يعوزنا فى كتب مشكوك فى صحة متونها ، فحسبنا أن نرد إلى القرآن ما يكتشفه الآثريون أو الباحثون من بقايا الرسالات الدينية فى معتقدات شعوب الشرق القديم . إن رسالات الدين لم تبدأ بالتوراة ثم الإنجيل والقرآن ليقال أنها إقتبست من المعتقدات الدينية للشرق القديم . الدين أسبق من كل الحضارات المعروفة لنا والمجهولة .

فلقد كانت حضارات وديان النيل والرافدين ، والسند أقدم من الموسوية بآلاف السنين . إن هذه الحضارات نفسها لمسبوقة برسالات الأنبياء المبعوثين فى أمم بادت كعاد وثمود وسبأ والتاريخ الدينى موغل فى ماضى البشرية من عهد أبيها آدم ومن بعده نوح ، ووجود عناصر دينية مثل مافى الكتب السماوية الباقية فى التراث الشعبى للأمم الخالية كالفراعنة والبابليين والآشوريين شاهد على أن هذه البشرية لبثت على طول الزمن وقدم العهد بالرسل الأولين تحتفظ فى وعيها ببقايا من الرسالات الأولى مثلما احتفظ العرب فى الجاهلية ببقايا من دين الحنيفية ، على قدم العهد بإبراهيم عليه السلام مختلطة بشوائب من طقوس وثنية آلت إليهم من قديم الحقب وكان من أصنامهم فى الجاهلية الأخيرة (ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا) وهذه الأصنام الخمسة مما عبد قوم نوح قبل الطوفان فى الخبر الثابت عنهم بنص القرآن الكريم : (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً (الآية) سورة نوح وفى هذا رد على الذين يتشدقون بكلمات جاهلة حينما يقولون : وجاءت الأديان يقصدون اليهودية والمسيحية كأنما لم تكن هناك أديان منذ نوح .

٢ — وهناك خطأ نظرة وحدة العرق والدم كشرط للانتماء وبطلان الوحدة بفقدان التجانس الجغرافى والدمج السياسى ، ونتصور قوميات مصطنعة لدول محدثة قامت على أخلاط من قوميات شتى وأوطان متباعدة وألسنة متعددة وسجايا متفاوتة وليس كأمتنا العريقة شعوبا مستقلة لها كيانها الخاص وترابطها جميعاً وحدة تاريخ وتراث وسجايا وانتماء على تباعد الديار واختلاف السلالات القديمة كتفاوت الطبيعة الجغرافية والمستويات الحضارية ، وهكذا عمل الإسلام فى صهر النفوس والعقول فى بوتقته فكون منها فكرا واحداً جامعاً .

(٣)

ومن أخطر المحاذير التي تواجه دراسات التاريخ الإسلامي المعاصرة :

(أولا) التوسع في إيراد الصغائر الشخصية بينما تختصر الأعمال الكبرى العامة .

(ثانياً) سيطرة الروح القومية على التاريخ الإسلامي : هذه الروح القومية تتناقض تناقضا واضحاً مع الحقائق الأساسية لأن تاريخ الإسلام في عصر الراشدين والأمويين والعباسيين كان تاريخيا للمسلمين كلهم ولم يكن تاريخ العرب وحدهم وكان من صناع بطولة البربر والأتراك والفرس .

(ثالثاً) التحدث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كالتحدث عن اخناتون ونابليون .

(رابعاً) إحلال كلمة العرب بدلا من كلمة الإسلام والأمة الإسلامية .

(خامساً) محاولة إثارة دعوى باطلة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما بعث للعرب وحدهم وتجريد النبي عليه السلام من طبيعته حتى يبدو وكأنه ليس أكثر من داعية أو مصلح سياسي أو اجتماعي أو أن دعوة الإسلام لاتعدو أن تكون ثورة من الثورات .

(سادساً) تجريد الدعوة الإسلامية من أساسها الفكري ورسالتها الأساسية في بناء العقيدة .

(سابعاً) إضفاء الروح الإسلامي التي لها أثرها التربوي في النشء المسلم وتجريد المعارك الإسلامية من نفحات النبي ومن تأييد الله ويقيسونها بمقاييس مادية بحته .

(ثامنا) : في الكتابة عن الهجرة أغفل المؤلفون جوانب رعاية الله وركزوا على عنصر الاختفاء وغفلة قريش وعدم رؤية أحد للنبي .

(تاسعاً) فى موقعة عين جالوت تجاهل المؤلفون نداء « واسلاماه » .

(عاشراً) عند الحديث عن غزوة أحد لم يذكر المؤلفون عدد الجيش الإسلامى .

(حادى عشر) فى الحديث عن معارضة قريش للإسلام ذكر أن السبب فى ذلك هو خوف قريش على مركزها التجارى ، وهذا تحليل ماركسى فإن قريشاً قد عرضت على الرسول التنازل عن كل شىء له ولكنه رفض ، فقد كان الصراع صراع عقيدة ولم يكن الأمر اقتصادآ .

(ثانى عشر) التركيز على المعارك : وإهمال الجوانب الأخلاقية والحضارة الإسلامية فبدأ تاريخ الإسلام وكأنه تاريخ غزوات وحروب .

(ثالث عشر) حشد كثير من الخلافات وتكثيفها وبخاصة تلك الخلافات التى جرت بين على ومعاوية وقد نتج عن هذا سب بعض الصحابة دون تمحيص علمى ودون معرفة بالظروف كلها .

(رابع عشر) تناول الحركات الانفصالية لحركة ابن طولون وابن طغج الأخشيد على أنها حركات استقلالية والأولى تتناول هذه الحركات على أنها حركات انفصالية يقف وراءها أشخاص مغامرون .

(خامس عشر) يقولون التوسع العربى وكان الفتوحات الإسلامية توسعات استعمارية مع أن هناك فروقا كثيرة بين هذه وتلك .

(سادس عشر) يقولون أن عمر بن الخطاب ولى عمرو بن العاص مصر مكافأة له فهل هكذا كان يوسى عمر الأعور أم أن عمرو بن العاص كان جديرا بحكم مصر .

(٤)

هناك ملاحظات أساسية على أخطاء الكتاب فى تاريخ الإسلام :

أولا : هناك فرق بين تاريخنا الإسلامى دين تاريخ أى أمة أخرى ،

أن الخرافات اليسيرة التي رويت في ثنايا تاريخنا رويت منفصلة عن تاريخنا نفسه ، أما التاريخ اليوناني أو التاريخ الهندي فلا يمكن تخليصهما من الخرافات ، وقد امتزجت بعناية الأمتين وأدبهما وحضارتهما وحياتهما الاجتماعية وبينما نرى الإسلام يجب ماقبله ، ويفصل بين العرب وبين جاهليتهم فصلا مبينا وفي حياتهم الدينية على الأخص إذ بنا لانزال نرى حاضر الأمة الهندية والأمة اليونانية مثلا ملونا بحالتهما .

ثانياً : إننا نحن المسلمون نستطيع أن نؤرخ أحداث بلادنا في العصور الوسطى من غير أن نذكر ملوك الروم والفرنجة والإنجليز ولكن الروم والفرنجة والأسبان والإنجليز لايستطيعون أن يكتبوا تاريخهم الوسيط إذا هم أهملوا ذكر عمر بن الخطاب ومعاوية ، والوليـــد ، وهارون الرشيد ، وعبد الرحمن الناصر وصلاح الدين ، ويوسف بن شفين أو مسلمه بن عبد الملك أو موسى بن نصير أو طارق بن زياد ، أو عبد الرحمن الغافقي .

ثالثاً : من الظلم الحكم على العصر الأموي بتصرفات فردية ليزيد بن معاوية وننسى الفتوحات العظيمة في عهد معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وننسى عهد عمر بن عبد العزيز الذي تحقق فيه الاكتفاء الذاتي وننسى أنه في العصر الأموي وصلت الدول الاسلامية إلى أقصى حدودها في آسيا وإفريقيا وأوربا والفتوحات لا تتم إلا بقوة الإيمان وتحقيق العدل وتحقيق الأمان .

رابعاً : كتابات التاريخ الإســلامي عن طريق الاستشراق تتسم بالحقد والعداء وتلمس السقطات والهفوات التي يبرزونها ويكبرونها عن عمد ، ومن ذلك ما كتبه جرجي زيدان عن عذراء قريش وكتابه فتاة غسان وهو لم يكتب إلا في الفتن الإسلامية ليزيد النار إشتعالا ثم كتب المثالب وتلمسها .

خامسا : يعتبر المؤرخون الغربيون (سقوط الدول الرومانية) حدثاً

فاصلا بين العصور القديمة والمتوسطة ، بينما هناك ماهو أعظم وأجدر بأن يكون حداً فاصلا لفترتى التاريخ البشرى : ألا وهو (ظهور الإسلام)

(٥)

يقف المؤرخون الغربيون موقفا مريبا أزاء معجزة انتشار الإسلام ويعللونها تعليلا ماديا وقد أجمع المؤرخون المنصفون على أن سرعة انتشار الإسلام أمر فريد عجيب على مدى التاريخ ذلك أن العرب لم يكونوا من من الكثرة العددية ولا من قوة العدة والسلاح ولا من حـــذق الفنون العسكرية ولا من حضارة العلم والمدنية بالقدر الذى يوازى خصومهم ويرى المؤرخون أن سرعة انتشار الإسلام إنما ترجع إلى أنه كان أفضل نظام اجتماعى وسياسى تمخضت عنه العصور وإن سيادته ترجع إلى أنه وحد فى كل مكان أمماً استولى عليها الخمول ، وفشا فيها النهب والعسف ، فلما جاءها الإسلام لم يجد إلا حكومات مستعبده مستأثرة مقطعة الروابط بينها وبين رعاياها وكان نظام رأس المال فى الإمبراطورية البيزنطية قائما على الاسترقاق وكانت الآداب والثقافة الاجتماعية آخذة فى الانحلال . ومنهم من يرى أن العرب كانوا قبل الإسلام ذوى بصر بالحروب أكثر مما يظن الناس فأصبحت أمة محاربة من الدرجة الأولى ، ومنهم من ذهب إلى أن قسوة الحياة المادية والاقتصادية دفعتهم إلى التطلع إلى ما فى البلاد التى فتحوها من عيش رغيد وموارد اقتصادية ثمينة وهذا هو التفسير المادى فى ضوء البواعث الاقتصادية وخاصة الشيوعية المادية ، ولو صدق هذا التفسير المادى والتعليل الاقتصادى على الفتح العربى لاقتصر العرب على فتح البلاد الخصبة ، ولما ذهبت جيوشهم وقبائلهم الزاحفة إلى البلاد الفقيرة الشحيحة النائية عن مواطنهم ، ولو لم يكن هدف زحفهم نشر الكلمة أو أو الرسالة التى حملهم الله تبارك وتعالى إياها إلى الناس كافة ، بل لو كان هذا التفسير المادى له ظل من الصحة لأسرع الخلفاء الراشدون الاولون الموجهون لتلك الفتوح إلى نقل مدة سلطانهم وحكمهم من مكة والمدينة وصحراء الجزيرة العربية إلى غيرها من البلاد المفتوحة .

(٦)

ثلاثة تزعموا هذه الدعوى : تفسير الفتح الإسلامى فى بواعثه ونتائجه تفسيرا ماديا اقتصاديا هم المستشرق كارل بيكر ، البرنس كيتانى ، الأب اليسوعى لامنس : هؤلاء الثلاثة يسمون الفتح الإسلامى بالفتح العربى ويقولون أنه كان غزوا عدوانيا لكسب المغانم أكثر مما كان لنشر الدين الجديد وأن الذى فتح الشام والعراق وفارس ومصر وبلاد إفريقية لم يكن دين الإسلام بل دولة الإسلام وأن العربية هى التى انتصرت فى هذا الفتح لا الاسلام وجماع ما عندهم من الرأى فى بواعث الفتح بأن العرب لما توحدت كلمتهم وصاروا وحدة متآلفة فى الجزيرة العربية بعد أن انتهت حروب الردة ، اندفعوا بالغزو خارج الجزيرة إلى الدول القائمة على حدودها حتى يجلبوا ما شاءوا من المغانم والأسلاب ويحققوا لأنفسهم مناعم الحياة التى كانوا يسمعون عنها فى بلاد الهلال الخصيب ومصر والشاطىء الأفريقى وما كان العمل لدولة الاسلام إلا تحقيق هذه الرغبة وتنظيم هذا الغزو والاشراف على مسيرته وتوزيع ما جاء به من الأسلاب والمغانم ووراء هذا الكلام نزعة مغرضة غطت موقع الحق ، يزعمون أن العرب صاروا وحدة بعد حروب الردة وأنهم بهذه الوحدة شعروا بهذه القومية فخرجوا للفتح ونسى هؤلاء أن الاسلام هو الذى جمع فى الأصل كلمة العرب وحقق لهم تلك المعجزة التاريخية فجعلهم وحدة فى العقيدة والروح والخلق ، بعد أن حطم أصنامهم من الطين والحجر ونفى عنهم العصبية وأزال ما فيهم من بواعث الفرقة فالاسلام هو السر الأول والأكبر فى تلك المعجزة التى حققها المسلمون فى الفتح والنصر والعقيدة الاسلامية هى التفسير لتلك القوة الخارقة التى دفعتهم وأعانتهم على تحرير الأمم من عبادة الأصنام وعبادة الحكام ومن ثم كان الوجود الاسلامى فى تلك الأمم حقيقة إنسانية تحمل الناس جميعاً على الحب والانصاف والعدل وإنهم لفى ذلك سواء لافرق بين عربى وعجمى أو أسود أو أصفر .

(محمد فهمى عبد اللطيف)

(٥)

ولا ريب أن هناك خلاف عميق بين الفتوح الاسلامية وبين فتوح الاسكندر المقدونى وهانيبال القرطاجنى ودارا الفارسى . إنما فتح هؤلاء القادة مافتحوا من الأقطار ليتسلطوا على شعوبها وليحكموها حكم استبداد واستبداد ولينهبوا مافى تلك الأقطار من خيرات وأرزاق وكان شريعتهم تقسيم الناس إلى سادة وعبيد فهم السادة وأبناء تلك الشعوب هم العبيد ، اما وجهة الاسلام فكانت وجهة إنسانية ، فالناس سواء فى حق الحياة ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، ولتحقيق هذه المبادىء السامية كانت الفتوحات الاسلامية وكان ما حققته من انتصارات باهرة رائعة وكان هذا هو السبب فى بقاء الاسلام عقيدة لتلك الشعوب على امتداد أربع عشر قرناً من الزمان ، ولكن أصحاب الفلسفة المادية مازالوا يمارون فى هذه الحقيقة ، ويصفون الفتوحات الاسلامية بأنها كانت فتوحات دفعت إليها الحاجة إلى الطعام والمال .

ومن العجيب أن هذه الدعوى تجوز على بعض المؤرخين المعاصرين قد رددوها من غير وعى لموقع هذه الحقيقة الاسلامية . أن تفسير الفتح الاسلامى تفسيرا اقتصاديا كما يقولون وربط دوافعه وأهدافه بالحرص على الأسلوب والرغبة فى المغانم هو فى منطق الحق والانصاف تفسير مغرض تنقصه كل الشواهد والدلائل التاريخية ، كما تنقصه كل البواعث والظواهر التى تجلت فى وقائع هذا الفتح وسلوك قادته وجنوده ، على أن هذا الفهم الخاطىء كان الهاجس الأول الذى ساور جبابرة الفرس والروم حين هز الفتح الإسلامى عروشهم ، ورأوا حماسة أولئك الفاتحين المتأججة وجرأتهم على العظمة الفارسية والبيزنطية وهى عظمة لاتطاول ولا يمكن لمخلوق أن ينال منها ، فحسبوا أن الجوع القاهر هو الذى دفع بأولئك الفاتحين من قلب الجزيرة لينالوا غنما أو يرجعوا بسبب ، وإن وضع القوت فى أفواههم مما يكفى لاستسلامهم وردهم إلى صحرائهم .

(محمد فهمى عبد اللطيف)

(٦)

ولقد كان من أخطر محاولات الاستشراق الشيوعى دعـــواه بأن حركات الانتقاض على الدولة الإسلامية هى حركات تحرر والاشادة بحركة القرامطة حتى ليفاخر شاعر عراقى متمرد بأنه قرمطى ويحاول بعض الكتاب العرب الاشاده بحركة القرامطة التى قامت ضد نظام الدولة العباسية واعتدت على الكعبة فيتحدث عنها كدعوه تقدمية تمثل اليسار الاسلامى (وألف أحدهم أطروحة حول إحدى هذه الجماعات) وهو مخطط خبيث لاحياء الخلافات والصراعات التاريخية داخل الوطن العربى والأمة الاسلامية .

إن التفسير المادى للتاريخ الذى طرحته الكتابات الماركسية فى السنوات الأخيرة لم يقم على فهم صحيح للإسلام وإنما قام على أساس خصومة حاقدة ، وقد ظهرت فى الفترة الأخيرة من القرن الرابع عشر أبحاث فى التاريخ تقوم على المادية التاريخية .

والمادية التاريخية تقوم كما يقول دكتور فاروق عمر فوزى على تأثر مؤرخو أوربا ومستشرقوها بفكرة جوبينو العنصرية فى القرن ١٩ وقد أكدوا فى كتاباتهم هـــذا الاتجاه العنصرى فى دراسة التاريخ الاسلامى وصوروا أحداثه فى صورة نزاع حاد بين العرب الحاكمين والشعوب المحكومة من فرس وترك وبربر كأن لم يكن فى هذا الشرق الاسلامى إلا تطاحن على السلطة والسيادة والامتيازات وليس هنا مجال التفضيل فى طبيعة هذا الاتجاه العنصرى الذى شوه حقيقة دور العرب الحضارى . ومن أمثلة ذلك ما ذكره فلوتن وولهاوزن اللذين أظهرا تاريخ القرن الأول الهجرى وكأنه صراع دموى بين العرب (بوصفهم الحكام) وبين سكان البلاد المفتوحة وقد تأثر بهذا التفسير الكثير من المؤرخين ومنهم عرب طبقوه على مظاهر كثيرة من التاريخ الاسلامى من جملتها الحركة البابلية نفسها ، فصوروها فى صورة انتفاضة قومية إيرانية .

والواقع أن هذا التفسير جرد الحركة البابكية من سياقها التاريخى الشامل

وحصرها فى جانب واحد بالغ فى إظهاره وأكد عليه متناسيا الجوانب الأخرى .

ومن هنا نستطيع أن نؤكد فساد هذا الاتجاه الذى سار فيه مؤرخون عرب على طريق المذهب المادى فى التفسير التاريخى مقلدين المستشرقين الروس ، وأخطر أعمالهم محاولة إعادة كتابه التاريخ الاسلامى بمفاهيم شعوبية وماركسية مشتركة وأخطر هذه الأبحاث :

— من الحركات الفكرية فى الإسلام : بندلى جوزى

— السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات . فان فلوين

— الدولة العربية وسقوطها : ولهاوزن .

ويرد الدكتور فاروق عمر فوزى هذه الخطة إلى المزاعم التى استحدثها المستشرقون : ماسنيون وكايتانى وبرنارد لويس وكراوس والتى قدمها الماركسيون اليهود بندلى جوزى ولوتسلى وايفاتوف وقد أشار الدكتور حسن قاسم العزيز إلى خطر هذه الظاهرة التى تقوم على (المادية التاريخية) فى تفسير التاريخ الاسلامى ، والتى تدعى أن هذه الفرق الضالة المتآمرة على الاسلام كالقرامطة والزنج وغيرهم وكأنها تمثل نضال الشعوب المظلومة بدعوى أن العرب مارسوا الارستقراطية فى الحكم والتسلط والتعصب وأنه قد استخدمت الامكانيات المادية فى شراء ذمم وأقلام الكتاب المثقفين الأعاجم ليكتبوا فى مثالب العرب ويشككوا فى تراثهم الحضارى ودورهم فى التاريخ .

والحقيقة أن الرابطة التى ربطت بين الحكام العرب والمحكومين من الشعوب التى دخلت الاسلام كانت فوق القبلية وكانت تقوم على العقيدة وبعد القضاء على حركة المرتدين تطابق مفهوم الاسلام والعروبة ، لقد كان تعدد الأصنام والآلهة قبل الاسلام يعنى تعدد الهوايات ولكن التوحيد وحد الهوية ، فكانت الفتوحات فى العراق والشام حروب تحرير لأراضى

عربية مغتصبة من قبل الساسانيين والبيزنطيين ، فقد اندفع أهل اليمن فى الجيش العربى لتحرير الشام لأنها أرض أسلافهم (الطبرى) أى أنها أرض القبائل اليمانية التى استقرت فى الشام منذ زمن بعيد ، وكان الإسلام منعطفا مهدا فى تبلور الوحدة ذلك أنه نادى بضرب كل دعاوى العصبية والقبلية وثبت معنى أوسع للعروبة أساسه اللغة والثقافة ، وليست العربية بأحدهم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان فمن تكلم العربية فهو عربى (الطبرى) وكان لا بد أن يمر بعض الوقت لكى يندمج الموالى فى التركيب الاجتماعى الجديد ودخل كثيرون فى الإسلام بعد اتساع الرقعة .

والواقع أن العرب هم الذين نظموا الداخلين فى الإسلام وشجعوهم على التفاعل والاندماج ، وقد غالى بعض المستشرقين ومن اتبع رأيهم من المؤرخين فى أن الاضطهاد الذى مارسه بعض الخلفاء أزاء سكان البلاد المفتوحة قد شمل العرب والموالى وإذا كان بعض أصحاب هذا الرأى يوردون الأمثلة على سوء حالة الموالى وأحتقار بعض العرب لهم فهى أمثلة شاذة وتدل على حالات استثنائية ثم أن هناك عديد من الأمثلة تدل على التعاون والامتزاج والاشتراك فى السلطة .

(راجع الطبرى ج ٩) و (الكامل للمبرد ج ٣ ص ٤١)

« اتخذ البعض من سياسة التعريب وسيلة للطعن على الأمويين لأن هدفهم كما يزعمون من هذه السياسة قصر الوظائف على للعرب وهذا خطأ وسوء فهم لسياسة التعريب التى تعنى جعل اللغة العربية لغة الدواوين والإدارة والسكة وكل من يجد فى نفسه الكفاءة والاتقان للعربية يستطيع أن يتبوأ هذه الوظائف ووقائع التاريخ تثبت أن أغلب موظفى الدواوين والمالية كانوا من الموالى الذين يتقنون العربيه ، هذا إضافة إلى أن هشام بن عبد الملك

أمر كتابه بترجمة بعض كتب اليونان والفرس للاستفادة منها فى عملية تنظيم الدولة مما يدل على تفتح العرب وموقفهم المرن تجاه نظم وثقافات الأعاجم .

(ابن النديم - الفهرست ص ١١٧)

(٧)

تواترت فى الفترة الأخيرة من القرن الرابع عشر مؤامرة انبعاث الكتابات عن الزنج والقرامطة والبابكية بدعوى أنها حركات تحررية أو حركات عدل اجتماعى قامت بذلك الدوائر الصهيونية لإفساد التاريخ الإسلامى وعاونتها دوائر الاستشراق الروسى وقد ألف عن (البابكية) من أدعى أن حركة بابك الخرمى هى انتفاضة الشعب الازربيجانى ضد الخلافة العباسية بينما هى ليست كذلك بل هى حركة هدم لما بناه الإسلام وتفتيت للصرح الذى أقامه الفكر الإسلامى يقول المؤرخ العباسى صاحب [العيون والحدائق فى أخبار الحقائق] :

لم يكن فى الإسلام حادث أضر بالإسلام والمسلمين من ظهور بابك الخرمى تلك المقالة التى تفرع منها القرامطة والباطنية .

فلما جاء هـــذا المؤلف الماركسى وكتب عن الحركة البابكية استباح لنفسه التهجم على جميع مؤرخى الإسلام بدون استثناء ولم ينج من خفيظته إلا مؤرخى السريان والأرمن والفرس والمستشرقين الأوربيين والسوفيت .

ومع ذلك فقد وجهت إلى صدره حراب كثيرة أردته قتيلا وكشفت عن زيفه وغروره وانهزمت نحلته الشعوبية .

(٨)

أشار كريمر وفان فلوتن إلى أن الفتح الإسلامى تحول إلى تسلط عربى ضد الشعوب الأعجمية ، فإن الفتح الإسلامى ما كاد يستقر ويمد جذوره إلى المناطق الشاسعة التى بلغها حتى استحال إلى عمل سياسى انشق

بسببه المجتمع الإسلامى إلى طبقتين : طبقة السادة والولاه وقسم كبير من الرعية العربية ثم طبقة الموالى وهو ذلك الخليط من الشعوب الأعجمية المغلوبة فأما العرب فإنما خلقوا ليسودوا أما غـــيرهم فإنما خلقوا لمسح الطرق وخرز الحقاف كما زعموا بأن المولى كان محتقرا فى المجتمع فلا يخاطبه العربى بالـكنية ولا يتبوأ أى منصب فى الدولة .

هذه الصورة لا أصل لها .

إن إسناد أى طبيعة أو باعث إلى أمة من الأمم لايصدق إلا بالاعتماد على بينات من الأحداث أو الوثائق المتعلقة بتلك الأمة عامة أو بالغالبية العظمى منها فلا جرم أن تصد الأحداث الشاذة والنادرة ولا تفسر إلا ضمن دائرتها الشاذة أو النادرة وحدها .

إن هناك تناقضا بين هذا التفسير الوافد وبين الأحداث التاريخية التى يفرض أن تـكون غطاء له .

(أولا) لم يثبت أن كلمة الموالى فى هذا العهد كانت خاصة بالأعاجم دون العرب ، بل كانت تطلق على كثير من العرب كما تطلق على الأعاجم بناء على أسباب لا شأن لها بالعجم والعروبة .

(ثانياً) لم نجد فى شىء من الوقائع التاريخية العائدة إلى عصر الخلافة الراشدة أو العصر الأموى ما يدل على أن العرب عموما أو غالبيتهم العظمى أو أى فئة كبيرة منهم كانت تحتقر العنصر الأعجمى أو تسعى لإبعاد الأعاجم من الوظائف النبيلة التى يجب أن لايتبوأها إلا العرب ، بل الذى رأيناه فى هذا الصدد يقرر العـكس تماما . عطاء بن أبى رباح مولى تولى أفتاء مكة وكان ينادى الخليفة الأموى فى موسم الحج (لايفتى الناس إلا عطاء) وكان طاوس بن كيسان وهو فارسى لا يبـالى أن يوبخ الخلفاء فى مجال التذكر والارشاد ، وكان واصل بن عطاء المعتزلى مولى لبنى وكان صدرا فى اللغـــة والأدب والعلم لم ينـكر فضله إنسان

وهناك مئات الموالى كلهم كانوا يتمتعون بين العرب بالجاه والمكانة فى العصر الأموى ولم يثبت أن العرب نافقوا قائلين إن الموالى إنما خلقوا لغرز الجفاف وكسح الطرق .

ومن الحقائق التى لا تقبل الريب أنهم جميعاً كانوا يقفون من هذا التآزر والتقدير المتبادل تحت مظلة من الوصية النبوية القائلة : « كلكم لآدم وآدم من تراب » . أما القضية الكبرى التى أثارها فإن فلوتن فى كتابه (السيادة العربية) عن جواز للصالحين من الأعاجم أن ينكحوا نساء العرب فى الجنة فهذه جملة مردها إلى قصة أورها المبرد فى الكامل مضعفا ثبوتها عن رجل من إعراب البادية وقد جاء جوابها من صاحب القصة نفسها دليلا على نقيض التحليل المزعوم .

١ — ساغ أن تفسير الأعرابى الواحد من جفاة البادية بالناس كلهم .

٢ — بتر الخبر عن مصدره وقطعه عن تتمته ليأخذ مظهر البحث الفقهى .

— كل ذلك من أجل أن يتيسر القول بأن الفتح الإسلامى سرعان ما تحول إلى سياسة عنصرية استهدفت بسط السيادة العربية على سائر الشعوب الأخرى ولعبث الفوارق العنصرية التى حطمها الوازع الإسلامى فى صدور المسلمين .

(محمد سعيد رمضان البوطى)

(٩)

أشار الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى إلى ظاهرة خطيرة فى تحويل مجرى التاريخ الإسلامى المعاصر ذلك هو أن وضع المتحمسين للحضارة الغربية وقيمها على قمة السلطة فى بلدان عربية كان من شأنه أن يغذى الاتجاهات الأقليمية معززة بالأساطير المحلية وهكذا أطلت برأسها الأساطير الفينقية والبابلية والفرعونيـــة والأشورية التى اختلطت دون انسجام

بالبطولات القبلية فى الجاهلية والإسلام بل وجرى توجيه التاريخ لتنسجم وقائعه مع هذه الأساطير والبطولات وجاءت بعض أجزائه مفتعلة تدس بين سطورها ألوانا من الخلط والتناقض ، وكان للشوام الذين روجوا للفينيقيين وأنكروا أى صلة لهم بالعرب بعد الحرب العالمية الأولى وبدأت تبرز الاتجاهات القومية التى أوجدها المبشرون الغربيون فى الشام وقد استغل التيار القومى لمحاربة الدولة العثمانية من جانب بريطانيا وقد تبنت بريطانيا مشروع الجامعة العربية رغبة منها فى تكفيل العرب تحت إشرافها لامتصاص تيارات السخط ضد الاستعمار ، كما جرت محاولات لكتابة تاريخ عربى عام ومترابط لم يرسم له حتى الآن حدود واضحة نتيجة للرواسب الإقليمية واختلاط تاريخ العرب بتاريخ الحضارات البائدة التى تعاقبت على الأراضى التى فتحوها وبالتاريخ الاسلامى بوجه عام وهناك اتجاه إلى التوسع فى مفهوم العروبة بحيث يشمل المنجزات الاسلامية العامة ، واعتبار معطيات الاسلام للغرب هى فضل للعرب على أوربا واعتبار البعض انتصارات صلاح الدين والمماليك والأتابكة على الصليبيين انتصارا للقومية لا للإسلام ، وقول بعض المستشرقين أن تاريخ العرب والاسلام مشدود إلى الماضى دون الحاضر والمستقبل على حد سواء .

(نقلت بتصرف)

ويرى الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أن التاريخ قد اتخذ مطية لخدمة نزعات سياسية ، وتبين اتجاهات ضرورية وأن هناك محاولات لتشكيل التاريخ الاسلامى وفق أهوائها لتحقيق أغراض سياسية حزبية وإقليمية وشعوبية ومذهبية تعسفية ، من أعداد أدعياء التاريخ وضعاف الضمائر داخل الجامعات وخارجها ممن أطلقوا على أنفسهم أسماء براقة .

ويتصل بهذا ما قام به كثيرون من تفسير التاريخ الاسلامى تفسيرا قوميا واقليميا وعربيا ، ولقد حدثت تداخلات كثيرة يجب اليقظة لها والتنبه لآثارها ومن ذلك أولئك الغرباء عن تاريخ هذه الأمة الذين حاولوا

أن يحدثوا آثاراً وهمية وتحولات كاذبة ومن هؤلاء (ايلى قدورى) اليهودى الذى ألحق بالتاريخ القومى الغربى تشويها خطيرا حين حاول أن يقنع قراءه بتعاطف الصهيونية مع الحركة الوطنية المصرية ولقاء مصطفى كامل بالصهيونى هرتزل ومحاولة الادعاء بأن الصهيونية كانت حامية للحركة الوطنية المصرية .

كذلك فقد أجمع الباحثون على أن التاريخ الذى يكتبه المؤرخون الاجانب يتسم بعدة عوامل :

(١) حجب التفسير القوى　　　(٢) خفاء المنظور الوطنى

(٣) بروز المحتوى التدميرى الذى يستهدف شخصيتنا القومية ويفقدنا الثقة بأنفسنا وهو يركز على السلبيات .

الباب العاشر

اللغة العربيّة

(١)

منذ أن بدأت حملة تطويق النفوذ الغربى لعالم الإسلام كانت (اللغة العربية) من أكبر الأهداف التى عمد الاستعمار إلى ضربها واستنقاصها ، ذلك لأن اللغة العربية الفصحى هى جزء لا يتجزأ ولن يتجزأ أبداً عن الإسلام ، وأنها اللغة السائرة دائماً فى ركاب الإسلام أينما ذهب ومن ثم استطاع النفوذ الغربى :

١ — توقيف اللغة العربية عن السير فى ركاب الإسلام .

٢ — إحلال العاميات بدلا من الفصحى .

٣ — إحلال اللغات الأجنبية المستعمرين بدلا من العربية .

٤ — الدعوة إلى ما يسمونه اللغة الوسطى المهجنة .

وقد استهدف ذلك قطع أواصرها بالقرآن الكريم وبالتراث وإهمال النحو وهبوط معانيها باستخدام العامية واستعجام نواحيها بوفرة التراكيب الأجنبية وظهر عدد كبير من التغريبيين الذين حملوا المعاول لضرب الفصحى وهدمها (سلام موسى ، لويس عوض ، . . .

كذلك فقد خلق التغريبيون انطباعات خاطئة ومرفوضة مفادها أن لغاتهم الانجليزية والفرنسية هى اللغات الجديرة بالاهتمام .

ويبدو خطر المواجهة للغة العربية فى ذلك الحصار المضروب حولها ، فى أفريقيا ، وآسيا حيث إحتلت اللغات الفرنسية والانجليزية مكاناً واسعاً ، منذ أوائل القرن ، وأمكن تحويل أبجديات عدد من البلاد الإسلامية إلى اللغة اللاتينية (اندونيسيا — تركيا . . الخ) ففى هذه البلاد الإسلامية يجرى التعلم باللغات الأجنبية ، والثقافة والصحافة والإذاعة ، وكذلك أقسام اللغات فى الجامعات تضم لغات من الانجليزية إلى الأسبانية والصينية وتسقط من الاعتبار اللغة العربية فى بلاد ذات أغلبية إسلامية ساحقة.

ذلك أن الدول الغربية تعلم أن العربية هى عنصر وحدة يلتقى عليه المسلمون

فضلا عن أنها جسر يربط بين الأفارقة والإسلام من ناحية وبينهم وبين العرب من ناحية أخرى ولذلك فقد أعلنت فى قلب أفريقيا حرب لا هوادة فيها على الحرف العربى وصفيت الكتاتيب بوصفها جيوبا وأوكاراً مشوهة . وعندما اضطرت فرنسا إلى إنهاء احتلالها الرسمى لغرب أفريقيا كانت قد جندت لاستمرار تلك الرسالة من ميلشيات مزودة بأسلحة فتاكة ونصب فى منعطف كميناً للغة العربية .

هذه المؤامرة على اللغة العربية من أخطر ما يواجه اللغة العربية فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى .

٢ — وهناك دعاة العامية فى البلاد العربية وهدفهم تفتيت هذه الأمة وإيجاد لغة خاصة لكل فئة من الأمة أو قطر من أقطارها تستعمل فى تدوين معارفهم وعلومهم وأدبهم وبالتالى لا يستطيع أى مواطن فى أى قطر أن يفهم ما ينشر فى القطر الآخر ، وهم بالجملة يسددون ضربة فى مقتل إلى اللغة العظيمة : التى هى الركيزة الأساسية فى وحدة الأمة .

يقول دكتور عبد الكريم خليفة : إن الفجوة بين اللغة الفصيحة واللهجة العامية ليست بهذه الصورة المهولة التى يحاول أعداء الأمة إظهارها أو الترويج لها وإن الخلاف بين عبارة الكتاب العلماء وبين عبارة العامة أمر جاء مألوفاً فى كل أمة لها لغة حية . ويجب أن نفرق بين وجود العاميات المختلفة فى أقطار الوطن العربى وطبيعة وجود لغة عربية محلية .

٣ — وهناك المتحذلقون الذين يدعون بالباطل أن اللغة العربية صعبة ، وهم حين يقارنون بين اللغة العربية واللغات الغربية ينسون مصاعب اللغة الفرنسية واللغات الأخرى .

٤ — وهناك دعاة أقحام ألفاظ غربية على اللغة العربية ، وهى من خطط المؤامرة ، التى واجهها المفكرون الإسلاميون بشدة فقال منصور فهمى : لو أننا تركنا للعلماء والمخترعين من أهل الصناعة فى الغرب أن يقتحموا الحواجز على لغتنا العربية لعرضناها لجحافل من الألفاظ تغمرها فتصبح هذه اللغة مهلهلة خالية

من جمال صنعتها العريقة ونسيجها المنسجم ، ولذلك ترانا أميل إلى تغليب اللفظ العربي وتسويده فى القياس وإذا أحيينا لفظاً مهجوراً طغى عليه النسيان وإننا نؤثر ذلك كله على الإسراف فى استخدام الدخيل من اللغات الأخرى .

٥ — وهناك الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية :

ولاشك أن الحروف العربية هى أصلح حروف الأبجديات قاطبة لكتابة الألفاظ ومن اكثرها دقة فى ضبط الأصوات وقد استطاعت أن تؤدى من أنواع الكتابه مالم تستطع أبجديه أخرى أن تؤديه ، وقد استطاعت الحروف العربية أن تكتب لهذه اللغات جميعاً دون تعديل أو تغيير أو إضافة فى أشكالها الأساسية ولقد استهوت التغريبيين فكرة تسهيل الكتابة العربية بالحروف اللاتينية وانخدعوا بما حققه دعاة التغريب بعد ذلك فى تركيا ، غير مقدرين الفارق بين اللغتين ، فالتركية من الأسرة الطورانية لم تكن ذات حضارة أصلية قديمة ولم تسهم يوماً فى الثقافة الإنسانية على الصعيد العالمى ، وقد بلغ ضعفها أنها وهى القوة المستعمرة الغازية للغة العربية فى دارها استعارت أبجديتها ومعظم ألفاظها لتستكمل مظهرها ودلالتها .

« هذه هى الخديعة التى مثلت العربية الفصحى باللاتينية والعامية المحلية للبلاد العربية بلغات أوربا التى تفرعت عن اللاتينية وفاتها أن اللغة العربية تعـ عن فكرة وثقافة ممتدة لأمة واحدة فى تاريخها البعيد إلى حاضرها المشرق ، وما تزال مفعمة بالحياة والقوة فى تطورها وتفاعلها لم يتوقف وهى لغة أمة واحدة ارتبطت بالتاريخ والعواطف والفكر والقيم والمصير أوثق ارتباط وفوق ذلك فهى لغة القرآن الكريم أساس الحضارة والفكر والثقافة العربية الاسلامية ، أو كما تقول عبد الكريم جرمانوس : إن للغة العربية سنداً هاماً أبقى على روعتها وخلودها هو الاسلام فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينة واللهجات المختلفة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة التى إنزوت تماماً بين جدران المعابد وكادت تنقرض .

أما اللغة اللاتنية فلم تكن لغة الغرب كله ولم تستطع التغلب على اليونانية لأن الثانية قد ارتبطت بحضارة أهلها وهى أرقى من حضارة الرومان فلما الامبراطورية شطرين كانت اليونانية فى الشرق واللاتنية فى الغرب فضلا عن أن اللاتنية كانت لغة استقراطية لايمارسها ولايمسها إلا النخبة الممتازة ولم تتغلغل فى طبقات العوام (على الحديدى) .

(٦) من أخطر مقاتل االغة العربيه محاولة كسر الشكل العربى القديم بصيحة كسر عامود الشعر ، وكسر اللغة الفصحى وذلك بهدف القضاء على الوحدة العسكرية الإسلامية التى أقامها القرآن والممتدة خلال أربع عشر قرنا فالمحافظة على قوالب اللغة أو عامود الشعر ضرورة ويمكن لجميع المعانى الجديدة أن تصاغ داخل هـذا الاطار ومن وراء تعلم اللغات الأجنبية والترجمة من اللغات الأخرى محاولات لادخال ذهنية أخرى مختلفة عن ذهنية التوحيد والقرآن . ومن الضرورى تعلم اللغات الأجنبية فى إطار اللغة الأمم حتى لاتعطى اللغة الجديدة ولاء معارضا للولاء الأصيل فقد حرص النقود الاجنبي أن ينقل فكره عن طريق لغة وأن يحقق لها ولاء فى نفوس وعقول ابناء الأمة الواقع تحت سيطرته فالتخوف من تعلم اللغة الأجنبية أمر طبيعى للغاية فاللغة ليست وسيلة للاتصال فحسب ، أنها أيضا وسيلة لنقل فكر معين وأيدلوجيات معينة أى أن تأثيرها على من يتعلمها بعيد المدى على عكس ماقد يتبادر إلى الاذهان أول مرة .

(٢)

أن محاولات التشكيك فى صلاحية اللغة العربية الفصحى لتقديم العلوم والتكنولوجيا هى من أخطر المحاولات ، ولم يعد من الجائز مطلقا أن تطرح قضية صلاحية اللغة العربية لتكون لغة العلم فقد انتهت الفترة التاريخة التى كانت تطرح فيها هذه القضية للمناقشة ، ومرت اللغة العربية بهذه التجربة وكانت دمشق أول بلد عربى إدرك أنه لابد من تعريب العلوم من أجل بناء حضارة عربية إسلامية أصيلة بعد أن أصبحت الشعوب تدرك إنه لايمكنها

الوصول إلى حد الإيداع والمشاركة الأصيلة إلا من خلال لغاتها وأن التعليم باللغات الأجنبية دليل الضعف وعدم الثقة وخمول العزيمة فى أهلها . وقد ظل التعليم فى القصر العينى سبعين سنة باللغة العربية قبل أن يحتل الانجليز مصر الذين حالوا بين اللغة العربية وبين أن تكون لغة التدريس ولابد من تعريب تدريس العلوم والطب فى العالم الإسلامى كله ، وإذا كانت الحجة هى إيجاد المصطلحات فإن ذلك قد تحقق فعلا بواسطة المجامع وليس هناك اليوم أى تعلات تقف دون ذلك فإن خريجو كلية الطب فى جامعة دمشق ليسوا أقل مقدرة ممن درسوا بالانجليزية على اجتياز الامتحانات الطبية المؤهلة للبعثات فى أمريكا بل أن الطبيب الذى يدرس الطب بالعربية اقدر على التفاهم مع مريضه .

إن السبب فى تهرب البعض من تعليم العلوم باللغة العربية هو قله الاقدام وعدم الاعتماد على النفس وهو نفس العيب الذى يقف عنده رجال القانون آزاء تطبيق الشريعة الإسلامية .

ويقول العلامة مالك بن نبي : أن استعمال اللغة الأجنبية فى تدريس العلوم بوجة خاص فى البلاد العربية هو نفسة علامة الفشل فى استيعاب تلك العلوم خارج نطاق حياتنا الفكرية بحيث تبقى الصلة بينها وبينه صلة سطحية لانغير نحن فيها شيئا ولاتغير هى فينا شيئا ، بينما نرى فى المجتمعات الحية أن هـذه الصلة تتغير يوميا وتجعل الفرد يهمين أكثر فأكثر لاعلى هضم العلوم فحسب ، ولـكن على تقديمها والسير بها قدما وقد إعادت إسرائيل لغة ماتت منذ ثلاثة آلاف سنة وإعادت لها هيمنتها على استيعاب كل العلوم والفنون والسير بها إلى الأمام ، وكما يحدث فى اليابان والصين ، وكما حدث ذلك فى حظيرة الحضارة الإسلامية عند بزوغها فإنها لم تلبث قليلا إلا وقد استوعبت فى اللغة العربية الفصحى ، فى لغة قحطان ، كل العـلوم اليونانية بـكل فروعها من هندسة وطب وفلسفة .

(٣)

ولا ريب أن اللغة العربية تراجه اليوم نفس التجربة التى واجها المسلمون فى العصر الأول حين أرادت أن لستوعب حصيلة المعرفة الإنسانية وأضحت بعدها لغة العلم والحضارة فى العالم أجمـــع عدة قرون حيث قام العلماء بتعريب العلوم ولابد أن تتم اليوم هذه التجربة مرة أخرى فهى ركن أساسى من أركان نهضة الأمة فى محاولتها اللحاق بموكب الحضارة والمشاركة الفعالة فى جميع مجالات الموفة ويتم ذلك أساس استقصاء شامل لجميع المصطلحات الأعجمية والدخيلة ووضع المقابل لها من المصطلحات العربية .

يقول دكتور عبد الكريم خليفه : وقد أرست اللغة العربية فى تجربتها قواعد وأصولا واضحة . فى اختبار الالفاظ اللغوية الدالة على تلك المعانى والمصطلحات العلمية وكان من نتيجة ذلك كله تراث لغوى وعلمى ضخم يشكل رافداً مهما من روافد أثراء هذه اللغة فى مواجهة عملية التعريب الحديثة فى أوسع معانيها ويختلف المجال اليوم عن المجال الأول عندما نشط المترجمون فى نقـل حصيلة المعرفة الإنسانية من اللغات اليونانية والفارسية والهندية والرمانية وغيرها ويتميز اللغة العربية بهذه الصفة التى لاتكاد تشاركها فيها لغة أخرى من حيث المواصلة والقدرة على التفاهم بين الماضى والحاضر .

والتراث العلمى العربى يمـدنا فى الوقت الحاضر بثروة لغوية كبيرة يمكن أن تـكون مادة خصبة من أجل استيعاب المصطلحات العلمية والنفسية الحديثة فى إطار خصائص اللغة العربية والأصوال اللغوية التى ارسلتها تلك التجربة التاريخية فى حياة هذه اللغة .

وقد وجد العلماء العرب فى الاشتقاق والمجاز والايدال والنحت والتعريب بنوعية وسائل لنمو اللغة العربية ومدها بالمصطلحات العالمية ولم يقتصروا فى الاشتقاق على أسماء المعانى بل اشتقوا أيضا من أسماء الأعيان فقالوا : ذهب من الذهب وفضض من الفضة ودرهم من الدرهم وحدد من الحديد ،

واشتقوا من أسماء الأعيان المعربة : فقالوا هندسى من الهندسة ومنطيق من المنطق والمجاز لفظ ينقل المتكلم معناه الأصلى الموضوع له إلى معنى آخر بينه وبين المعنى الأصلى علاقة وكان المجاز من انجح الوسائل فى تنمية اللغة العربية وجعلها صالحة لاستيعاب العلوم والتقنيات الحديثة وقد دخلت كنوز ضخمة إلى اللغة العربية من المصطلحات العالمية نتيجة تطويع اللغة العربية فى ذلك لكى تصبح لغة البحث العلمى والتدريس فى جميع مستوياته .

ولاشك أن الأمة لاتستطيع أن ترقى إلى مجال الإبداع العلمى إلا من خلال لغتها القومية وأن الإنسان ليستطيع أن يستوعب فى فترة زمنية محددة بلغته القومية أضعاف ما يستطيع استيعابه باللغة الأجنبية مهما كانت درجة اتقانه لهذه اللغة وبهذا وصلت الأمم فى العصر الحديث إلى دزوه ما وصلت إليه من العلوم والتقنيات الحديث .

ولا ريب أن الاستعمار والهجمات الدخيلة كانت تستهدف مناهضة اللغة العربية الفصيحة باعتبارها العامل الأصيل فى وحدة امتنا ، واستمرار وجودها وارتباط ماضيها بحاضرها بل واستشراف مستقبلها .

(٤)

من أخطر المؤامرات التى تحاك للفصحى هى الكتابة بالعامية ومحاولة اعلائها والدفاع عنها . واللهجات العامية لايمكن أن تكون لغات علم وأدب وثقافة وليس فى مقدورها أن تعيش طويلا أو أن يعم بعضها أو كلها الاقطار العربية كافة وكل مايكتب بلهجة عامية يظل محصورا فى قطره وقلما يفهمه غير أبناء ذلك القطر فإذا تدارسنا خصائص هذه اللهجات ووضعنا لكل منها قواعد وجراجة فتكون النتيجة تشويشا وضرراً . وليس من شك أن العاميات إلى هزيمة وضمور ، ولن يستطيع العاميات أن يقدم شيئا أساسيا أو خالداً فى ساحة الفكر والأدب فالفصحى هى مفتاح فهم الإسلام والاحاطة به .

الباب الحادي عشر

الفلسفات

(١)

عندما نزل القرآن كانت البشرية غارقة فى تراث وثنى مادى من أصول يونانية ورومانية وهندية وفارسية كتبها أناس من الفلاسفة ، أرادوا بها تبرير شهواتهم ومطامعهم وتجاوز حدود الله فكان أن حطم الإسلام هذه المفاهيم وكشف زيفها وحرر الفكر الإنسانى من قيود الوثنية التى كانت تأسره حول الأصنام والمعابد. وقد تجددت هذه الفلسفات بعد الإسلام بترجمة الفلسفة اليونانية وواجهها العلماء المسلمون حتى دحضوا ضلالها وكشفوا زيفها ، وفى العصر الحديث تجددت هذه الموجة بعد ترجمة الفلسفة الغربية المعاصرة التى هى وليده الفلسفه اليونانية القديمة .

وقد انحرف الفكر المسيحى الغربى إلى النظرة المادية الحسية فنشأت تلك المفاهيم الممثلة فى المدرسة الاجتماعية والماركسية والاشتراكية والتفسير المادى للتاريخ وأصبحت القاعدة الأساسية للفكر الغربى كله ، سواء الفكر الديمقراطى الليبرالى أو الاشتراكى الماركسى أو الفكر الصهيونى التلمودى القائم وراء المدرسة الاجتماعية والفرويدية والوجودية .

وقد تحول التفسير المادى للطبيعة إلى مذهب فكرى اجتماعى سياسى وأصبح التطور مفهوماً اجتماعيا بعد أن كان مفهوما علميا ، وكان أن إنتقل الفكر الغربى من خطأ نظرية الثبات الدائم التى قال بها أرسطو إلى خطأ نظرية التحول الدائم التى قال بها هيجل ، فلم تعد هناك فكرة ثبات فى النظرة المادية الغربية القائمة على نسبية الأخلاق ، والتطور المطلق والعقلانية الانشطارية التى لاتقر وجود الروح أو المعنويات أو ثبات الأخلاق أو التحول فى إطار الثبات ، وقد تسلل المذهب العقلى المادى إلى عقول المتعلمين فى المعاهد والجامعات نتجه لدراسة مذهب داردن وفرويد وغيره على أنه حقيقة علمية لا على أنه نظرية فرضية قابلة للخطأ والصواب .

وكان من نتيجة زحف هذا المفهوم المادى أن قامت نظرية العلمانية التى تفصل الإسلام عن توجيه [illegible] الفكرية والسياسة ، والتى تقول بأن

الدين هو عبادة ولاهوت وعلاقة بالله تبارك وتعالى ، بينما يقرر الإسلام أنه منهج حياة ونظام مجتمع له مفاهيمه ونظمه فى جميع مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية .

وكان من آثار هذه الموجة من الفلسفة المادية :

(١) تجاهل العامل الأول والأكبر فى الكشوف وتفسير الظواهر وهو الله تبارك وتعالى .

(٢) التحول إلى الماديات الاجتماعية : الرفاهية المادية وإشباع رغبات الإنسان إلى مرحلة الترف والتحلل والتمزق النفسى .

(٣) التحرر من كل الضوابط والحدود التى وضعتها الأديان بل وإنكار الأديان لنفسها .

وقد كان هدف جميع الفلسفات (المادية والوثنية) التى نادى بها مفكرو هذا العصر تقويض دعائم الاعتقاد بوجود إله واحد بغض النظر عن البديل المقترح :

(١) ألوهية المادة (٢) ألوهية الإنسان

(٣) الغريزة محور تفسير الوجود

ولا ريب أن الدين الوحيد الذى صفت فيه عقيدة الوحدانية من شوائب الشرك إنما هو الإسلام على حين استمد تصورات غيره من الأديان .

(١) الإله فى عرف اليهود إله قومى لهم وحدهم دون غيرهم من الأميين :

(٢) الإله فى عرف النصارى : واحد من ثلاثة .

الماركسية فى حقيقتها كما يقول (دكتور عبد الصبور شاهين) تدمير لفكرة الألوهية وربط للإنسان ومصيره بمصير المادية المحسة ، وتفسير لحركة التاريخ بعوامل ليس منها « إرادة الله » تبارك وتعالى وأن عداءها الصريح لم يتوجه فى الحقيقة إلا إلى الإنسان باعتباره معقل الفكر الدينى ، ورمز التجسيد

العلاقة بين الله الواحد والمخلوق الموحد وهى تعد أحرج حملة وجهها الفكر الحديث إلى معقل الوحدانية وإن بدت عاجزة عن تحقيق أهدافها بعد أن شاخت وبارت فى نظر كثير من المفكرين وهناك محاولة أقل غلوا، ولكنها أشد مكراً من هذه: هى محاولة الفلاسفة الوضعيين للتهوين من شأن الإسلام وحركته التاريخية ، وربما كان ذلك واضحا فى كتابات (اوجست كونت) عن الإسلام والتى جمعها تلميذه (كريسيتيان شرفيس)

وقد سلك فيها المؤلف مسلكاً تليف بالنغمة الموضوعية فقد أشبع الرجل الإسلام مدحاً وتمجيدا ولكنه لم يزد على أنه عده مرحلة كانت ضرورية كحلقة من سلسلة تطور البشرية نحو الدين الجديد النهائى (فى زعمه) الوضعية ، فهو يعتبر الإسلام مرحلة مستتبعاً أنه وليد بعض الظروف وأنه سقط كما يسقط الحق المتقادم بمضى المدة ، كيما تحل ديانة جديدة فى سلسلة العقائد التى يؤمن بها الإنسان .

وقد كشفت الأيام عن فساد تجربة الدين الوضعى الذى دعا إليه أوجست كونت وانهارت خطته وتكشف الإسلام عن جوهر خالد .

(٢)

جاء الإسلام بقيم ثلاث لم يكن لها وجود فى الحياة العربية قبل الإسلام :

(أولا) : إن غاية الحياة ليست العيش فى الدنيا إنما هى تحصيل السعادة فى الآخرة بالعمل من أجل ذلك قبل الموت ، ومعنى ذلك أن عمل الإنسان فى هذه الدنيا إنما تتحدد قيمة ماحسب مايسهم به فى تحقيق الغاية المرجوة لصاحبه فى الآخرة .

(ثانياً) : إن اتصال آثار العمل الانسانى بالاجتهاد ربط بين الدارسين برباط وثيق حتى أن الآخرة تعتبر استمراراً للأولى وربما كان العرفى الجاهلى ينظر إلى حياته على أنها سلسلة مفككة الحلقات لاترتبط بعضها

ببعض إذا بالمسلم يشعر بأن حياته فى الدنيا وحياته فى الآخرة وحدة لا تنفصم .

ثالثاً : إن الاسلام لم يقرر مسئولية الفرد فقط بل مسئولية الجماعة أيضاً فقد اعتبر أن الجماعة الاسلامية هى حارسة الدين المطيعة لمبادئه وبذلك نظم حياة الجماعة تنظيما سياسيا لم تعرفه الحياة العربية بل الحياة الانسانية من قبل فبعد أن كان العربى الجاهلى ينظر إلى نفسه على أنه فرد فى قبيلة نظر المسلم إلى نفسه باعتباره فرداً فى مجتمع يتسع بقدر ما يمتد انتشار العقيدة الاسلامية يدين بها وقد استلزمت القيمة الثالثة وهى مسئولية الجماعة أن تنشأ للإسلام مجتمع منظم على رأسه حكومة تستمد دستورها وقوانينها من تعاليم الاسلام .

وقد وقف المسلمون أزاء الفكر اليونانى عندما ترجم موقف الحذر إزاء الأسراف الذى كان يحاول أن يجعل كل شىء ذى قيمة فى الثقافة العربية الاسلامية يونانيا . لم يقبل المسلمون الآداب (الأوديسة والألياذه) ولم يقبلوا الشرائع (القانون الرومانى) وقبلوا العلوم .

أما الفلسفات فقـــد فرضت فى مرحلة الشعوبية (حكم المأمون) وعندما أريد إدخال مفاهيم الشعر والخطابة لأرسطو عن طريق عرب (قدامه بن جعفر) ورفضها الأدب العربى ، ورفض الفكر الاسلامى مفاهيم المنطق اليونانى ورفض فكر أرسطو ومذهبه ورفض تخريجات ابن سينا والفارابى وكشف زيفها وارتباطها بالباطنية (الحلاج وابن عربى) وغيرهم ورفض أبو نواس ومفاهيم المجوسية الفارسية وقد قدم طه حسين الشعوبيون والباطنون : قدامة بن جعر وابن المقفع ورسائل إخوان الصفا والأغانى .

ولقد ظهر تأثير السجع الفارسى فى الأدب العربى ، وظهر تأثير الجدل اليونانى فى الشعر (شعر المعرى وغيره) ولكنهما لم يستمرا ، وقد ذهبوا إلى أن (القياس) اليونانى بالذات (من المنطق الأرسطى) لعب دوراً هاما فى (النحو العربى) و (الفقه) و (علم الكلام) و (البلاغة) وغير ذلك

من فروع المعرفة العربية الاسلامية ، ولكن الأمر لم يكن بهذا القدر من المبالغة ، وأنه يجب التفريق بين القياس الأرسطى ، والقياس الفطرى الذى هو عملية عقلية محضة تقوم على ملاحظة النظائر ، وإدارجها تحت حكم واحد وهو موجود عند كل إنسان أيا كانت درجة ثقافته أو مرتبة تفكيره ، هذا النوع هو الموجود فى مختلف فروع المعرفة دون أن يكون له مصدر غير الفكر الانسانى نفسه ، وقد قدم القرآن منهجا فى القياس مازال خالداً ، أما مقياس أرسطو فقد سقط . (أسقط الغزالى آله الفلسفة المادية) وأسقط ابن تيمه قياس أرسطو بتقديم قياس القرآن ولقد أفسد القياس الأرسطى العلوم وجمدها وقد ظهرت سيطرة المنطق الأرسطى على علمى الكلام وآداب البحث والمناظرة وكان السبب فى قصور كل منهما عن أداء المهمة المنوطه به على الوجه الأمثل أما بقية العلوم الاسلامية فقد كانت مناهج البحث فيها من النتاج الأصيل للثقافة العربية الاسلامية ذاتها . قدمت هذه الثقافات (مادة) ورفض الاسلام (منهجها) فالثقافات الأجنبية تراث ثقافى واحد يتخذ الفكر اليونانى أبا روحيا والمسيحية دينا ويسيطر على أوربا شرقاً وغرباً : هذا التراث الذى تواجهه الثقافة الاسلامية ولم يستطيع المحدثون أن يصلوا ماضيهم بحاضرهم ، ولقنهق انفصلوا) ربما فى الشعر قد وصلوا أنفسهم بالعصر العباسى ودخلت طرق التناول والقوالب الأدبية الغربية والترجمات غير المضبوطة أو المنتقاة ، أو الترجمات التى دفعت دفعا تحت تأثير قوى النفوذ الأجنبى لتفرض نفسها على الفكر الاسلامى (وهناك أخطاء رفاعه ومحمد عثمان جلال فى الترجمة وموجه الترجمة اللبنانية) ومنذ بدأت الحملة على اللغة العربية واجهها مصطفى صادق الرافعى فى (مجلة البيان) وكانت نتيجة ذلك .

(١) فساد الأشكال الأدبية المستحدثة من مسرحية وروائية وقصة وشعر حر .

(٢) فساد مناهج النقد الأدبى الأوربى .

(٢) فساد الترجمة (٣) فساد نظرية اللغة الأوربية .

لقد كان تأثير الثقافات الأوربية المعاصرة على الثقافة العربية الإسلامية من حيث المضمون مصحوباً فى كثير من الأحيان بمحاولة فرضه فرضا عن طريق التشكيك فى القيم الأساسية التى انشأها الإسلام فى حياة المسلمين أو جعلها السبب فيما أصاب المسلمين من تخلف فى العصر الحديث على الرغم من أن هذه القيمة ذاتها هى التى كانت أساساً لتقدمهم من قبل .

القيم الأساسية للإسلام هى : قيمتان سلوكيتان والأخرى فكرية :

الأولى : جعل غاية الحياة الدنيا تحصيل السعادة فى الآخرة يترتب عليها أن تنشأن نظام تربوى وخلقى دقيق لتنظيم حياة المسلمون وسلوك الفرد

الثانى : إن الجماعة الإسلامية مسئولة عن حراسة الدين وتنظيم الحياة الدنيا وفق نظام نظام سياسى على قواعد إسلامية ، على أساس تنظيم سلوك الجماعة .

الثالث : إن حياة المسلم فى الآخرة ليست إلا استمرار لحياته الدنيا ترتب عليها أن يمتد تفكير المسلم إلى ما وراء هذه الحياة مما استلزم قيام منهج فكرى إسلامى خاص .

وقد جاءت الغزوة التعريبية مضادة لذلك فقد أقامت أسلوب للتعليم العلمانى ، وقدمت العلمانية فى مجال القانون الوضعى وفرضت الأنظمة الديمقراطية والرأسمالية والاشتراكية بديلا للإسلام .

فالمسلم العربى يتلقى ثقافة او تربية حسب نظام تربوى يستمد أكثر قواعده من فلسفات التربية الغربية التى تختلف نظراتها إلى النفس الإنسانية عن النظرة الإسلامية ويستند إلى خلقية دينية تختلف وجهة نظرها إلى النفس الإنسانية عن وجهة النظر الإسلامية وإعداد الناشىء كى يحيا الحياة التى غايتها المتعة ويستند غايتها إعداد الطفل ليكون شخصية إسلامية ولذلك اغفلت العناية بتحفيظ القرآن ورأسى المثل والقيم الاسلامية هذا بالنسبة للقيمة الأولى ، أما بالنسبة للقيمة الثانية :

فقد جعلت الجماعات فى أكثر بلاد العالم العربى تنظر إلى نفسها على أنها وحدة سياسية مستقلة بين أفرادها ، على رقعة محددة من الأرض مفهوم الوطن « الاقليمى » هنا مفهوم أو إلى خالص أو مفهوم قومى ، أما المفهوم الإسلامى للوطن فهذا مالا نجده .

ثالثاً : تنظيم الجماعة تعرض لتأثير أوربى واضح فالدساتير والقوانين التى تنظم حياة هذه الجماعات مقتبسة من الغرب ، وينظم الجماعة كثيراً مايرغم الأفراد على التخلى عن القيم الإسلامية .

رابعاً : إستعمار المثقفون فى العالم العربى قيم الفكر الأدبى وطرقه ومعانيه واستخدموا كل ذلك أساس لتفكيرهم ، ومن ذلك انبثقت دعوات مستمدة من مجالات الأدب واللغة .

ونحن بين خطرين « الانغلاق معناه التحجر والاستسلام المطلق للثقافات اللاحقة معناه الذوبان .

(٣)

إن نقطة الخطر الشديد جاءت مع ترجم الفلسفات ونشوء المدارس المتأثرة بالفكر الأغريقى وقياس أرسطو ومفاهيم أفلاطون وأفلوطين

ولقد تبين أن ما ترجم النساطرة لم يكن كله صحيحاً ولكنه كان مدخولا ، كان فيه هوى إقحام المفاهيم النصرانية ، ومن ثم اضطربت مفاهيم الفلسفة اليونانية ونشأت مدارس المشائين المسلمين : الفارابى وابن سينا ثم تبين صلة هؤلاء بالتيارات الباطنة واتصل ذلك من ناحية بإخوان الصفا واتصل من ناحية أخرى بوحدة الوجود والحلول . وظهر ذلك الخليط العجيب الذى أفسد الحياة الفكرية الإسلامية وقتاً طويلا والذى قاومه علماء المسلمين وردوه منذ اليوم الأول رداً شديداً وزيفوه حتى قام منهج أهل السنة والجماعة وشارك فى ذلك الشافعى وابن حنبل ثم الغزالى وابن تيمية وابن حزم .

وأرانا اليوم فى موقف مشابه فقد جاءت بعد مرحلة « جبرية الصوفية » محاولة

لتحرير الفكر الإسلامى من الجمود والتقليد فانطلقت على طريق العقلانية حتى جاوزته كثيرا ، وغفلت كما غفلت الحركة الأولى عن تكامل الإسلام بين القلب والعقل . وإن تجاوز المعتزلة كان انحرافا كما كان تجاوز الصوفية ولذلك فنحن فى حاجة إلى إعادة ضبط الروابط بين عناصر الفكر الإسلامى بحيث لاتتجاوز خطة التكامل الجامع ، وأن يلتقى جميع العناصر على مفهوم واحد هو أن الإسلام منهج جامع للسياسة والاجتماع والاقتصاد والأدب والعلم والتربية جميعا دون استعلاء عنصر منها ، ولقد كانت تجربتنا فى القرن الثالث الهجرى تجربة حرة انطلقت من إرادة أساسية فى الإسلام وهى الانتفاع بالصالح من تراث الأمم القديمة وتحريره من الزيف والوثنية لتكون على طريق الإسلام الذى دعا إلى العلم والحرية والنظر والدليل وهى العوامل التى أنشأت المنهج التجريبى الإسلامى ولقد بدأت حركة الترجمة إذ ذاك من الطب والعلوم ثم انحرفت إلى الفلسفات الوثنية ومن ثم فقد وقف فى وجهها علماء المسلمين وردوها ولكن التجربة الأخرى التى تمت فى العصر الحديث فقد انطلقت من خلال نفوذ أجنبى مسيطر لم يكن المسلمون فيه يملكون إرادة الاختيار فى الترجمة ولذلك فقد نقل إليهم ركام الأمم الوثنية القديمة والحديثة وترجم لهم من الفكر الغربى خليط عجيب فى عصور مختلفة وكان لا بد من مواجهة ذلك كله والنظر فيه وأعيدت الشبهات القديمة التى أثارها المعتزلة والباطنية والفلاسفة وطرحت من جديد فى أفق الفكر الإسلامى ولذلك كان لا بد من إعادة النظر فيها والكشف عن وجه الحق فيها وجرت كتابات واسعة تعلى من شأن الفلاسفة (ابن سينا والفارابى وابن رشد) ودعوة عريضة عن الدور الذى قام به المعتزلة ورثاء للمسلمين لتوقف هذه النهضة مع أن الحقيقة لم تكن كذلك مطلقا فإن المعتزلة انحرفوا أما الفلاسفة فكانوا منذ اليوم الأول فى عداد المشائين اليونان ولم يحسبوا فى ميزان الفكر الإسلامى أبدا .

ولا شك أخطأ الذين قالوا : إن الإسلام نجح فى التوفيق بين عقيدة التوحيد وبين الفلسفة اليونانية ، ذلك أن ذلك يعنى أن الفكر الإسلامى نجح فى التوحيد بين التوحيد الخالص وبين الوثنية والشرك ، كذلك أخطأ الذين

قالوا إن السنة أو الحـــديث النبوى إنما ابتكره المسلمون ، وهو وليد الحاجة والتطور الاجتماعى من السنة التزام بمقتضى الإيمان بالله تبارك وتعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

أما المعتزلة فهم كما يقـول (دكتور مصطفى الصاوى الجوينى) قوم اتخذوا للعقل منهجا هو منهجهم ثم تعسفوا فى تطبيقه ومع هذا كان لهم فضل غير مذكور ومن خطأهم اعتبروا العقل قبل الشرع (وتابعهم فى ذلك الحديث الشيخ محمد عبده) .

وقد أخطأوا حين وقفوا من ظاهر النص القرآنى موقفـين متعارضين ، الظاهر ما ساند مذهبهم وإلا رفضوه ونادوا بالتأويل وإعمال العقل التماسا لما فى رؤوسهم من أفـكار ، والحق أن خطأهم الأكـبر إنما يكمن فى اعتمادهم لمبادئهم الفـكرية اعتماداً قاطعـا باتا حاولوا به أن يخضعوا الدين — وفيه من الغيبيات قاطبة — لتلك المبادىء ، وكانت آلهتهم الأولى فى ذلك «العقل» الذين جمحوا به جموحا أوردهم مورد الشطط والتعسف مسخرين فى سبيل تلك الغاية ماوعوا من معارف ولئن كانت بدايتهم دفاعا عن الإسلام من طعنات أعدائه فلقـد كانت نهايتهم تعصبا مذهبيا لغاية التعصب وردد صـدى ذلك تأويلهم للنص القرآنى وفق نظريتهم العقلية فهم يرون أن ما وافق ظاهر معناه مبادئهم — من القرآن — فهو محكم وما لم يوافق ظاهرة أصولهم الفكرية فهو متشابه ، ورسالة التفسير عند المعتزلة هى تأويل ما لا يتفق مع مبـادئهم العقلية أى نظم معنى ما هو متشابه فى سلك ما هو محكم »

أما علماء الـكلام فقد كان خطأهم فى الحديث عن القـدر وقد نهى رسول الله نهيا صريحا عن الحديث فيه ، وكذلك الحديث عن صلة الذات الإلهية بالصفات فقد نهينا عن التفـكير فيها وأمرنا بالتفـكير فى آثارها وقد أخطأت كتب الـكلام فى التعرض لذلك واكتناه سر الألوهية من حيث الذات أو من حيث القدر فهو من المتشابه الذى نهينا عن الخوض فيه ،

قال ابن قتيبة : لقد تدبرت مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون . ويفتنون الناس بما يأتون ويبصرون الناس بالقذى الذى فى عيون الناس وعيونهم تطرف على الأجذاع ويتهمون غيرهم فى النقل ولا يتهمون آراءهم بالتأويل ومعانى الكتاب والحديث وما دعاه من لطائف الحكم ، ولو ردوا المشا كل منها إلى أهل العلم لوضح لهم النهج واتسع لهم المخرج ولكن يمنع من ذلك طلب الرئاسة .

ويقول باحث آخر : إن علم الكلام القديم وبخاصة عند المعتزلة والأشاعرة ومن جرى جريهم لم يكن يذهب إلى القرآن الكريم ليستدل به على العقائد الأساسية وإنما يذهب إليه أولا بالعقل النظرى المستقل ، فقد استند علم الكلام القديم على العقل النظرى المستقل فلم يمكنه أن يصل إلى اليقين ، وما وصل إليه غير صحيح ومن هنا فان هذا العقل ليس له أولوية على النص ، إن استناد علم الكلام إلى العقل المستقل فى أصول العقائد مع اعتباره أن العلوم الضرورية والعقل مخلوقات لله — أوقعه فى الدور الباطل الذى ظن أنه يهرب منه بهذا الاستناد .

إن أبرز أخطاء المعتزلة وعلم الكلام : « المغالاة فى قدرة العقل » .

ومن أجل هذا يتحتم :

١ — عدم المغالاة فى قدرة العقل واسقاط الفلسفة ، وإحلال البحث العلمى المنظم محلها .

٢ — تبسيط النظر فى العقيدة وتوحيد منهجه وجعله ملائما للمستويات الإنسانية كلها .

٣ — الاعتراف بالإنسان فى مجموع قواه النفسية المختلفة : إرادية وعقلية ووجدانية وتوجيه الاعتقاد إلى هذا المجموع .

٤ — البحث عن مصدر فوق الإنسان ينقذ الإنسان من الحيرة التى انشبت أظفارها فى جميع الاتجاهات وهذا يتحقق بالرجوع المباشر إلى

الأصول الشرعية اللاعتقاد فى الكتاب والسنة والسيرة النبوية .

٥ — أنه ليس من حق العقل أن يرفض أصلا من أصول الدين يدخل فى دائرة الإمكان الذهنى .

٦ — ألا يتخذ شيء مما وصل إليه العقل باجتهاه أصلا من أصول الدين ما لم يتأيد بنص صريح فى الدين .

(٤)

لقد كان القرآن والسنة الصحيحة هى الأساس فى تحريك أفكار المسلمين فيما بعد لوضع أسس التفكير النظرى على أيدى رجال الفرق المختلفة ، معارضا بذلك ما قرره بعض المستشرقين ومن وافقهم من الكتاب المسلمين من أن الفكر اليونانى والفارسى والهندى كان له الأثر الأول فى ذلك ولقد ثبت أن القرآن لم ينكر الجدل بل أقره ولكنه لم يمد فى حبله خفاظا على وحدة الجماعة ، هناك فارق عميق بين الجدل فى الدين والجدل عن الدين والثانى هو المأمور به والأول هو المنهى عنه .

ابن سينا

إن المصدر الأساسى لفهم هذا الانحراف فى الفكر الإسلامى عندما انحرف ميزان الترجمة من الفكر اليونانى من العلوم إلى الفاسفات واستدرج المأمون الروم إلى كتب اليونان الفلسفة التى كانت مدفونة عندهم فقالوا : إن إرسالها المسلمين هو أقرب طريق إلى انهيارهم .

وقد قام السريان على ترجمتها فحرفوا الترجمة للدعاية لنحلتهم فدجوا فكرا هلنسيا سريانيا نصرانيا مليئا بالسموم والجدل الدينى هو خليط من الارسطاليسية والأفلاطونية والأفلوطينية والفكر الفارسى الزرادشتى التى تركز فى جند سابور بعد أن أغلق جوستنيان أكاديمية الفلاسفة الاغريق فى اثينا ٥٢٩ فلحقوا بكسرى انوشروان فى ارس ثم توافد النساطرة المسيحيون ، كما لم يغب عن هذه الفلسفة التأثير الهندى . هذا الخليط هو الذى كان يترجمه حنين بن اسحق واولاده ويأخذ من المأمون تلقاء ما ينقله إلى

العربية ما زنته ذهبا وكان يختار لكتبه اغلظ الورق ويأمر كتابه بأن يخطوها بالحروف الكبيرة ويفجو بين السطور ومع تكبير حروف الكلمات وكان لا يتنازل فى كتابه فيستعمل التقويم الهجرى وكان يلبس اثناء عمله زناراً (هذا بينما رفض البيرونى حمل بعير من فضة من الأمير نظير كتابه الذى ما زال مرجعا عالميا عن النظائر) .

ولقد تكشف لعلماء المسلمين منذ وقت باكر هذه المؤامرة الخطيرة قال ابن القيم فى كتابه : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (ج٢ ص٢٦٢) قرب ابن سينا فذهب سلفه الملاحدة من دين الإسلام بجهده وغاية ما أمكنه أن يقربه من أقوال الجهمية الغالية فى التهجم وفى مقدمتهم أرسطو .

ويشير إلى تخليط ابن سينا فى محاولة تقريب هذا المذهب من الشرائع ، فالمعلم الأول (أرسطو) لم يثبت صانعاً للعالم البته ، فالرجل — ابن سينا معطل مشرك جاحد للنبوات والمعاد لا مبدأ عنده ولا معاد ولا رسول ولا كتاب والرازى وفروخه لا يعرفون من مذاهب الفلاسفة غير طريقه وابن رشد يحكى مذهب أرسطو غير ماحكاه ابن سينا (وكان أرسطو وزير الاسكندر) وكان أفلاطون تلميذ سقراط مثله معروفا بالتوحيد وإنكار عبادة الأصنام ، كان يقول إن للعالم صانعاً محدثاً مبدعاً أزلياً واجباً بذاته عالماً بجميع المعلومات وصرح أفلاطون بحدوث العالم وحكى عنه ذلك أرسطو وخالفه فيه فزعم أنه قديم وتبعه على ذلك ملاحدة الفلاسفة حتى انتهت النوبة إلى ابن سينا فرام بجهده تقريب هذا الرأى من قول أهل الملك قال ابن سينا : أنا وأبى من أهل دعوة الحاكم فكلانا من القرامطة (الباطنية) الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد ولا رب خالق ولا رسول مبعوث وكان هؤلاء زنادقة يبشرون بالرفض ويبطنون الإلحاد المحض وينتسبون إلى أهل بيت الرسول لا يحرمون حراما ولا يحلون حلالا وفى زمنهم ولخواصهم وضعت رسائل إخوان الصفا وهم لا يعرفون الملائكة ولا يؤمنون بهم والملائكة عندهم ما يتصوره النبي بزعمهم فى نفسه من أشكال نورانية وربما تقرب بعضهم إلى الإسلام ، فقال الملائكة هى القوى الخيرة الفاضلة التى فى العبد والشياطين وهى القوى الشريرة الرديئة .

ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك (النصير الطوسى) وزير هولاكو شفا نفسه من اتباع الرسول وأهل دينه فعرضهم على السيف حتى شفى إخوانه من الملاحدة ، واشتفى فهو قاتل الخليفة المستعصم بالله آخر خلفاء بنى عباس قتل بمبالاة العلقى الرافض وزير المستعصم وكان نصير الدين الطوسى قاضى التتار ومشيرهم.

وقد استبق (نصير الطوسى) الفلاسفة والطبائعيين والسحرة ونقل أوقاف المساجد والربط إليهم وجعلهم خاصة أوليائه ونصر فى كتبه قدم العالم وبطلان المعاد وإنكار صفات الرب جل جلاله واتخذ للملاحدة مدارس ورام جعل إشارات إمام الملحدين (ابن سينا) مكان العلم فلم يقدر على ذلك فقال هى قرآن الخواص ، وذاك قرآن العوام ورآم تغيير الصلاة فلم يتم له الأمر .

وقد صارع (الشهرستانى) ابن سينا فى كتابه (المصارعة) فأبطل قوله بقدم العالم وإنكار المعاد فقام له نصير الإلحاد ونقضه بكتاب سماه (مصارعة المصارعة) قال فيه إن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض فى ستة أيام وأنه لا يعلم شيئا وأنه لا يفعل شيئا بقدرته واختياره ولا يبعث من فى القبور ، والفلسفة التى يقررها اتباع هؤلاء مأخوذة عنه وعن إمامه ابن سينا وبعضها عن الفارابى وشىء يسير من كلام أرسطو والذى عند مشركى العرب أهون منه ، يثبتون لواجب الوجود لا صفة ولا بعث ولا فعل ، لم يخلق السموات والأرض من عدمهما ولا له قدرة على فعل ولا يعلم شيئا وعباد الأصنام يثبتون ربا خالقا مبدعا عالما قادرا حيا ويشركون به فى العبادة .

أما ملاحدتكم من أهل التعطيل المحض فانهم عطلوا الشرائع وعطلوا المصنوع عن الصانع وعطلوا الصانع عن صفات كماله وعطلوا العالم عن الحق الذى خلق له ربه ثم سرى هذا الداء منهم فى الأمم وفى فرق المعطلة .

ولما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الالحاد سلط عليهم القرامطة الباطنيين (العبيدون المدعون كذبا أنهم فاطميون) دخل عبد الله المغرب وكان جده يهوديا وكان باطنيا خبيثا حريصا على إزالة ملة الإسلام أعدم الفقه والعلم ليتمكن من إغراء الخلق ، وجاء أولاده على أسلوبه فأباحوا الخمر والفروج وأشاعوا الرفض وبثوا دعاتهم فأفسدوا عقائد جبال الشام كالنصيرية والدروزية وكان القداح كاذبا مخرقا وهو أصل دعاة القرامطة (النجوم الزاهرة ج ٤) واستولوا على الشام والحجاز واليمن والمغرب وخطب لهم على منبر بغداد .

وكان الحاكم منصور بن العزيز بالله العبيدى الثالث من الخلفاء الكذبة الفجرة العبيديين المغاربة المتغلبين على مصر ، ادعى الألوهية ونقل من العلماء ما لا يحصى وكتب على المساجد والجوامع سب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وجماعة من الصحابة وهو الذى يعبده الدروز فى لبنان والاسماعيلية فى الهند) هذا الداء لما دخل فى بنى إسرائيل كان سبب دمارهم وزوال ملكهم ثم بعث الله سبحانه عبده ورسوله وكلمته المسيح بن مريم فجدد لهم الدين ودعاهم إلى عبادة الله وحده فعادوه وكذبوه ثم استقـام الدين المسيحى ثلاثمائة سنة ، ثم أخذ فى التبديل والتغيير حتى تناسخ واضمحل ولم يبق بأيدى النصارى منه شىء بل ركبوا دينا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عبدة الأصنام وراموا بذلك أن يتلطفوا الأمم حتى يدخلوا فى النصرانية فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى عبادة الصور التى لا ظل لها ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والابن والروح القدس ، وهذا ومعهم بقايا من دين المسيح كالختان والاغتسال من الجنابة وتعظيم السبت وتحريم الخنزير وتحريم ما حرمته التوراة إلا ما أحل لهم بعضها ثم تناسخت الشريعة إلى أن استحلوا الخنزير ، وأحلوا السبت وعوضوا عنه الأحد وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة وكان المسيح يصلى إلى بيت المقدس فصلوا إلى الشرق ، ولم يعظم المسيح صليبا قط ، فعظموا

أهل الصليب وعبدوه ، وتعبــدوا بالنجاسات ، وكان المسيح غاية فى الطهارة قصدوا بذلك تغيير دين اليهود فغيروا دين المسيح وتقربوا إلى الفلاسفة وعباد الأصنام بأن وافقوهم فى بعض الأمر ليرضـوهم وليستنصروا بهم على اليهود ، واجتمعوا عدة مجامع تزيد على ثمانين مجمعا ثم تفرقوا على الاختلاف والتلاعن يلعن بعضهم بعضا .

قال أريوس : إن الأب كان إذ لم يكن الابن ثم أحدث الابن مكان كلمة له إلا أنه محدث مخلوق ، وقد استحسن الملك قول بطريق الاسكندرية ورفض مقولة أريوس وبطرس منع أريوس من دخول الكنيسة وتعددت واختلفت .

وقال بولس الرسول ربنا هو المسيح وهى مقالة الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا » . . وذهب أريوس يدعو إلى مقاله وينفر النصارى من الثلاثمائة والثمانية عشر فجمع مجمعا عظيما كانت مقالة أريوس أن روح القدس مخلوق مصنوع وليس بإله ردد أريوس كلمة المسيح « كل بيده كان ومن دونه لم يكن شىء » انتهى كلام ابن القيم) .

(٤)

ويقول ابن القيم عن أرسطو : ليس فيهم من يقول بقدم الافلاك غير أرسطو وشيعته فهو أول من عرف أنه قال بقدم هذا العالم وكان مشركا يعبد الإصنام وله فى الإلهيات كلام كله خطأ من أوله إلى آخره وقد يعقبه بالرد عليه طوائف المسلمين حتى الجهمية والمعتزلة ، أنكر أن يكون الله سبحانه يعلم شيئا من الموجودات ، بأنه كان يلحقه التعب والكلال من تصور المعلومات وقال إن المنطق ميزان المعانى وقد بين نظار الإسلام فساد هذا الميزان وعوجه وتعويجه للعقول وتخبيطه للأذهان وصنف فى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية ، درجت الملاحدة على أثر هذا المعلم الأول حتى انتهت نوبتهم إلى معلمهم الثانى (أبو النصر الفارابى) الذى توسع فى صناعة المنطق وبسطها ، وشرح فلسفة أرسطو وهذبها وبالغ فى ذلك وكان على

طريقة سلفه فى الكفر بالله تعالى الله سبحانه وتعالى عما يقولون وهو عندهم كما قرره أفضل متأخريهم ولسانهم وقدوتهم الذين يقدمونه على الرسل (أبو على بن سينا) هو الوجود المطلق بشرط الاطلاق ، وليس له عندهم صفة ثبوتيه تقوم به ولا يفعل شيئاً باختياره البته ، ولا يعلم شيئاً من الوجود به اصلا ، ولا يعلم عدد الافلاك ولا شيئاً من المغيبات ولا له كلام يقوم به ولا صفة (تعالى الله عما يقولون علوا عظيما) .

هذا خيال مقدر فى الذهن وليس هو الرب الذى دعت اليه الرسل وعرفته الأمم (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) .

هذا أرسطو وابن سينا الذى حشدت له قوافل التغريب أقلامها وأولته إهتماما زاد عن اهتمامهم بأعظم العظماء فكتب فيه طه حسين ولطفى السيد والعقاد وغيرهم وأولته اهتماما كبيرا المدرسة العقلية الحديثة وكرمتهما تكريما شديدا بينما حملت حملة ضارية على الغزالى وابن تيمية بل لقد بلغ ببعض المثقفين أن يقول إن ابن سينا « مؤمن بدين الإسلام عن حمية واقتناع وأنه ليس تابعا لأفلاطون ، والحقيقة أننا فى أمر ابن سينا والفارابى والرازى ، نأخذ بالتقدير جوانب من الفارابى وابن سينا ، والرازى هى جوانب الطبيب والعالم أما الفيلسوف فهى مضطربة اضطراباً شديداً ولا نأخذ بها .

(٥)

كان الفارابى متابعا للفكر الإغريقى بخلفية واضحة هى التبعية للباطنية ولقد رفض العلماء المسلمون نظرية المدينة الفاضلة ، وأعلن ابن خلدون أنه لم يعقلها ، ومن الملاحظ أن الانتقادات الهامة للفارابى تظهر واضحة فى كتب الفقهاء المالكيين فى شمال أفريقيا وتظهر فى الاعتصام للشاطبى وتظهر فى ذخيرة الأحكام لابن فرجويه الذى رفض فكرة السياسة العقلية التى تسود فكرة المدينة الفاضلة عن الفارابى ولا شك أن الاتجاه السلفى من قبل عند ابن تيمية وعند ابن القيم فى كتبهما السياسية قدسبقت مدرسة المغرب

المالكية فى هذا العمل ؛ وكذلك انتقده ابن الأزرق (شمس الدين محمد على) فى كتابه (بدائع السلك فى طبائع الملك) المتوفى ٨٩٦ .

والمعروف الآن أن الفارابى ذهب فى سن الخمسين إلى بغداد حيث درس على يوحنا ابن جلال من قبائل الرهبان ، درس تراث جند سابور وحران ومرو والرهبان الذى إنتقل إلى بغداد وهو بذلك أول رجال المدرسة الاسكندرية أو شيخ الأفلاطونية الحديثة فى العالم الإسلامى وكان أفلاطونى المذهب على رأى سقراط وأفلاطون ، ولقد كانت جند سابور حيث عاش صابئة الحرانية هى الملهمة الكبرى للكندى كما كان لهم أثر فى الرازى (محمد ابن أبى بكر) هؤلاء الصائبة الحرانية كانوا فرقة أفلاطون اساسا ، وهم الذين يؤمنون بالدين اليونانى القديم فروا إلى فارس بعد تنصير الملوك . وانشأوا مدينة فاضلة احتذاها نظريا الفارابى وطبقها عمليا (حمدان قرمط) الصابئ الحرانى ونفذها اتباعه فى مدينة (هجر) والصابئة الحرانيون مشغولون بعلم الكيمياء وعلم الصنعة يزاولون السحر والتنجيم وحران هى مدن (الفارابى الأول) فيها كل خصائص الفارابى وإخوان الصفا ومدرستها الاشرافية والفارسية عن السهروردى متأثرة بنظرية الفارابى فى الفيض .

اما ابن سينا فهو كبير مقلدى ارسطو والمتمم لفلسفة المشائين الذين هم شيعة ارسطو ، قرا الإسلام من خلال نظرة يونانية وجرى على طريقة ارسطو فى كتاب « الشفاء » .

وقد اخذ ابن سينا أفكار الفارابى ووسعها وشرحها وفصل القول فيها وكتابه الإشارات والتنبيهات ، هو الكتاب الذى قراه جمال الدين الأفغانى على تلاميذه وتأثر به الشيخ محمد عبده وعباراته فى هـــذا الكتاب عن التجريد والبهجة والسعادة ومقامات العارفين واسرار الآيات هى عبارات لا يعرفها امل السنة ، مثل قولهم (اتصال بالعالم العلوى هو عشق وشوق مستمران ، أو ان الوسيلة لإدراك السعادة هى الدراسة والبحث والنظر

والتأمل ، أما الأعمال البدنية والحركات الحسية (كالصلاة) فهى فى المرتبة الثانية .

وابن سينا أميل من أستاذه (الفارابى) إلى متصوفة القرن العاشر أمثال الجنيد والحلاج ولا سيما وكتاباته مملوءة بمصطلحات الصوفية وألفاظهم الفنية فهو يردد كلمات الزهد والوجد والوقت ويبين حقيقة المريد والعارف والعابد ، ويحلل بعض العواطف النفسية كالعشــق والغرق التى شغلت كبار متصوفى المسلمين ، وكذلك حديثه عن العقل الفعال والإشراق وكذلك يتحدث عن الاتحاد المزعوم بين الخالق والمخلوق ، وتصوف ابن سينا لا يختلف عن تصوف الفارابى فى شىء وتقاربهما يوحى بالمصدر والحلقة التى ظهرت فيما بعد على إيدى الباحثين وهى الاتصال بالباطنية ويضاف إليهما من ناحية ابن ماجة وابن طفيل وابن رشد فى المغرب فابن طفيل فى روايته (حى بن يقظان) يحاول أن يثبت أن القوى الإنسانية وحدها تستطيع الاتصال بالله بدون النبوة .والفلاسفة يرون ذلك ولا ريب إن هذه المعانى كلها مخالفة للتوحيد الخالص ولمفهوم أهل السنة والجماعة .

فالتفسير الباطنى الفلسفى والمعتزلى يسير فى طريق واحد وهو ما يجدده بعض التغريبين والشعوبيين فى العصر الحديث ، كما فعل أحمد أمين بالنسبة للمعتزلة ، حيث اعتبر إن هزيمتهم كانت نكسة تاريخية وضرراً بالفكر الإسلامى وعاملا من عوامل التخلف والجمود ، أو كالناعين على الغزالى لأنه أغلق باب الفلسفة الوثنية اليونانية التى تسمي عندهم علم الأصنام ويرى أمثال فاروق الدملوجى فى كتابه هذا هو الإسلام ، يناصر المعتزلة أو محجوب بن ميلاد فى كتابه (فى سبيل السنة الإسلامية) أو الدكتور أحمد ابو شادى فى كتابه (ثورة الإسلام) وتنويهه بإخوان الصفا وإسلام المعتزلة .

وكذلك زهدى جار الله فى كتابه المعتزلة ، هذا بالإضافة إلى إحياء أصحاب العشق والمحون واللهو والعبث ممن أطلق عليهم عصبة المجان كما

فعل طه حسين فى حديث الأربعاء وجرجى زيدان فى التمدن الإسلامى وكذلك أخطأ الدكتور مصطفى محمود فى إشارته بأمثال ابن عربى وابن الفارض فى كتابه (السر الأعظم) .

وقد غذى هـذا الإتجاه المستشرق (لويس ماسينيون) الذى أحيا تراث الحلاج وأمضى أربعين عاماً فى البحث عنه .

ولقد مضت بعض هذه الدراسات فى العصر الحديث دون أن يكشف عن الهدف الخفى المستتر ورائها والذى تقوم عليه جماعة التغريبين التى ترى إن بعث الفلسفات الوثنية والمادية والباطنية مره أخرى من شأنه أن يمزق مفهوم التوحيد الخالص .

ومن ذلك كان إحياء رسائل إخوان الصفا الذى قام به الدكتور طه حسين وكيف أثرت هـذه الرسائل على مجموعة من مثقفينا حتى وجد من يظن أنهم على طريق الإسلام دون أن يتنبهوا إلى مصدرها الحقيقى وهدفها الأصيل .

ولعل أول وجـه للشبهة هو : لماذا أخفى هؤلاء الباحثون أسمائهم إذا كانوا خالصين مخلصين لوجه الإسلام الحق ولما ظهرت أسماؤهم . (أحمد بن عبد الله ، أبو سلمان محمد بن نصر ، زيد بن رفاعه ، أبو الحسن على) تبين أنهم كلهم مجاهيل لا تاريخ لهم وليس لهم فى الفكر الإسلامى رصيد وإنما هم جماعة من الباطنية والمتآمرين على الدولة الإسلامية والذين كانوا يمهدون للقرامطة والزنج ويتحدث عنهم أمثال الحلاج . ومن فساد قولهم أن الشريعة دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولاسبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال .

وكانوا يضمرون استغلال هـذا الهدف وصولا إلى إسقاط الدولة

الإسلامية وقد وجد أن كثيراً من مصطلحات الفارابى وابن سينا كانت تتحدث عن هذه الأسرار التى كانت رتبتها الباطنية فى إتباعها جرياً وراء هذا الهدف ومن ذلك (العارف والعقول العشرة وغيرها) .

واليوم يحمل لواء ابتعاث هـــذه المفاهيم علمانيون وثوريون وماركسيون وقوميون واشتراكيون لنفس الهدف .

ولم يقف الهـــدف عند تبعية ابن سينا والفارابى والرازى فقط كان ابن مسكويه فى كتابه (تهذيب الأخلاق) لا يمثل المفهوم الإسلامى القرآنى الأصيل وإنما يمثل المفهوم الوافد من الفكر اليونانى وقد تأثر مسكويه فى رأيه فى الأخلاق باليونان وخاصة فى مفهوم الإعتدال والوسط وتأثر بهذه الفكرة فى شقه الأول بأفلاطون فى جمهوريته وفى شقها الثانى بأرسطو فى كتابه الأخلاق إلى (تيفونا خوس) .

ولقد كان موقف الغزالى من أصدق المواقف فقد هدم شبهاتهم فى قدم العالم ، وفى معرفة الله وفى البعث . أما ابن تيمية فقد هدم منطق أرسطو وكشف عن أن الإسلام لم تقبله وإنما قبل منطق القرآن فى كتابه (الرد على المنطقيين) أو نصيحة أهل الإيمان فى الرد على منطق اليونان يقول الدكتور عبد اللطيف محمد العبد : كان نقد ابن تيمية أول نقد تعرفه الحياة العقلية الإنسانية فى نقد المنطق الإرسطى نقداً منهجيا يقوم على العقل وحده وقد كان نقد منطق إرسطو قبل نقد ابن تيمية موزعا فى الكتب المتعددة ومن المعـــلوم إن (المنطق الإسلامى التجريبى) هو الروح الحقيـــقى المميز للحضارة الإسلامية بالإضافة إلى أنه قد انبثق جوهرة عن علم إسلامى أصيل هو علم أصول الفقه ، وكان للمسلمين الفضل الكبير فى الكشف عن أصول المنهج التجريبى كما كانوا أول من تنبه فى تاريخ رواد الفكر الإنسانى إلى جوهره واتخذوه أساساً لحضارتهم وبهذا كانوا أساتذة الحضارة الأوربية .

لقد كان انبثاق المنطق اليونانى عن العقل وحده — أعنى العقل اليونانى المجرد وتوهم الدارسون لمدة طويلة أن المنطق اليونانى معصوم من الخطأ — ولكن جاء علماء المسلمين مستندين على كتابهم الكريم وسنة نبيهم العظيم لحطموا هذا الفكر المألوف وأقاموا فكراً إسلامياً شامخاً . وفى هذا يقول ابن تيمية :

إنى كنت دائماً أعلم أن المنطق اليونانى لا يحتاج إليه الزكى ولا ينتفع به البليد ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأينا من صدق كثير منها ثم تبين لى فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه » .

ويعبر (منطق القرآن والسنة) عن روح الإسلام وجوهره فى أصالة وجلال ، فكما أن المنطق اليونانى يعبر عن خصائص اللغة اليونانية التى تخالف لغة القرآن ولغة المسلمين وأنه تطبيق المنطق اليونانى على الدراسات الإسلامية أدى إلى تناقضات عدة :

من أجل هذا وضع الإمام الشافعى منطقاً جديداً بكتابة علم أصول الفقه حتى يقول أحمد بن حنبل : لم نكن نعرف العموم والخصوص حتى ورد الشافعى .

وأصبح القياس الأصولى هو الحجة عند الشافعى وعلماء الأصول المسلمون الذين رفضوا الميتافيزيقيا اليونانية لأنها مخالفة لإلهيات المسلمين ولقد أنكرت الصوفية العقل كأداة ، ورأى المتكلمين أن طرائق المعرفة لدى الصوفية هى تجارب ذاتية لا تصلح قاعدة أو منهجاً للحياة .

والغزالى مزج المنطق اليونانى بعلوم المسلمين وكان ذلك موضع نقد ابن تيمية الذى كان غير راض عن طريق الغزالى فى الأصول لأنه خلطه بالمنطق والجدل وممن هاجم الغزالى الطرطوشى والماوردى وابن الصلاح وابن تيمية والنواوى ، أما ابن تيمية فقد نقد المنطق الارسطى وهدمه هدماً قوياً

فذهب إلى أنه من الخير للإسلام أن لا يستعمل فى علومه هذه المصطلحات فى الفلسفة والمنطق التى لم يعرفها السلف الصالح .

وينكر ابن تيمية إستطاعة (الحد) فى المنطق الأرسطى الوصول إلى كنه الشيء أو ماهيته ؛ ويرى ان عمل الحد ووظيفة التمييز بين المحدود وغيره .

أما تصور المحدود فلا يستطيع الحد القيام به فالحد عنده مجرد شرح للفظ وعلى ذلك سار جميع المناطقة . ويرى أن القرآن هو كتاب الوجود عند المسلمين وهو الذى يمدنا بصور الاستدلال أو هو الذى يقدم لنا الميزان ويقدم لنا الأقيسة البرهانية كقياس الأولى أو قياس الاية أو العلامة .

كذلك فقد دعا ابن تيمية إلى تحكيم اللغة العربية فى فهم النصوص وعدم الخروج عما كان يفهم أو يعرفه الصحابة الذين نزل القرآن بلغتهم من دلالات الألفاظ والتراكيب ، وفى هذا قضاء على التأويلات الباطنة والتفسيرات البعيدة التى لا توافق بحال أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم فلا غرابة إذاً أن نجـــد صعوبة فى الترجمة والتعريب للألفاظ والتعابير الدينية الصرفة .

(٥)

كذلك ولقد كان الفكر الباطنى من آثار ترجمة الفلسفة اليونانية (الحلاج والسهروردى والبسطامى وفلسفة الاشراق وإخوان الصفا) وقد نشأ فى أحضان ابن سينا والفارابى أساساً فالفارابى فى تفسير النبوة يقوم على أساس تعاليم الباطنية فقد استقى الباطنية النظرية من مصدر واحد هو جمهورية أفلاطون وفلسفة أرسطو . وقد كان لاتباع هذه النظرية تبعتهم الواضحة فابو البركات البغدادى صاحب كتاب المعتبر فى الحكمة هو يهودى اعتنق الإســلام وتوفى ٥٦٠ ﻫ وابن مسكويه اتصل بابن العميد ثم بعـلاء الدولة الديلمى .

ومن قولهم إن لآيات الله ظاهراً وباطنا وأن هذا العلم الباطن لايعلمه إلا الأئمة القائمون منهم والغائبون وأنهم المهيمنون على التأويل ، والقول بأن القرآن كتاب له ظاهر وباطن فهو كتاب مستور محجوب عند الجمهور ، وهناك شبهه إن سورا حذفت من القرآن وهذه كلها أكاذيب .

ويرى دكتور محمد على أبو ريان إن الباطنية والسهروردى أخذا من مصدر واحد هو الأفلاطونية المحدثة المتأثرة بالتراث الشرقى .

وقد عنى المستشرقون عناية كبرى لهؤلاء الفلاسفة الزنادقة : السهروردى وابن الراوندى وابن عربى والحلاج كما عنوا فى مجال الأدب بأبى نواس وبشار وركزوا على الفئات المنحرفة والخارجة والمرفوضة فى مجتمعها وفى كل عصر ووصفوها بالتجديد والتقدم والثورة وخاصة الزنج والقرامطة والباطنية .

وكان هدفهم رفع شأن كل تابع للفكر اليونانى أو الفارسى أو المجوسى والاشادة به ، أما ماسنيون فقد عنى بالحلاج عناية بالغة فأمضى أربعين عاما يبحث عن إثاره خيطا خيطا فنقلها من عشرات المؤلفات وضمها . وكان فى ذلك مبالغا كاشفا عن هويته التغريبية فى إعاده بث هذه السموم مرة أخرى فى مؤلفات تطبع ليقرأها العهد الجديد بعد أن رفضها وسفهها وكشف زيفها أهل عصرها ، وكان لهذا أبعد الأثر فى الباطنية والشعوبية التى ظهرت فى الشعر الحديث أمثال صلاح عبد الصبور والسياب والبياتى وأدونيس ومدرسة الحـــزب القومى السورى صاحب الدعوى إلى إحياء فينيقية وعشتروت وجلجامش .

(٦)

ولقد عرض الدكتور محمود قاسم رحمه الله إلى سوأة ماسنيون فى الكتابة عن الحلاج فقال :

ادعى ماسنيون أن الحلاج جاء يبشر بدين المحبة ، ويحكم الله فى القلوب

فضحى بحياته حتى يدعو الناس إلى (ما أسماه) السمو عن حرفية الشرع وقشوره التى حجبت عنهم لبه وجوهره .

قال ماسنيون أن الحلاج اعتمد فى تصوفه على بعض العناصر الإسلامية كهبوط آدم وإسراء الرسول وهو يرى أن هذين العنصرين لهما أثرهما العميق فى بناء نظرية الصوفية التى يعرفها فى كتاب (الطواسين) أى فى طاسين الأزل ، وهو يجعل (العرفان) أرقى مرقبة للسمو الروحى ابتداء من أول مرتبه فيه وهى طاسين السراج (إيماء إلى الشريعة المحمدية) ويعترف ماسنيون ضمنا بأثر الفكر اليونانى والفكر الفارسى فى العصر الذى عاش فيه الحلاج ولم يكشف ماسنيون بوضوح تلك العناصر اليونانية والفارسية مع أنها هى العناصر الجوهرية التى يدور حولها مذهبه وقد تبين أنه كان من أشد الناس تأثراً بفلسفة (القرامطة) وهى فلسفة باطنية فى جوهرها . ولد فى البيضاء ٢٤٤ وأقام فى وسط بين بغـــداد والبصرة فلما قامت ثورة الزنج ترك واسط ٢٦٠ وذهب إلى الأهواز لكى يتتلمذ على (سهل بن عبد الله القشرى) مدة سنتين ثم سار إلى بغداد على قدميه ماراً بالبصرة . فى الوقت الذى كانت ثورة الزنج تجتاح هذه المنطقة فى بغداد لقى بعض الصوفية (عمر بن عثمان المكى والجنيد) وقد وجه إلى الجنيد سؤالا لم يجبه عليه الجنيد ولهذا السؤال مغزاه لأنه يرتبط ارتباطا شديدا بمذهبه الصوفى وهو (ما الذى يصير الخالق عن رسوم الطبيعة) الأصول ويفهم هذا السؤال على ضوء التأثير المزدكى والدعوة إلى تأويل العبارات على طريقة القرامطة بأنها مجرد قواعد تنظم للحياة الاجتماعية ورموز يمكن تأويلها .

روى أن الحلاج مر على الجنيد فقال له : أنا الحق فقال له الجنيد : أنت بالحق ، أية خشبة تلد فتحقق منه ما فيه ، قال الجنيد أنه صلب بعد ذلك وتبرأ ابن عثمان المكى من الحلاج لأنه كان يقول يمكننى أن أقول مثل القرآن وكان الحلاج يعنى ما يقول فقد ألف كتاب الطواسين يعارض به القرآن وهذا ما أشار اليه محى الدين بن عربى فيما بعد فى كتابه (الفتوحات المكية)

وقد تابعه عمرو بن عثمان فى تستره وكشف خبيثته . قال أحمد بن الجلا
أن أباه تركه هو وأمه خمس سنوات فى الوقت الذى بدأ فيه القرامطة نشاطهم
الحرفى فذهب إلى خراسان وما وراء نهر جيحون ودخل إلى سجستان وكرمان
ثم عاد يدعو إلى الله وهذه الدعوة تقترن بتاريخ الثورة الكبرى التى قام بها
القرامطه ٢٩٠ هـ ويضيف ابن كثير فى (البداية والنهاية) أنه ثبت أن الحلاج
دخل الهند وتعلم فيها السحر .

سموه (بالغيث ، المميز ، الزاهد ، صلاح الأسرار ، المصطلم ، المحير)
وكان الحلاج يتلون فى ملابسه فيلبس لباس الاجناد ، لباس صوفيه ، ويتجرد
أحيانا فى ملابس زريه (البداية والنهاية) وصفه ابن الجوزى فقال : كان الحلاج
متلونا تارة يلبس المسوح وتارة يلبس الدراعه وتارة يلبس القباء وهو مع كل
قوم على مذهبهم أن كانوا أهل سنة أو رافضه أو معتزلة أو صوفية أو فساق أو
غيرهم (يقول الدكتور محمود قاسم فى بحثه بمجلة الاصالة عام ١٩٧٨) ولنا أن
نضيف أن مسلك الحلاج فى تغيير اسمه ومهنته ومعتقده يتسق مع مادرج عليه
دعاة الباطنية من القرامطة والاسماعلية من تغيير أسمائهم ومعتقداتهم ظاهريا
باختلاف المناطق ، التى يرتادونها تمهيدا لظهور صاحب الزمان أى صاحب
دولة الفاطميين ثم لظهور صاحب القيامة الكبرى ، وتتلخص تلك القيامه الكبرى
فى نسخ الشرائع وادعاء الألوهية بعد استقرار هذه الدوله . ثم قصد الحلاج
مكة للمره الثالثه وجاور سنتين وأدى فريضه الحج ٢٩٥ ويقال أنه قلد الرسول
فخطب خطبة الوداع على جبل عرفات فى تلك السنة (البداية والنهاية) ثم عاد
من مكة متغيرا ويفسر ماسنيون هذا التغيير بان الحلاج وصل إلى مرحلة
(عين الجمع) وهى المرحلة التى يستحوذ فيها الصوفى على الذات الالهية فى
أعماق نفسه دون أن تنمى شخصيته وأفعاله الارادية ، وتلك مرحلة أسمى
من مرحلة العبادة الشرعية والوجد الصوفى (فى تقديرهم) واستقر فى بغداد
فى حى التستريين على الشاطىء الأيمن لدجله واستمال إليه قائدين

وكثيرا من العامة وادعى الألوهية وقال بعضهم أنه مجنون وقال آخرون بل له معجزات .

ما هو مصدر هذا الثراء المفاجيء : السؤال : هل سلك الحلاج مسلك صاحب الزنج فى جمع هذا المال أو اتبع منهج شيخ القرامطه من المنتمين إلى المذهب ، أم كان هذا المال يأتى عن طريق الاحتيال على البسطاء بأساليب السحر التى كان قد تعلمها فى الهند فقد قيل أن الحلاج كان يستخرج الدنانير من الأرض وكان يجدها تحت وسادته أو يقبضها بيده من الهواء ولا شك أن معجزات الحلاج وكراماته وحيله ترشد إلى مصادر ثروته ومن حيل الحلاج دخول معبد المزدكيه وأطفاء الشمعة وايقادها نظير فتح صندوق النذور وأرسل أحد أصدقائه إلى قرية ثم أدعى فقد بصره ومر عام ثم أعلن أنه رأى فى المنام رسول الله يخبره بأن رجلا سيمر بالقرية يرد له بصره وجاء الحلاج وتمنع ، ثم مر عليه بصره فرأى وقد حصل الشيخ المحتال على آلاف من الدنانير اقتسمها مع الحلاج ويقول صاحبه (أبو منصور اليماق) عندما مر به وهو مصلوب :

علمت كما علمنا وبحت وكتمنا فصلبت ونجونا) ويتساءل الدكتور محمود قاسم : ما الذى كان ينبغى أن يخفيه الحلاج حتى ينجو :

ويقول أن من يدرس مذهب الحلاج فى كتابه الطواسين وفى ديوان شعره وفى رسائله يفاجيء بكثرة ما يحتوى عليه المذهب وتلك الكتابات من معتقدات تجدها عند القرامطة والباطنية والاسماعلية بصفة عامة ، قال ماسنيون : أنه كان يعتمد فى وعظه على مجموعة من الرموز الذى أخذها من القرآن (كالقلم واللوح المحفوظ والسماء والطارق والنجم الثاقب وهى الرموز الذى كان يستشهد بها دعاة القرامطه وأشار إلى أن الحلاج يشبه القرامطه فى أنه كان يدعو مثلهم إلى دين عالمى وماسنيون يحاول أن يبريء الحلاج من أن يكون

قد ساهم فى حركة القرامطة (التى كانت على حد قوله : حركة تمرد ضد النظام باسم العدالة) وشبيهه بحركة الخوارج الأول ، وإن نادى القرامطة بأحكام علوى هو المهدى الذى انتشرت الدعوة الباطنية له فى أماكن كثيرة من العالم الإسلامى كالبحرين والأهواز والإحساء واليمن ومصر والمغرب ، هذه الدعوة التى تشيع لها كثير من الفلاسفة كإخوان الصفا والطبيب الرازى وبعض رجال الدولة .

وقد اعترف ماسنيون بتماثل الرمــــوز والإستعارات التى استعملها كل من القرامطة والحلاج فى إستمالة العامة ، وشكك فى الصلة من الحلاج والقرامطة .

وأكد ماسنيون أن الحلاج قام بإسقاط شعائر الإسلام وعلى رأسها فريضة الحج وقد دعا الحلاج إلى فكرة باطلة هى الاتحاد بالذات الإلهية وهى مما يتناقض مع مفهوم السنة والجماعة ـــ والاتحاد الصوفى عندالحلاج هو تألية البشر وقد وجد له خلفاء الفاطميين وهذا ما روج له (إخوان الصفا) فى رسائلهم وما أعلنته الإسماعلية والشرقية فيما بعد عندما جاء صاحب القيامة الكبرى وادعى الربوبية وقال ينسخ الشرائع وادعى الحلاج أنه بلغ مرتبة الكمال بعد عزلته الصوفية فى مكه (وله فى هذا مفهوم مأخوذ من فسيرات المسيحية عن التثليث ودعوى أن عيسى هو ابن الله) وادعى أن روح الإله الذى حل فى عيسى ابن مريم قد حل فيه ، وادعى أن جميع فعله فعل الله وزعموا أن الحلاج ادعى لنفسه هذه الرتبة ومن فساد مذهبه إيمانه بأن المسيح تجسيد زمنى لنور الذات الإلهية .

وقد سلم ماسنيون بأن الحلاج كان على صلة وثيقه بالفكر اليونانى وبالزنادقة وبالقرامطة وقد اطلع على ترجمة التراث الفلسفى اليونانى واتصل بسنى مطعون فيه بالزندقة هو الطبيب الرازى وكان على صلة بأبى سعيد الحنابى الكبير وبكبار الدولة السامانية وبأمير الطالقان وصلة الحلاج بالقرامطة أثبتها ماسنيون وأن فسرها بأنه كان يدان لضمهم إلى الصوفية وأقسم بالسنة التى سيبلغ فيها هذا العمل أوجه من العنف وهى سنة ٢٩٠ ه واتصل بكبار رجال الدولة وبإمراء الجيش واعترف ماسنيون بأن الحلاج عمد إلى تجنيد بعض رجال الخليفة المقتدر لمحمد القنائى وأخيه . وقال البغدادى فى كتابه (الفرق بين الفرق) ذكروا أنه استمال

ببغداد جماعة من حاشية الخليفة ومن خدمه حتى خان الخليفة وهو جعفر المقتدر بالله معرة فتنة لحبسه واستفتى الفقهاء فى دمه واعترف ماسنيون بأن أسلوبه فى ضم الاتباع يشبه أسلوب القرامطة فى الدعوة التدريجية إلى طائفتهم وهو نفس المنهج التعليمي الذى طبقه إخوان الصفا لتجنيد طبقات الإسماعلية وهي عندهم نفس مراتب أو طبقات القرامطة. وقال إنه كان يسلم نظريا باحقية العلويين فى المطالبة بالإمامة (ونجد فى هذا القول دليلا كافيا على صله الحلاج بالقرامطة، والإسماعلية لأنه فشل فى ضم زعيم الإمامية الإثنا عشرية إلى مذهبه).

وفى التاريخ المشترك بين الحلاج والقرامطة: أورد أحد الأحاديث القدسية للحلاج (الحديث الخامس عشر) وفيه يقسم بجوهر الزمان وبسنة ٢٩٠ هذه السنة التى ظهرت فيها الدولة الفاطمية.

وذكر البلاذرى أن الحلاج كان يطلب إلى أعوانه أن يدعو للرضا من آل محمد دون أن يسموا أحداً وبين الدعاية الصوفية والدعاية السياسية للقرامطة فى المناطق التى كانت مسرحاً لدعاية مركزة يقوم بها أحد أبناء (ميمون القداح) منذ سنوات عديدة (خراسان، الطالقان، الأهواز، جرجان، اصفهان، شيراز قم، نهاوند، البصرة، بغداد) ثم العودة إلى تستر، وقد مزج الباطنة السياسية بالتصوف (كلا الدعايتين وجهان لعملة واحدة) ودعاتهم من الفلاسفة ونعنى بهم إخوان الصفا الذين يمزجون بين الفلسفة والتصوف.

ويشير الدكتور محمود قاسم إلى الدور السياسى الذى قام به ماسنيون فى كثير من البـــلاد الإسلامية فى القرن العشرين وفى الجزائر وفى الشمال الإفريقى بخاصة والدعاية المركزة فى كثير من البلاد لأسطورة الحلاج وهى تكاد تفوح منها رائحة سياسية معاصرة ترمى إلى تجميد الوضع فى العالم الإسلامى الراهن على نحو ما كان عليه فى القرن الرابع الهجرى (وعندنا أنه مما يتصل بهذا ما قام به الدكتور زكى نجيب محمود بالنسبة للفكر الباطنى والشعوبى وإحيائه) وتكاد مهمة ماسنيون تنحصر فى التشكيك فى كل نص قديم يشير إلى أن الحلاج كان يدعو إلى المهدى الإسماعيلى. قال صاحب ميزان

الاعتدال (الذهبى) أنه اتسلح من الدين وتعلم السحر وأراهم الخاريق وقد أباح العلماء دمه فقتل ، وواضح أن الحلاج كان يقوم بمهمة سياسية فى المقام الأول ، ويقول دكتور قاسم : إننا نتفق تماما مع ماسنيون لأنه يؤكد ماجاء فى نصوص كثيرة رواها ماسنيون نفسه من أن الحلاج كان من أكبر دعاة القرامطة وإن كان يحتل فى التنظيم السرى للإسماعيلية مكانة عالية من درجة الحجة أو الباب ، والأوراق التى ضبطت عنده عندما قبض عليه كانت تشهد بادعائه للربوبية وقد تأثر الحلاج بآراء المانويه والمزدكية والفيثاغورية وما سونيه القرامطة وكان يقول إن الولى أسمى درجة من النبى ويدعوا إلى اسقاط التكاليف ونسخ شرائع الإسلام واعتقد ماسنيون أن الحلاج هو الجسر بين المسيحية وبين الإسلام السنى وقد أخفق فى الربط بين المسيحية والإسلام عن طريق الآباء البيض فى الشمال الإفريقى .

ولا ريب أن [اسقاط التكاليف] عند الحلاج هو لب المذهب القرمطى الذى يصف العبادات بأنها مجرد رموز يراد بها الغايات الاجتماعية والذى يدعو إلى تألية البشر صرفا لهم عن عقيدة التوحيد . وقد حاولت (الإسماعيلية) فى دور الستر أن تجر الأمامية الأثنا عشرية وراءها فى الثورة السياسية ضد الدولة العباسية السنية فى منتصف القرن الثانى لكن بنى نوبخت كانوا أشد فطنة مما تصور دعاة القرامطة لأنهم رأو أن التحالف مع أهل السنة فى تلك المرحلة الدقيقة أفضل بكثير من الانضمام إلى دولة جديدة بدأت طلائعها بثورة الزنج ثم إمتد نشاطها فى ثورة القرامطة التى كانت لاتفرق فى حروبها غير الإنسانية بين أهل السنة وبين الامامية الأثنا عشرية وقد حوكم الحلاج كقرمطى ، كزنديق ، ادعاء الربوبية ، وادين فى المقام الأول لمحاولة أبطال فريضة الحج ، وأن القرامطة انتقموا له بهدم الكعبة ونزع الحجر الأسود منها وقالوا أنهم نزعوه بأمر وردوه بأمر وامتدت محاكمة من ٣٠١ إلى ٣٠٩ (وهذا كما يبدو من الوثائق يختلف تماما عن تلك السموم والدعاوى الباطلة والخادعة التى ساقها صلاح عبد الصبور الذى حاول أن يستدر عطف السذج

والإغرار من قراء مسرحيته بأن الحلاج كان داعية إصلاح اجتماعى وكان نصيرا للفقراء وأنه عذب كما عذب المصلحون والدعاة) .

وكان إجماع الفقهاء على إدانة الحلاج التى لم تتم إلا بعد أن إقتنع الناس بزندقة الحلاج الذى كان يرى أن النطق بالشهادتين فى مرحلة من مراحل الصوفية يعد شركاً وإن صلاة العارفين تعد كفرا وقد طالت المحاكمة للبحث عن أعوانه من أسمائهم التى وجدت معه وطريقته هى طريقة القرامطة وأخوان الصفا فى حكم الناس درجة بعد درجة حتى ينتهوا إلى الغاية القصوى مع مخاطبة كل منهم على قدر عقله وفهمه وكلمة صاحب الزمان هو مصطلح اسماعيلى . و « الهوهو » نظرية أساسية عن الحلاج فى كتاب الطواسين .

وقد عثر فى أوراقه على منشور أرسله الحلاج إلى أتباعه وعماله يخبر فيه أن الزمان دارد ورته بعد أن ظهرت دولة الفاطميين ٢٠٩ و يطلب إليهم أن يدعو الناس الى الأسرة الفاطمية وبأ تمتد الى خراسا حتى يكشف الحق حجابه ويفتح العدل ذراعيه، وفعلا ظهر (الإسماعليه النذارية) فيما بعد وهى الفرع الذى ينتمى إليه (الحسن الصباح) الذى يصفه الماسون بانه الاستاذ الأكبر للماسونية فى العالم الإسلامى وكانت ثورة القرامطة تعمل لحساب الدولة الفاطمية فى الشرق » ا . ﻫ

وهكذا نرى حقيقة هذه النماذج التى قدمها فى العصر الحديث كتاب عرب ووجدت عند بعض الناس تقديرا : الفارابى ، ابن سينا ، الحلاج ، أخوان الصفا وهى فى حقيقتها من أعداء الإسلام وحملة لواء الانتقاض عليه .

ولقد كأن الإسلام كريماً مع هؤلاء المتآمرين ، وقد ظل الحسين بين الحلاج متمتعاً بحريته إلى اليوم الذى ثبت فيها أن كان بينه وبين رئيس القرامطة إتفاق سرى على قلب الدولة عند ذلك تعرض للقتل .

ولا ريب كان الحلاج ضحية الفكر اليونانى الذى كان يطلق عليه [علم الاصنام] مختلطاً بالفكر الغنوصى الفارسى المجوسى ، وفكرة وحدة الوجود والحلول التى كان يعتنقها هؤلاء دخيلة من الفكر المسيحى الأفلوطونى .

وقد جاءت الشريعة الاسلامية لتدحض هـذا الباطل (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) جاءت بفكرة التوحيد الخالص المنزه ، وأن الله تبارك وتعالى غيرهذا الكون وأنه خارج عنه وقد أوجده من العدم وسيورده العدم مرة أخرى .

ولما كانت الفلسفة المادية قدغلت فى تصورها بأن الكون وهو كل شيء فقد كان ذلك الخطأ البالغ الذى وقع فيه هولاء وقد أصابت هذه السموم الفلسفة والتصوف والتشيع .

وقد كتب عبد الرحمن بدوى كتابه شخصيات قلقة فى الإسلام نقل فيه عن المستشرقين (هنرى كورتان عن السهرورى وماسنيون عن الحلاج الذى سماه شهيد الصوفيه فى الإسلام) فقال أن لم يكن السهروردى (مؤسس المذهب الاشراقى) أو الحلاج إلا من ثمار الفلسفة اليونانية والغنوصية (وتقول وكذلك كان المعرى فى بعض مفاهيمه) وقد تتلمذ السهروردى على فخر الدين الرازى (فى فترة اضطرابه) (٥٤٥ هـ) وكان قد اعتاد غشيان الجماعات الصوفيه وأصحابه الحقيقيون هم سلسلة من الحكماء وأنبياء الفرس واليونان يجاوز فيها زرارشت وأفلاطون والحلاج الذى يدعو باسم وحدة الوجود لفلسفته ، والتأليف بالفارسيه أهم مؤلفاته حـكمة الأشراق كما كتب (كشف الغطا لاخوان الصفا) .

وقد حاول ما سنبون أن يخلق تياراً مضللا من خلال شطائر يجمعها من النصوص فى محاولة فاشلة للادعاء بدور لسلمان الفارسى وحاول أن يشير شبهة أنه الأعجمى الذى أعان النبي على معرفه الكتب السابقة وهى الدعوى الباطله التى دحضها القرآن (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) مع ادعاءات حـول المقارنة بين ما أنزل إلى النبي وما جاءت به كتب اليهود والنصارى ، ويقول أن سلمان الفارسى هو الصاحب الصدوق لآل البيت

اتباع على المواقع عن حقوقهم المشروعة المهضومـــه إلى أن توفى بالمدائن بالعراق .

ويحاول أن يثير الشبهات حول دعوى الولاء لسيدنا على وحديث غدير قم محاولا التماس خيوط واهيه من كتابات بعض المؤرخين .

ونحن نعتقد إن هـذه الروايات التى أوردهـا ماسنيون باطلة ويراد بها خلق تيار معارض للسنه تحت اسم الشيعة فى هـــذه الفترة ، ويثير مسالة تاخر مبايعة على ودفن السيده فاطمه ليلا وما يذهب إليه من دعوى اغتصاب الخلافة .

والواقع أن بيعة السقيفه معروفه ومنشوره ، وأن تأخر الإمام عـلى عن البيعة لم يكن عن معارضة للخليفة الأول إلى أبى بكر: هذه سموم عبد الرحمن بدوى عن ماسنيون .

ويولى عبد الرحمن بدوى اهتماما بالغاً بالحجاج وترجم له عن ماسنيون فى محاولة منهما لتصوير الحلاج بأنه مصلح اجتماعى وهى الدعوى العريضة الباطله التى حمل لواءها صلاح عبد الصبور الماركسى فى ذلك الوقت بدعوى العدل الاجتماعى فى مسرحيته المشهوره .

ويذهب ماسنيون إلى أن العلماء كانوا فى ذلك الوقت مطالبون باقامه حكومه إسلامية تحكم بالعدل بين الناس وخاصة فى مسائل الخراج والضرائب وأن الأمل كان معقوداً على الحلاج ، وهذا كله زيف باطلى فقد عرف وثبت بالدليل القاطع عمالة الحلاج للقرامطه وكشف الستار عن المراسلات والخيانة والتآمر الذى قام به ضد الدولة الاسلامية بل أن ماكتبه ابان سجنه عن رغبته فى توحيد طرق العبادة عند نبى الإسلام إنما هى دعوى البهائية من بعد إلى توحيد الأديان وقد عرف عنه مجموعة من الحقائق لا سبيل إلى إنكارها .

— فساد فهمه لرساله النبى صلى الله عليه وسلم .

— مقارنه النبي صلى الله عليه وسلم بأبليس

— مفهومه للحج ودعوته إلى رد القبلة إلى القدس

— دعواه بأن النبي ترك الوحده الالهية محجوبة ومسورة بسور الشريعه ، وهي مفاهيم ضالة تقوم على الاتحاد والحلول ووحدة الوجود التي يعتبر قائلها خارجا عن الإسلام

هذه هي المفاهيم الفاسدة والزائفه التي كتبها الحلاج وحاول طرحها من جديد ما سنيون وعبد الرحمن بدوى لكى تفسد العقول والقلوب فى هذه المرحلة من تاريخ الاسلام (آواخر القرن الرابع عشر الهجرى وأوائل القرن الخامس عشر الهجرى .

(٧)

كذلك فقد أفرزت الشعوبية الباطنية عديداً من الدعوات الباطلة والأسماء المبطلة ، ولما كانت هذه الدعوات والأسماء قد ماتت بعد أن كشف زيفها علماء السنة والجماعة فى عصرها فإن الاستشراق وأدواته فى هذا العصر عادوا إلى إحياء تلك النحلة الخبيثة القدرية والجبرية المأخوذة عن اليهودية أساساً وإلى نشرها بعض الخبثاء من ذلك .

ومن ذلك ما كتبه جواد على فى الرسالة (١٩٤٥) عن يوحنا الدمشقى ودوره فى هذا الامر وقد حذا حذوه بعد ذلك كثيرون من اتباع التغريب وفى مقدمتهم محمد . عماره ويوحنا الدمشقى من علماء اللاهوت فى الكنيسة الارثوزكية (٦٧٠ — ٧٤٩) فقد كان يحرض النصارى على الحوار مع المسلمين فى شأن الوهية المسيح وحرية الارادة الانسانيه وقد وضع رسالتين فى شكل محاورة بين مسيحى ومسلم ، الغرض فيهما تبرير النصرانية وانفاذ أفكارها فى

عقول المسلمين وقد كان من نتيجة ذلك أن ظهر فى هذه الفترة بعض الشعوبيين والمجوسيين الذين يدعون الإسلام ممن قالوا بالقدريه والجبريه ، تمثل أولا فى معبد الجهنى وتلميذه غيلان بن يونس الدمشقى ثم الجعد بن درهم القائل بالجبريه .

يقول الإمام الأوزاعى : أول من نطق بالقدر رجل من أهل إيران يقال له سوسن كان نصرانيـــا فاسلم ثم تصوف أخذ عنه معبد الجهنى وأخذ غيلان من معبد ، ويكشف صاحب سرح العيون عن اسم ثالث هو طالوت بن اعصم اليهودى الذى أخذ عنه الجعد بن درهم وأبان بن سمعان القول بخلق القرآن وليس يبدو أن معبدا وغيلان والجعد قد ابتكروا من عندهم القول بالقدر وبتعطيل الصفات وخلق القرآن وغيرها وإنما تأثروا فى هذه الأقوال بمن لابسوهم من النصارى أو الصابئه الحرانين أو المانويه ثم قتل معبد وغيلان والجعد .

ويقول جواد على (الرسالة ــ مارس ١٩٤٠) أن يوحنا استدرج المسلمين إلى خلق الأفعال وخلق القرآن ومشكلة صفات الله .

وهى أمور لم يكن المسلمون يخوضون فيها ، والمعروف أن جعد بن درهم الذى ذبحـــه خالد بـــن عبدالله القسرى فى عيد الاضحية كان استاذ القائلين بخلـــق القـرآن وكان مـــن زمـلاء غيلان الدمشقى ومعبد الجهنى .

أما (غيلان الدمشقى) فقد قدمه الشعوبيون على أنه من الثوار المسلمين وأنه المسيح المعتزلى الذى صلب فى حكم الأمويين وقالوا أنه دفع حياته لموقفه فى خلافة هشام بن عبد الملك وقيل أنه مؤسس المدرسة القدرية ، إلى انطلقت منها المعتزله وقيل أن الخليفة عمر بن عبد العزيز وكل إليه رد المظالم والأموال التى إغتصبها ، الأمويون وحقيقة الأمر أن غيلان الدمشقى لم يقتل الابتهمة واضحة صريحة هى خيانة الدولة الاسلامية وأنه اتخذ الكلام

فى القدر وسيلته إلى تزييف مفهوم العقيدة الاسلامية كمدخل إلى اسقاط الدولة الإسلامية .

وقد إنخدع المؤرخ ابن جرير الطبرى لدعاية يوحنا الدمشقى فأوردها وذكرها على أنها رواية واغتر بها المفسرون جميعا كالزمخشرى والرازى حتى جاء ابن كثير فصحح الأمور قال : ما اعتمد عليه ابن جرير لا أثر له من الصحة .

وكان يوحنا الدمشقى هو الذى ابتدع الحوار مع المسلمين بما يوصل إلى القول بخلق القرآن : هذه الفتنه التى اجتاحت الفكر الإسلامى أيام المأمون والواثق والتى تصدى لها أحمد بن حنبل فقد فتح يوحنا استمدادا من الفلاسفة اليونانية مشكلة القدر وقضية الإرادة والجبر والاختيار وقال المستشرقون أن يوحنا أثار بهذا السؤال وبأمثاله مشاكل جديدة فى الإسلام لم تكن معروفه هى مشكلة خلق الافعال ومشكلة خلق القرآن ومشكلة صفات الله وأضرابها لأنه استدرجهم بهذه الأسئلة والأجوبة إلى أمور لم يكن المسلمون يخوضون فيها ومن هذا المعين أخذ الجعد بن درهم ، وعيلان الدمشقى ومعبد الجهنى يخوضون كما أشار مؤلف مختصر الفرق بين الفرق .

وموقف الإسلام واضح فى هذا الأمر على النحو الذى فصله الإمام على : أن الله سبحانه أمر عباده تخييرا ونهاهم تحذيرا وكلف يسرا ولم يكلف عسرا وأعطى على القليل كثيرا ولم يعط مغلوبا ولم يطع مكرها ولم يرسل الأنبياء لعبا ولم ينزل الكتب عبثا ولا خلق السموات والأرض ومابينهما باطلا ، ولا يؤمن مسلم حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما اخطأه لم يكن ليصيبه .

وهـكذا نرى أن نظرية القدر دخلت إلى الفكر الإسلامى عـن طريق النصرانية والمجوس هم الذين كانـوا يقولون بـالجبر لا بالاستطاعة والاختيـار .

(٨)

أما نصير الدين الطوسى العـالم الرياضى صاحب ١٤٥ مؤلفـا فى عـلم الحساب والمثلثات والهيئة والجبر والطبيعات فهو من الباطنية الغلاه .

فقد تولى الوزاره لأصحاب قلاع الموت خلفاء حسن الصباح ، وهناك محاولات متعددة لتبرئته من تهمة الاسماعيلية وهو المتهم بالتحريض على قتل الخليفة المستعصم ورجال دولته والعلماء فضلا عن اتهامه بالالحاد عن كتب موثوق بهـا (البداية والنهاية لابن كثير حـ ١٣ ص ٢٦٧) و(شذرات الذهب لابـن العماد ، إغاثة اللهفان لابن الجوزية ، والصفدى فى الوافى بالوفيات .

وقد فر الطوسى أمام جحافل خنكيز خـان ولم يجد ملتجأ له غير قلاع الاسماعيلية التى كانت تقاوم المغول واحتمى بحاكم مهستان ثم إستدعاه زعيمهم الاسماعيلية ليعمل معـه وبقى فى قلعة (الموت) حتى سقطت بيد هولاكو فانضم إلى هولاكو .

وهو فى المقياس الإسلامى كابن سينا والفارابى (لا نجعل علمهـم يخفى غرضهم ، وأن الذين وصفـوا نصير الدين الطوسى بـأنه حامى الثقافة الإسـلاميه ابان الغزو المغولى هم الاسماعيلية والباطنية أمثال ضياء الدخيلى وقـد وصف فى معظم المراجع بـأنه عـالم وفليسوف باطنى وقـد اهتم بـه المستشرقون لهـذا الغرض (وفى مقدمتهم دارر شمت

الأمريكى وقد فات شميث علوم جليلة أخرى تفوق فيها الطوسى منها الفلسفة فإن كتابه فى شرح إشارات ابن سينا من أهم الكتب ويرجع الفضل فى شهرته وذيوع صيته وراء الدوائر الاسماعيلية والباطنية وله تصانيف تكشف عن هويته (منطقيات وآلهيات إقليدس وبجسطى)وله كتاب أخلاق فارسى جمع فيه نصوص أرسطو وأفلاطون فى الحكمة وقد صنف فى علم الكلام وشرح الإشارات لابن سينا ودور للاسماعلية فى ألموت ووزر لهولاكو وكان معه فى نكبة بغداد ٦٥٦ ومن الناس من يزعم أنه أشار على هولاكو بقتل الخليفة ويقول ابن العبرى فى تاريخه : وكان فى هذا الزمان فى ٥٧٥ وما قبلها من الحكماء المشهورين بالمشرق السموأل ابن يهود المغربى الأندلسى .

وكان الحكيم اليهودى قد هرب هو وأبوه إلى المشرق وكانت مراغه تحت نفوذ قبل الطوسى الحكيم اليهودى وأشار ابن قيم الجوزية فى كتابه إغاثة اللهفان إلى نصير الدين الطوسى وأطلق عليه لقب نصير الإلحاد وقد عارض وهاجم الشهرستانى الذى كشف زيف ابن سينا فى كتاب سماه المصارعة ورد عليه الشهرستانى بكتابه [مصارعة المصارعة] حيث نصر فيه الله تعالى . ودحض أقوال ابن سينا الذى أدعى أن الله تبارك وتعالى وجل وعلا عما تقولون علوا كثيراً — لم يخلق السموات والأرض فى ستة أيام وإنه لا يعلم شيئاً وإنه لا يفعل شيئا وإنه لا يفعل شيئا بقدرته واختياره ولا يبعث من فى القبور .

ويقول ابن الجوزية أن الفلسفة التى تقرأها اتباع هؤلاء اليوم(أى فى عصره) هى مأخوذة من الطوسى ومن أمامه ابن سينا وبعضها عن أبى نصر الفارابى وشىء يسير منها من كلام أرسطو وهو على قلته وغثاثته وركاكة ألفاظه كثير التطويل لا فائدة فيه وخيار ماعند هؤلاء فالذى عند مشركى العرب من كفار قريش وغيرهم أهون منه .

وهناك بالنسبة له اتهامات كثيرة :

أولا : شبهة اتهامه بقتل الخليفة المستعصم ورمال دولته والعلماء .

ثامناً : شهـــد اتهامه بالإلحاد (أشار ابن كثير إلى تلك التهمة فى البداية والنهاية .

ثالثاً : صلته بالإسماعلية والباطنية والحكماء .

ولا يمنع هذا من أنه شرح لهولاكو (الذى انضم إليه بعد سقوط أصحابه فى قلعة الموت) فوائد المرصد وتولى العمل واستخدم ابن الفوطى البغدادى حارثا لمكتبة المرصد والتى تضم ٤٠٠ ألف مجلد من الكتب التى نهبها التتار من بغداد والشام والجزيرة أيام الغزو المغولى ونشروامن الكثير ما يتفق مع نحلة الباطنية والفلسفة المادية .

(٩)

إن الانحراف الذى أصاب الفكر الإسلامى كان من جانبين لا جانباً واحداً من جانب استعلاء العقلانية واستعلاء الوجدانية والروحية ، وكل منها يدعى أنه منهج المعرفة الوحيد الذى يوصل إلى فهم حقيقة الإسلام ، كان الاعتزال بانحرافاته وكانت الجبرية الصوفية بجمودها ، وقد وصل التصوف الفلسفى ببعض أصحابه إلى مبادىء الاتحاد والحلول والتخلى عن الالتزام الخلقى وعدم التأدب مع الله ، ووصل الاعتزال إلى ما يمس وحدانية الله تبارك وتعالى واستهلك الفلاسفة الجهد فى وضع فروض فلسفية غير مجدية .

مصدر هذا الانحراف هو فتنة الفلسفة اليونانية التى ترجمت فى عهد المأمون وهى علم الأصنام عند اليونان وأضيف إليها مجوسيه الفرس وانحرافات الفلسفة الهندية ، كانت مفاهيم المتكلمين والمعتزلة فى أول الأمر منطلق للدفاع عن الإسلام بأسلحة الفلسفة ولكنها انحرفت وكان الزهد وتزكية النفس منطلق التصوف السنى ولكن دخائل دخلت فانحرفت إلى التصوف الفلسفى وكان مذهب الحلول ودعوى الوحدة بين الإنسان وخالقه وتجاوز الألفاظ المهذبة عن التعبير عن تجربة الإنسان الباطنية ، مما أصبح يشكل تهديداً للأسس الداخلية التى شيد فوقها النظام والحضارة الإسلامية ، تلك التى تنبثق عن التوحيد الحقيقى لله سبحانه .

والتحديد المعجز الذى لم تشهده الأديان الأخرى اصلات الإنسان بخالقه ولقد قاومه علماء المسلمين هذين الانحرافين واليوم تتجدد هذه القضايا بعد أن طرح التغربيون فى أفق الفكر الإسلامى هذه النظريات مرة أخرى عن طريق ترجمات جديدة للفلسفات اليونانية والغنوصية .

إن (التصوف السنى) الذى يستمد من أصول الشريعة أحكامه وقواعده ولا ينزلق فيما انزلقت فيه بعض الاتجاهات الصوفية الشرقية التى تسربت إليها من فلسفات الهند وفارس ، حين تسربت إلى الطرق الصوفية بعض ضلالات الجهل وحرفتها عن وجهتها وتصدت لاصلاحها جماعات من العلماء أحيوا روح السلف ودعوا إلى الانقاذ من الضـــلالة فى المغرب أمثال أبو شعيب الدكالى ومحمد بن العربى العلوى ، وتكشف رسالة عقد المرجان الموجهة إلى الشيخ محمد بن سليمان (أحمد بن العباشى كسبرج : التصوف الحقيقى هو الذى لا يجعل الاستغراق فى العبادة وسيلة للتغرير بالناس وتضليلهم واستغلالهم لأخذ أموالهم فإن الجرم كل الجرم فى أن يبحث الإنسان عن وسيلة من وسائل الرزق تغنيه عن الناس فإذا اكتسبها بقيت عبادته لله خالصة .

ولقد كان التصوف تجربة روحية خاصة فى طور الزهد ولكن بعض الصوفية فلسفوا هذه التجربة منذ القرن الثالث الهجرى (حين ظهر التصوف الاشراقى الذى بدأ فى نظريات الاتحاد (البسطامى) والحلول (الحلاج) ووحدة الوجود عند ابن عربى فيما بعد ولذلك دخلت مفاهيم غير إسلامية كالحب الإلهى لرابعة وكان هذا تأثير الفلسفة اليونانية ، حيث دخلت على تعاليم الدين الإسلامى ومفاهيم وحدة الوجود أو اتحاد الخالق بالمخلوق التى تتعارض مع التوحيد الخالص وبدأت للصوفية كلمات ومصطلحات لم ترد فى القران ولا فى أحاديث الرسول ورد الباحثون هذه التحولات إلى مصادر الفلسفة الهندية واليونانية والمسيحية فهى منقولة منها وتتشابه مع مصادرها ومن يراجع كلمات الحلاج يجدها خليطا من هذه المصادر:

١ — مبدأ الفناء الذى يندمج فيه المتصوف بالله ويفقد شخصية الفردية مستمد من عقيدة النرفانا الموجودة فى الديانة الهندية .

٢ — مبدأ القول بأن كل الأديان واحدة مما يردده الرهبان المسيحيون .

٣ — مبدأ أن طريق الخلاص هو التجرد التام من المادة وانفصال النفس عنها وهى من مفاهيم الأفلاطونية الجديده .

٤ — فكرة العقل الأول والعقول العشرة من مصطلحات الأفلاطونية الجديدة .

٥ — فكرة أن المعرفة لاتتم بالمحاولات العقلية ولا بالمناظرات الفلسفية وإنما تتكون المعرفة فى الشعور وهى من الأفلاطونية .

وكلها مفاهيم تخالف مفهوم الإسلام الصحيح ، ذلك أن الإسلام يدعو المسلم إلى عبادة الله بالعمل والتعامل وليس باعتزال مجتمع وليس فى الإسلام مايسمى الفناء ، كذلك فإن الإسلام لا يقر فكرة وحدة الأديان فقد جاء الإسلام مصححا لأخطاء التفسيرات التى قدمها رؤساء الأديان لخرجوا بها عن الطريق الصحيح ، كذلك فإن الإسلام لايعترف بنظرية العقول العشرة ، ويرى أن المعرفة تتم بالعقل والقلب معاً وليس باحداهما .

وكان من أخطر اتجاهات التصوف الفلسفى التجرد عن النفس وما ترتبط به عادة والانصراف الكلى للعكوف على العبادة وهو نوع من الرهاينة التى لا يقرها الإسلام .

كما لا يقر الإسلام مايسمى الحب الإلهى ، ولكنه يقيم نظاما جامعاً بين الخوف والرجاء ولا يقرامتزاج العنصر الإلهى فى الإنسان مع الله تبارك وتعالى كما لايقر تلك الاستعارات والمصطلحات الصوفية التى ترد فى الاسفار الفارسية والهندية ، ولا ماذهب إليه عمر بن الفارض ولا محي الدين بن عربى ولا نظرية الاشراق التى تكلم بها السهروردى .

وقد انبعثت فى السنوات الأخيرة كتابات المستشرقين الغربيين عن التصوف بهدف إثارة هذه السموم ودفعها مرة أخرى إلى أفق الفكر الإسلامى

الذى تحرر منها بعد أن قام مذهب أهل السنة والجماعة فترجمت كتابات نيكلسون، وجولدزيهر، ومكدونالد وماسينون.

وقد ملئت هذه الكتابات بعبارات خاطئة أريد أن تنفذ إلى قلوب الشباب المسلم دون أن يتنبه إليها ومن ذلك ماقاله نيكسون عن الحق تبارك وتعالى حيث يصفه بالوصف الذى عرفه اليهود فيقول أنه إله جبار شديد البطش سريع العذاب وهو مالا يمكن أن يكون صحيحاً فقد جمعت الآيات القرآنية بين رحمة الله وانتقامه، ولم يكن التصوف حباً فى الله على النحو الذى سمى الحب الإلهى ولا خوفا من بطش الله كما صوره نيكلسون، ولكن المفهوم الإسلامى الأصيل هو الخوف والرجاء فى وقت واحد وبدرجة واحدة.

ولقد ظهرت فى السنوات الأخيرة كتابات كثيرة فى المسرحيات والشعر تحاول أن تحيي هذه المفاهيم المسمومة ومن ذلك ما كتبه عدنان مردم الذى يشيد مقدمة رواية (أبو بكر الشبلى) بالحلاج وابن الفارض وابن عربى ويقول:

إن (رابعة العدوية) جاءت بنظرية الحب الإلهى التى غيرت المفاهيم الصوفية وكانت الحجر الأساسى لكل من أتى بعدها من أعلام المتصوفة كالحلاج وابن الفارض وابن عربى. فالحلاج أتى بنظرية الحلول (سبحان من أظهر ناسوته) وابن الفارض وابن عربى لم يقولا بقول الحلاج ولكنهما أتيا بمفهوم وحدة الوجود (لقد كنت قبل النوم أنكر صاحبى) فأصبح قلبى قابلا كل صوره وتجد الشبلى أخذ بنظرية رابعة كغيره من أعلام المتصوفة وزاد عليها الاغراق فى الحب حتى الجنون وقد قهر الشبلى نفسه بالحرمان وانتصر عليها بما أخذه عليها بالشدة والقسوة (نقول: وماحمله الإسلام على هذا أبدا) وما كان من مفهوم الإسلام اعتزال الناس ولكن مفهوم الإسلام العمل بتقوى الله فى مجتمع الناس.

هذه مفاهيم دخيلة على الإسلام وعلى التصوف السنى وما كان لها أن تنتشر لذلك فقد قدم هؤلاء المستشرقون مفاهيم مضللة مسمومة،

وأبدى الدكتور إبراهيم بيومى مدكور اهتماما وافرا بمؤلفات ابن سينا الصوفية والنزعة الصوفية عند الفارابى وكشف عن أن بذور التصوف الفلسفى بدأت عند هذين الفيلسوفين الباطنيين : يقول دكتور مدكور (الرسالة — م ١٩٣٦) إذا أردنا أن نعرف أقدم صورة للأفكار الصوفية وجب أن نتجه إلى الفارابى فإنه أول من صاغ الفلسفة الإسلامية فى لونها الكامل ووضع أصولها ومبادئها ونظرية الفارابى قائمة على أساس عقـلى فليس تصوفه بالتصوف الروحى البحت الذى يقوم على محاربة الجسم والبعد عن اللذائذ، وقال أن التصوف الفارابى . متين الصلة بالنظريات الفلكية والميتافيزيقية فهو يحتل نظاما ملكيا أساسه أن فى كل سماء قوة روحه أو عقلا مفارقا يشرف على حركتها ويختلف شئونها وآخر هذه القوى هو العقل العاشر موكل بالسماء الدنيا والعالم الأرضى ونقطة الإتصال بين العلوى والسفلى وكلما اتسعت معلومات المرء اقترب من العالم العلوى ودنت روحه من مستوى العقول المفارقة وهذه النظرية لا اصل لها فى الإسلام .

وقد تبين أن جميع أصول هذا الفكر الصوفى الفلسفى ليس مستمداً من الإسلام ويقول دكتور بيومى مدكور أن مفهوم السعادة عند الفارابى يختلف عن مفهوم الإسلام ومأخوذ من أفلاطون ، ويرى أن التصوف الذى ساد العالم الإسـلامى تحت مؤثرات كثيرة بين فارسية وهندية ومسيحية وإغريقية ، وفيما رأى كل متصوف أن الغرض الرئيسى من العمل والتعامل هو الاتصال أو الفناء فى الله .

هذا الفناء فى الله هى النظرية البوذية المسماة « النرفانا » وهى تعنى الحلول : الذى قال به الحلاج وهو ليس من مفاهيم الإسلام .

ويرى مدكور : إن الفارابى جارى المفاهيم الهندية والفارسية والإغريقية والمسيحية (الصوفية) وعاصر كبار الصوفية الذين يقولون بالحلول وعلى رأسهم الجنيد المتوفى ٩١١ وناشر نظرية الاتحاد الصوفية والحلاج تلميذ الجنيد من معاصرى الفارابى فقد توفى ٩٢٢ وهو صاحب الجملة المشهورة

« أنا الحق » التى لاقى من جرائها حتفه . وعلى يديه سما مذهب الحلول إلى أوجه وبدا فى أوضح صورة وأسفار هذا العصر الصوفية مملوءة بالغيبة والحضور والوجد والوجود .

ويتساءل مدكور : هل هناك صلة بين تصوف الحلاج وتصوف الفارابى ويرى أن قول المتصوفة : حلول اللاهوت فى الناسوت إلى اتحاد العبد والرب هى فكرة مسيحية . وهـــذا سر حملة أهل السنة على هذا الخلط غير المعقول والغلو المفرط ويرى أن هناك فارقا بين نظرية الحلول الحلاجية ونظرية السعادة الفارابية .

فالحلول يدل على الاندماج التام بين المخلوق والخالق والسعادة تظهر فقط بمجرد وجود علاقة بين الناس والعالم الروحى .

وعندنا أن نظرية الحلول هى إحدى نظريات الفكر الأفلاطونى والمسيحى وأن [السعادة] هى نظرية الفكر الهندى وكلا النظريتين دخيل على الإسلام فالقرآن لا يتحدث عن السعادة إلا بالنسبة للآخرة فقط ، ويرى مدكور أن منبع نظرية السعادة الفارابية هو أرسطو وكتابه الأخلاق وهذه المعانى كلها لا يقبلها الإسلام لأنها من واردات الفلسفات اليونانية .

ويؤكد مدكور أن تصوف الفارابى لم تقف عند المدرسة الفلسفية بل تعداها إلى مدرسة الاشراقيين التى عاشت فى بلاد الفرس إلى القرن ١٧م ومؤسس هـذه المدرسة هو السهروردى المقتول سنة ١١٩١ والسهروردى هو خلاصة فكر فيثاغورس وأفلاطون وبوذا وهرمس ومزدك ومانى ويرى التوفيق بين فكرهم ، هذه هى الفلسفة الاشراقية وهى تعتمد على نظرية العقول العشرة الفارابية مختلطة بعناصر مزدكية ومانوية وهى دعوة إلى إلى الاتحاد والامتزاج .

وهناك ابن سبعين صاحب نظرية الفيض وهى يونانية أيضاً ويرفض السهروردى نظرية الحلول والاتحاد التى حمل لواءها الحلاج ويدعو إلى نظرية وحدة الوجود وقـــد قتل السهروردى بامر من صلاح الدين وانتحر

ابن سبعين فى مكة بسبب مهاجمات وجهت إليه واتهم معاصره ابن العربى بالإلحاد والزندقة من كثير من أهل السنة (مذكور) .

(١٠)

ويتحدث الدكتور عرفان عبد الحميد عن الحلاج . فيقول أن أكثر المؤرخين نسبوه إلى الإلحاد والزندقة والسحر والشعبذة والحلول والاتحاد ، قال السلمى فى طبقاته : الصوفية مختلفون فيه فأكثرهم نفى أن يكون الحلاج منهم وأبى أن يعده فيهم وقال عنه صهره إنه ساحر محتال خبيث كافر (الخطيب البغدادى) ونسبه آخرون إلى السحر ونسبه أبو بكر الباقلانى وعن بعده البغدادى والاسفراينى إلى الحلول ومعاطاة الحيل والخاريق وقال عنه الشيخ العزبن عبد السلام أنه شيخ سوء كذاب واختلف فيه معاصروه من مشرقيين وعرب منهم من رأى فيه داعية إباحة وزندقة وصاحب دعوة باطنية سرية ومغامراً بروم أقلاب الدول ونشر الحيل والمخاريق ومنهم من نسبه إلى التأله والولاية والصفاء .

يقول الباحث والذى نميل إليه ونقرره هو القول بأن الحلاج بما بشر به من أفكار ومعتقدات كان يمثل حلقة أخرى من سلسلة متتابعة من حركات الغلو والهدم والزندقة التى باشرتها إبتداء فرق غلاة الرافضة من أمثال المغيرية والخطابية والبيانة والمنصورية فى تلك الفرق التى حاولت تشويه معالم العقيدة الإسلامية بما لفقت من آراء ومذاهب وفلسفات من الثقافات الأجنبية التى وجدها المسلمون فى الأرض المفتوحة ، ويبدو من الأخبار والروايات التاريخية : زعيما لحركة فكرية غالية هى إمتداد من جهة لحركات الغلو التى شهدها تاريخ صدر الإسلام وبعث وإحياء لجميع ما نشرته تلك الفرق من آراء ومعتقدات تميزت بالجمع والتلفيق والأخذ والاستمرار من دوائر الفكر المناهضة للعقيدة الإسلامية الصافية من وجهة ثانية فقد عاصر الحلاج بفكره جملة من الحركات الدينية السياسية التى تمثلت فى حركات باطنية سرية تارة وعلنية تارة أخرى مثل حركة المقنعية والجبائية والقرامطة والسلمغانية التى استهدفت الإسلام دولة وعقيدة ، ويرى الباحث فى الحلاج جملة ما بشرت به فرق الغلاة السابقة عليها والمعاصرة لها

من إستحلال للحرمات وإسقاط للفضائل وتأويل للنصوص الدينية ، تأويلا باطلا خبيثاً وخطراً ومحاولة لإزالة ما بين الأديان والمعتقدات ودعوة إلى وحدتها بالجمع والتلفيق بينها واستهواء العامة واستغواء بها ولأهوائها بإظهار الخاريق واصطناع الشعبذة والسحر والحيـــل والكيمياء والدعوة إلى إحياء مذهب الدوسيتين فى الموت الظاهرى والرجعة وإدعاء النبوة والألوهية بدعوى الاتحاد والحلول مما حمل بعض الباحثين ويحق على القول بأن (الحلاج) فى حقيقة صورة جديدة من أبى الخطاب الزعيم الذى قتل فى الكوفة ١٣٧هـ وأول نقاط الشبه والمماثلة المشهورة بين فكر الحجاج ومعتقد الغلاة عموماً أنهما قائمان معاً على الجمع والتلفيق والأخذ والاستمداد من دوائر الفكر المختلفة والمتباينة ، وصهر هـذا كله فى دعوة باطنية تتسم بالسرية فى العمل والتدرج فى الرتب والعمـل ، قال عنه ابن النديم فى الفهرست : كان رجلا محتالا مشعبذا ، يتعاطى مذاهب الصوفية ويتحلى بألفاظهم ويدعى كل علم ، تظهر مذاهب الشيعة للملوك ومذاهب الصوفية للعامة وفى تضاعيف ذلك يدعى أن الإلهية حلت فيه وأنه هو هو ، تعالى الله وتقدس عما يقول هؤلاء علوا كبيراً ، وينقل (ابن خلـكان) عن إمام الحرمين (الجوينى) : أنه كان يذمه ويقول أنه تفق هو الجبائى والمقنع عن إفساد عقائد الناس وتفرقوا فى البلاد فكان الجبائى فى هجر والبحرين وابن المقنع لبلاد الترك ودخل الحلاج العراق .

وكان يريد للناس التلفيق بدعوى الجمع بين أصعب المذاهب وأشدها فى طريقة المجاهدات وقد وجدت فى أوراقه ما يوثق صلته بالقرامطة وطرائقهم فى التبشير المبنى على التدرج فقد كان فى الكتب الموجودة عنده عجائب من مكاتباته أصحابه النافذين إلى النواحى يوصيهم بما يدعو الناس ويأمرهم به من نقلهم من حال إلى أخرى ومن مرتبة إلى أخرى ، حتى يبلغوا الغاية القصوى وإن يخاطبوا كل يوم على حسب عقولهم وأفهامهم وعلى قدر استجابتهم وانقيادهم (ابن كثير — البداية والنهاية) و (الفرق بين الفرق) وتلك سمة بارزة لمذهب الباطنية عموما ممن روجوا

لمذهبهم على أساس العمل السرى والتلقين الذى تلقاه مريدو الإندماج فى الجماعة على مراتب متتالية ، لا تبقى فى مراتبها العليا من الأصول الإيمانية الإسلامية إلا هيكلا خاوياً وبناء متداعيا .

وقد أكد (العماد الحنبلى) فى شذارته هـذه الصلة المفقودة بين الحلاج والباطنية لما دخل بغداد ٣٠١ هـ مشدوداً على جمل وعلق مصلوباً ونودى عليه :

هذا أحد القرامطة فاعرفوه — ويرى (نيكلسون) أن السبب الرئيسى فى صلب الحلاج هو إتهامه بأنه كان يدعو سراً إلى مذهب القرامطة الذين أغاروا على مكة ونهبوها بعد موت الحلاج بتسع سنين واختطفوا الحجر الأسود منها ، وقد قلد الحجاج مناهج الغلاة واحيا المتعلق بالتحلل من عقد الدين واستحلال المحرمات وإسقاط الفرائض سابقين فى تبرير دعواهم طرائق التأويل وكان يرى كغيره من غلاة الصوفية أنه من بلغ مقام اليقين سقطت عنه العبادة والتكليف وتلك دعوة اتخذها غلاة الصوفية من الخطابية والمعمرية وغيرهم فاستحلوا الخمر والزنا واستحلوا سائر المحرمات ودانوا بترك الصلاة وتأولوا على ما استحلوا بالباطل قول الله عز وجل (يريد الله أن يخفف عنكم)هـذه البدعة مصدرها المجوس ، ومن ذلك دعوته أن يفرد فى بيته داريطاف حولها بدلا من الحج وهى دعوة سبقه إليها الملحد الزنديق (ابن الراوندى) الذى كان يقول لأتباعه أن الطواف حول البيت الحرام كالطواف حول غيره من البيوت (البداية والنهاية — الفرق بين الفرق) ويقول ابن كثير أن الحلاج كان يقول لأتباعه من صام ثلاثة أيام لا يفطر إلا فى اليوم الرابع على ورقات أجزأ ذلك عن صيام رمضان . وقد جمع الحلاج مع هذه الهدمية التى تتجاوز حدود الشرع الدعوه إلى محو الفروق بين الأديان ورفع الحدود المميزة الفاصلة بين دين ودين فكان بذلك مجتهدا لدعوة (اخوان الصفا) وغيرها من الحركات التى قامت على الجمع التلفيق بين الأديان والفلسفات . وكان الحلاج يقول . واعلم أن اليهوديه والنصرانيه والإسلام وغير ذلك من الأديان هى ألقاب مختلفه وأسام متغايره وكان يدعى لنفسه الخاريق والكرامات وزعم أتباعه أن له من الكرامات اجابة السؤال وبأنه محى الموتى

وأن الجن يخدمونه ويرينون ذلك للناس بحلول الألوهية فيه بخروجه من أوصاف البشرية .

ولا شك أن أخطر دعاواه : دعوى بالاتحاد بالألوهية على صورة عرفتها الدوائر الغنوصية باسم الفيض والظهور والانبثاق الدائم المستمر وقد نفذت هذه العقيدة إلى دائرة الفكر الإسلامى من خلال فرق الغلاة وفرق الباطنية عموماً وخاصة المدرسة الإسماعيلية التى يزعم دعاتها وفلاسفتها إن الروح الإلهية تتجلى فى درجات مختلفة والحلول مصطلح مسيحى الأصل .

(١١)

ولقد واجه ابن تيمية هذا الإنحراف والغلو فى المدارس الفلسفية الصوفية وحمل هذه المذاهب مسئولية كثير من الفساد فى الأفكار والابتداع فى السلوك وأشاد بالصوفية الذين يتمسكون بالكتاب والسنة .

يقول مصطفى حلمى سليمان : كان ابن تيمية يميل إلى الزهاد الأوائل ويمدح شيوخ التصوف الذى سماه التصوف المشروع ، المعتقدون بالشرع فى الوقت الذى نعى فيه على ابن عرابى وأتباعه وأعلن رفضه لنظرية الحلول وربط بين أهل الإشراق والصابئة وقال : أن السلفية تعنى الارتباط بالكتاب والسنة ، وقد اتخذ مسلكا سلفياً واحداً فى نقد الصفوف مع ابن الجوزى ، وأبحاث ابن تمية تؤكد نشأة التصوف الإسلامى ، وإن اختلفت الأسماء من فقراء إلى زهاد إلى نساك ، هؤلاء المتصوفين الحقيقيون أخذوا من القرآن والسنة وحاكوا سلوك الصحابة فى صدق وتجرد وأقاموا مقياس الشرع فى نقد التصوف بالنسبة للأدعياء الذين مزجوه بفلسفة من هنا أو فكر من هناك ويتساءل الباحث : لماذا يهتم المستشرقون وغير المعتدلين منهم بالتصوف الإسلامى ، فى محاولتهم تجديد الإسلام من هذا الجانب الروحى من جهة ، ثم إدعائهم بأن الإسلام أخذ هذا من المسيحية من جهة أخرى بل أن بعض

الباحثين فسر هذا الاهتمام بأنه تحييد لدعوة الحب والفناء والحلول وغيرها من الأفكار التى توقف حركة الجهاد والدعوة عند المسلمين ، وخاصة والشكل المرفوض الذى يدخل تحت أبرز الأوصاف فيه ، «الحلول والاتحاد ذلك لأن هذه الفكرة تضاد القول بتوحيد الله سبحانه حيث يعنى هذا أن وجود المخلوق هو وجود الخالق (ابن عربى وابن سبعين وابن الفارض وغيرهم فى القرن السابع) أو عند غير هؤلاء يعنى إلهية بعض البشر أو الحلول والاتحاد فيه ولكن ليس باطلاقه ولأن أصل هـــذه الأفكار برزت فى قصة الحلاج فى القرن الرابع ٣٠٩ فقد تتبع (ابن تيمية) هذه الأفكار من خلال رأى معاصرى الحلاج أو قريبي العهد بعصره كابن مسكويه والحافظ البغدادى وابن الجوزى وكلما أراد تبين باطنيه الجلاح وبعده عن الحق بما ادعاه من دعاوى تتصل بالعبادات كالحج والصلاة وبما أدعاه من فتوة أبليس وبما نطق به من عبادات (أنا الحق وغيرها)» كذلك خطأ ابن تيمية محاولات بعض الصوفية فى الاعتذار عن الحلاج وكشف عن أن الحلاج حاول خداع أهل السنة ببعض عبارات (عليك بنفسك أن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل) .

وحاول الحلاج إسقاط ركن من الإسلام كالحج وقد بين ابن تيمية موقف صوفية عصره الذين ابتعدوا عن خط التصوف السلفى الذى سار عليه الصحابة والتابعون وسار على دربه الهروى والجيلانى والنووى ، ولم يحارب ابن تيمية إلا نوع واحد من التصوف البعيد دائرة التصوف الإسلامى الرشيد . كذلك فإن الباحث خطأ المستشرقين أمثال ماسينيون وغيرهم ومن تابعهم ممن اعتبروا الحلاج شهيداً فى مضمار عداء السياسة التصوف الاسلامى، وقال إن الغزالى يعد ممثلا للتصوف السنى فقد عمل الغزالى مع المدرسة السلفية فى حربها للفلاسفة والباطنية.

(١٢)

وكان للشاعر الإسلامى إقبال موقف واضح أزاء جبرية الصوفية ، يقول دكتور سمير عبد الحميد : عمد الإنجليز فى الهند إلى تسليم الأرض إلى الهنادكه الذين اتجهوا بدورهم إلى الانتقام من المسلمين وبدأو تحت ستار تكوين حزب المؤتمر إشعال حميه وطنيه بدا على أثرها الهنادكة فى نشر مطبوعاتهم

التى تحمل أفكاراً معادية للاسلام وكانت فكرة حرب المؤتمر قائمة أصلا على أحياء العصر والثقافة الهندوكية ولم يتنبه المسلمون إلى هذه الحقيقة .

وتساءل إقبال : ماذا قضى على قوة الأمة الإسلامية ، ووصل إقبال إلى الأجابة على هذا السؤال فرأى أن : (التصوف الدخيل على الإسلام) هو الذى سلب المسلمين ذوق العمل ، هو فكرة وحدة الوجود التى تنفى وجود أى فرق بين الله والإنسان وأشار إلى أن السبب يكمن فى ترك المسلمين للقرآن الكريم وكانت دعوته إلى أن كل إنسان مسئول عن نجاحه وفلاحه فهو يرى ويعلم ويقدر .

وقد أوضح الله (تبارك وتعالى) له طريق الخير وطريق الشر وأعطاه حرية اختيار ما يريد ، وإن هناك فارق بين الله والإنسان وهو كالفرق بين السماء والأرض . فالله خالق ومعبود والإنسان مخلوق وعابد فإذا كان الله والإنسان شيئاً واحدا فمن إذن يقوم بالعبادة ، ومن هنا يتضح أن التصوف الدخيل على الإسلام إنما هو مضاد تماما للإسلام وقد اختاره المسلمون فاستكانوا للذل ونسوا أنفسهم ، وحين انتهى (العلامة إقبال) إلى أن سبب بلاء القوم هو هذا النوع من التفكير الذى يتنافى مع الإسلام وتعاليمه اتجه بكل قواه إلى نشر الفكر الإسلامى الصحيح وإلى نشر العقيدة الثابتة التى تهدف إلى . إثبات الذات » فقام بتشخيص مرض الأمة وهو الخضوع والهوان وقبول الاستبداد وكشف سبب هذا المرض وهو عقيدة نفى الذات المتمثلة فى وحدة الوجود .

وأشار إقبال إلى أن تفسير (محى الدين بن العربى) ترك أثراً كبيراً على عقول المسلمين وقلوبهم ، وقد جعل مسأله وحدة الوجود جزءاً لا ينفصل عن الفكر الإسلامى بينما أخذ جميع شعراء إيران فى القرن ١٤ ، ١٥ ينشدون أشعارهم فى هذا الموضوع فاشتملت نظريتهم عن وحدة الوجود عناصر غير إسلامية لقولهم إن الله والكائنات كلاهما متحد أو أن الله (جل وعلا عما يقولون علواً عظيما) هو عين الكائنات وفهم الايرانيون بعقليتهم الآرية إن كل شىء فى الكون هو الله .

والفلاسفة الهنادك قاموا بإثبات فكرة وحدة الوجود عن الطريق الفلسفى بينما سلك شعراء إيران طريقا خطرا وقد أدى الفهم الخاطىء لنظرية وحدة الوجود إلى سلب العالم الإسلامى قوة العمل أو ذوق العمل وقضى بدوره على شخصية الإسلام للفرد والمجتمع وقام بعض العلماء المسلمين أمثال ابن تيمية يحاول جاهدا رفع صوت الاحتجاج ضد التغيرات الدخيلة على الإسلام تلك التى هدمت مفهوم التوحيد ، وبعد محى الدين ابن عربى جاء منصور الحلاج ، أن التصوف الأعجمى يظهر الجمال والرقة والحسن فى الأدب إلا أنه يخدر النفوس ويذل طبائع الناس وعلى عكس هذا يكون التصوف الإسلامى الذى يظهر القوة فى القلوب وتترك هذه القوة أثرها على الأدب ، أن أدب اليأس لا يمكن أن يخلد فى الدنيا أبدا ، لابد أن يكون الأدب داعياً إلى الأمل والرجاء فى حياة الأمة [عن إقبال بتصرف] .

(١٣)

وقد أشار ابن تيمية إلى فكرة تعظيم الأولياء داخل المجتمع الإسلامى وقال إن لهذه الأفكار مصادر غير إسلامية وإنها تطورت داخل المجتمعات الإسلامية إلى أن أصبحت من الأمور الاعتقادية البديهية لدى كثير من الناس ومنهم بعض العلماء .

(١٤)

إن التصوف الذى إنتقده جمال الدين ومحمد عبده واقبال وابن باديس هو التصوف الذى دخل مرحلة الجبرية والذى جعل المتصوفة أولياء للمستعمر لا حربا عليه ، وهو القائم على الكرامات وإسقاط التدبير ونبذ العقل والتواكل وخاصة عندما التقى الفكر الصوفى والباطنى فى تفسير بعض الآيات القرآنية بما لا يحتمله بدعوى النفاذ إلى عالم الأسرار والأنوار كقولهم (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) وإن البقرة هى النفس وشهواتها والإسلام لم يرسم لاتباعه حياة الزهد والنسك ولاحياة الاستغراق فى الترف والنعيم ، وهو يرفض العزلة والانقطاع كما يرفض الانكباب على الدنيا .

وقد بدأت الطرق الصوفية كجماعات من المجاهدين بالسيف القائمين على أمر الله فى القلاع يرابطون عليها تحسبا لهجمات العدو على شواطىء البحر الأبيض المتوسط وكان هناك ألف رباط من رباط الفتح إلى طرطوس .

ومن الخطأ ما ذهب إليه بعض الصوفية أزاء المعرفة العقلية وقولهم بالبصيرة الداخلية والعلم اللدنى الذى يحدث بالمجاهدة والخلوة والانقطاع للذكر ، وهذا يعنى إسقاط العلوم المكتسبة ، والحقيقة أنه ليس بأسلوب الوجدان الصوفى وحده ولا بأسلوب العقلانيين والمتكلمين وحدهم ولكن الإسلام بكل وسائل المعرفة كما قام على ذلك منهج المعرفة فى القرآن نفسه . لا يمكن الوصول إلى الحقيقة عن طريق العقل وحده ولا عن طريق الحس والحدس وحدهما ، ولابد من الجمع بين العقل والقلب فى أسلوب الإسلام الجامع ومنهج المعرفة ذى الجناحين .

الباب الخامس عشر

الأدب العربي

(١)

إن هناك حملة واضحة الدلالة فى مجال الأدب العربى ترمى إلى : —

(أولا) ضرب مفهوم الأدب الأصيل والتنفير من الأدب القديم الموروث كخير رابط وموحد بين الشعوب وذلك بهدف قطع الروابط الإسلامية العربية العميقة وهو جزء من خطة تتصل باللغة العربية من حيث هى لغة القرآن ومناط البيان العربى والبلاغة التى حملت لواء دعوة الإسلام وقدمتها للبشرية فى أعلى صور الكمال .

(ثانياً) إنتقاص الأدب العربى ووصفه بالرسمية والتخلف والسلفية . وقد رفضوا فى دعوتهم « الشكل » والقالب القديم ، والدعوة إلى خلق قوالب وأشكال جديدة لها مضامين كنسية تحمل الصلبان والمناجل والمطارق، وتستمد من مضامين القلق والتمزق والضياع ووجودية سارتر وسيمون دى بوفوار وإباحتهما الفاجرة ، وكل مذاهب الهجوم والتخريب وتصطنع مصطلحات الخطيئة والفداء والصلب والخلاص وتعبيرات الأممية والصراع الطبيعى .

(ثالثاً) محاولة سلخ الأدب العربى من القيم اللغوية ودراساتها وقطع الصلة بين الأدب واللغة مع أن هذه الصلة الجذريه من أهم مقومات وجوده ، وقد يكون أدب الغرب بعيد التأثر والأثر بالقيم الجمالية فى لغاتهم ، أما اللغة العربية فهى اللغة الوحيدة التى تمتاز باتساع عظيم فى متنها وافتنان عجيب فى أساليبها ، إنها اللغة التى تستطيع أن تسخر ثلاث كلمات منها الثلاثة معان مختلفه حسب تأليفك لتلك الكلمات مع بعضها وترتيبها فى النسق .

(رابعاً) محاولة خلق جو من الأدب الانحلالى المتشائم (سارتر — مورافيا — كفكا — كامى) وهو هدف أساسى من أهداف الغزو الاستعمارى الصهيونى حتى لاتستقيم إرادة الحياة فى العالم الإسلامى وإنه على الرغم من وجود المروق فى بعض الفترات فإن لم يسمح الانحلال الخلقى كفلسفة عامة على الإطلاق ، وإنما كان يمد حين يقع خروجاً فاسداً على قانون المجتمع الإسلامى العربى ،

وسرعان ما كان المارق يذهب ويتوب (أبو نواس وعمر بن أبي ربيعة وأبو العتاهية) هذه النظرية اللا أخلاقية نظرية تشاؤمية مصدرها فكرة (الخطيئة) الغربية المسيحية فهي ليست إسلامية أساسا، وخليط من وجودية سارتر نصف اليهودي وشيوعية ماركس ومادية دوركايم ومحاولة خلق من هـذا المسخ المشوه «مادة» للأدب العربي الحديث كما يظنون.

(خامسا) تلك الصيحة الدائمة المتكررة وهي أن الأدب العربي لم يعد له عطاء حقيقي - وإن الأدب لم يعد قادراً على العطاء، إن هذا الأدب ليس أصيلا ولا مستمداً من أعماق النفس العربية الإسلامية ولكنه منحول تقليدي ووافد ومذاهب الشعر الحر والقصة المصرية مع المضامين المنحرفة والأباحية والشعوبية كل هـذا لا يمثل الأدب العربي الأصيل ومن الواضح أن القصص والمسرحيات ودواوين الشعراء التي تجري مع هذا التيار التغريبي والتي ظهرت منذ سنوات النكسة والتبعية للاشتراكية والوجودية كلها مليئة بالتفاهة ولا تمثل ضمير الأمة العربية الإسلامية، وقد وصفت بأنها تحت الصفر.

(٢)

تستهدف هـذه الحملة الخطيرة التي تقوم بها أدوات التبعية للفكر الغربي والفكر الصهيوني والفكر الشيوعي:

(أولا) انتزاع الأدب العربي من مكانه الحقيقي بوصفه (عنصرا) من (مركب) كبير هو الفكر الإسلامي.

(ثانياً) إلى إعلاء الأدب الشعبي (العاميات والفلوكلور) واللهجات المحلية الدارجة.

(ثالثاً) إشاعة الشعر الحر بمفهوم المناهضين للبلاغة العربية والحاقدين عليها والمحتقرين لها والهادف إلى محو الأصالة من حيث صدوره عن نفسيات ساذجة تحمل طفولة البشرية.

(رابعاً) إحياء الأساطير والخرافات ويدخل في باب الأدب الشعبي والفلوكلور

(خامساً) إعلاء الإقليميات والقوميات الضيقة.

(سادسا) الادعاء بأن الآداب الشيعية والعاميه تمثل حقيقة مشاعر الناس

(سابعا) حصر الأدب فى عن ماكتب لادب وتجنب النتاج المبثوث فى مختلف الفقه والعرم والتاريخ والفنون المختلفة .

(ثامنا) محاولة كتابة اسلوب عربى مغاير للأسلوب العربى الأصيل : وهى محاولة هدم للتراث ، والقفز إلى مرحلة الشعوبية من أعمال طه حسين فى كتاب تاريخ الاسلام واللغة الجديده لاساس فيها للبيان العربى الأصيل وهى عامية ومختلفه وبها عبارات مضطربه ، وهناك من يغلب اساوب العامية اللبنانيه ومصطلحات اسطورية مستقاة من الكلمات التوراتية والقديمة يروج لها فى هذا الميدان أمثال ادونيس ويوسف الخال ومجلات كانت تصدر تحت أسماء أدب مواقف وهناك دعوى اللغة الوسطى لتوفيق الحكيم .

(تاسعا) الدعوة المبثوثه إلى ادب المتعة والشهوة والفن الخليع وغايتها الرواية والمسرحية والسليما ومسلسلات الإذاعه والتلفزيون ، هى فى مجموعها تقدم مترجمات من أدب الفراش والجنس الغربى بمفاهيمه الفاسدة للمرأة والحب والحياة والتى لا تتفق مع مفاهيم المجتمع الاسلامى الأصيل .

(٣)

إن أخطر الشبهات حول مهمه الأدب العربى : هى نقطه الانطلاق لقد كانت النهضه الأدبيه مشوبة أساسا بروح الاحتواء الغربى ، وأن نشوء هذه النهضه فى قلب قضية الحزبية السياسية بعد أن سقطت الدعوة الوطنيه المنطلقه من الإيمان بالمفهوم الاسلامى (مصطفى كامل — محمد فريد — جاويش) قد خلق للأدب تقاليد باطلة وزائفة استمدت وجودها من ذلك الخرق الذى خرقة طه حسين حين دعا إلى فصل الأدب العربى عن الفكر الاسلامى من ناحية وحين دعا جماعة المجددين كلهم فى ذلك العصر إلى فصل الأدب العربى المعاصر عن الأدب العربى الإسلامى واعطائه قالبا إقليميا حتى سمى (الأدب المصرى) و (الفكر العربى) وهما كلمتان ضالتان تريدان القضاء على استمرار

حلقات الأدب العربى المتتابعه منذ عصر الإسلام وقطع سلسلة الفكر الإسلامى منذ نشأته واحتوائه وتغريبه .

أن مفهومنا الإسلامى يختلف فى عناصر كثيرة غير الأدب : يختلف فى مفهوم القومية ، ومفهوم الديمقراطية الغربية ومفهوم الزعامة الأدبية ومفهوم الدولة العثمانيه ومفهوم الحرية الأدبية ومفهوم الاقليميه والمصريه وغيرها .

(٤)

لقد حاولت المذاهب الاجتماعيه الغربية التأثير فى مفهوم الأدب العربى (دارون) هو الذى فتح الباب لتصور الإنسان بأنه حيوان والقول بأن الإنسان ليس عنصراً مستقلا ولكنه جزء من النظام الطبيعى ، و (ماركس) هو الذى ذهب إلى أن الأدب هو الذى يعكس ولو بطريقة ملتويه أحيانا : العلاقات الاجتماعيه والانتاجيه لهذا القطر أو ذاك .

و (فرويد) هو الذى يرى أن الأدب تعبير مقنع وأنه تحقيق لرغبات مكبوته وأن هذه المقنعات تعمل حسب مبادىء معروفه و (فريزر) هو صاحب الأفكار عن السحر البدائى والأسطورة أو العشيرة البدائية وأن هذه كاما تكمن فى أساس أعلى النماذج والمواد الأدبية و (ديوى) يرى أن قراءة الأدب وكتابته ليست إلا صوراً انفعالية انسانية يمكن أن تقايس بأى فعالية أخرى وأنها خاضعة للقوانين نفسها ونحن نعرف أن (منصور فهمى ، طه حسين ، زكى مبارك ، محمود عزمى ، على عبد الرازق ، طه حسين) عن ماسافروا إلى أوربا تسلمتهم أيدىغير نظيفة ، أيدى أساتذه يهود فاستسلموا لها ومنهم من عرف بعد وحاول الخروج من الاحتواء ومنهم من عاش فى كنف التبعية ، دفعوا منصور فهمى إلى التهجم على النبى وزوجاته ودفعوا طه حسين إلى التهجم على ابن خلدون ودفعوا زكى مبارك إلى القول ببشرية القرآن وقد تبين لهؤلاء من بعد خطأهم وتآمر اليهود عليهم فتراجع منصور فهمى وكشف دكتور هيكل ذلك صراحه ودعا زكى مبارك إلى الأصاله عن طريق اللغة

العربية ، وهكذا حاولوا تصحيح موقفهم إلا (طه حسين) فهو وحده الذى أصر على موقفه وتابع مناهج الغرب وخاصة مناهج المدرسة الاجتماعية (دوركايم وليفى بريل)

(٥)

من هذا المنطلق تسطيع أن تتابع الباحثين الذى كشفوا فساد التبعية والاحتواء لمناهج الأدب العربى وقد صورها على هذ النحو أستاذ جليل .

(أولا) : التراجيديا والكوميديا معارضة لمفهوم الإسلام الذى يؤمن بأن لا تزيف الصورة الواقعة فى الإنسان أو الحياة . مع الإيمان بالقضاء والقدر . الكوميديا وفن الأدب التمثيلى الذى يظهر على المسرح يوحى بأن الحياة ملهاة ورواية وسخرية ، والإسلام لا يقر هذا [لا يسخر قوم من قوم] ، (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

(ثانيا) : خطأ الدعوة إلى نبذ الاخلاق ، كما يدعى مذهب المالطوسيه الذى يرى أن الأخلاق عائق التقدم ويرى أن العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة حيوانيه والإسلام يقيم منهج الحياة على أساس الأخلاق وعلاقة الرجل والمرأة على أساس الزواج .

(ثالثا) إعلاء روح الأنانيه الرومانسيه (عبادة الذات) والاغراق فى الخيال ، والإسلام دين الواقع وإثارة العاطفة أمر لا يقره الإسلام .

(رابعا) دعوى الواقعية التى ترى أن الشر أصل الوجود وما الحياة الا رمز الوبال والمحن (فولتير — بلزاك) الخ والقيم عندهم مواصفات إجتماعيه تخفى الوحش الكامن فى الانسان ، ومن ذلك قولهم أن الانسان للانسان ذئب ضار عليك أن تأكله قبل أن يأكلك) وهذا يتعارض مع مفاهيم الإسلام : (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) فالاسلام يدعونا إلى أن ننظر إلى الحياة بمنظار الخير

(خامسا) دعوى الطبيعيين التى تجعل الانسان حيوانا (اميل زولا) وهى تسمى الانسان (الحيوان البشرى) وهو الذى يعيش عبداً لشهواته وحاجاته .

(سادسا) احياء الفلسفه البوذية التى بارت منذ القديم وكانت تميت الغرائز فى الانسان عن طريق التأملات الروحيه كما قال أصحابها الذين يؤمنون بالنرفانا (الفناء) ودعوة الموت للخلاص من الحياة (البرناسيه) بودلير جوتيه . .

أما نحن المسلمون فنحن لانتمنى الموت لضر أصابنا، والاباحيه مرفوضة فى شرعنا .

(سابعا) : الدعوة الرمزيه التى تنكر كل محسوس ، ويزعمون أن الاجساد رموز — ودعاة مثاليه افلاطون والمنادين بالإيمان النفسى والغموض عن طريق الرمز .

(ثامنا) الفرويديه : القول بأن الجنس مفتاح العبقريه والغريزة الجنسية محركة للعقل . ومن هنا يطغى الجنس على الأدب ويتحكم فى فنيته .

(تاسعا) : الوجوديون قالوا على الإنسان أن يتخلص من موروثه الاخلاقى وقول سارتر فى (لا يوجد شيء خارج الفكر ولا سابق عليه) وينكر بذلك وجود الله تبارك وتعالى .

ولا ريب أن الفطرة قد جبلها الله تبارك وتعالى على الاعتراف بالوحدانية وكل هذه المذاهب معاديه للاسلام وتقف خصما مع منهجه .

(عاشرا): أن الله سبحانه وتعالى حين خلق الوجدان والعاطفه لم يتركهما بلا اشباع أو اعطاء حقوقهم بل أنه أباح للانسان أن يروح عن نفسه بالأسلوب الذى يقره العقل والمنطق ويحدده الدين ، وكل دعوه خارجه عن مصدر غير الاسلام مرفوضه .

(٦)

إن ظاهرة إنحدار الأدب الذى تقدمه الأجيال الجديدة (التى نشأت فى ظل التبعية للنظريات الوافدة) باتت غير منكورة فقد كتب حسين مؤنس تحت عنوان (الأدب الرخيص يجتاح الحركة الأدبية) ما يؤكد هذا المعنى، وقال أن أدب الشباب (يقصد المصرى العربى منذ الستينات) أدب تافه رخيص لأنه لايصدر عن ثقافة عميقة ولا عن وجهة صحيحة فكل من استطاع أن يحمل قلما يكتب قصة، أى كلام أو يكتب شعرا حراً يقول فيه أى خواطر: خواطر ساذجة وتافهة (والصحف تفتح صفحاتها لهذا الهراء وتشجعه لأنها حريصة على خلق عرف جديد قوامه التفاهة).

ويقول حسين مؤنس: إن هناك كتبا رخيصة تغطى الأرصفة وإن موجة الأدب الرخيص تجتاح الحركة الأدبية، وأقصد الأدب السهل الذى لايكلف صاحبه فى كتابته جهدا ولا دراسة ولا إطلاعا ومن هنا فإن القارىء لايحصل منه على شىء، ويقول الدكتور عبد القادر القط إن هناك ظاهره هامة هى طغيان الأعلام على الثقافة وإن مفهوم الأدب يختلط بمفهوم الدعاية السياسية، ويركز الإعلام بكل إمكانياته الضخمة على طائفة محدودة من الفنانين تفرض امزجتهم واختلافاتهم وأمورهم الشخصية والعاطفية على جمهور المثقفين حتى أمكن أن يسمى أعلامنا (أعلام النجوم).

ونشير إلى ظاهرة الهبوط فى الأدب (فى الشعر والقصة) وفى النقد ونتساءل أين هى الأعمال الأدبية الكبيرة والجديرة بالأهتمام؟.

أما الكتاب المسمون بالعمالقة فقد نضب معنيهم (توفيق الحكيم، يحيى حقى، زكى نجيب محمود، حسين فوزى، حسين مؤنس) يقول توفيق الحكيم: أصبحت مثل شجرة الموز التى توقفت عن الطرح.

والظاهرة الرديئة على الساحة الأدبية: هى ترجمة المسرحيات والروايات العالمية ذات الطابع الأباحى والمنحرف وتقديم كل الاتجاهات الجديدة الفطيرة

التى تمثل براعم فى بيئتها والتى ليست لها طابع العالمية أو الإنسانية والتى تطرح قضايا فكرية أو اجتماعية أو سياسية غير ذات أهمية ولا يمكن الانتفاع منها كأنما أصبح أدبنا سوقا لعرض كل تفاهات الأمم والشعوب — والدراسات الأدبية فى الجامعات تقوم على أساس المناهج الغربيه الوافدة التى لا تمثل حقيقة الأدب العربى ولا تصلح للتطبيق عليه ، والتى ترمى إلى قطع الامتداد بين الأدب العربى أصلا وبين الأدب الغربى الحديث ، والنماذج المقدمة فى الأدب تقوم على أساس مفهوم زائف ومسموم وهو أن النثر الفنى فى الأدب وما سواه ليس أدب ، وبذلك يخرج من الدائرة كل كتاب الفكر الإسلامى ، وكذلك فإن دراسات اللغة تخضع لمنهج وافد .

وكل ذلك يعنى إيغال الأدب العربى الحديث فى التبعية للتيارات الغربية والتيارات المنحرفة منها على الأخص والواقع أن الأدب العربى الأصيل لا يستطيع أن يقوم ، كما يقول دكتور شكرى عياد — إلا إذا حرر نفسه من النظريات السياسية التى تصب رؤيته للحياة فى قالب وحرر نفسه من النظريات التى تحصره فى إطار الفن وتصرفه عن رؤية الحياة ، ويشير إلى الخطأ البالغ الذى يقع فيه الأدب العربى متابعا الأدب الغربى حين يقطع الوشائج التى تربطه بتراثه ، ومعنى هذا إننا نستعبد للأدب الغربى أشد الاستعباد حين نقلد أشكاله الجديدة التى دفعه إليها ضجرة بالأشكال القديمة .

كذلك فإن أدبنا العربى ينجرف بشدة الآن نحو (الأدب الأسود) : وهو ما اصطلح عليه الأدباء الأوربيون فى العصر الحاضر ، يعنى بذلك الأدب الصريح فى مسائل الجنس ، أو ذلك الأدب الذى يهتم بنواحى الضعف فى الانسان ويبرز جوانب الحياة المظلمة ، اتجاهاً نحو ترويج البغاء، والكسب الحرام . والأدب الأسود : هو ذلك الذى يخاطب الغرائز الإنسانية . وإذا كانوا فى الغرب قد انحرفت نفسياتهم نحو هذا الإتجاه فما لنا نحن ونحن نبنى حضارة جديدة يجب أن تستعلى على هذه المفاهيم المنحرفة ، وخاصة انحراف الغرب نحو استثارة غرائز القراء ، وخاصة تلك الروابط الخفية المستترة فيما بين الرجل والمرأة

كذلك فإننا حين نسقط فى التبعية الغربية فإننا تدخل مرحلة (أدب الإنهزام واليأس) وليد الرأسمالية المنهارة أو (أدب الحقـــد والبؤس) وليد الماركسية ولا ريب أن ظاهرة السيل الجارف من مؤلفات الأدب والقصص الواردة من الخارج المثبطة للهمم الباعثة على اليأس من شأنها أن تشكك على الأقل فى قيمة الحياة وجهد الإنسان المبذول لرفع مستواها ، وهى تخالف مفهومنا الإسلامى الأصيل بالنسبة للعمل والكسب والحلال والحرام .

إن هذه الصور من أدب الانهزام أو اليأس الوافدة إلينا لا تمثلنا ولا تعبر عن مشاعرنا ولا تنطلق مع مقوماتنا وهى مكتوبة بصورة ماكرة ومطروحة بعناية فى أفق فكرنا لتخلق فى أنفسنا روح الهزيمة واليأس التى حرمها علينا الاسلام (قل يا أيها الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) إن الأدب العربى الآن فى مرحلة الهزيمة والانحدار والأدب المتشائم هو وليد نظرية الخطيئة ونتيجة الايدلوجية الغربية المتدهورة المشرقة على الانهيار .

وكذلك فإننا نسرف فى الخروج من الأصالة حين نعمل على إحياء الأساطير وخاصة هذا الاهتمام البالغ بأسطورة جلجامش (ملك أوروك الذى كان يمارس عملية الاغتصاب مع عذارى قومه قبل زفافهن إلى أزواجهن) .

وهذا إستمداد من نظرية إعادة كتابة التراث على مفهوم التغريب والشعوبية : هذه النظرة التى بدأها الدكتور طه حسين بكسر قداسة النص الاسلامى فى عصر الصحابة وثنى بها لويس عوض فى كسر قداسة اللغة .

وهناك الدعوة الفينيقية التى تبناها دعاة الحزب القومى السورى وما يتصل بها من كتابات بدر السيات الذى استعاد جلجامش وأودونيس الذى استعار (تموز) وصلاح عبد الصبور الذى استعاد الحلاج وثورة الزنج والشرقاوى الذى وصف الرسول محمد بأنه مصلح إجتماعى وكان ذلك على طريق جرجى زيدان وأحمد أمين وهيكل الذى أنكر المعجزات ولقد رأينا عجباً فى ذلك النظام الذى قدمته أقلام الماركسيين والشعوبيين والتغريبيين خلال فترة (الستينات) من تقديم الفكر الماركسى من

خلال الفكر الوجودي ، وتيار القومية مع تيار الماركسية ومنها أسماء محمود أمين العالم البحث الماركسي وكتابات رجاء النقاش وغالي شكري ولويس عوض وكامل زهيري ، التي لا يمكن أن توصف بأنها ماركسية أو وجودية أو بعثية أو مادية خالصة وعلى رأس التيار المادي دكتور زكي نجيب محمود الذي أحيا من التراث العربي : الزنادقة دعاة المجوسية والشعوبية أمثال ابن الراوندي .

أما الشعر الجديد فقد كان محاولة واضحة لكسر عامود اللغة والشعر ولخلق تيار تحطيم البلاغة العربية تحت عنوان المونولوج الداخلي والحوار العامي ، حيث تجد بدر السياب وخليل حاوي والبياتي ونزار قباني ، وأودنيس ،ومحمود درويش وصلاح عبد الصبور وفاروق شوشة ونجيب سرور وكمال عمار وجيلي عبد الرحمن وتاج السر ومحي الدين فارس ومحمد الفيتوري وسلمى الخضراء الجيوسي وناجي علوش ، ومقوله أن الشعر الفرعوني يسبق البيوت وشكله التجديدي في الأرض الخراب بثلاثة آلاف عام كما يقول الوجودي الماركسي (مجاهد عبد المنعم مجاهد)

ويصور الهدف أنور عبد الملك من تلك المحاولة التي وأدت وسقطت وإن كانت آثارها ما تزال مبعثرة هنا وهناك في مجلة العربي ومجلة الدوحة وهي محاولة تغيير الإطار العربي الإسلامي : يقول هذا هو جوهر عملنا القائم منذ ١٩٥٩ وتجديد الفلسفة الاجتماعية على ضوء تفاعل حضارات الشرق والغرب (وتحت اسم الثورة الوطنية التقدمية) وهي مرحلة الحملة على المفاهيم والتقاليد الفكرية الموروثة للأجيال السابقة في اجواء (استشراق أو أممية أو سلفية) ومعنى هذا كله هدم الأساس الإسلامي لهذه الأمة الذي قام عليها الفكر الإسلامي والأدب العربي والتاريخ واللغة خلال خمسة عشر عاما ، وقد جرت المحاولة وهي شبيهة بالمحاولة الأخرى التي سبقتها بقيادة الليبرالية العربية وسقطت كلتيهما .

(كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)

أن الأدب العربي لم يستطع أن يقف أمام هذا التيار العنيف ولكن الذي وقف هو « الفكر الإسلامي » الأصيل المستمد من القرآن والسنه فقد انتفضت

الأقلام المؤمنة وراحت تواجه المعركة فى أصالة وثقة ، على نفس الطريق الذى واجهت به هذه الأقلام نفسها مؤامرة ترجمة الفلسفة اليونانية والمجوسية واستطاعت أن تضع الحقائق الإسلامية واضحة أمام الأجيال الجديدة التى كانت قد عرفت طريق الله بعد النكسة التى كانت قمة هذا التحدى من التيارات الغربية والماركسية والصهيونية ذلك لأن الأدب العربى — أو الأدب جملة — لا يستطيع أن يعطى فى أيام المحن الكبرى ، ولقد خضع الأدب للتيارات وأنشأ غثاء منهزماً ، لا يمثل هذه الأمة ولا حقيقة جوهرها ولا معدن أصالتها ولا روحها الإسلامية القرآنية ، ولكن المدرسة القرآنية هى التى استطاعت أن تحمل اللواء وأن تصحح المفاهيم .

ولا ريب أن كل هذه الفنون الضالة الهابطة من القصة والشعر الحر والمترجمات ذات التبعية سوف تموت وتبقى الأصالة ؟

(٧)

ولقد كانت قضية المذاهب الأدبية (رومانسيه وكلاسيكه ورمزيه) عنوان آخر على التبعية ، فهى مذاهب متصلة بتطور الأدب الغربى فكيف ننقلها إلى ساحة الأدب العربى دون أن يكون لها وجودها الحقيقى — يقول الدكتور محمد محمد حسين : إن احتفاظ الأمة بخصائصها المميزة لشخصيتها الجماعية من الأهمية بمكان . سواء فيما يجتمع عليه من ناحية وفيما تخالف فيه غيرها من ناحية أخرى ، ويمثل ما أن الاتحاد مقصود لذاته فالمخالفة أيضاً مقصودة لذاتها ؛ لأن الأمم تحتفظ بذواتها من هذين الطريقتين معاً ، والأمة التى تفرط فيهما أو فى أحدهما أمه تسعى إلى فنائها باندثارها وفنائها فى غيرها . المذاهب الأدبية الوافدة (رومانسيه ، وواقعية ورمزيه) حركات أدبية تنبعث من واقع اجتماعى وصدرت عن نظريات فلسفية فى الحياة والفن قد يتعارض مع نظرة الاسلام وآدابه وحلاله وحرامه . ولكنها مع ذلك تتميز فى موطنها بالصدق لأنها ولدت ولادة طبيعية وعبرت عن حاجات نفسية واجتماعية وفكريه حقيقية . أما ما يقابلها عندنا فهو شاحب ذابل كالنبات المنقول من غير موطنه لأنه

وجد دون أن تدعو إليه حاجة . والمبرر الوحيد لوجوده هو التقليد ومثلنا فيه كمثل البدائى الذى يلبس قبعة الغربى وقفازة ويظل مع ذلك عارى الجسم حافى القدمين غير مستور الصورة . لست أحظر التأثير والتأثر فى مجال الأدب وغيره من المجالات فذلك شيء لا سبيل إلى مقاومته لأنه يجرى على سنن يستحيل الوقوف فى وجهها وضد تيارها .

ولكن الأمم الحية تتحرى فيما تأخذ وفيما تدع الأمور على فطرة سليمة ووعى ذكى ، وتدرك أن ما تصلح عليه جماعة من الناس قد يؤذى جماعة أخرى من غير جنسهم . والجماعات البشرية فى هذا كالنبات والحيوان وسائر خلق الله تعتمد فى غذائها على عناصر وأنواع يختلف باختلاف أجناسها .

فإذا أخذت فبمقدار ما يصلح شأنها ويزيدها قوة ونماء ثم لابد من إحالته إلى عصارات تجرى فى عروقها لتبنى خلايا جديدة من جنس خلاياها ويظل للمر بعد ذلك من النبات مرارته وللحلو حلاوته وللمز مزازته ولكل صنف منه رائحته المميزة وشكله الفريد .

(٨)

ولقد دخلت على الساحة الأدبية كتابات إسلامية من كتاب عرفوا بالولاء للفكر الغربى ، وهلل الناس وكبروا كثيراً لهذه الكتابات وعدوها منهجا أصيلا فى الكتابة الإسلامية ، ومن أهم ذلك ما كتبه العقاد وطه حسين وهيكل .

والحقيقة أن هذه الكتابات الإسلامية كتبت فى إطار المنهج الغربى فى الفكر والتاريخ وأنها لم تحرر تماما على منهج الإسلام ، ولم تخل من سيطرة المفهوم الغربى والمادى على كتابها ومن ذلك خطورة انكار معجزات الرسول (هيكل) أو اعتماد مذاهب المفكرين الغرب أمثال لمبروزو وغيره فى تفسير حياة أمثال أبى بكر وعمر بن الخطاب (العقاد) أو محاكمة عصر الصحابة لمفاهيم السياسة والصراع الحزبى (طه حسين) .

ويقول دكتور محمد محمد حسين : طه حسين والعقاد لا ينتميان أصلا إلى

المدرسة الإسلامية من الناحية الفكرية ولكنهما يلتقيان منذ نشأتهما إلى المدرسة الليبرالية المحررة التى نعتبر لطفى السيد أستاذها الأول فى جيلهما ، والمدرسة الليبرالية تحكم العقل المجرد والمتحرر من كل المواريث الفكرية والسلوكية فى كل شىء ولا تبالى أن يلتقى مع الدين فى كل وجهات النظر أو فى بعضها أو تتعارض معه وتخالفه ولكن طه حسين كان أكثر عنفاً وأكثر جرأة فى معارضة الدين وفى المجاهرة بما يثير الناس ليلفت إليه الأنظار . هاجم طه حسين أبيه فيما كان يتلوه من أوراد فى أعقاب الصلاة وفى الليل فى كتاب الأيام ، وطه حسين والعقاد قد اكتسحتهما الموجة الإسلامية العارمة فتتابعت كتبهما بعد أن أصبح ذلك هو البدع الشائع الذى يغمر الأسواق ، ولم يعد التشدق بالكفر ونظراته المستوردة سمة من سمات المفكرين تستهوى الأغرار من الشباب كما كان فى العشرينات ، ويرجع هذا الانقلاب الفكرى إلى عدة عوامل عدلت بالناس ويكثر من المفكرين عن طريق احتذاء الحضارة الغربية والفكر الغربى إلى طريق الاسلام منها :

(١) موجة التبشير . (٢) هجرة اليهود إلى فلسطين .

(٣) سقوط الخلافة على يد الكماليين .

(٤) ظهور جمعيات إسلامية عظيمة يقودها الاخوان والشبان:

وهناك قاعدة أساسية يجب أن توضع فى الحساب حين يوزن الأدباء والمفكرون من وجهة النظر الإسلامية وهى : إن الإسلام نظرية فى السلوك بمثل ما أنه نظرية فى المعرفة ولذلك كان من المهم أن لا يقبل فكر إسلامى أو أدب إسلامى من مفكر ، أو أديب لا يمارس الإسلام ولا يلتزم به ومعروف أن طه حسين والعقاد لم يكونا ممارسين للإسلام فى أصوله الأصيلة ولا شك أن من وراء وسائل الاعلام جهات مختلفة ذات نفوذ وسلطان تجمعها عداوة الإسلام والكيد له وهى تعمل بأيدى ضعاف المسلمين الذين يغريهم بريق المال والجاه .

(٢)

السريالية

لقد جرت المحاولة مرة ومرة ومرة ولا تزال تجرى لإخراج المسلمين من الدائرة الحقيقية إلى الدوائر الوهمية ، جرت وتجرى حول الإقليمية وحول القومية وحول الاشتراكية ، وكل دورة من هذه تأخذ زمنا طويلا ووقتا وجهـــدا ثم تنفثىء كما تنفثىء الكرة أو كاوتش السيارة ، وتجرى المحاولات مرة أخرى للعودة إلى شيء جديد ، المحاولات كلها ترمى إلى ضياع الوقت وإلى اللعب فى ملاعب الآخرين ، وإلى امتصاص الفورة وتذويب النهضة ، أن هنـاك عشرات المحاولات منها محاولة الفلـكلور والـكتابة بالعامية والشعر الحر ، هناك محاولات المسرح والمسلسلات والكرة وإحياء الأساطير ، ومفاهيم التصوف الفلسفى (الحلاج وابن عربى وابن سبعين) واللهو بالرحلات والسياحات والموسيقى الصاخبة والأغانى ، (وكل هذا مدون فى برتوكولات صهيون) وهناك الدعوات الماكرة إلى تعلم اللغات أو ترجمة كتب العرب ، كل هذا يجرى بطريقة عشوائية لأنها لا تلتزم تقديم شيء نافع ، ولـكنها ليست عشوائية فى تقدير القائمين عليها والداعين إليها بالشعارات الطنانة ، العبارات الرنانة ، ومن وراء ذلك نكسات متواليات لأن الطريق غير صحيح ، والوجهة مكذوبة خادعة مضللة ، إن الذين يمسكون بالخيوط من وراء الستار غاية فى الذكاء وقادرين على التغيير فى الوقت المناسب لتقديم فصل آخر ، فى العهد الناصرى (١٩٥٢ — ١٩٦٧) بديل الثقافة الاقطاعية هو تقديم الثقافة الشعبية (الفلـكلور) ودعوات الارتباط بالأرض والتراب ، ودخول مرحلة الترف الفـكرى بينما الوطن فى مرحلة القحط الاقتصادى ، وفى المغرب يتحدثون من أحدث النظريات الغربية المحترفة عن (السريالية) فى الرسم ، وقـد أثارت (التجريدية) الجدل واختلفت الآراء فى تقييمها ، الـكثير من الناس لايفرقون بينها وبين التجريد الذى عرف كأسلوب فى معالجة الأعمال الفنية،

ولتقريب مدلول التجربة نقارن بين الصورة الفوتغرافية واللوحة الفنية لنفس المنظر ، وطبيعى أن نرى اختلافا ولو طفيفا ، لأن الفنان لابد أن يضيف أو يلغى شيئاً من الصورة الأصلية ، هذا الإلغاء يعرف بالتجريد ، هذا الشكل من التجريد عرف فى الأشكال الفنية منذ عهد أفلاطون ، أما الفن التجريدى فقد ظهر كمذهب أو مدرسة فنية تقطع كل صلة لها بالمدارس الأخرى — التجريدية تعتمد على جمال ميتافيزيقى غير مادى ، ولا علاقة له بالواقع إذ أن الفنان يجرد عمله الفنى من الموضوع ومن المضمون ، ولا يعطى اهتمامه للشكل الذى يحافظ على تبعيته ، والتجريدية نوعان منها مايستهدف الجمال ويراعى خلال إنجاز عمله الانسجام بين الأبواب والتناسب بين التفاصيل وتوزيع الفراغات (ويسمى التجريدية الزخرفية)أما النوع الثانى الذى يستعمل فيه الحبر والألوان عشوائياً متجاهلا ما يمليه عليه الوعى فيلغى التناسق والانسجام .

أما السريالية فقد ظهرت أول الأمر : كحركة احتجاج على حضارة العقل والعلم والتقدم التى صاحبت الحرب العالمية الأولى ، كانت الحرب العالمية الأولى فى نظر الشباب المثقف من جيلها أكبر شاهد على إفلاس حضارة العقل والعلم والتقدم التى نادت أوربا بالغاء ماقبل بثلاثة قرون كاملة منذ بيكون وديكارت ونيوتن على أقل التقدير ، هذا اليأس من العلم والعقل دفع بالمثقفين المحافظين مثل عذرا باوندت وس اليوت إلى الكثلكة والتماس الخلاص بالإيمان المطلق مما دفع المثقفين إلى رفع راية اللاعقل واللاعلم ورفض الواقع والمجتمع والدعوة إلى الثورة الدائمة على كافة المواصفات الأدبية والفنية والاجتماعية . ومن اليأس الذى يعيش فى ظل الدمار الذرى الوشيك الذى يثير بين البشر اليوم ألوانا من المثل ، مثل كآبة جيمس دين وفوضوية الهيبية وعدميه الألولة الحراء وانتحارية جيم جونز ومجتمعات أخرى رافضة للحضارة .

وكان شعراء السريالية يحملون كل سمات المراهقة التى يتميز بها طابع الايقاع ، وامتدت المراهقة من الفكر إلى السلوك : صرخات مبهمة

وألفاظ مدغدغة . ولقد مزج السرياليون التصوير بالأدب فى الأدب بالموسيقى والموسيقى بالتصوير والكل بإيقاع الرقص .

وكانت ثورة السرياليين فى العشرينات بعد الحرب العالمية الأولى أشبه بثورة الوجوديين فى الاربعينات : ثورة فى الفكر والسلوك بمفهوم عبادة الحضارة والصخب والتعاطف مع كل جديد وتحدى كل ما تعارف عليه الناس وتواضعوا ، هذا كله يعطى مفهوما واضحا أن السريالية من مذاهب الهدم وقد سارت السريالية فى طريق مسدود وخرجت منها الفوضوية ، وقد عرفت باسم (الدعاية للمبدأ بالجريمة) ومشكلة القانون والحرية هما مفتاح الفوضوية ، فالقانون إلزام وقيد على حرية الفرد والحرية عندهم بغير حدود ولا قيد ، وعداء الفوضوية عداء صريح وقد قامت بأعمال القتل والنسف والتخريب ومن قلب السريالية ظهرت الوجودية وهى نبت مادى مشوه يجعل كل همه قضية الحرية والإنسان والدعوة إلى تحرير الإنسان من كل القيم والقيود دون تقدير للقاعدة الأساسية التى تقول : إن حرية الإنسان تنتهى عندما تبدأ حرية الآخرين . بمعنى أن الإنسان يظل متمتعا بحريته إلى أن يصل إلى مجال حرية الآخر والحرية فى المفهوم الأصيل : مقيدة ولها ضوابط . ومن أبرز نتاج السريالية (الأرض الخراب لاليوت) يعتمد على كتاب الغصن الذهبى لفريزر والكتاب المقدس ، وقال النقاد أنها تمثل انعكاسا لفوضى العصر وقال أنها أكبر العوبة فى هذا القرن .

وقد وصفت السريالية وخليفتها (العدمية والوجودية) بأنها أدب يستمد كيانه من عالم اللاوعى وينكر الواقع ، ويتسم بالغموض ، ويهدف إلى الهروب من الواقع وإلى خلق عالم وهمى يعوض عن نقص العالم الواقعى ، ويمكن تسميته أدب هروب أو تخلص من الالتزام الأخلاقى والمسئولية الفردية وقد خلق مفهوما زائفا من وضع الخيال مكان الواقع وتعمد قادة هذا التيار الرمزى (بودلير ومالارميه ورامبو وغيرهم) على تعمد الاضطراب والتشويه عن طريق الغموض وسحر اللغة والاغراب فى كل مألوف وتدمير نظام الواقع والأنظمة المنطقية والانفعالية المألوفة ولهم آراء عجيبة لا يمكن أن يقبلها أفق

الأدب العربي القائم على الأصالة والإيمان والعقل والوجدان فيقول رامبو أن على الشاعر أن يشوه نفسه ، وأن الدفعة الشعرية لا تنبعث إلا بمسخ الذات وتقبيح النفس وحينما تراجع هذا الرعيل من الشعراء تجد خروجا على المألوف فى السلوك والمظهر والعقيدة والتعامل مع المجتمع ، هـذا الأدب لا يمـكن أن يكون صادراً عن شخصيات سوية فضلا عن أنه لا بد أن يكون مقصودا به تدمير المجتمعات ومن ورائه قوى خطيرة تعمل على ذلك .

ومن يدرس حياة هؤلاء يجدها مثلا للشذوذ وللنهاية السوداء لإسرافهم فى الانحراف عن قواعد المجتمعات . ويرد (لوتريامون) هذا الشذوذ إلى فقدان الحنان العائلى ، فمنهم من كان ابن غير شرعى ، فبودلير الذى شكل زواج أمه من غير أبيه صدعا فى حياته ، ورامبو الذى لم يلق العطف من أمه وعلاقاته المضطربة بالمرأة لضعف رجولته واعتناقه (الداندية) النعومة المتأنقة . والمركيز دى ساد الروائى الذى اعتبره السرياليون منهم واشتق من اسمه المرض النفسى المعروف : فضلا عن البوهمية والشذوذ الجنسى والموت المبكر،هؤلاء الذين أكدوا شذوذهم ، قد سحقهم المجتمع ، فأمضى سادِ معظم حياته فى السجن وقضى غيره نحبه وقد أنهكه الـكحول ومات بوريل من شدة الفقر وتعرض سويفت لعشر سنوات من المرض العقلى وقضى بودلير بعد أن فقد الـكلام ومات نيتشه مجنونا ولاسونيه على المقصلة . وعاش توفو وفيليه فى فقر موقع وانتحر من السرياليين جاك ريجو وريه كريفيل واعتبر السرياليون انتحارهما نوعا من الاستشهاد واعتبروه تحقيقا للذات . ولا ريب فقد كان الاقبال على الانتحار وتدمير الذات من دعوات السريالية وكذلك الهلال والامحاق والانتحار . ويؤكد السرياليين على تجوالها فى المنطقة الحرام فيؤمنون بالأشباح وبالقصور التى تسكنها الأشباح ، والهلوسة أثناء اليقظة وتبدأ الهلوسة كطريق للرؤية والرؤيا أمام الشاعر السريالى وقد رسموا كثيرا من الصور المريضة القائمة على الوحوش والظلام والأشباح .

ومن هنا فقد وصف شعر السرياليين بأنه شعر الهواجس والأحلام والهلوسات الصادرة من اختلال الحواس ورجوعا إلى العقل الباطن أو تعمد

الهلوسة التى تصطبغ بالمخدرات والعقاقير لتنشيط ملكة التخيل وشعرهم شعر حر منفلت من رقابة الوعى صادر من أعماق اللاشعور حيث أن الضبط والمنطق من ألد أعداء السريالية وهى ما قامت إلا لتحطيمه حتى لا يكون للكتابة مضمون خاضع لاهتمام جمالى أو أخلاقى .

هذه هى ظاهرة السريالية التى نقلت إلى أفق الأدب العربى والشعر العربى تحت أسماء كثيرة أصيب بها المجتمع الاوربى بها بعد حربين مدمرتين فكانت هذه التيارات التى شكلت بثوراً على وجه الأدب ولما خفت حدة الحمى ، وبدأ المجتمع الاوربى يرجع إلى شىء من اتزانه رأينا نهاية السرياليين كما رأينا انتهاء موجة البيوت وخفت صوت الوجوديين ، وتقلصت بذلك روح الغربة وانعزال الفرد وضياع التفاؤل فى خضم العدمية وفقدان العلم .

ولقد وصفت السريالية وبحق « دعوة إلى الهروب من الواقع » وكانت رد فعل (الدادية) التى صورت كل أهوال الدمار ومآسى الحرب العالمية الأولى ، وهى تعبير عن النفس بعيدا عن رقابة العقل ودون أى حساب للاعتبارات الجمالية فضلا عن الأخلاقية ولاشك أن فكرة السريالية فى القول باطلاق الفكر بحرية كاملة لكى يملى خواطره وشوارده ونزواته وشطحاته بدون رقابة من العقل المعتد بقواعد المنطق والحساب هو قول لا يقوله إلا مجموعة من شذاذ الآفاق والمجانين ولا يقال إلا تحت ضغط تحديات خطيرة ولا ريب أن القوى التلمودية قد اتخذت من نظريات فرويد فى علم النفس والجنس منطلقا للسريالية فاتخذت منها ركيزة ثم جاءت الوجودية فى المرحلة التالية بعد الحرب العالمية الثانية . (بتصرف عن عبد الله المدرس)

(٢)

يقول عبد الله المدرس (فى كتاب عصر السريالية للدكتور والاس فاولى) يلتقى أقصى اليمين بأقصى اليسار فى توافق غريب ، وتتجاوز الاسرائيليات

اليمنية التى تبلغ حد السحر والأساطير والبدائية والطقوسية واللامعقولية مع التيارات الفكرية السارية الت تبدأ بتحطيم كافة القواعد والمؤسسات : اللغة ، العائلة ، الدين ، المجتمع ، الأخلاق ، الدولة منتهية إلى نزعة عدمية لا تعرف سوى الهدم والتدمير ، وتنتقل زعماء السرياليين بين الشيوعية والليبرالية ، وبين موسكو وواشنطون .

كذلك فإن كتاب عصر السريالية محولات كيدات مستمرة على أهمية الفكر اليهودى فى النظريات الفيه : سريالية وغير سريالية وعلى دور اليهود فى قيادة الحركات الفيه والفكرية الجديدة فى ريادة الحركات الفنية والفكرية الجديدة وعلى القيم الدينية اليهودية المنبثة فى حنايا الكتاب عبر الأطار السريالى (فوق الواقعى) ومن خلال أشد النزعات انكاراً للدين والصاقا بالرفض والتحلل والإلحاد .

وأشار عبد الله المدرس إلى ماتلعب حركة السريانية من العنف والنزعة التخريبية للاجهاز على كل القواعد والقيم والعلاقات والموسسات اللغوية . والدينية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية حداً يجعلها أداة حسنة لتنفيذ بعض الأهداف اليهودية فى نشر الفوضى والتفكك والإباحية الجنسية فى أقصى حالاتها الشذوذية والخراب سواء عمل فى إطارها اليمينيون أو اليساريون مادام (ماركس) و (فرويد) اليهوديين قد ضمفا بسبب نزوعهما الثورى العنيف ضمن قائمة السرياليين . أى فوق الواقعيين .

ويكشف عبد الله المدرس من مراجع كتاب (عصر السريالية) لمولاس فأولى الجذور الحقيقية للسريالية المرتبطة بالشيوعية فهى تستخدم المعايير الماركسية فى أكثر من موضع كقيم موضوعية ، وعبارات السريالية تذكرنا بعبارات بروتوكولات صهيونية وخاصة فى مفهوم الحرية وحين تعظم السرياليين ماركس وفرويد اليهوديان فى سلكهما تبدوالهو ودواضحةو مكتملة فقد تحدثت البروتوكولات عنهما وعن نظريتهما كأدوات لسحق القيم وتدمير المجتمعات وتفكيك العلاقات الإنسانية قالت البروتوكلات :

لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ، ولا خطوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا بالتأكيد، والكتاب يشير بوضوح وتأكيد على اليهود الذين يقفون مباشرة أو بشكل غير مباشر وراء هذه الحركة الهدمية المتطرفة . قالوا في البروتوكلات :

إننا نسخر في خدمتنا أناساً من جميع المذاهب والأحزاب من رجال يرغبون في إعادة الملكيات واشتراكيين وشيوعيين وحالمين بكل أنواع الطوبيات ولقد وضعناهم جميعاً تحت السرج» .

إن السريالية تعتمد على نظرية (اللاوعي) التي بدأها منذ وقت بعيد ثلاثة من اليهود هم هنري برجسون ، واندريه جيد وفرويد ، ولقد كانت نظرية فرويد في (اللاوعي) هي مرتكز النشاط السريالي كله ، ومنها تشم رائحة الشوق إلى الكهنوت الإسرائيلي وسحره وتمازيمه ، وفرويد كما هو معروف يرد كل فاعليات الإنسان إلى الجنس ويرفع دعوله باسم التحرز من العقد والكبت لكي ينزل به على كل القيم الدينية والعلاقات الأخلاقية والمؤسسات الاجتماعية ولكي يدمر الثقة بالعقل والمنطق والممارسات الواقعة .

هذه المطروحات الخطيرة في أفق الأدب العربي بترجمات كثير من القصص السريالية والهدمية إلى اللغة العربية دون أن يكون واضحاً وجهتها أو مفهومها أو تياراتها يدعونا إلى الحذر واليقظة فهذا منطلق لصراع شامل تقوم به القوى التلمودية الصهيونية للآدب العالمية كلها وبالطبع يتسرب إلى الفكر الإسلامي والأدب العربي .

وهذا كما يقول — عبد الله المدرس — يتطلب منا المزيد من تأصيل شخصيتنا في عالم الفن والفكر والأدب تماماً كما يتوجب ذلك في عالم السياسة والعقيدة والحرب .

وهذا التأصيل الذي نجده منبثا في حنايا كتاب الله ونداءات رسوله

عليه الصلاة والسلام وهو البديل الوحيد لهزيمتنا ، وأى اختيار غيره فى عالم الفكر والسياسه والعقيده يجرء بمثابه انتحار أو تأكيد الهزيمة على الاقل .

ومع ضيق الأفق والتعتيم ومحاوله حجب الجذور الذى تفرضه قوى التغريب ، فاننا ننظر إلى هذه المصطلحات على انها كلمات أدبيه ونغفل عما وراءها من أهداف واغراض ويجرى كثير منا وراءها مخدوعين على أنها مصطلحات علميه يمكن أن يتابعها الأدب العربى ليكون عصريا مساوقا للنهضة مع أن الحقيقه هى أن الأدب العربى حين تتابع هذه المصطلحات يوغل فى غربة شديدة ويخلع ثوب اصالته وينصهر فى اتون الفكر الوافد المنحرف الذى دمرت قيمه وقواه مؤامرة احيوانه فى اطار الاباحيات والاساطير .

ويتصل بهذا ما يحاول دعاة التغريب اذاعته من الادعاء بأن الفكر الأسلامى يتشابه مع الفكر الماركسى وأن منطلقات الفكرين واحد ومن ذلك قولهم زوراً بماركسيه بعض الصحابه الاجلاء أو أن الأسلام ثورة اجتماعية قادها الثائر الاعظم محمد بن عبد الله ضد أغنياء قريش لصالح فقرائها ، وذلك كله اتجاه مسموم بقصد تفريغ الاسلام من محتواة العقائدى والروحى وتفريغ القرآن من أنه وحى من عند الله ونفى صفة النبوة عن الرسول واعتبار أنه مجرد مصلح اجتماعى لا أكثر .

(٣)

الفالكور

وهناك الدعوة إلى الادب الشعبى : أو الفالكور والاحتفاء به ورعايته واحيائه وهو امتداد تطبيقى للدعوى إلى استبدال اللهجات المحليه العامه مكان اللغه الفصحى لتمزيق شمل العرب والمسلمين ، يقول الدكتور محمد محمد حسين : أما الفلكور فهو اصطلاح ظهر فى أوربا فى منتصف القرن الميلادى الماضى ليدل على الدراسات التاريخية التى تتصل بعادات الشعوب وتقاليدهم

وطقوسهم أو أمثال أو تراث أو أهازيج ، يدرس هذا كله من خلال الآثار والعاديات كما تستقضى آثاره الباقية فى الجماعات البشرية المعاصرة ، وقد انصرفت هذه الدراسة عند نشأتها إلى المجتمعات المتخلفة والمستعمرات بقصد التعمق فى دراسة سكان هذه المناطق للتوصل إلى أمثل الطرق وأحذق الخطط للتمكن منهم واستغلالهم واستدامة عبوديتهم ، ثم امتدت إلى المجتمعات البشرية على مختلف المستويات ، واستخدمت فى توجيه كثير من الفنون كالرقص والموسيقى والأناشيد وجهة قومية يتميز كل بلد عن غيره من البلاد والقوميات وجهلنا بأهدافها الحقيقية وحب التقليد نقلنا (الفنون الشعبية) واتجه همنا إلى الدفاع عنها وتمجيدها والمحافظة عليها وكثر خلط المخلطين . وتهريج المهرجين باسم الشعب والشعبية ولا ريب أن تغذية هذا التيار وتنمية هذا الاتجاه لا يساعد على تدعيم الوحدة الإسلامية أو الوحدة العربية التى هى بلاشك نواة الوحده الإسلامية التى لا تصح بغيرها بل هى على العكس من ذلك تماماً فإنها تساعد على تفتيت الجامعة الإسلامية والجامعة العربية بما تحييه من نعرات عنصرية وطائفيه كانت تجتمع على الإسلام وقيمة ولا عقيدة لها فى سواه» .

٣ — اتصال الفلكلور بالدعوة إلى إحلال اللهجات العامة محل العربية الفصحى

هذه الدعوة وجدت مواجهة عنيفة . وهى تستخفى حينا لتظهر من جديد وقد حاول الداعون بها أن يوجهوا العناية إلى الجمال الفنى الذى تمثله بعض الأمثال والقصص والأغانى التى يتداولها العامة .

وقد دونوا مالم يكن مدوناً والقوا مزيداً من الأضواء على ما كان مدونا بطريقة تكتيكية ملحوظه مثل ألف ليلة وغيرها . فلما برزت الدعوة إلى العناية بالفنون الشعبية (الفلكلور) وتمسح الداعون بهذه الدعوة بين العرب بالشعبية والشعب زاعمين إن الاهتمام بهذا اللون من الفنون يرفع من العناية بالطبقات الفقيرة الكادحة وما يتصل بها من شئون ، نشط دعاة اللهجات العامة للتحمس لهذا الاتجاه ومساندته لأنهم وجدوا فيه متنفساً لدعوتهم ومجالا فسيحاً لتطبيقها : والفن فى صورته العامة وسيلة من وسائل السمو

فوق الواقع المسف ، والفن الذى يستحق أن يجهد النقاد أنفسهم فى تذوقه هو الأثر الذى أجهد الفنان نفسه فى إنتاجه ، فالنقاد غير مكلفين بعفو خواطر البدو والعوام لأن عفو خواطر العوام لا يصلح إلا للهو أمثالهم من العوام ولا ينبغى أن يكون من أهدافنا التسفل بالأذواق المهذبة بل العكس تهذيب الأذواق الخشنة البدائية،ولقد كان هذا التهذيب من أثر الإسلام فى البدوفقدشملت آدابه مختلف نواحى الحياة الفردية والاجتماعية ومناشطها من مأكل وملبس بل تغلغلت آدابه إلى أدق المعاملات فى معاشرة الرجل لزوجه وامتدت إلى أخفى الشئون فى خلوة المرأ لقضاء حاجته . والذين يدعون إلى الأدب الشعبي من منطلق ترويج العامية بزعم أنها لغة حية وأن الفصحى لغة ميتة مهجورة ينسون أن الأدب بطبعه متعة عقلية وروحية وهو بهذا الاعتبار ليس هواية شعبية ، وليست المشكلة مشكلة الألفاظ فحسب ، ولكنها مشكلة الأفكار والاخيلة التى تحتاج فى تذوقها إلى مستوى ثقافى معين ، فمهما نعمل على تيسير الألفاظ وجعلها فى متناول عامة الناس فلن يستطيعوا آلافهم مايلائم عقولهم وثقافتهم من الآداب السطحية التى لا تعبر عن أغوار الحقائق وأعماقها والأدب الشعبي لا يتميز بلغته فحسب بل يتميز أولا وقبل كل شيء بسطحيته فى التفكير وبساطته التى تلائم السذج من البدائيين ولكنها لا تشبع حاجات المثقفين وطلاب المعرفة من أصحاب الفكر الرفيع والمزاج الصافى الصقيل ، ومن هنا يتبين أن تشجيع مايسمى بالأدب الشعبي ينطوى على ضرر بالغ من ناحيتين :

(أولاهما) : هى تمييز كل جماعة بطابع خاص بتعصب له مما لا يعين على تدعيم الوحدة المرجوة .

(ثانيهما) . إنه يعين على تقطيع ما بين الأمة من وشائج فيصبحون لا يفهم بعضهم عن بعض والمسلمون والعرب لا يجتمعون على فهم شيء مما يذاع فى مختلف أجهزة البث ألا ما يذاع منه بالفصحى . وضرر آخر أنه يدعو إلى الانحدار الفنى بدل أن يأخذ الأذواق إلى الأسمى والأفضل .

(٤)

الأدب العربى فى منظور الفكر الإسلامى ينبغى أن تخضع لمقياسين .

(الأول) : مقياس إسلامى يأخذ أصوله من التصور الشامل للكون والحياة والإنسان وينطلق من كتاب الله وسنة رسوله .

(الثانى) مقياس فنى يستقى أصوله من اللغة العربية وبلاغتها وسحرها الأخاذ وبغير هذين المقياسين يفقد الأدب هويته ، وأهم ما يمثل الأدب العربى النظرة الشاملة إلى الحياة لا كما صورتها النحل الزائفة والأهواء الجامحة ممثلة فى عدة عناصر :

١ — الشوق إلى الله لا بأسلوب التناسخ والحلول بل بأسلوب القرآن الذى يرفض ما يشيع الآن من أدب بعض الكتاب ممن تأثروا بالاتجاهات المريبة .

٢ — الابتعاد عن فكرة تعدد الآلهة التى شاعت فى الأدب الحديث نقلا عن الملاحدة والافاقين الذين ظهروا فى عهود الجاهلية أو الذين ظهروا فى كهوف الضياع الذى أخذ يطبق على العالم بعد أن فقد إيمانه وقدرته والتحرر من سيطاره (اللاوعى) الذى صار هذيانا فى كثير من الأعمال الأدبية واتخذ طابعاً يعوق الفكر ويعقد الإبداع ويصدر مالا ينفع الناس وهو ما يرفض العقل السليم والذوق الرفيع .

٣ — الاستفادة من التصوير الفنى فى القرآن الكريم وما يتصل بالحياة الدنيا وبالحياة الأخرى ليثبت القوة فى النفوس ويزرع الأمل فى القلوب .

يقول الأستاذ أحمد مطلوب الذى نقلنا منه هذه الفقرات : إن المسلمين مدعوون إلى خلق أدب إسلامى جديد يعبر عن الإنسان وتطلعاته ويعلى أشواقه وآماله ويرسم صورة صادقة للأجيال التى تتخطفها العقائد الزائفة والمذاهب المؤدية بأهلها إلى النار ، ويقول : إن الأدب العربى مدعو فى هذه الفترة التى تمر بها الأمة فى نضالها ضد أعداء الإنسانية إلى الأخذ بالتصور الإسلامى فى

معالجة القضايا ليحقق الإنسان أهدافه فى الحياة الكريمة ويصل إلى أرفع ما نصبو إليه وتحقيق الرسالة الخالدة وهى تقوم على الحق والخير والعدل والجمال ، والأدب الذى يخدم هذه الأهداف هو الأدب الذى ينبثق من التصور الإسلامى الذى يشمل الكون والحياة والإنسان وهو تصور يعتمد أول ما يعتمد على إعلاء شأن الإنسان ورفعه من الهوة التى تردى فيها حينما فقد الإيمان ، وينبغى أن يبرز هذا الأدب حقيقة العقيدة الإسلامية بأسلوب فنى يكون له تأثير نفسى عظيم إلى جانب صور ناطقة وأن يكون منطلقاً من القيم الإسلامية يهز النفوس هزاً رقيقاً ويشرح القلوب للإيمان ، أما إذا أريد للأدب أن يكون إسلامياً فينبغى أن يأخذ العقيدة منطلقاً له لتحقيق الالتزام الذى ينبع من الإيمان الصادق والفكر العميق .

(٥)

الشعر الحر

أن أخطر تحول حدث بالنسبة للشعر هو نجاح مؤامرة التغريب التى عملت فى القضاء على دوره الخطير الذى قام به خلال العصر الحديث فى الدفاع عن الوطن والعقيدة ونقد المجتمع وحماية الخلافة والذود عن الوحدة الإسلامية ولذلك فقــد أدخلت إليه فكرة الشعر الحديث الذى يعبر عن الذات والنفس الإنسانية الفردية وهو ما حمل لوائه العقاد والمازنى وشكرى ومن قبلهما مطران فالمؤامرة على الشعر لم تكن فى مرحلة الشعر الحر التى ظهرت فى الستينات (عقد الهزيمة اللعين) وإنما بدأها العقاد والمازنى وشكرى وأتمها صلاح عبد الصبور والبياتى والسياب فقد كانت تلك مرحلة ثم جاءت مرحلة أشد خطراً منها هى مرحلة الشعر المنثور أو قصيدة النثر . وتلك الدعوى المسمومة التى حمل لوائها الماركسيون والشعوبيون لإخراج الشعر العربى من عامود الشعر ومن كل الآثار القوية الضخمة التى أثر بها فى محيط الإسلام ومجتمع المسلمين .

وقد باضت المؤامرة وأفرخت فى فترة « النكسة » وقاد المؤامرة بدر شاكر السياب وعبد الرحمن الشرقاوى وصلاح عبد الصبور وعبد الوهاب البياتى

واودنيس ومن ورائهم كانت تدق طبول محمد النويهى ولويس عوض وغالى شكرى ويوسف الخال ، ترمى لهدم نظام البيت القديم وبالتالى بناء القصيدة، وتحول البيت إلى سطر غير محدد الطول يلتزم الوزن الشعرى دون لجوء لحتمية القافية أو (سمترية التفاعيل) وبدأ التركيز على الوحدة العضوية .

وقد تبنت الحركة كثيرا من مفاهيم الشعر الأوربى كما عبرت عن طموح الإنسان الغربى وتطلعه إلى الخروج من الأخلاق والقيم ومواصفات المجتمعات الكريمة إلى الأساطير اليونانية والفرعونية والبابلية والفينيقية والأشورية واستخدام الاقنعة التاريخية ، فقد خضع هؤلاء الشعراء العرب الذين فرغت قلوبهم وعقولهم من الأصالة الإسلامية والعربية فأدمنوا قراءة أجزاء من الكتاب المقدس خصوصا شعر الجامعة والأمثال ونشيد الانشاد وادخلوا فى الأدب العربى كلمات الصلب والخطيئة والفداء ، وسيطرت عليهم مفاهيم الفكر الغربى وأشعار لوركا وأرجوان وولت ويتمان وادجار الان بو وخليط من قصص تولستوى ودستوفسكى وفولتير وهيجو وإبسن وسارتر وفيها عشرات من الوثنيات والماديات والاباحيات .

ولعل أخطر الشبهات المثارة حول الشعر الحر هو إدخال العامية على الشعر باسم شعر الشعب ، والشعب العربى يفهم القرآن وهو أعلى درجات البلاغة وهم يدعون الحديث باسم الشعب والشعب لا يعرفهم وهم إنما يتحدثون بلغة جيل مرتد من أجياله ، ولقد تحققت هزيمة الشعر العامى ، وزيفت التجربة قولهم بأن العامية هى اللهجه التى تنقل الأحاديث الصادقة فى يسر وسهولة ، والحقيقة أن العامية لاتستطيع أن تبلغ مشاعر الإنسان المثقف والممتاز ، وهناك من قال من أصحاب الشعر الحر بالخروج على مقررات اللغة ومقاييسها وإهدار أصولها بهدف هدم العمود ، مع سماحة العمود ويسره وسهولته ، وكل دعاوهم عن أن وجود القافية يحدد حجم القصيدة ، هو من الباطل المدعى .

وقد تزعم هذه الدعاوى يوسف الخال (المارونى) الذى يعلن أنه يقوم بتجديد الشعر العربى كأنما قد تيتم هذا الشعر فلم يعد له نصير من أهله ، وهو

يقتحم فى هذا الميدان بهدف تثبيت وجهة نظر نورانية مسيحية ، ويعتمد على الشخصيات المهزوزة فى الأدب العربى والتاريخ الإسلامى وهم يتناولون ذلك كله باحتقار شديد ولا يعلون إلا أبى نواس والحلاج وقد تابعهم فى هذه الدعوى محمد النويهى ولويس عوض وصلاح عبد الصبور وسقط فيها بعض من كنا نعدهم من أقدر رجال مدرسة الاصالة متابعة .

ولا ريب أن أصحاب الشعر الجديد — كانوا فى فترة سابقة — تظاهرهم قوى النفوذ الماركسى والغربى ، وكانوا واقعين تحت تأثيرات منافية لروح الثقافة الإسلامية العربية ، التى هى الروح المميزة لشخصيتنا الفنية على مدى العصور مما يجعل كتاباتهم مرفوضة ، ذلك لأنها تشيع فى كياننا العضوى عنصرا غريبا يهدم ولا يعمل على بنائه وذلك ميلهم الشديد إلى الاستعانة فى التعبير بعناصر يستمدونها من ديانات أخرى غير العقيدة الإسلامية بل ومما تأباه هذه العقيدة فضلا عما يستبيحونه لأنفسهم بالنسبة لكلمة الإله طالما لاتزال هى عندهم كلمة بمعناها الوثنى والمعروف أنها تتخذ فى الإسلام معنى خاصا يجب احترامه وتقديسه مهما كان السياق الذى ترد فيه .

ولقد كانت اللغة العربية هدفا من أشد الأهداف التى يكنون حقدا لها ، ولقد استهانوا بها .

مع أن فن الشعر هو الفن الوحيد الذى يجعل صيانة اللغة جزءا من كتابته لأن اللغة المنتقاة هى نفسها جزء من الهدف المقصود كما يذهب إلى ذلك نقاد الشعر جميعاً على اختلاف مذاهبهم فى التفكير وتباين مواطنهم وعصورهم فالعلاقة بين الشعر والعبارة المنتقاة علاقة أساسية من جهة الأداء ومن جهة الروح القومية وإذا كان مجد اللغة الذى هو عماد المجد القومى مرهونا بفن الشعر قبل أن يرتهن بفن آخر كان واجبا على رعاة الشعر فى بلد عربى ألا يفرطوا أقل تفريط فى سلامة العبارة وصحة الصياغة (هذه الفقرة من مجلة الثقافة المصرية م ١٩٦٤) .

(٢)

يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي : عندما ننظر إلى شعرنا العربي نجد أنه كان عموديا طيلة حياته التي تمتد أكثر من ألفي عام وأن كل التجديدات التي دخلت عليه في جميع العصور كانت تلتزم بهذه العمودية أو تسير في إطارها ، وإن هذا الشعر العربي الذي أصبح صورة فكر وثراث وحضارة وأمة وقد جاءنا اليوم من يدعون إلى التخلي عن هذه العمودية كليا لنسير على نظام التفعيلة وحدها ولنبعد بالشعر عن أصوله العموديه وعن موسيقاه الشعرية كذلك بل هناك من يدعون إلى تحطيم هذه العمودية ونبذ جميع شعرائها في القديم والحديث والنظر على أنهم متخلفون لا يصح أن نسير على منوالهم وليس وجود شعراء يكتبون شعرهم على التفعيله الواحدة معناه إلغاء الشعر العمودي كله قديمه وحديثه ونبذ هذا الشعر وتسفيه شعرائه ورميهم بالقصور والتخلف .

ويقول عمر أبو ريشه : موجه الشعر الحديث موجة منحسرة حتما وظاهرة مرضية ولا بد أن تكون الصهيونية وراء هذا الشعر ، فالصهيونية هي مبتدعة البدعة والهرطقات في هذا المضمار وذلك لملء الفراغ عند الشباب ولمنعهم من العودة إلى التراث والأصالة ، كل الناس قرأوا التوراة والإنجيل والقرآن ولكني أشك في أن الكثيرين قرأوا التلمود وستجد فيه تفسيرا لهذه الرخاوة فاليهود وراء هذا النوع من الأدب .

(٣)

يقول الأستاذ نزيه خفاجي : يقصد بالشعر الجديد : ذلك الشعر العربي الحديث الذي يقوم على التفعيلة الواحدة ولا يتعين بعدد محدد من التفاعيل في كل بيت ويسمى الحر والمطلق والمرسل أو شعر التفعيلة .

وضعت لبنات هذا الشعر على يد نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعمق محتواه صلاح عبد الصبور وعبد الوهاب البياتي ضمن ركام هائل من صخور الرفض والمعارضة والتحطيم المعنوي .

١ — اتهم هذا الشعر بأنه لا يراد به إلا تدمير البناء الثقافى للامة العربية وتخريب كل ما هو مضىء ومشرق فى قيمنا وتراثنا .

٢ — الدعوة إلى تطوير مقاييس البلاغة العربية هى فى صميمها أداة لهدم للعروبة وذلك عن طريق هدم عمادها اللغوى وما استعمال شعارات التقدمية والثورية والطليعية إلا مجرد ستار لأشكال شاذة ومضامين منحرفه .

٣ — الشعر الجديد حافل بالصور الملحدة والتفاهات والتقاليع التى تركب كل موجه يدفع بها الغرب إلى شاطىء العرب .

٤ — إن رواده الذين يرفعون فى مسيرتهم الشعرية هذه بنود التحرر إنما يقومون تحتها بمهاجمة الإسلام ، وقد اتخذه الشعوبيون والمنحرفون عن الخط العربى الإسلامى قضية لتحقيق أغراضهم المشبوهة .

٥ — أنه حرب صليبية جديدة تعتمد على الاستعمار الجديد الذى يشجع الأباحية والفوضى والانقلاب فى كل القيود والقيم والمثل الأخلاقية والقومية .

٦ — هو فى الأساس دعوة هدامة خطرة ترمى إلى إفساد البناء الشعرى للشعر العربى كمقدمة للقضاء على مقومات اللغة العربية باسم الثورة والتجديد والإنطلاق .

٧ — إن الذين يكتبون هذا النوع من الشعر لا يكتبونه عن قناعة حقيقية بجدواه وتفوقه على الشعر العمودى القديم وإنما بعجزهم عن امتلاك القدرة على النظم بالشكل التقليدى .

٨ — الغموض صفة أساسية فيه وهى غاية فى حد ذاتها ومعظم أفكاره مبهمة لامعنى محدد لها ولا يتجاوز كونها ترهات بدون فائدة وطلسمات لا يعرف أحد لها حلا .

٩ — الشعر الجديد ليس شعراً جيداً أو رديئاً وإنما لايعد من الشعر على الإطلاق وذلك لخروجه التام على الصورة التقليدية للقصيدة العربية .

١٠ — إن الشكل الجديد لهـذا الشعر يهدم الموسيقى الشعرية للقصيدة العربية ويعيث فساداً فى أصول اللغة من اشتقاق وإعراب ويحول الشعر إلى نثر حقيقى عن طريق اعتماده على الإيقاع الموسيقى فقط ، لا الوزن العروضى كما هو مفروض .

١١ — قضية الشعر الجديد هى فى الحقيقة موقف سياسى قومى وأدانة دينته أخلاقية فإن من ورائه نزعات وأحزاب هدامة تريد تمزيق أصالة وكيان العرب كمقدمة لضرب رسالة الإسلام.

١٢ — إن الأذن العربية تنفر من الالقاء العام للقافية ، والمـــدرسة الرومانسية متهمة بالتصنع والميوعة والاسفاف ولا شك أن الخلط بين البحور فى القصيدة الواحدة مما ينبو عنه السمع والذوق .

١٣ — عادت نازك الملائكة فتراجعت عن موقعها وأعلنت أن الشعر الجديد مشحون بأخطاء الوزن والعروض وهو يفقد بإلغائه للقافيـة الواحدة من الأبيات رنينه وموسيقاه ، وتدفقه الشعرى الرقيق ويضع فى طريق هذا التدفق الجنادل والصخور التى تعكر صفوه ونقاءه .

١٤ — إن الذين يدعون إلى نبـذ القافيـة هم غالباً الشعراء الذين يحـدثون الأخطـاء النحوية واللغوية والعروضيـة ويؤخـذ على الشعر الجديد خلطة بين تشكيلات مختلفة من أنواع القوافى فى القصيـدة الواحدة .

١٥ — فساد دعوى النويهى بأن الشعر الجديد ينقـذ الشعر الوبى من العقم والاحداث ويفتح أمامه ميادين واسعة من النمـو والتطـور والاخصاب والحقيقة أن العناصر الأجنبية لم تقدم شيئاً ذا بال فى الشكل والمضمون .

(٤)

يقول الأستاذ عبد السلام عباس : تتوالى الصيحات الداعية إلى الإصالة والرافضة لحركة التجديد المشبوهة :وهي حركة التجديد في الشعر العربي الداعية إلى التخلي — تحت ستار التحديث — عن خصائص الشعر العربي من حيث الشكل كالوزن والقافية والأسلوب والبناء اللفظي والموسيقى وقد غلبت موجة الشعر الحديث والشعر الحر على ما سواها ، وركيكة البناء هزيلة الأسلوب ، لا فتقاد الاوزان والقوافي والقدرة على التأثير في العقول،ولفقدان مقاييس الجمال والتصور والموسيقى والتجربة ومن ثم فإن قصيدة الشعر الحر : كلام منثور يستعصى على الفهم ويأباه الذوق ويرفضه العقل . وقد سعت قصائد الشعر الحر الى تثبيت مفاهيم وعادات غربية وسارت في خدمة الغزوالفكري والتغريب المدمر والهدام الساعي إلى السخرية من الأخلاق والمبادىء والمعتقدات والمثل الإسلامية الأصيلة والنقيه إلى إحلال مفاهيم وعادات غريبة تتناقض مع الدين والمعتقد الإسلامي .

٣ — وبعضها قدم تيارات فلسفية إلحادية سافرة من الدين داعية إلى التخلي عنه .

٤ — حركات عنوصية تسعى إلى أحياء التراث الجاهلي والحضارات القديمة كالفرعونية والفينيقية والاعتزاز بها : هذه المذاهب التي سعى الاستعمار إلى نشرها وأحيائها بين أبناء الأمة الإسلامية تمهيدا للانقسام والضياع .ويبدوذلك في كتابات (رواد الشعر الحديث أمثال (أدونيس — حجازى — نزار ، صلاح عبد الصبور — السياب)

٤ — في مجال أدب الجنس والإباحة والإنحلال والشعور وتحريض المرأة على الخروج على تعاليم الإسلام والسعي إلى تمجيد الإشادة بالمرأة المتحررة الرافضة للتقاليد الإسلامية المتحدية للقيم والمشجع لها أن تكون خايلة وعشيقة .

٥ — دعوات التحلل والتحرر والخلاعة تحت شعارات براقة .

وقد تابع هذا شعراء وكتاب في مختلف البلاد العربية أمثال عبد العزيز المقالح

فى اليمن ، وتفتح الدوحة والعربى أبوابها لهذا الشعر ولرواده ، وقد نشرت الدوحة تجربة شعرية جديدة قالت إنها تفتح باب الاجتهاد فى الشعر العربى لمغمور اسم (حسن طلبة) وما كان ينشره أدونيس فى مجلة (مواقف) وما كان ينشره يوسف الخال فى مجلة شعر ، تجدد هذا التيار فى مجلتى العربى والدوحة بقيادة الماركسيان الخادعان رجاء النقاش وأحمد بهاء ؛ ومعهم داعية التخريب فى الفكر الإسلامى .

(٥)

ويقول الدكتور محمد محمد حسين :

الشعر الحر فى أصل نشأته شعبة من اتجاه عام يدعو إلى تقليد الغرب فى فكره وحضارته ، فاطلاق الشعر من القافية التى ظل يلتزمها طوال هذه القرون منذ عرفنا الشعر العربى دعوة تستمد حججها ومبرراتها من الشعر العربى الذى لم يعرف القافية إلا فى حدود ضيقة من آثار احتكاكه وتأثره بالأدب العربى فى الأندلس . ولماذا الحرص على تسمية هذا النوع من الأدب شعراً ، إلى أنه أدب نثرى ولم يقل أحد أن الأدب النثرى يخلو من التصوير ومن التأثر والتأثير العاطفى ، بل إنه حين يخلو منهما لا يصح أن نعده أدباً على الإطلاق . إن هذا الحرص على تسميته شعرا لم يجىء إلا من اعتباره شعرا عند الغربيين ، وهو على كل حال آخذ فى التراجع والتقلص وقد بدأت موجته فى الانحسار بعد أن بلغت ذروتها فى العقدين السابقين من هذا القرن وكان كل ما تركته من أثر هو ضعف هذا الجيل وعجز أكثره عن تذوق الشعر العربى الأصيل فى تراثه الطويل ، وكان مما فتن به أصحابه ، أنهم تصوروا أنفسهم أنهم أصبحوا شعراء عالميين بعد أن ترجم بعض شعرهم للغات الأدبية كأنهم يكتبون للغرب ولا يكتبون لقومهم من العرب وكأن شرطا من شروط الأدب الجيد أن يكون مقبولا عند غير أهله (ماعمله أمثال غالى شكرى من اهتمام كبير ومراجعة وبحث ودراسة لهذه الترجمات) ولعل هذه الترجمات كانت وجهاً من وجوه المخطط الذى يغرى بترويج هذا الاتجاه الذى ينتهى أن ينجح إلى قطع ما بين حاضرنا الأدبى وبين تراثنا من صلات .

ولقد كان أصحاب هذا الاتجاه يدافعون عن مذاهبهم بحجج أبرزها اثنتان: أن القافية قيد يلتزم الشاعر على حساب عناصر الشعر الأخرى من فكر وصور وعاطفة ، وأن إغلاق باب التجديد وتقييد حركة الفنان فى ابتكار ما يناسبه من قوالب وأساليب يشل انطلاقة وينتهى إلى حال من الركود والجمود ، تخلف معها الشعر وتراجع ، والرد على الحجتين سهل يسير : أما الحجة الأولى فهى تعلة الضعفاء الذين يعجزون عن النهوض بأعباء الشعر من كل جوانبه وعناصره ، وقد نهض بها الفحول من الأقدمين فما رأينا فى شعرهم جورا على الفكر والصور بسبب التزام القافية ، وفن الشعر للقادرين عليه وفى النثر متسع لغير القادرين والبعد عن ميدان الأدب جملة أولى بالعاجزين .

أما عن دعوى التجديد وحرية الفنان فقد توافرا دائما على مدى القرون وفى مختلف العصور والبيئات ، فجدد شعراء العرب وابتكروا وأضافوا ما أضافوا فى حدود طبيعة الشعر العربى ومع التزام مقوماته الأصلية فاختلفت ألوانه باختلاف العصور والبيئات ، ومع ذلك فقد كان هذا الابتكار فى أشكال الشعر وقوالبه وقوافيه قصيرة العمر ولم يلبث الشعر أن عاد إلى النبع الأصيل . وحين بدأت نهضة الشعر المعاصر بعد ركود طويل منذ ما يقرب من قرن عاد رواد النهضة إلى النبع الأصيل يستقون منه ويسقون . ثم أن دعوى الحرية بلا قيود فى أى جانب من جوانب الحياة هى دعوى تقوم على سذاجة الداعى إليه وسوء قصده فليس هناك حرية مطلقة للإنسان ولا لشىء من خلق الله وليست الحرية المطلقة إلا الهوى .

[ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن] نعم ، لو كان للأرض إختيار فدارت كما تهوى ولو كان للشمس ولسائر الكواكب إختيار فجرت على ما تهوى ، ولو كان للكائنات أن لا تخضع لسنن الله الكبرى القاهرة من تجاذب وتنافر إختيار لفسد الكون وبطلت الحياة ومن سنن الله الكبرى أن يكون الناس شعوبا وأمما وأن يكون لكل أمة لسانها الخاص ومزاجها وتقاليدها والفنون على اختلافها لها انتماء قومى ، وشرطها الأساسى أن تجمل عند قومها أولا وقبل كل شىء وليس مهما بعد ذلك

أن تجمل أو تحسن عند غيرهم ، والـكلام عن الإنسان فى هذا المجال وعن العالمية ضار جدا وهادم لأسباب النهضة عند الامم الضعيفة بنوع خاص لأنها لاتقوم لها نهضة إلا على مغارسها وأصولها الأولى والنهضة على غير هذا الأساس فناء لذات العنصر الأضعف فى العنصر الأقوى .

(٦)

من هذا الاستعراض لأهداف غزوة الشعر الحر نجد هذه الحقائق :

أولا : تأثر الشعراء ببعض المذاهب المنحسرة والآفلة فى أوربا وخاصة فى فرنسا وراحوا يكتبون شعرا بالغ الغموض وبعض صغار الشعراء أعجبتهم هذه الطريقة لما فيها من استعراض وإرضاء للذات .

وقد جرى هؤلاء الشعراء وراء الغموض ووراء مفاهيم الباطنية والشعوبية والمجوسية ومتابعة أمثال السهروردى والحلاج ومن وراء إحياء هؤلاء الزنادقة أقوام من خدام الماسونية والتغريب أمثال ادونيس وتوفيق صايغ ولويس عوض وانسى الحاج ويوسف الخال وسعيد عقل ؛ الذين يروجون لمفاهيم الوثنية والإباحية والمادية ويستمدون من تراث الشعوبية والزنادقة القديمة مرجعاً لإحيائه وتجديده ، ويتصل هذا بنشيد الانشاد فى التوراة ، ونيتشه وجبران .

ثانياً : طابع هذا الشعر : إهمال الصياغة الفنية للشعر العربى والمبالغة فى تقليد الشعراء الغربيين (المنحرفين) وهجر الأساليب العربية القديمة لأنها لا تلائم العصر الحديث ويجرى الشعر الجديد على نحو من الحماسة والانفعال أكثر من الاعتماد على المنطق والأصالة .

ثالثا : إن التحرر من القافية العربية مغامرة قد تودى بطابع القصيدة العربية وتقضى على أصالتها ، ولم يمنع الالتزام بالقافية الواحدة والوزن الواحد عمالقة الشعر العربى من التعبير عن أدق المشاعر وأشق المعطيات .

رابعاً : بعد ثلاثين سنة من تجربة الشعر الحر أثبتت الدراسة التى أصدرتها جامعة هارفارد فى الأدب المقارن أن شعرائنا (وفى مقدمتهم صلاح عبد الصبور) متأثرون بالتيارات الأوربية فى شعرهم ومسرحهم ، والتأثر البالغ بالشاعر ت : س . اليوت ؛ وهذه التبعية واضحة فى الآداء والمضمون ولم يمنع هذا صلاح عبد الصبور من الاستطاله والغرور بقوله (١٩٨٠/٢/٢٧) إذا كانت هناك إمارة للشعر أكون أول المرشحين لها ، إننى حين استعرض إنتاجى الشعرى خلال ربع قرن بعين الناقد اجد أن مافعلته كان لابد أن يترك أثراً واضحا على خارطة الشعر العربى . وما اعتقد أن من حق أى شاعر أو كاتب أن يحكم على دوره ، وإنما يحكم عليه النقاد ، وهو ادعاء كاذب وباطل .

وتاريخ الأدب العربى المعاصر هو الذى يحكم على دور صلاح عبد الصبور الذى لا يعدو أن يكون تابعاً لتيار تغريبى هابط وساقط ، وأنه متأثر بالفكر الغربى وخاضع لمفاهيم الفلسفة الغربية الماديه وأنه نقل أدب الباطنية والمجوسية ومصطلحات المسيحية حتى استحق من لويس عوض إمارة الشعر « إمارة الشعر الحر » ومسرحيته عن الحلاج هى صفحة سوداء من صفحات الأدب المعاصر . وليس غريبا أن يقول صلاح عبد الصبور أن شعره قد ترجم إلى لغات غربية (وقال الذين ترجموه هذه بضاعتنا ردت إلينا) وورد اسمه فى معجم لاروس وفى الموسوعة الألمانية على إنه أول من أقحم على الشعر العربى نمطا وافدا غربيا لم يستطع أن يمضى إلا فى إطار التبعية الماركسية والوجودية المفروضة على آفاق الثقافة البلاد العربية وبمساعدة المدرسة المارونية التى تحتوى وتحتضن الحزب القومى الاجتماعى .

وصدق الدكتور حمدى السكوت عندما قال : أن الأدب الذى يكتبه أدبائنا أدب مستورد ومقاييسه النقدية مستورده فكيف تنتظر إذن نظرية أدبية عربية وحتى الآن للأسف لم تكتب صفحات من الاصالة .

(٧)

يقول الإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه « تلبيس إبليس »

وقد لبس عليهم إبليس — أى الشعراء — فأراهم أنهم من أهل الأدب وأنهم قد خصوا بفطنة تميزوا بها عن غيرهم ومن خصهم بهذه الفطنة ربما عفا عن زلتهم ، فتراهم يهيمون فى كل واد من الكذب والقذف والهجاء وهتك الأعراض والإقرار بالفواحش وأقل أحوالهم أن الشاعر يمدح الإنسان فيخاف أن يهجوه فيعطيه اتقاء شره أو يمدحه بين جماعة فيعطيه حياء من الحاضرين، وجميع ذلك من جنس المصادرة .

وترى خلقا من الشعراء وأهل الأدب لا يتحاشون من لبس الحرير والكذب فى المدح خارجا عن الحد ، وجمهور الأدباء والشعراء إذا ضاق بهم رزق تسخطوا فكفروا وأخذوا فى لوم الاقدار ،وقد نسى هؤلاء أن معاصيهم تسبق أرزاقهم فقد رأو أنفسهم مستحقين للنعم ، مستوجبين للسلام من البلاد ولم يفلحوا فيما يجب عليهم من امتثال أوامر الشرع فقد ضلت فطنتهم فى هذه الغفلة » اه .

القصة

هناك دعوى عريضة عن الإبداع الفني في الأدب عن طريق القصة والرواية والمسرحية والمسلسلات واعتبارها هي النتاج الأدبي وحده، ودونما سواه، مع أنها هي العنصر الدخيل في الأدب الحديث بعد أن ظللت الكتابة على الفنون الأصيلة كالترجمة الذاتية والرحلة والخاطرة . والواقع أن التركيز على القصة والرواية هي محاولة تغريبية فما كانت هذه من الفنون الأصيلة في الأدب العربي وقد ابتت الأيام والتجارب فسادها وفشلها في أداء دور أصيل وهي في طريقها إلى الانهيار والتلاشي حيث لا تبقى إلا تلك الفنون الأصيلة القادرة على العطاء .

هذا وقد ثبت أن الأدب العربي غير قادر على العطاء في هذه المرحلة لأنه خالف عن فطرته ولأن الأدب في أوقات الأزمات لا يستطيع العطاء — وله تجربة سابقة في أيام الحملة الصليبية والتتار — لأن الأدب يخطىء مرتين ، يخطىء حين يظن أنه مستقل بنفسه مع أنه جزء من الفكر لا ينفك عنه ويخطىء حين تستعلي (القصة) وهي جزئية من الأدب الذي هو جزء من الفكر ويجب أن تسير في فلكه وتخضع لوجهته الأخلاقية . ويشهد الكثير من النقاد بأنه في الستينات انتشر وباء اسمه (القصة القصيرة) ممن زعموا أنهم قصاصون وصل عددهم إلى المئات ووصل الأمر ببعضهم بأن يقول إنه كان يخاف أن يزيح حجراً من الطريق خشية أن يجد تحته من يصرخ في وجهه : إنه قصاص ، ولكن هذه الجحافل سرعان ما تناقصت وانحسرت أما لضعف الموهبة أو بفعل اليأس .

إن أبرز ما يدعو إلى سقوط القصة العربية هو مخالفتها للفطرة ، فهي نبت جديد وافد رزع في تربة الأدب العربي وهو نبات لا جذور له ولن ينتج إلا الحطام ، لأنه معارض لطبيعة الأدب العربي ، وليس ضروريا أن ينقل الأدب العربي هذا الفن الذي يتعارض مع طبيعته وله من فنونه ما يكفيه . إن الأدب العربي يتقبل الذكريات والرحلة والترجمة الشخصية . والترجمة الغيرية والتجربة الخاصة في كل عمل ومكان .

وهناك القصة الحقيقية لا المختلقة ولا المترجمة من الآداب الأخرى ، والتى تصور مشاعر حقيقية ووقائع صادقة ، فضلا عن أن الإطار الذى تتحرك فيه القصة مصنوع ومفتعل وليس طبيعياً هذا الإطار الذى تحرك فيه توفيق الحكيم ونجيب محفوظ والذى لم يقرأه الناس إلا للتسلية وتزجيه الوقت ، إن القواعد التى يعتمد عليها المحتوى الفنى هى نظريات مادية غربية قائمة على مفاهيم فرويد وماركس وغيره .

وأبرز أخطاء القصة الوافدة الشكل والمضمون من الأدب الغربى : مفهوم العلاقة بين الإنسان والقدر ، وتباين مفهوم التفسير الغربى للمجتمع والمرأة والحياة عن مفهوم الفكر الإسلامى ، والفارق العميق بين وضع المرأة فى المجتمع الإسلامى والمجتمع الغربى فالمسلم لا يقبل المسرحية التى تعالج مشكلة خيانة الزوجة بروح الاستهانة ، أو استسلام الرجل إزاء العرض أو استهانة الرجل بصديق الأسرة ، وما يتصل بالرقص والغناء والاختلاط الشائن ، فقد اتخذت الماسونية القصة — وعنها نقلت القصة العربية عن طريق قصاصين ليست لهم مفاهيم إسلامية أصيلة — وسيلة لنقل مفاهيمها المسمومة إلى المجتمعات الإسلامية عن طريق ترجمة أعمال الإباحيين الغربيين مع تغيير أسماء الأبطال والبلاد والمواقع ، وليست صيحة توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس بأن تعطى القصة حرية مطلقة فى تغيير الواقع بإدخال الخيال الزائف ، لتحقيق هدف معين إلا تطبيقاً حقيقياً لمفهوم الأدب الأباحى ، فهم يرون أن القصة فن يجب أن يختلف من الصدق والواقع الذى يتمثل فى المجتمع الإسلامى العربى ويرون أن القصة الفنية أرفع قدراً من القصة الطبيعية أو القصة التاريخية بل يدفعون إلى خطوة أشد عنفاً ، وهى دعواهم صاحب القصة التاريخية على ألا يتقيد بالنص أو يلتزم الصدق التاريخى ، وأن عليه أن يعيد تشكيل الواقع بحيث يتحقق عنصر الإثارة وبذلك تقدم القصة وضعاً آخر غير الواقع القائم على الصدق والموضوعية ، وهم يفرقون بين الحقيقة الاجتماعية وما يسمونه الصورة الفنية .

ويرون أن القصة لا تنجح لو أنها حصرت نفسها فى أحداث تاريخية أو وقائع طبيعية وإن كاتب القصة له حرية كاملة فى تجاوز هذه المواقف تحت اسم العمل الفنى ، فهذا التجاوز من شأنه أن يدخل الفساد إلى القصة

وقد جرت محاولات واسعة لإظهار الرواية ودفعها إلى الإمام فى أفق الأدب العربى بالرغم من معارضتها ودفعها إلى الامام ولم تكن هى بطبيعتها قادرة على افتقاد مكانها ، وكان من وراء ذلك قوى تريد أن تظهر هذا الفن فى الأدب العربى وهم المستشرقون ودعاة التغريب ولو تركت القصة لطبيعتها لسقطت منذ اليوم الأول وهى فى نظر جميع القراء ليست عملا أدبيا أو فنياً بقدر ما هى وسيلة للتسلية وتزجية الفراغ وإن كل المحاولات لجعلها شيئاً له أثر وقيمة هى محاولات باطلة . وإن كتابات الأسماء اللامعة ليست إلا روايات غربية غيرت أسمائها ومواقعها ولكنها ماتزال تحمل عواطف ومشاعر واستجابات لاتمثل للمشاعر التى يعرفها المجتمع الإسلامى والتى كونها الإسلام من الرحمة والسماحة . والإخوة والغيرة على العرض .

والسؤال هو : لماذا يطلب من الرواية أن تصور فساد المجتمع وتعيد مواقفه الخاطئة بصورة أشد جمالا وتألقا ، مع أن المجتمع نفسه ينكر هـــذه الصور الفاسدة ، ويدعو إلى التخاص منها ولماذا تحول القصة الحالة الفردية إلى ظاهرة عامة . وتدخل فيها أهواء الكتاب ورغباتهم فى تدمير المجتمعات أو تحقيق شهوات خاصة ، أن الرواية لاتريد أن تقول إلا وجهة نظر معينة مفروضة ، سواء أ كانت ماركسية أو ليبرالية سواء أ كانت من أهواء النفس التى تكتبها ولكنها ليست على أى حال هى الحقيقة ، أنها تعطى نفسها الحق فى تزيف التاريخ فتقول أن الفن لايخضع للحقائق التاريخية وهى لاتخضع للأخلاقيات وتفرض لنفسها حرية العرض مهما كان ذلك معارضا للفطرة أو لقيم المجتمعات . لاريب أن ما يعارض الفطرة لا بد أن يتلاشى أو يموت ، فلا مستقبل فى الحقيقة للرواية العربية لأسباب كثيرة منها أن الوجدان العربى — الإسلامى الجوهر — غير متهيأ لقبولها فى شكلها الحالى وأنها استنفذت أغراضها كوسيلة للتغيير الأدبى ويوم تصل الثقافة العلمية والفكرية إلى مكانها الصحيح سوف تنهار القصة نهائيا فإن القصة المعاصرة ليست إلا فتات الموائد

التى يراد بها تلهية الشباب والمراهقين عن حقائق الحياة وعن فهم قيم دينهم وحياتهم، وهى نوع من الطبل الذى يدق ليصم الآذان عن معرفة الطريق الصحيح لهذه الأمة . وآية ذلك انهيار قصاصى العصر وانصرافهم إلى كتابات اليوميات الصحفية التى تمثل الخواطر السائبة التى ليست فى حقيقتها عمل فنى ، وهذا يؤكد أن القصة أو الرواية لم تكن أكثر من وسيلة للتسلية وازجاء الفراغ وقد استخدمت استخداما سيئاً فى تدمير القيم الأخلاقيـــة والدينية والاجتماعية بما حملت من صور الاباحة والجنس والكشف ، ولقد أذيع أن هناك ٣٠ ألف قصاص تستهلكهم الأجهزة الحديثة هم تجار الكلمه بكل معناها والتابعين لاهواء المنتج الذى يدفع والمخرج الذى يصنع ما تريده السوق أو تحتويه أهداف أبعد ، وما تزال القصة — وستظل طويلا — عملا موقوتا مرتبطا بأهواء الناشرين والإذاعات والمسارح ، لأنها لاتمثل مفهوما عميقاً للمجتمع أو تستهدف حل مشكلة من مشاكل الناس ، فهى ماتزال تمثل هوى فرديا لصاحبها ورغبات مكبوته وأهداف طامحه إلى الظهور ومن وراءها قوى توجيهها لتدمير المجتمعات ، وهناك تساؤل واضح : ما يفيد المجتمع من تصوير الواقع المر أو السيء أو القبيح المحصور المحدود ، ولماذا تعاد صياغته بصورة فنية براقة أشد عنفا وأشد مرارة وأشد قبحا من الواقع نفسه وليعمم كأنه ظاهرة حقيقية ، أليس من رسالة الادب أن يؤدى دوراً كريما يفتح أمام النفوس بوارق الأمل والرحمة والحنان والعفاف !

إن الذى يحول دون ذلك هو النفوذ الغربى الذى يتخذ من إدخال الفن الغربى وسيلة إلى إفساد الفطرة العربية الإسلامية وإفساد الذوق العربى الإسلامى ، ويرى أساتذة الاستعمار الفرنسى أن الفن ليس كاللغة يمكن القضاء عليها بجرة قلم وذلك بجعل اللغة الأجنبية هى اللغة الرسمية فى التعليم والإدارة وجميع مظاهر الحياة ، ولا يستطيعون أن يفعلوا ذلك فى الأغنية الجزائرية أو المغربيه وإحلال الأغنية الفرنسية محلها وإنما الذى يستطيعون عمله هو التدنى بالأغنية وبكلماتها والمسرح ولغته والموسيقى بأنغامها إلى

مستوى الرداءة حتى إذا ماشبت الأجيال الجديدة مجبتها أذواقها وانصرفت عنها إلى الأغنية الفرنسية وإلى المسرح الفرنسى ، بل أتاح أساتذة الاستعمار الفرص لفنانين عرب أن يغنوا بالفرنسية وهكذا نجحوا فى خلق المدرسة الفنية الرديئة بالجزائر التى انحسر جمهورها إلى الشيوخ والكهول وبرزت تلاميذ المدارس الليسيات الفرنسية فجبت أذواقهم فنون هذه المدرسة وانصرفوا إلى الفنون الفرنسية .

ومن ذلك انبعاث الأساطير الشعبية القديمة وانبعاث الفرعونيات وتشجيع العبارة الاباحية فى الأغنية والنغمة المثيرة للشهوات . والحقيقة أن القصة والمسرحية سيطرت فى هذه المرحلة كوسيلة للتعبير ، صحيح أن هذا اللون من الأدب قد ظهر قبل ذلك بكثير ولكنه سيطر على الساحة الأدبية الآن . كان الجيل السابق يعتمد على المقالة فكان لابد أن يقدم فكرا عميقاً وإن يعتمد على ثقافة واسعة أما الآن فإن القصة والمسرحية هما القالب السائد فى التعبير الأدبى جملتا الكاتب يلتفت إلى الناس يرصدهم ويتابعهم ويعبر عنه فى أدبه والخطورة هنا أن بعض الكتاب يظن خطأ أن القصة والمسرحية لايحتاجان لثقافة واسعة ، وكذلك خسرنا التحصيل والقيمة الأدبية وخسرنا سلامة اللغة لأن الكتاب لايهتمون بلغتهم ، لقد فقدنا القدرة على القياس وتصور كل من كتب قصة أو مسرحية أنه أديب عالمى ولو قرأ وعرف الأدب العالمى لربما خجل حتى من الكتابة وأسوأ ما فى هذا الفن القصصى الهابط أن يعتمد الكتاب على التفسيرات الماركسية والمادية جريا وراء القصص الغربى دون تقدير لدراسة المجتمع الإسلامى وجذوره وتياراته والقوى الدينية والروحية المؤثرة فيه ، وإن كانت بعض هذه العوامل محجوبة فى الأوضاع المتردية الحاليه ، ومن هذه الأخطاء تفسيرات نجيب محفوظ بأن سبب انحراف المرأة أنها تخضع للظروف المادية وأن حل المشكلة الاقتصادية تحول دون السقوط ، وهذا مفهوم زائف ، فالمرأة المؤمنة بالله لا تأكل بثدييها وبالجملة فسوف يسقط هذا التيار من القصة لأنها تخالف روح الأدب العربى وإصالته وفطرته التى تقوم على الحقيقة الخالصة وستحيا فنون أخرى وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على سذاجة كتاب القصة وعدم إلمامهم بأصول الأدب ولا بفلسفة

التاريخ أو تجارب الأمم : سذاجتهم فى فهم الواقع المعاصر سياسياً واجتماعياً لذلك فهم حين يكتبون تبدو سذاجتهم وبساطتهم وضعف تجربتهم لأنهم لم يقرأو وإنما ترجموا واستغلوا العمل القصصى فى أمرين : فى تحقيق أهدافهم وفى الكسب المادى فقد أقاموا أدبهم على الكذب والخداع والتمويه وإدخال أهواء نفس الكاتب ومتابعة أحقاد الوثنين والماديين والإباحيين والشعوبية فى تدمير مقدرات المجتمع الإسلامى الذى بناه القرآن واختفوا وراء شعارات براقة وكلمات موجبه فعلى شبابنا أن لاتخدعهم هذه المصطلحات الكاذبة .

الباب الثالث عشر

الحضارة

(١)

لابد أن يكون لنا نحن المسلمون موقف أزاء الحضارة الغربية العالمية، التى تنشر جناحيها على العالم كله، وتحاول أن تحتوى الأمم بتقدمها المادى ومفاهيمها القائمة وراء هذه الصناعات والاختراعات، فى محاولة لفرض أسلوب عيشها الاستهلاكى الاباحى الوثنى، الذى وصل إلى درجة الانحلال وفرض أزمة الإنسان المعاصر، نعم: يجب أن لانخضع نحن المسلمون لهذه الحضارة ولا نستسلم أمام فلسفتها، ذلك لأن لنا نحن المسلمون حضارة ولنا مفهوم إسلامى عميق للحضارة والمجتمع قام على أساس القرآن ومنهج القرآن منذ أربعة عشر قرنا ولا نستطيع أن نتخلى عنه، وهو مفهوم مرن مفتوح قابل للاستفادة من معطيات الامم ومنجزات العلم ومن كل الجوانب الإيجابية للمجتمعات، ولكنه يتوقف عند ضوابط لا يمكن تجاوزها تستمد إطارها من التوحيد الخالص وسلم القيم والإلتزام الاخلاقى والمسئولية الفردية، كذلك فإن الحضارة الإسلامية تقوم على مفهوم أن عطاء الله هو للبشرية كلها وليس لأمة معينة أو جنس معين وقد قدم المسلمون كل ما وصلوا إليه من منجزات العلم للناس جميعاً وأعطوها للأوربين عن طريق الاندلس وكان مفهومهم إسعاد البشرية غير أن الحضارة الغربية عندما امتلكت أسرار العلوم والطاقة قصرتها على الجنس الغربى وحده وحالت دون وصولها إلى الأمم الأخرى وجعلت الحضارة بمفهوم المدنية والرقى والتقدم لأهلها وحدهم واعتبرت الامم الاخرى أمم متأخرة ومتخلفة وليست أهلا إلا أن تكون تابعة مستعبده، تنهب ثرواتها وتفسر على أن تظل ذليله فقيرة بالرغم من أنها تملك الخامات ومصادر الثروات.

(٢)

لقد انفردت حضارة الإسلام بانبجاسها إلى الحياة دون سابق عهد وانتظار وقد جمعت فى فجر نشأتها كل المقومات الاساسية لحضارة مكتمله

شاملة فقامت فى مجتمع واضح المعالم له نظرته الخاصة إلى الحياة ، وله نظامه التشريعى الكامل وله منهجه المحدد لعلاقات الأفراد بعضهم البعض داخل هـــذا المجتمع ، وكانت هذه الحضارة وليدة حادث تاريخى فريد هو تنزيل القرآن الكريم ، وكان مردها إلى رجل فذ يستمد عظمته من أنه نبى مرسل من عند الله هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء الإسلام نظاما شاملا للحياة وافتتح حضارة جديدة حقا .

وقد انحدر عن الفكر الإسلامى ظهور مؤسسات أربع :

هى المسجد والجامعة والمستشفى والمرصد .

١ ـ المسجد لإشاعة الثقافة الشعبية وتربية جمهـــور مؤمنين فى وحدة مذهبية أخلاقية .

٢ ـ الجامعة : للدراسة والبحث فى ميادين المعرفة كالطب والحكمة والعلوم .

٣ ـ المستشفى : المارستينات للعناية بالصحة العامة ومقاومة الأمراض .

٤ ـ المرصد الفلكى : لمتابعة سير النجوم ومعرفة مدارات الأفلاك .

ومن هذه المراكز تطور المسلسل الإنسانى فى الحضارة البشرية وأخذت أوربا عن الحضارة الإســـلامية المغربية هندسة الجامعات والقاب العلماء ومضامينهم والشعارات والاجازات (بكالوريا ـ عن كلمة حق الرواية الفرد كيوم) كوليج ـ كليه .

ومن طبيعة الحضارة الإسلامية أن تصوغ الفرد صياغة عضوية بحيث يمتزج وجوده الفاعل بأسس هذه الحضارة وقيمها الخاصة والعامة ويجعل من العسير إن لم يكن من المستحيل إلغاء كيان الأفراد إلغاء تاما دون إلغاء وجودهم الحسى ذاته ، لذلك فكل مانجحت فيه الحضارة الغازية فيما يتعلق بالشخصية المسلمه هو هذه الازدواجية التى نشاهدها فىحياتنا المعاصرة بين مظاهرخارجية

تعكس أشكال الحضارة الغربية وبين مظاهر باطنية تعكس مرتكزات الحضارة القومية ويتجلى الصراع بين الدخيل والأصيل فى ذلك التمزق الذى تمانيه الشعوب المسلمة بين قيمها الموروثة وبين مايهجم على حياتها من تيارات وافدة.

(٣)

عناصر الحضارة فى التصور الإسلامى أربعة :

١ – قاعدة إيمانية أخلاقية ٢ – ثقافة ومعرفة .

٣ – جمال وفن ٤ – تقنية صناعية

وكلها تدور فى إطار الإيمان والأخلاق (الثوابت) .

ولكل من التصور الربانى والتصور المادى منطلقا ونهجا وغاية تغاير الآخر ، وهما يشكلان قاعـــدتى تحرك إنسانى متباينين كليا تباينا ينتج عنه باستمرار اختلاف الحضارة كلها والسلوك البشرى فى ظلها ومردودها العام فى حياة الإنسان ولقد قامت الحضاره الإسلامية تعبيرا حيا وممارسة إنسانية للشريعة الإسلامية ، حضارة صراط مستقيم ، بدايته إسلام ومسيرته جهاد وحاضره سلام وقيمه حسن اليقين وقد تميزت بأنها تستمد قواعدها وأصولها من الوحى الإلهى الذى تتجلى فيه صفات الله تعالى الإيجابية .

أما الحضارة المادية بقسميها :

١ – المذهب الفردىأو الحر الديمقراطى الرأسمالى .

٢ – المذهب الشيوعى الثورى أو الاشتراكى العلمى أو المـــاركسى) الحضارة فى هذا التصور بجناحيها تقوم بالدرجة الأولى على المادة وتربط بها الإنسان معتمدة على كشوفه العلميـــة والتقنية ، وترتبط بالظروف البشرية وملابساتها غير المستقرة سواء فى ميدان الحكم والسياسة أو فى ميدان العلم والتقنيه حيث تتبدل الأحكام والمعطيات العلمية والأخلاقية تبدل النظريات

وقواعد الانطلاق — وأبرز أخطار التصور المادى أنه يربط الإنسان بقوة علبا بديله لله تبارك وتعالى : هى الامة والعنصر والعلم والعقل والحزب والزعيم واللذة والإنتاج وجعل منها آلهة تعبد . يقول الدوس هكسلى : إن للسنون الخمسون الأخيرة تمثل تقهقراً كبيراً فى التوحيد واتجاها نحو الوثنية فى عبادة آلهة كالطبقة الاجتماعية والفرد والأمة .

إن الأصل الأصيل الثابت هو = وجود الله + التصور الربانى للحياة فالمعرفة الانسانية محدودة دائما وغير قطعية الثبوت فهى قابلة لأن تتفتح منها مرة بعد مرة آفاق جديدة . ولذلك فإن التصديق الإنسانى بالغيب الإلهى هو أساس ثابت وهو مصدر سكينة النفس وسمو الغاية ، ومن شأن هـــذا أن يكون حضارة إيجابية إيمانيه ممثلة لكل جوانب النفس الإنسانية مسعدة للبشرية ، لأن موازين الخير والشر فيها وقواعد الأخلاق وضوابط الحياة الفردية والاجتماعية مستقرة ، على مرونتها لأنها تصدر عن حقيقة واحدة ثابتة كبرى : هى الحقيقة الإلهية .

أما العالم اليوم فإنه يعيش الحضارة الضالة إشفاقاً وعجزاً أوتسلطاً وقهرا أو غفلة وافتتانا غير متنبهين إلى انهيار المعنى الإنسانى فيها بحيث تزداد الجرائم وتنحط الأخلاق وتنحل الروابط البشرية ويتفاقم القلق والمرض والانهيار العصبى وادمان الخمور والمخدرات ورفض الحياة بالانتحار أو بالعيش الميت .

ولقد أدان الحضارة الغربيه علماؤها وفلاسفتها . فهم يقرعون نواميس الخطر وينادون بضرورة إعادة إنشاء الإنسان من جديد فى ضوء نظام جديد وليس بديلا للنظامين اللذين يحكمان العالم إلا : الإسلام .

(محمد قطب)

(٤)

إن حضارة الغرب قد عجزت عن المحافظة على القيمة الإنسانية الحضارات فهى قامت أساساً على المادية ومن ثم تطورت مفاهيمها فى ظل عوامل

ذات فاعلية إلى تغليب مفاهيم إطلاق الغرائز وتعزيز حيوانية الإنسان ، وقد عبر عن هذا المعنى أكثر من باحث غربي :

١ — يقول لاسكي : لقد فقدت الحضارة ثقتها فى نفسها وإيمانها العميق بحيوية القيم الثقافية السائدة وعجزت عن تحقيق الوفاق بين عالم المثل الأعلى المتمثل فى كتابات الإنسانيين وبين حقائق هـــذا الواقع الحافل بأهوائه ومطامعه وخصوماته ، إن الحضارة تمر بمنحة من محن الشك والخوف والإلحاد وتمييع المعايير الثقافية والقيم الأخلاقية بصورة تنذر بشر مستطير من حياة الفرد وحياة الجماعة .

٢ — ويرى أرنولد توينبي أن أزمة الحضارة الغربية هى (الدين) ويقول إن الحضارة الغربية المتدهورة لا يمكن إنقاذها إلا بالدين ، ذلك لأنها مصابة بالخواء الروحى الذى يحول الإنسان إلى قزم مشوه يفتقد عناصر وجوده الإنسانى ويعيش الحد الأدنى من حياته ، وهو حد وجوده المادى فحسب ، مما يصيبه بأمراض السأم الروتينية ، وفقدان الهدف فى كل ما يأتى خواء روحى يحول المجتمع إلى قطيع يركض بلا هدف ، كما تركض القطعان دونما تفحص لمعنى مسيرته الهوجاء كما يضطر المدركون أحيانا إلى إعلان انشقاقهم عليه ، ويرى توينبى أن الحضارة المتدهورة لا يمكن إنقاذها إلا بالدين الذى يرسى التوازن بين النفس والمجتمع بقدر ما فى طاقة البشر وطبيعة الدنيا :

٣ — ويرى بعض الباحثين : أن تبعية الحضارة الحديثة لأخلاقيات الحضارة الرومانية واليونانية فى عبادة الجنس قد أسلمتها بمرور القرون إلى حياة الأباحية وتحطيم الضوابط التى لابد منها فى توجيه الطاقة الجنسية إلى بناء الحياة لا تدميرها وقد عمق هـذا الاتجاه عوامل كثيرة من أهمها موقف مفكرى الكنيسة الأوائل من الجنس واعتباره خطيئة وقذارة يجب التسامى عليها دون أى مراعاة لحقيقة وجود الدوافع الجنسية فى الإنسان علهم بذلك يخففون نزعة عبادة الجنس فى الشعوب الأوربيـة التى ورثتها عن

الحضارات السابقة بحيث أدى إلى العكس وولد رد الفعل العنيف وذلك لعدم قدرة الإنسان على قتل غرائزه نتيجة للصراع العنيف داخل النفس الإنسانية ولقد انفجر الكبت الجماعى فى صورة إباحية متستورة أحيانا متسربلة بسرابيل التدين الظاهرى ومنها تخطيط اليهودية العالمية فى العصور الأخيرة لتقويض المجتمع الغربى المسيحى من الداخل وتفجيره جنسيا .

٤ — ويقول الدكتور الكس كاريل (الإنسان : ذلك المجهول) : إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب لأنها لاتلائمنا . لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقيــــة إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، إن أهم سمات هذه الحضارة : إن المادية البربرية التى تتسم بها حضارتنا لاتقاوم السمو العقلى فحسب ، بل أنها أيضاً تسحق الشخص العاطفى والطيف والعفيف ، أولئك الذين يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال . ويقول عن سبب انحراف الحضارة ومصيرها :

يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شىء ، ولكن الواقع غير ذلك فهو يرغب فى العالم الذى ابتدعه ، أنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة عملية تطبيقية ، ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هى إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة ، إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا . إن الجماعات والأمم التى بلغت فيهـــا الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ولكننا لا ندرك ذلك إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها ، وحقيقة الأمر أن مدينتنا مثل المدنيات التى سبقتها أوجدت أحوالا معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة لأسباب لاتزال غامضة .

أزمة الحضاره الغربية

وقد أجرى عدد من الباحثين تحليلا واسعا حـــول ازمة الحضارة الغربيـة كان ابرزها :

أولا : مضادتها للفطرة الإنسانية وانها اهدرت خصائص الانسانية كجناس وفرد ونوع وقـد بدأت فى ظروف جعلتهـا تنفر من الدين مثل عادته ومحاربته معـاداة حاقـدة وعبودته لذاته وشهواته وكان الصراع من الـكنيسة ودعاة الاصـلاح فى أوربا والحكم بأن الدين لا صلة له بالعلم لذلك كانت (المــــادية) اخص سمات الحضارة المعاصرة ولم يـــكن للقيم الانسانية بمفهومها الشامل مكان فيها فضلا عن نهب ثروات الامم المتخلفة بعد استعمارها ومهما أختلفت هذه النظم والمبادىء فأنها ستلق فى قاعدة مشتـركة هى النظرة المادية للانسان ومجافاة العقائد الدينية وهذا مناط عجزها عن تحقيق السعادة البشرية (دكتور محمد الدسوقى)

(ثانياً) أن الخطأ الفـادح الذى وقعت فيه الحضارة المعاصرة هى عزل العلم عن القيم ومازال هذا الخطـأ قائما ومازال العلماء فى الشرق والغرب لا يرون للقيم سلطانا عليهم أو مدخـلا فى معاملاتهم ، ومن هنا يناهض الاســـلام الحضارة المعاصرة لانها تخلت عن عبادة الله (تبارك وتعالى) وعبدت المادة والشهوات .

(ثالثا) البشرية اليوم فى أشد الحاجه عقيـدة تنقذها مما هى فيه من ضلال وانحراف عن سـواء السبيل فقد أفلست كل النظم الوضعية التى سادت فى العصر الحاضر فلم تكفل للناس حياة السلام والاستقرار وانما جلبت عليهم الاضطراب والصراع والتمزق وقـــد عارضت الحضارة المعـاصرة القيم الدينية الصحيحة وجرفت البشريةفى بحار المادية والعنصرية واراقة الدماء وأوجدت فراغا عقائديا للمجتمع وقلقاً نفسياً .

(رابعاً) ايدلوجية الفـكر الغربى يسودها الوجدان المتشائم بـكل أبعاده ومظاهرها فى الآداب والفنون والفلسفـة والاخلاق والسياســـة ، وأن هذه

الايدلوجية السودادية المتشائمة (كما يقول سمير كرم) تنشر فى أوسع نطاق فى عالم الغرب افطار عن لا معقولية الحياه وعبث الوجود ، وقد أصبح المفكرون المتشائمون يشنون هجمات هيسترية على فكر يؤمن بالتطور الانسانى ومن هنا فإن الوجودية هى آخر صيحات الفلسفة التشاؤمية ويمد كثير من الباحثين مصدر التشاؤم إلى القول بالخطيئه التى تطارد كل انسان فى الغرب .

(خامساً) اخفقت الحضارة الغربية فى صنع الانسان أو تربيته أو تلبية حاجاته فقد حرمته الراحه والتوازن ومنحته القلق والجشع وسحبت من تحته بساط الامن والاستقرار ، فنحن نجد أكبر نسبة للانتحار هى فى اكثر الدول رقيا ماديا كالسويد وسويسرا ، ونرى الوجودية تشجع على الانتحار من الحياة التى هى عبث وسأم وغثيان ، وكان أخر مظاهر ذلك الانتحار الجماعى الذى صدم العالم ببشاعته حيث اشرق زعيم جماعة هيكل الشعب (جيمس جونز) على انتحار حوالى تسعمائه شخص من اتباعه بالسم ثم اطلق الرصاص على صدغه وظهرت فى بريطانيا جماعة أخرى شعارها « تخلص من حياتك بارادتك وبطريقه سهلة » وتلقى هذه الجماعة رواجا ضخما ، فضلا عن الرشوات وعصابات الاضرابات والفضائح والجواسيس والعصابات والطابور الخامس والمومسات والمافيا ، والكلاكس لولان وعصابات المهربين وظواهر العنف فى القتل والجريمة كجماعة الهيبيين والردكورز ، ومن تجاوزاتها أنها لا تعاقب على الزنا ولا تعتبرها جريمة وفى الدول المتأثرة بقانون نابليون يقصر جريمة الزنا المرأه المتزوجة ولا يحق للزوجة أن تطالب بالتفرق بينها وبين زوجها بسبب الزنا إلا إذا ثبت وقوعه فى بيت الزوجية أكثر من مرة ، والشارع الأوربى يعج بالمومسات والشاذين وحتى صاروا هم الاكثرية ، وقد أباح القانون الانجليزى العلاقات الشاذة مالم تكن مع قاصر ، وكذلك صار للشاذين جمعيات ونقابات فى المانيا وامريكا وبلدان كثيرة وقد أنشأ اليهود فى (أورنيب برسى) كنيسا خاصا بالشاذين جنسيا فى أحد أحياء نيويورك المعروفه بالكثافة اليهودية ، وقد اتسعت حركة الشاذين بفضل رعاية الصهيونية العالمية ويقدر عدد الشاذين فى الولايات المتحدة ١٧ عشر مليونا وقد عينوا حاخاما شاذا للكنيس .

وتحتاج فرنسا وغيرها من الدول ثورة المومسات يطالبن بالاحترام الاجتماعى ووضع حد لاضطهاد رجال الأمن لهم .

وفى نيورك مليون ومائتا ألف شاذ والحركة الصهيونية تستخدم الشاذين لجمع التبرعات لإسرائيل وهذه أخطر علامة من علامات إنحطاط الحضارة الأوربية وسقوطها المادى والمعنوى ، وقد كتب فى سقوط الحضارة : كولن ولسن وتوينبى وكامور وزحاروف وآخرون أثبتوا بانتحارهم خلال ماديتهم رغم وصولهم إلى أعلى المراتب منهم ستيفان زفايج ، ونيتشه وهمنجواى .

ولا ريب أن نظرة المقلدين الشرقيين لهـذا السقوط الحضارى خطيرة ، فهى تهدف تحطيم الشخصية الإسلامية ليتحققوا مبتغاهم من الذوبان فى شخصية الغرب والانحراف فى تيارات الاستعمار .

(سادسا) ومن علاقات سقوط حضارة الغرب : (ظاهرة الهيبز) ومغالاتهم التى تبلغ حد الشطط ودلالتهم على روح الانتقاص على المجتمع الغربى الفاسد وتصور هذه الظاهرة مدى ما تحدثه المجتمعات الغربية من أثر على العلاقات الجنسية تحت نير المجتمعات الرأسمالية ترتفع فيها صيحة الجنس والصراع الطبيعى ، وقد كان سارتر قنطرة بين الوجودية والماركسية ثم جاء ماركوز قنطرة بين الماركسية والفرويدية .

(سابعا) من أخطر ظواهر الحضارة الغربية : [ظاهرة إنتحار العلماء المتخصصين فى الانتحار] وقد زاد إتساع هذه الظاهرة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة خصوصا فى الوحدات الحضرية الكبرى ، بل وإتخاذها طابعا وبائيا إلى حد ما لدى بعض الفئات لمجرد مثال : فنانى السينما وكذا إرتباطاتها ببعض الظواهر الأخرى وتداخلها معها ، كظاهرة الادمان على تعاطى المخدرات والجنس والخمر والميسر ، حتى ارتقائها لدى بعض فئات الجهة المفكرة المثقفة فى المجتمعات الاستهلاكية إلى نوع من فلسفة (الخلاف) ودعوة بعض المتأثرين من حيرة الحضارة المعاصرة وتأزمها وإفلاس بعض مناحيها إلى ما يشبه الانتحار الاجتماعى بإبرازهم للجوانب السلبية (ماركوز) وإصرارهم مع ذلك على السير فى نفس

المسيرة الاستلابية والعدوى والوباء لم يتوقف عند المرضى بل أنه تجاوزهم إلى المعالجين لها بمعنى إنتحار العلماء المتخصصين فى دراسة الانتحار وأحدث مثال يذكر انتحار أحد عمداء الدراسات الاجتماعية والنفسية فى الولايات المتحدة .

إن المعرفة العلميه رغم عمقها لم تعطه الثقة فى الحياة بقدر ماعمقه لديه عوامل الشك فيها وفى قيمتها . إن الإنسان الذى اتخذ من ارضاء رغباته وإشباع غرائزه المادية هدفا لاشك سينتهى بانتهائه . أما الإنسان الذى يرى أنه يعيش كما هو اسمى وإن معرفة مهما تعمقت . وفاضت فهى قطرة فى محيط المعرفة الغائية هو الانسان المتوازن الذى استطاع أن يوازى بين رغباته وقيمه ويعادل بين غرائزه ومثله (دكتور رشدى فكار) .

إن وفاة علماء طب القلب بالقلب ، ووفاة الداعى إلى أن عسل النحل يطيل الحياة وهو فى صدر شبابه ، هذا يقيم دليلا جديدا على أن الإنسان لم يؤت من العلم إلا القليل وإن أصالته الحقة هى فى تواضعه مهما أعطى من المعرفة ، وأن هناك غائية المعرفة الروحية ونسبيه المعرفة العلمية ، وإن هذا الفهم الإسلامى يقوم عليه وجود الإنسان ومآله ، فإن صدق الموقف لايجدد إلا على مستوى غائية المعرفة التى لم تدرك بعد والتى هى رمز لعلم الله تبارك وتعالى وكماله العارف بكل شىء لأنه هو الخالق لكل شىء . أما أن الانطلاق من مستوى الجزئيات فى فهم بعض معطيات الوجود من خلال الاكتشافات والأختراعات فقد يدفع الإنسان إلى الكفر بخالقه وإحلال نفسه محله وعليه أن يعرف أنه أراد أو لم يرد مازال مسيراً بقوانين الكون الخالده التى تلهم ذوى العقول الواعية الشاكرة عظمة المحرك والمسير لها :

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا) .

إنهيار الحضارة الغربية

إن الصورة التى تقدمها الحضارة الغربية بشعة غاية الشاعة فى كل مجال من مجالاته: فى مجال إدمان الخمر، وإنهيار الأسرة، وظاهرة الجريمة.

١ — إدمان الخمر هو المشكلة الأولى فى الغرب وهو القصة الأولى فى الدول الشيوعية والحكم الدكتاتورى هو سبب إقبال الناس على الكحول. فقد ارتفعت معدلات إدمان الخمر فى البلاد الشيوعية ودول الشيوعية يشربون لأنهم مكبوتون نتيجة ديكتاتورية الحزب الشيوعى الحاكم ولأن الخمر هى السلعة الوحيدة المتاحه فى السوق حيث ينفق البولنــديون ١٨ ٪ من دخولهم على الكحول والأدمان.

٢ — موجه الانتحار الجماعى تعود إلى أوربا (عن مجله اوريبنو الايطالية) ١٣ / ٥ / ٧٩ نشرت الاحصائيات الدوليه أن مايزن على ألف شخص ينتحرون يوميا فى العالم أجمع، وأن الذين يحاولون الانتحار يبلغ حوالى عشرة آلاف شخص فى اليوم الواحد، ويعبر الانتحار من أعقد وأخطر المشاكل التى يعانى منها الناس وتحتل الولايات المتحدة رأس القائمة من الدول التى تسجل فيها نسبة الانتحار على معدلاتها وتمثل اليابان المركز الثانى.

٣ — طبيب إنجليزى يحلل أمر قومه ويقيم أخلاقهم فيكتب محذراً منذراً من (الانحلال الخلقى) وتدهور القيم والمثل العليا ويقول ستصيب الجيل الجديد أمراض سريه لا أول لها ولا آخر تجعله عاجزاً عن متابعه حياته وعن الإبداع الفنى والعلمى ونسبة تلك الأمراض بين أطفال المدارس التى زادت ٧٠ فى المائة عن العام السابق هى آفة خلقية كالسوس تنخر فى كيان أمة كانت يوما من الامم العظيمة تنهار مكانتها بين دول العالم، وهكذا حدث للأمبراطورية الرومانية التى انحلت خلقياً فى أواخر سنى ازدهارها حتى أصبحت الأميرات والنساء الثريات يشترين الشبان بأغلى الأثمان ثم تضعهم فيما يشبه الحريم ويقدمن لهم

أفخر الأطعمة ويرتدين أفخر الشباب ولا يعود لهؤلاء الشبان من عمـــل سوى الأكل والنوم والرياضة لتربية عضلاتهم للمحافظة على لياقتهم البدنية حتى تستمتع سيداتكم وهكذا حدث للإمبراطورية الأثيوبية التى انهارت القيم فيها فأصحبت كلاب الامبراطور تأكل فى صحون من الذهب الخالص ، ولا تأكل سوى أعز مقاطع من اللحم يطعمها لها الامبراطور بنفسه على حين يتضور الشعب جوعاً خارج أسوار القصر ، وهكذا حصل للإمبراطورية الأثيوبية التى اضحت فيها الدعارة عملا شائعا مشروعا يشرف على البيوت السرية الإمبراطورية نفسها ، بل يقال أنها هى التى كانت تمتلك البيوت فليس عليها الآلاف من الجهات فتفتح بيوتا أخرى جديده حتى ضج الشعب وأنهارت حصون تلك الامبراطورية النخرة على رءوس أصحابها .

٤ ـــ ظاهرة الجريمة فى أمريكا حديث كل من زار الولايات المتحدة ، قتـل المارة بالرصاص والهجوم على البيوت، والمعتقد أن أول أسبابها انتشار البطالة أو المخدرات والأقراص بين الشباب والفتيات ، يقول إحصاء أن ثلاثين ألف شخص ينامون على أرصفة الشوارع ، أو مقاعد الحـــدائق فى نيويورك لأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا إيجار مساكنهم وهو عدد بشع فى مدينة من أغلى مدن الدنيا انتشر الكوكاكين فى أمريكا انتشاراً كبيراً يباع فى بعض مدارس البنات .

٥ ـــ إنهيار الأسرة الغربية (الصحف ٢٠ / ٢ / ١٩٧٣) .

أعلن الدكتور لويس هيلمان مخطط الأسرة الأمريكية إن العقم الذى يقصد به تحديد النسل يتزايد الاقبال عليه فى أمريكا بسرعة مذهلة وإن ٢٠ فى المـــائة من الأزواج والزوجات الأمريكان سوف يصبحون عقماء بحلول عام ١٩٧٥ وذكر أن تعقيم الرجال والنساء فى مدن الساحلين الشرقى والغربى قائمة على قدم وساق ولكنها تسير فى بطء فى الولايات الوسطى وفى الجنوب وقد أجريت عملية مسح فى سان فرنسسكو أوضحت أن ٢٦ ٪ من الأزواج والزوجات الذين طلبوا تعقيمهم قد عقموا بالفعل ، والأمهات اللواتى بلغن سن ٣٢ قـــد أعلن

أسرهن بما يكفى من الأولاد والبنات وبقى لهن ١٥ سنة تقريباً من الخصوبة والإنجاب وانهن يضقن ذرعا بتناول حبوب منع الحمل وتحسين أثارنسيان تناول الحبة يوما ويؤمن بأن التعقيم مضمون جداً ، وقد بدأ بتعقيم النساء فى أمريكا منذ سنوات أما تعقيم الرجال فقد بدأ ينتشر انتشاراً سريعاً منذ أربع سنوات هذا وقد أثبت علماء جامعة فلوريدا الأمريكية انخفاض معدل الخصوبة لدى الرجل الأمريكى وأثبتت الدراسات المتعددة انخفاض معدل الخصوبة لدى الرجل بوجه العام فى الدول الصناعية .

٦ — سجلت الدكتورة ايرن هيكان استاذه علم النفس بجامعة كالفورنيا علاحظاتها الطبية أثناء قيامها بعلاج ثمانية آلاف من المرضى بالاضطراب النفسى ودونت تشخيصها لأسباب أصابه بعضهم بأمراض بدنيه كقرح المعدة أو ارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب والحساسية والاضطرابات المعنوية وغيرها وارجعت ذلك كله إلى المبالغة فى التطلعات ومتطلبات الحياة العصرية واقتناء الفاخر من السيارات والزوارق والأدوات المنزلية وأجهزة الترفيه وأحدث الأزياء والطموح إلى تقليد الآخرين ممن هم على مستوى اقتصادى أرفع بنتيجة أنهم يستهلكون صحتهم ويرهقون أعصابهم وان ٩٠ ٪ من الأمراض النفسية الشائعة فى العصر الحديث مصدرها الهموم الناشئه من انشغال البال بتجمع الكماليات .

٧ — ويعد الدكتورسالم نجم أن الخرهى معول تقويض الحضارات ، وأن الأدلة تشير إلى أن تعاطى الخر ولو بكمية قليلة يؤثر تأثيراً سيئاً على قدرة الإنسان فى الحكم على الأشياء وعلى مهارته اليدوية وأشار قانون سوفيتى إلى أن إدمان الخر أدى إلى الإضرار بالاقتصاد القومى نتيجة إنخفاض الكفاية الإنتاجية

٨ — فى الولايات المتحدة الأمريكية تحيط الشباب فى حياتهم التى فقدت كل ما يمت إلى الدين والمجتمع بصلة . وهذا ما دفع ما يقرب من المليون شاب وشابة إلى منظمات تتخذ الدين أو العقائد الجديدة ستاراً لأعمالها ومن أشهر هذه

المنظمات كنيسة الوحدة ورأسها رجل هاجر من كوريا يطلق على نفسه اسم (رفيدس مابح فون) أى الشمس مقدسة ، أيها الشيء القمرى ، توجه هذه المنظمة نشاطها نحو الشيء الأمريكى ويقدر إتباعها بثلاثين ألف شاب أمريكى يطلقون على أنفسهم اسم القمريون ، وينتشرون فى مختلف أنحاء الولايات وتتنافس هذه المنظمات فيما بينها كما تواجه غضب أولياء أمور الشباب وسلطات البوليس والجهات الدينية والتقليدية ، ولذلك تعمد هذه المنظمات إلى إستخـــدام غسيل الدماغ والسيطرة التامة على الشباب أو الشابة حتى يصبح تابعاً سهل الانقياد .

٩ — هناك جماعات تعلن عن نفسها أنها تقدم أفضل طريقة للانتحار ، هذه الجماعات تلقى رواجا فى بريطانيا حيث يتضاعف عدد أعضائها وأصبح أربعة آلاف خلال شهرين ، والسؤال هو : المدنية الغربية إلى أين ؟

* * *

وقد أدان الحضارة الغربية كثيرون :

١ — أدانها سولجستين العالم الروسى المعروف قال :

إن الأسباب المؤدية إلى إنفجار عالمنا تبدو واضحة للعيان وهى : إنقسامه إلى قوتين عظمتين تملك كل منهما قوة كافية لتدمير العالم . هذا فى حين أن عالمنا تقتسمه شروخ أكثر عمقا وأكبر عدداً مما يبدو هناك مما يسمى بالعالم الثالث .

والواقع أن هناك أكثر من ثلاثة ولكنها لا تبين هذه العوالم جيدا لأننا بعيدون عنها جدا ، فكل حضارة أصيلة دامت قرونا طويلة واتسعت حتى شملت مساحة واسعة نسبيا من الأرض هى فى الواقع عالم قائم بذاته ملىء بالألغاز والمفاجئات التى لا تخطر للعقـــل الغربى : تلك مثلا هى حالة الصين وحالة الهند وحالة العالم الإسلامى خصوصا إذا حسبنا إمتداداته فى إفريقيا . إن ما يسود الغرب من أوضاع تهدد بإنهياره ترجع إلى أن العالم الغربى منذ إنتهاء العصور الوسطى وبدء عصر النهضة أخذ يهجر الدين ، ويتمرد على القيم الروحية ، ويحط

من شأنها ، ويجعل القيم المادية هي أساس حياته ومحور أفكاره ، وبرهان تقدمه ومصدر سعادته . الرفاهية المادية في كل شيء ، طموح الفرد مادي ، وعود الزعماء مادية ، ثقافة الإذاعة والصحافة والتليفزيون مادية في مادة أكثر واستهلاك أكثر مقتنيات أكثر ، هذا التفكير المادي المنطلق يلتقي فيه الشرق والغرب ، فإذا كان الشرق ماديا ملحدا رسميا (الاتحاد السوفيتي) ويحكم فلسفة الدولة ، فالغرب يصل إلى نفس النتيجة عن طريق آخر : طريق الانغماس في المصلحة والمادة وحب الاقتناء والاستهلاك وحضارة شأنها البحث عن اللذة والاستمتاع والمزيد من الرخاء لا يمكن أن تكون حضارة سائخه تهاب : الموت وتكره التضحية ، فهي تتنازل أمام خصومها خطوة خطوه طلبا للسلام . إن الغرب كما هو الآن فاقد لصحته الداخلية مهما أخفت ذلك مظاهر القوة والرخاء ، وإن فلسفة الغرب تعتبر أن الإنسان خلق للسيادة وبالتالي فإن كل شيء يجب أن يكون لمصلحة الفرد ولكن الإنسان كما خلق للحياة فقد خلق للموت وبالتالي فلابد له من الإيمان :

الإيمان بالله وبالقيم الروحية والمعنوية وبأن رسالة الإنسان هي الارتقاء إلى قيم أعلى وليست مجرد إقتناء أكثر .

٢ — ويتساءل السيد أبو الحسن الندوي : هل سعدت الدنيا بالحضارة الأوربية ويقول أن الأوربين قد فقدوا تعادل القوة والأخلاق — والتوازن بين العلم بظاهر من الحياة الدنيا — والدين ، منذ قرون فلم تزل القوة والعلم في أوربا بعد النهضة الجديدة ينموان على حساب الدين والأخلاق ، ولم يزل الأولان في إرتفاع وإرتقاء والآخران في إنخفاض وإنحطاط حتى بعدت النسبة بينهما ونشأ جيل كأي ميزان لصقت إحدى كفته بالرأى وهي كفة القوة والعلم ، وخفت كفة الأخلاق والدين . وبينما يتراءى هـذا الجيل للناظر في خوارق الصناعة وعجائب الكون وتسخيره للمادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه وكأنه فوق البشر إذ هو لا يميز في أخلاقه وأعماله ، وفي شرهه وطمعه وفي طيشه ونزقه وفي قسوته وظلمه عن البهائم والسباع ، وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة إذا هو لا يدري كيف يعيش وبينما هو قد بلغ الغايات في الكماليات وفضول الحياة، إذا هو لم يعرف المبادىء الأولية والبدهيات للحياة الإنسانية والمدنية والأخلاق

فنراه يريد أن يصعد إلى السماء ويريد أن يناطح الجوزاء وقد خولته العلوم الطبيعية قوة قاهرة وهو لا يحس إستعمالها كطفل صغير أو سفيه أو مجنون ملك أزمة الأمور ويؤتى مفاتيح الخزائن فهو لا يريد أن يبعثه بالجواهر الغالية ويعبث فى دماء الناس ونفوسهم . وهل انجبت حضارتها إلا عنصرية الجنس والقومية وهل خرجت إلا جماعات الخنافس والهيبز وملأت العيادات النفسية والمصحات بضحايا الإدمان على المخدرات والضائعين .

٣ — ويقول باحث متمكن : ألم يعلموا أن الغرب يعانى اليوم من فراغ أخلاقى خطير نتيجة تحطم القيم الدينية ، كان يكفى هؤلاء وهؤلاء الاطلاع على بعض الإحصائيات عن معدل الانتحار فى السويد ، والتسمم الكحولى فى بولندا مليون ونصف مليون طفل غير شرعى لفتيات غير متزوجات فى أمريكا ،رسالة دكتوراه ١٩٦٣ ، تقول إن ٥٦ ٪ من المتزوجات فى أمريكا يمارسن الجنس مع غير أزواجهن و٦٠ ٪ من بنات الجامعات يعتبرن المعاشرة دون زواج ليست إثما وإن الخنافس ليسوا مرحلة أو شكلا حضاريا ولكنهم ظهروا كرد فعل معاكس لأخلاقيات المجتمع المحافظة وسوء توزيع الدخل والاحتكارات وانقياد الطبقة الوسطى فى خلاف رأس المال دون مبادىء وتعليق العربى للخنفس الأمريكى دون فهم لفلسفة السياسة عن سفه تعلمه من وسائل إعلام جاهلة تنقل له الصورة دون المضمون ويقدمون لنا فئات من كلام وطبخات فجة علينا أن نزدردها ونفهمها على أنها حضارة الغرب ، والواقع أن كل حضارة تمر بمراحل نمو من الطفولة إلى الشيخوخة ثم الموت فهل يحق أن يستخدم جزءاً غير مقبول من أخلاقيات هذه أو تلك ونسميه حضارة الغرب .

٤ — ويرد كثير من الباحثين انهيار الحضارة إلى (الترف) ويقول : عندما يتجه المجتمع المتحضر إلى الترف يفقد مبررات وجوده ويتجه إلى النهاية وإلى التدمير ليفسح مكانه لتجربة أخرى . وقد وصلت أعلى درجات الترف والغنى فى بلد كالسويد يتمركز على رأس القائمة فى احصائية الانتحار العالمية ، ذلك لأن غنى البطون قتل الأرواح الخاويه وخلق نوعا خطيراً من الانسحاب من الحياة أشنع من الانتحار وذلك عن طريق الموبقات والأدمان على المخدرات .

ويرى آخرون أن (قلة النسل) هى أقوى معاول هدم الحضارة وأن تناقص النسل خطر كبير على الاجتماع وكان منذ أقدم العصور من أسباب زوال الحضارات والأمة الرومانية لما رفه أهلها ورغد عيشهم تناقص نسلهم وكان هذا التناقص من أسباب إنهيار حضارتهم .

ويرى من غيرهم أن (الأخلاق) هى من أهم العوامل المعنوية التى يتوقف عليها بقاء الحضارة أو زوالها ، فضلا عن ظاهرة إنتشار روح اليأس والتشكك والتمزق والتشاؤم ، وقد أشار الاجتماعيون إلى أنه عندما تضعف الأخلاق ويتفشى اللهو والفساد يبدأ نجم الحضارة فى الأفول وتظهر بوادر الانحطاط وتترافق عوامل الضعف المعنوى عادة عوامل الضعف العقلى والجسمى معاً ، والشهوات إذا ذهبت بأمة ضعف بنوها جسميا وعقلياً وأصبحوا لا قوة لهم على مواجهة الأمراض .

وأن من أخطر مقاتل الحضارة الغربية ذلك الاستعلاء عن الحضارات وقداتهم .

وقد إتهم روجيه جارودى الغرب الأوربى بعقدة نفسية أطلق عليها تسمية (مركب العظمة) الذى حال دون تفهم الإنسان الغربى للحضارات الإنسانية المغايرة لحضارته المختلفة عنها وخص بالذكر الحضارة الغربية فالأوربى لا ينظر للشرق العربى إلا نظرة المتكبر معتبرا نفسه ابن حضارة أثبتت تفوقها يتطور إلا له والتقنية .

ولقد حاول الغربيون أن يقدموا لحضارتهم ولفكرهم صورة براقة لامعة على أنها شيء مقدس لا يعتوره النقص أو الخطأ ، وهذه الصورة فيها مبالغة كبيرة وهى تستهدف انتقاص الإسلام وفكره وحضارته بتلفيق خيوط مختلفة ، ولا ريب أن هذه المحاولة المضللة لا يكتب لها البقاء لأنها لا تثبت أمام التحقيق العلمى .

[ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أن ينزل عليكم

من خير من ربكم] فإن الفكر الغربي في حقيقته ليس إلا فكراً بشرياً انتزع نفسه من مفهوم الدين الحق وسار وراء أوهام الفلسفات ومفاهيم المادية والوثنية ، ومن هنا جاء ذلك التضارب والتعارض بين المدارس والإيدلوجيات .

تقول السيدة برجت هولى : كنت كسائر الغربيين أكن أحقاداً وشكوكا وشبهات حول الإسلام وحدث تغيير مفاجىء عندما شرعت فى قراءة فقرات من كتب الإسلام وتأثرت غاية التأثر بمنطق المناقشة التى تناولت فكرة الخالق والمخلوق ، والحياة بعد الموت .

إن القرآن نموذج هندسى بديع كامل يكمل كل جزء من أجزائه بقية الأجزاء الأخرى ، ويكمن سر جماله فى إنسجام هذه الأجزاء وتلاؤمها وهذه الخاصية الإسلامية هى التى تمارس تأثيرها العميق فى النفس الإنسانية فإذا نظرت إلى أحكام الإسلام وتفصيلاته وجدت فيه خير هاد لحياة إجتماعية نظيفة تنبثق من قيم خلقية صحيحة ، فالمسلم يذكر اسم الله فى مبدأ كل عمل ومن هنا يتم الترابط بين حياته اليومية ودينه فتتزن الحياة وتنسجم .

وقالت : إن الإسلام يستطيع أن يؤثر تأثيراً عميقاً فى الحضارة الحديثة (إن العالم الغربى يعيش اليوم فى ظلام ، وليس هناك أى بصيص من الأمل فى قيام الحضارة الغربية بتوفير سبيل لتخليص النفس الإنسانية من حيرتها وآلامها فكل من يعرف الوضع الحقيقى للمجتمعات الغربية يلمس هذا القلق وهذه الحيرة العالمية التى تختفى خلف بريق التقدم والإبداع المادى والانسجام اللطيف فى الاسلام وبين مستلزمات الجسد ومتطلبات الروح يمكن أن يحدث تأثيراً قوياً فى أيامنا هذه وفى المستقبل .

مستقبل الحضـــارة الإسلامية

أن مستقبل الحضارة العالمية رهن بمستقبل الحضارة الإسلامية ؛ فالحضارة الغربية قد دخلت مرحلة المحاق ولم يعـــد فى إستطاعتها أن تعطى شيئاً إيجابياً (غير مادياتها المترفه) والتى تعطى معها القلق والتمزق وأزمات التدمير الاجتماعى والخلقى ، وفيه بات واضحا أن الأمل معلق بالقـوة القادرة على منع الإنسان مطامحه الروحية إلى جانب المعطيات المادية وأن المعطيات المادية نفسها لم ولن تـكون قادرة على إسعاده ، فقد ارتفعت نسبة الدخـول والموارد فى بعض بلاد أوربا على النحو الذى جعلها فى القمة وما زالت هـذه الدول تقاسى أشد ألوان التمزق وفيها أعلى نسب للانتحار والقتـل . إن الحضارة الغربية اليوم تقدم أبشع صورة للإنسان فى مجال التدمير والقتل ولما كانت (أخلاقية الحضارة) هى حجر البناء الأول فإنها إذا فقدت هذا الأساس فمهما تطل بها الحياة فستظل الملايين القائمة بها مدمرة منهارة .

أما بالنسبة للمسلمين فإن أكبر الخطأ هو الاستسلام للنمط الغربى ؛ وأسلوب العيش الغربى ؛ ونسيان الهوية وفقدان الأصالة ؛ أن الهدف من الغزو التغريبى القائم هو أن تنصهر الحضارة الإسلامية فى بوتقه الأممية ؛ أن الأنماط الحضارية الإجتماعية الغربية التى يراد إحتوائنا فى داخلها فاسدة ؛ نحن نطالب بالعودة إلى المنابع ونتجنب أسلوب العيش الغربى ، لقد كان الغربيون فى أخذهم بالتجريب الإسلامى قادرين على الاحتفاظ بأصالتهم . أن الشيوعيين مع الغربيين لهم استقلال أيدلوجى ؛ واليابان لها مع الغرب استقلال منهجى فكيف يمكن لورثة أعظم الحضارات أن ينصهروا فى حضارة الغرب الإباحية المادية الوثنية .

أن الحضارة الإسلامية هى وحدها التى تبنى الإنسان القادر الجامع بين العقل والقلب والمادة والروح والدنيا والآخرة . والمؤمن بالالتزام الأخلاقى والمسئولية الفردية والجزاء الأخروى .

وإن أوربا اليوم حبلى بالاسلام : هذه الإعداد الكبيرة من المسلمين التى وفدت على أوربا تبشر بقرب ميلاد قوة سياسية اسلامية عصرية ؛ لا هى بالعربية ولا بالفارسية ولا بالبربرية ولا بالتركية وبل قوة أوربية ترث هؤلاء جميعها وتجمعها بمن سبقها « إخوة الإسلام » ومناصرة الجسد الواحد وهى التى فى تقديرى ستحمل عبء الدعـــوة إلى شعوب الغرب قياسا على ما سبق فى التـاريخ من موجات متزايدة الاتساع كلما بعدت المراكز وهذا تقدير دعاة الإسلام من أمثال الدكتور عبد الحليم خفاجى

أما الحضارة الغربية فقـد وقعت فى أزمه الأفول ؛ ولم تعـد تملك إمكان حل أزمتها الخانقة ، وذلك يعود إلى عقم التربة التى تقف فوقها ، وفساد الهواء الذى يكتنفها وهى تقفز كالمحبوس من النقيض إلى النقيض إلى أن وجدت أغرب حل حين اقترح « الدوس هكسلى » تعميم المخدر وجعله فى متناول الجميع كالمشروبات الروحية والتبغ وذلك لأنه يغير منهج الإنسان الغربى ، وهكذا نرى .

فشل الدين وفشل الخروج من الدين ، وفشل الديمقراطيـة وفشل الدكتاتورية وفشل الرأسمالية وفشل المـاركسية وفشل الليبرالية والجماعية والوجودية وقد تنبأ الـكثيرون أن العالم سيشهد حضارة عظيمة تقـوم على سواحل الباسفيك تفوق الحضارة القائمة الآن على سواحل الاتلانتيك حضارة ملونه تحل محل الحضارة البيضاء وستصبح الشعوب الملونة أكبر عدداً من الشعوب البيضاء التى ضمرت الآن .

يقول جيرالد هيرد فى كتابة (القيمة الخلقية الثالثة) :

إن الغرب تعس ومتخلف بتحكيمه القانون العلمى فى كل شىء ، حتى غدا الإنسان آلة قابلة للتحكيم والتحكيم ، ما دام كل شىء ماكينة فكل شىء لا هدف له ولا أخـلاق له ولا قيم له ، إن كل ما يملك الغـرب هو القدرة على التصنيـع والقدرة وحدها قد تدمر .

لقد أدرك الغرب أن (ماديته) تحمل عوامل فنائه ، ولذا تجد أهل الفكر فى الغرب مشغولون بالبحث عن (سر) يجـدد مجتمعهم حتى ينبض بالحياة لا فى مستقبلها البعيد بل فى حاضرها على الفور .

وهذا هو السر فى الجمع بين المتناقضات : دعوى العلمانية التى ترفض كل ماليس عقلانيا وقبول الأساطير والشعر والمهاريشى والفكر الوثنى الذى لايقره العقل ، إن الغرب بعد أن فقد إيمانه بالأيدلوجيات الموجودة لديه ، عاد يذهب إلى الشرق ويبحث عن البوذية . والترقانا والمهاريشى ، الذى يتأمله وهو رافع رجليه إلى فوق ، وبعد أن فشلت الوجودية دخولا إلى الهيبة تدخل الآن مرحلة المهاريشى والتجرد وتصدرها للشرق ، وهو حين يبحث عن الدين الحق تخدعه (حركة الحوار) لتقنعه كذبا بأنه ليس هناك فوارق بين الأديان ، عن طريق القول بأن أساس الأديان واحدوهذا حق ولكن قبل أن يقع الانحراف والتغيير بواسطة رؤساء الأديان .

٢ - وهناك الدعوة إلى العودة إلى بدائية الإنسان الأولى بين أحضان الطبيعة والغرائز عاريا كما جاء ، وهذا من ضلالات الماسونيه والمجوسيه والوثنية التلمودية التى لاتريد للإنسان الغربى أن يهتدى إلى الحق ، وفرق بين هذه الدعوى وبين الدعوة إلى (الفطرة) التى جاء بها الدين الحق بعد أن عدت البشرية طور الطفولة ، وتخلصت من الأوثان والأساطير والسحر والخرافات ، إن هذه الدعوة إلى العودة إلى البدائية التى يحمل لواءها طوائف الهيبة وغيرها من الفلسفات الرافضـة التى ابتدعت نوعاً متطرفاً من الهواجس والقوالب الصاخبة .

الدعوة الأولى دعوة ضالة مضلة تدفع إليها الفلسفات الوجودية تحاول أن تجهض الدعوة الأصيلة فى العودة إلى الله . ومن عجب أن الذين كانوا دعاة الماديه يحملون الآن لواء الدعوة إلى مفاهيم غريبة هى أقرب إلى مفاهم الباطنية والغنوصيه ، كأنهم انتقلوا من معسكر المادية الصرف إلى معسكر الروحيـة الصرف ، وليس هذا هو مفهوم الدين الحق إنما مفهوم الأصالة هوالتماس منابع

الوحى والإيمان بالله الواحـــد الأحد أن التلمودية اليهودية لاتريد أن تتجه الثقافة العالمية إلى الله وإلى الإصالة ولذلك فهى تدفعها نحو البوذيه والغنوصية حتى تحجبها عن نور الحق وقد دفع النفوذ الأجنبي واليهود الفكر التلمودتى إلى أرض المسلمين تحت أسماء كثيرة : تحت اسم الفكر الحر وتحت اسم البهائية وتحت اسم الماسونية وتحت اسم العلمانيه .

٣ — وبعد إفلاس الحضارة الغربية يبحث الأوربيون عن طريق :

ونحن المسلمون نشعر أن لدينا هذا الطريق . أن فكرتنا الأساسى قادر على أن يقدم لهؤلاء ما يبحثون عنه . إن هؤلاء القوم معذورون لأن طبيعة الدين المسيحى إنما جاء ليكمل القاموس لا ليقود الحياة قياده مستقلة ، وليكمل النقص الذى وجد فى بنى اسرائيل حين انصرفوا إلى المادة انصرافاً كاملا ، حتى أنك لتقرأ التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار فلا تجد فيها كلمة واحدة عن اليوم الآخر ، (سيطره المادية) وبدون أن يرتقوا بالقوانين الماديه إلى الآله ، حتى يرى الله جهره ، من أجل ذلك كان لابد أن يأتى ألا تحل وليس به سوى الشحنة الدينية الروحية ، ليس له نظام حياة حتى تكمل النقص الذى بنى إسرائيل فلما انفصلت المسيحية لم تجد ما يكمل لها منهج الحياة فاضطرت إلى الأيدلوجيات ثم جاء الإسلام يجمع بين أمور الحياة وشئون الروح ولذلك نجد أن القرآن ينص على أن بنى اسرائيل اهملوا القيم والروحانيات ويدعو إلى منهج جامع للبشرية .

هذا هو المنطلق الحقيقى الحضارة — يقول ارنولد توينبى : الآن يظهر أن التقليد الإسلامى فى أخوة الإنسان للانسان هو مثل أعلى يوافق حاجات العصر الاجتماعية وهو أفضل من التقليد الغربى الذى أدى إلى قيام عشرات الدول الصغيرة ذات السياده على أساس الاختلاف القومى ، ومن المأمول أن يستطيع العالم الإسلامى (وتقول الإسلام) إيقاف انتشار هذا الداء السياسى الغربى ، وذلك عن طريق الشعور الإسلامى بالوحده فالوحدة السياسية والاجتماعية فى هذاالعصر الذى هى

ضرورة عاجلة لنا نحن بنى الإنسان أكثر من أى وقت مضى) ونحن نقول أنه ليس الأخاء الإنسانى وحده ولكن الإسلام يقدم للحضارة : العدل الاجتماعى والرحمة والاخلاقيات المحدودة بالحدود الآلهية . ولكنه يقـــدمها بشروطه : شروط إسلام الوجه لله وإقرار الأمم بأن الله تبارك وتعالى هو الصانع والخالق وهو الذى يدبر هذا الكون كله وأنه صاحب الفضل على الإنسان فيما منحه من علم وإن الإنسان لابد أن يقيم الحضارة على مفهوم الله ولحسابه تبارك وتعالى وأن يقيم المجتمع الربانى أساساً ؛ أما إصرار الحضاره الغربية على تألية الإنسان وتقديس العقل واعتبار العلم مما أوتيه الإنسان بقدرته وله حق توجيهه إلى تدمير غيره والاستعلاء فى الأرض بوصفه الجنس الأبيض الذى صنع الحضارة فهذه كلها من الأباطيل التى تحول دون اسلام الحضارة والمجتمعات وجهها الله تبارك وتعالى .

ولقد كانت أهم نكبة أصابت المسلمين فى العصر الحاضر هو الفتور والتخلف عن الإمساك بمقاليد التقدم فى حضارتهم ثم فى شعورهم بعد بالنقص واعتقادهم أن طريق التقدم هو طريق التقدم الأعمى لما أتى به الغرب (المادى) من آراء ونظريات أن أخطر ما هناك هو التنكر الكلى لحقيقة الإسلام التى لاتثبت القدم إلا لخالق الكون . يقول مالك ابن بنى : إن الإسلام برىء مما وصل اليه المسلمون فى عصورهم الأخيرة من تخلف وإنما مرجع ذلك إلى تدهور أخلاق المسلمين وبناء حياتهم على هامش الدين بعيداً عن حقائقه ومن هنا استطاع خصومهم أن يلجوا عليهم ديارهم ويستعمروا أرضهم ويسلبوهم أعز مايملكون ولقد كانت النظريات والأفكار الملحدة هى التى هزمت كثيراً من الديانات والملل والنحل وغزتها فى عقر دارها ولكنها وقفت حائرة أمام الإسلام فلم تستطع صرف اتباعه عنه بالرغم من أساليب القهر والعسف فلما لم تقبل القوى المناهضة داترية ، سددت سهامها إلى الحكم الاسلامى لإفساد نظمه .

٤ — ومما يطلب منها اليوم لكشف عن جوهر الحضارة الإسلامية أن نعمل كما [يقول الدكتور فتحى عثمان] على :

(أولا) ابراز الأصول الفكرية لهذه الحضارة بصفة خاصة وعدم الانحصار في سرد المنجزات الحضارية الجزئية المتتابعه مع التسليم بإمكان فصلها عن الجانب الفكرى .

(ثانياً) ضرورة تحليل المقومات الحضارية فى رسالة الإسلام ذاتها مثل تقرير كرامة الإنسان والدعوة لعمارة الأرض وعدم الانسحاب من الدنيا وتأكيد واجب المؤمن فى العمل والكسب وابتغاء فضل الله بنعمته ، والبأس الطيبات وأخذ التربية المشروعة وإقامة الدوله المنظمة وتحكيم الشريعة العادله الثابتة وتقرير معنى الجماعة المتضامنة سياسياً واجتماعيا ، محليا وعالمياً ، وتربية فكر المؤمن ووعيه إلى جانب إحساسه ووجدانه .

(ثالثاً) العناية بتأكيد ارتباط المنجزات المادية والفكرية على السواء فى تاريخ الحضارة الإسلامية بالقيم الإنسانية التى دعا اليها الإسلام ومن ذلك تجليه الأصول الدينية التى قامت عليها منشئات حضاريه متعدده .

١ — تعاليم الإسلام فى النظافة أدت إلى الاهتمام بإنشاء موارد المياه فى المساجد وإنشاء الحمامات العامة والخاصة .

٢ — وتعاليم الإسلام فى رعاية الجائع والعطشان والضعيف قد أدت إلى تقرير حق الشفعة فى أحكام الفقـه وإلى إنشاء الأسبله ودور الضيافة والإيواء والأربطه .

٣ — وتعاليم الإسلام فى شأن طلب العلم قد أدت إلى التعليم بالمساجد ثم بالمدارس وقيام مراكز البحث والثقافة والمكتبات .

٤ — تعاليمه فى الرفق بالحيوان .

٥ — قدم نظام الوقف شواهد معبرة عن حضارة إنسانية نبيلة وتضامن إجتماعى متين .

(رابعاً) مكانة العقائد والفقه والأصول فى الحضاره الإسلامية وأثارها

الأخلاقية والسلوكية والاجتماعية من جهة وآثارها التنظيمية القانونية من جهة أخرى ، وأصل الأصول الذى قام عليه هذا التراث هو الكتاب والسنة ، وهما الأساس الذى قام عليه تاريخ الإسلام وحضارته ومفتاح فهمهما موضوعيا ومنهجيا ، ولقد كان للاجتهاد دوره الواضح فى التجاوب مع الظروف المتغيرة والحاجات المتطورة .

(خامسا) بالنسبة لنظام الحكم فى الإسلام : يترك الإســلام التفاصيل والأشكال لاختلاف الزمان والمكان ، ويعنى بوضع الأصول والمبادىء العامة تحت عنوان النظم الإسلامية (نظم الأسرة والمجتمع والتعليم والاقتصاد) مع ملاحظة ارتباط النظم الإسلامية عموما بالعقيدة فمنها تستمد أصالتها وحضارتنا وتميزها بالنسبة لطبيعة النظم وفعاليتها (الامامة - القضاء - الحسبة (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) المظالم - الجهاد،الزكاة + حقوق الفرد وحرياته الأساسية فى الإسلام وعلى رأس هذه الأصول العامة عقيدة التوحيد وأثرها فى تشكيل صورة الدولة ونظمها : وفى نفى الوهية البشر وتحريم مالم يأذن به الله الرضا فى العقود وأثره السياسى، والمساواة كمبدأ عام ، والشورى ،وحكم ووحدة الأمة الاسلامية والعدالة الاجتماعية) .

٥ — يقول أبو الحسن العامرى فى كتابه [الاعلام بمناقب الاسلام] أحق الأديان بطول البقاء ما وجدت أحواله متوسطة بين الشدة واللين ودا كانت تعاليه توازن بين حقوق الحسبة وحقوق الروح ، وبين العمران المادى للأرض وبين العمران الروحى للإنسان كما توازن بين هذه الحياة والحياة الأخرى فتحريم الزواج والحث على الفردية وترك طيبات الرزق وتشريع الانتحار لتطهير الروح وتخليصها من آثام الجسد وخطاياه ، وذلك باحراق الجسد أو إغراقه أو التردى فى الجبل ، كل ذلك يقود لهلاك الحرث والنسل وخراب العمران ويتعارض مع الحضارة ومع الحياة ويحرمه الاسلام ، ويقرر العامرى أن الإسلام يعطى أهمية كبرى للقوة المادية ، قوة المال وقوة السلاح وقوة الدولة كما يعطى أهمية كبرى للقيم الروحية فيجعل الأخلاق أساسا للتعليم كما يجعلها أساسا للسياسة وأساسا للحرب (وحرب الإسلام حرب أخلاقية) وإذا كانت اليهودية قد غالت

فى تقدير القوة المادية وإذا كانت المسيحية قد غالت فى تقدير القوة الروحية فإن الإسلام هو دين التوازن الحق بين الناحيتين على أساس أن كليهما عنصر أساسى فى الطبيعة البشرية وإن كليهما ضرورى لتقدم الانسان ، كذلك فإن الإسلام يحرر الانسان من العائق الطبيعى فلا يحكم على الانسان باعتبار الطبقة الاجتماعية أو القبيلة — ويتميز الاسلام عن مجتمع الساسانيين والرومان الذى لا يسمح لفرد أن يرتقى من طبقة اجتماعية إلى طبقة أعلى منها .

إن هناك حقيقة واضحة هى أن هناك عالم مادى وراءه عالم غير مادى ، وإن هناك إنسان مادى داخله عالم غير مادى فأى دين أو مذهب أو نظام يهمل واحداً منهما أو يعلى أحدهما على الآخر فإنه ينقصه بذلك عنصر خطير من عناصر الحضارة وبدون هذا العنصر لا يمكن إحراز تقدم حقيقى والجانبان الروحى (العقيدة والعبادة والأخلاق والثقافة ومنها الآداب والفنون) والمادى (السياسة والاقتصاد جزء منها والقوة الحربية للدولة والعلوم المادية) هما متكاملان متماسكان لا يمكن فصلهما فى الإنسان أو فى المجتمع الإنسانى .

الباب الرابع عشر

الاقتصاد

(١)

نحن المسلمون نؤمن بأن للإسلام منهج إقتصادى كامل : هو منهج الاقتصاد الاسلامى ، ولذلك فنحن ننظر إلى النظريتين : الرأسمالية والاشتراكية : نظرة واحدة ، نحن لا نعتقد أن إحداها تصلح للمجتمع الاسلامى فضلا عن أنها أصبحت موضع شك وامتحان شديد فى بيئتها وموطنها ، وقد جاءت الرأسمالية من خلال وضع اجتماعى معين عرفته أوربا ثم جاءت الاشتراكية والشيوعية رد فعل للأخطاء التى وقع فيها النظام الرأسمالى ، ثم نقلت التجربة إلى مجتمعنا الإسلامى مع سيطرة النفوذ العسكرى والسياسى الغربى الذى زحف إلى بلادنا بقصد نهب ثروتها واستغلال مواردها ، ومن ثم فقد فرض النفوذ الاستعمارى هذا النظام على بلادنا لوضعها تحت سيطرته وحتى يحول دون تمكينها من امتلاك إرادتها ، والانطلاق باقتصادها وثروتها على النحو الذى يمكنها من الانتفاع بها ، ومن ثم سيطر الغرب على العالم الإسلامى ووضعه فى قبضته وفرض عليه نظامه الربوى المعارض تمام المعارضة لمنهج الإسلام ومن ثم اختفى منهج الاقتصاد الإسلامى تحت ركام الأحداث وذاق المسلمون ويلات النظم الربويه والنهب ووقوعهم تحت القروض الثقيلة وهم أصحاب الخامات التى تباع بأرخص الأثمان وعاشوا فى مؤامرة البورصات والأسهم والسندات وحرموا من ثرواتهم بإيداعات الدول البترولية الكبرى لثرواتهم فى مصارف أوربا وأمريكا وجاءت بعد ذلك لعبة الذهب والعملات الورقية .

هذه هى القضية الكبرى التى يجب أن يعرف المثقف المسلم أبعادها :

١ ــ كيف يعمل النفوذ الأجنبى بمحاصرة الاقتصاد الإسلامى فى داخل العالم الإسلامى ؛

٢ ــ وكيف يضع ثروات العالم الإسلامى فى مصارفه ويمنع وصولها إلى أيدى المسلمين .

٣ - وكيف يستوعب الأموال التي يحملها بعض الثراة إلى أوربا والغرب ويفتح لها أبواب المواخير ونوادى القمار في كان والريفييرا ولاس فيجاس وفى كل بلاد العالم فيحرم أهل البلاد من ثمارها وتصدر للأجانب : البلاد التى اشتهرت باللحوم والدواجن والمحاصيل الزراعية تصدر إلى جميع أنحاء العالم وبها ملايين المواطنين يعانون من الجوع، هذا على الرغم من أن ماتنتجه الأرض الزراعية يمكن أن يكفى حاجة هؤلاء المعدمين ويكفى للتصدير بكميات كثيرة للخارج ، وعلى حين تعانى الدول المتقدمة من التخمة والاسراف الاستهلاكى تعانى الدول الفقيره من نقص المنتجات الضرورية لاعاشة مواطنيها .

(فمثلا ٨٠ فى المائة من أطفال البرازيل لا يأكلون أبدا إلى حد الشبع ولا يتناولون اللحم إلا نادراً فى حين نجد أن دولة مثل فرنسا يستورد من اللحوم والدواجن مايصل نسبة استهلاك الفرد منها أعلى نسبة فى العالم ونفس الشىء فى الولايات المتحدة) .

وفى بلاد كثيرة فى العالم الإسلامى يوجد هذا المثل ، حيث تنحصر الثروة فى طبقة محدودة جدا ، طبقة كبار الملاك ورجال الأعمال الذين يتمتعون بثراء فاحش نتيجة لسوء توزيع الثروة ولكى تحصل الحكومة على عملة صعبة تعمل على تصدير ثروتها الحيوانية والزراعية كالبن والسكر والكاكاو وعصير البرتقال المجمد والدواجن) وهكذا فإن أى دولة مصدرة للمنتجات الحيوانية والزراعية تصبح بلدا للجوع والجفاف .

وفى إفريقيا حيث توجد الثروات المعدنية والكوبلت والمنجنيز وتوجد المجاعة والأمراض والتخلف يحصد السكان ، وحيث تنتهب هذه الثروات المعدنية قسمه بين الرأسماليين والشيوعية تحت قناع المعاهدات الاقتصادية واحتلال الأسواق ، وتقديم الديون والقروض والجزاء وفى بلاد صغيرة من أفريقيا نهبت معادن ويفط بملايين الدولارات ، فضلا عن أن الصادرات تشترى بها سلع من الأسواق وكماليات وترف .

وهناك خطة تقسيم مناطق النفوذ بين الدول الكبرى ، المناطق الإسلامية

وحدها هى مركز الصراع ، وتباع أسعار البضائع على أساس التفويض والمبادلة بأرخص من أسعار السوق العالمية .

ولقد يحاول المعسكرين إعطاء صورة الصداقة والبذل والمعاونة فى المشروعات بما يلقى فى روع المناصرين لهذا المعسكر أو ذاك — كما يقول دكتور إبراهيم دسوقى إباظه ، — إن هناك سباق شريف من أجل صداقة هذا العالم وخيرة ولكن الصورة الحقيقية تشير إلى أن هناك صراعا دمويا بين العملاقين على أرض الفقراء من أجل ثروة الفقراء ومن أجل السيادة على الفقراء وحقيقة هذا الصراع الدموى على أرض الفقراء توضح الأساليب الماكرة التى تصطنعها عناصر هذا الصراع الاستعمارى هدفه فى الحقيقة تجويع العالم الإسلامى وإبقاء المسلمين فى مقام التخلف والانفكاك من روابط دينهم وقيمه وتعاليمه فى فهم الحياة وفهم الترابط بين الدين والدنيا ، أن أوجب الواجبات على المسلمين أن يأخذو بالوسائل التى تخلصهم من الفقر الاستعمارى وتحررهم من العبودية الاستعمارية ، وأن العقيدة الإسلامية هى مصدر الطاقة التى تحرك فى المسلم إرادة العقل ، وتعبر به من فراغ الجاهلية إلى مراتب الجهاد الأكبر وترسم له القيمة الحية التى هى الوقود الدائم للإرادة » .

هذه هى الحقيقة التى تخفيها قوى كثيره وراء مظاهر برافة كاذبة ، ترمى فى الأغلب إلى إعطاء الناس مفهوما زائفا — قد يستمدونه من الإسلام والإسلام برىء منه يجعلهم يقبلون ويسلمون بوضع ثرواتهم تحت أقدام الاقتصاد الربوى العالمى وبينه وهذا واضحا وقويا اليوم حين بدأت الصحوة الإسلامية تحقق تقدما نحو مفهوم إسلامى للاقتصاد عن طريق المصارف الإسلامية ، حيث نرى ذلك الانقضاض الشديد على هذا التيار وحزبه بعنف لحساب المصارف والربوية ، إبقاء للأموال والثروات الاسلامية فى أيدى خصوم الاسلام ، ومن ثم نرى هذه الطائفة من الشعوبين وأعداء أوطانهم وأمتهم الذين يحاولون تبرير الربا والنظام الاقتصادى الدخيل خدمة للدول الكبرى .

وقد وقع بعض العلماء فى هذا المحظور تحت قناع الاجتهاد الباطل ، والادعاء بأن هناك متغيرات وهل هناك اجتهاد مع النص ، وهل من التغيرات تجاوز حدود الله والهدف هو سد الطريق أمام المسلمين حتى لا يستطيعون أن يتخذوا طريقاً إسلامياً للاقتصاد فيتحرروا من نفوذ النظام العالمى الذى أثبت فشله وفساده فى بيئته الأولية حتى علت الصيحة فى العالم كله تطالب بنظام إقتصادى عالمى جديد ينقذ البشرية من ورطتها .

وليس هناك غير الإسلام ، أننا الآن نملأ خزائن أعدائنا بالبلايين فوق البلايين فى حين أن أبسط ما تقضى به مقتضيات العقل أن تكون لنا مصارفنا ومؤسساتنا النقدية الخاصة فأعدائنا أن تسموا بغير أسمائهم فهم إتباع التلمودية أصحاب العجل الذهبي ودولة الربا العالمية .

يقول الدكتور شاحت الألمانى : « إنه بعملية رياضية يتضح أن جمع المال فى الأرض صائر إلى عدد قليل من المرابين ، ذلك إن الدائن يربح ذاتياً فى كل عملية بينما المدين معرض للربح والخسارة ومن ثم فإن المال كله فى النهاية لابد أن يصير إلى الذى يربح دائماً » هذا هو الحال الذى عليه أصحاب النظام الربوى فتى ينتهى هـذا الحال فى البلاد الإسلامية ، والاستغلال الربوى هنا والاحتكار الاقتصادى هناك ونظام الفائدة مقرر ومعمول به فى بنوك البلاد الإسلامية .

أولا : فساد نظـــام الربا

نحن نعرف أن النظام الاقتصادى العالمى الذى يتحرك فيه العالم كله — بما فى ذلك العالم الإسلامى — هو النظام الربوى الذى صنعه اليهود وأخضعوا له مختلف الأمم سواء أكانت إشتراكيه أم رأسمالية ، واليوم المسلمون يتطلعون إلى امتلاك إرادتهم يجب أن يلتمسوا المنهج الإسلامى الاقتصادى لتحرير أنفسهم من هذا الطغيان المدمر ، فإذا استطاعوا ذلك قدموا منهج الإسلام إلى البشرية كلها بوصفه عامل السلامة الرحمة والعدل الحقيقى بعد أن استنزفت إمبراطورية الربا مختلف مصادر الثروات على نحو مسرف ، مما يهدد البشرية فى غدها ، ويجرى

هـذا الاستنزاف فى مجال الـكماليات والترف والانحلال الاجتماعى ، وذلك حتى يزداد أصحاب الملايين اليهود ثروة وتسلطاً ، وهو خطر يكاد يهدد إقتصادنا فى العالم الإسلامى أجمع .

ولقد أتجه المسلمون منذ فجر حركة اليقظة الاسلامية إلى طرح قضية الربا والفائدة ومدى الأخطار التى تترتب عليها والآثار التى أنتجتها فى إستنزاف ثروات الأمم الإسلامية وفتح باب الاستدانة للأمم والدول والأفراد مما نتج عنه ضياع هذه الثروات وانتزاعها من أصحابها ، مثال ذلك ما حدث فى السنوات العشر الأولى للاحتلال البريطانى لمصر ، حيث ظهر على رأس كل قرية رجل يونانى يبيع الخمر ويقرض بالربا ، واضطر أصحاب الأراضى والأطيان تحت ضغط الخمور ودور البغاء والمسارح وغواية الراقصات إلى رهن أملاكهم والاقتراض عليها حتى كان أحدهم يشعل سيجارة لراقصة بورقة من ذات العشر جنيهات ثم تطورت فأصبحت ورقة من ذات المائة جنيه وجاء فى الإحصاءات الرسمية أن (٢٠ فى المائة) من الثروة المصرية تحـــول فى السنوات العشر الأولى إلى أيدى المرابين الأجانب ، ومن ثم فقد تعالت الصيحة حينذاك إلى إلتماس (النظام الإسلامى) أساسا للاقتصاد ، ولـكن نفوذ الاستعمار المتسلط استطاع أن يفرض هذا النظام الربوى على المسلمين جميعاً فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى ، كما خضع عدد من الباحثين المسلمين للأوضاع المتردية وأعلن قبول نوع من الربا ودفع نوع آخر إلى التفرقة بين الربا المحرم شرعا وبين سعر الفائدة وعقدت فى دار العلوم (١٣٢٦ — ١٩٠٨) ندوة دعامتها الشيخ (رشيد رضا)إلى إعلان أولى الأمر ان البلاد فى حالة الضرورات قد يتيح المحظورات .

وكان الشيخ محمد عبده قد خدعته إحدى الشركات الربوية بتقديم سؤال عن فوائد مدخرات البريد فأفتى بقبولها ثم تبين له من بعد خطأ ذلك فكان أن رفع الفتوى من الطبعة الثانية لـكتابة (رسالة التوحيد) وقد اجتمعت الآراء (آراء المتخصصين فى علم الاقتصاد والفقهاء على حقائق واضحة) فى هذا الصدد ما زالت بين أيدى الباحثين اليوم حيث تجرى المحاولات مرة أخرى لإثارة والشبهات حول ربا الفضل وربا النسيئة وحول الفرق بين الربا والفائدة،وقد أوضح فقيد الإسلام

الشيخ محمد أبو زهرة بجلاء فساد هـذا كله وكيف أن الربا محرم تحريمـا تاماً ولارجمه فيه بكل أنواعه وأن على المسلمين إتخاذ وسائل أخرى للتعامل الاقتصادي

— ٢ —

هناك رأى تـكاد متفق عليه جميـع وجهات نظر الباحثين المنصفين فى عالم الاقتصاد بأن الاقتصاد العالمى اليوم : إقتصاد يهودى لأنه يقوم على فائدة رأس المال أى الربا (فى خـــدمة الحضارة) والإسراف والترف والعطور والحرير والاستهلاك . وذلك على أساس أن الحضارة الاستهلاكية التى يعيشها العالم اليوم هى حضارة يهودية ترفدها فلسفه إباحية تدعو إلى الجنس والرقص والترف والانطلاق فيما يشبه الفوضى ، وقد دعا إلى الجنس والإباحة فرويد وحاول أن يقول أن الشهداء والقديسون والقادة والمصلحون إناس تدفعهم عقيدة الجنس أى الشهوة وقد انتهى هذا إلى نواد للعراه وإباحية فى العشق وإنحلال فى الرابطة الزوجية وقال كارل ماركس: ان الأديان والقيم التربوية والخلقية أوهاماوخرافات وأن القيمة الوحيدة فى العالم هى الصراع وما بدأته الثورة الفرنسية وأعلنته الثورة الروسية كلتا هما من نسج اليهود وكلاهما من القواعد الأساسية للاقتصاد العالمى: وفى أمريكا يتبين كيف صالح اليهود الحضارة الغربية من خلال سيطرتهم على الاقتصاد : حضارة القسوة والإجرام واللادينيه والمادية ، فاليهود يسيطرون سيطرة كاملة على وسائل الإعلام (من الصحافة إلى المسرح) تهدر بما سموه الحياة الأمريكية الحرة إلى حد الفوضى والإجرام وإنحلال كل القيم؛ وإستنزاف الثروات الطبيعية وإهلا كها تحت أقدام الاستهلاك والترف . وتمتد أخطبوط الربا إلى كل مكان وزاوية ؛ وفى إمكان أى فرد الحصول على أى سلعة فوراً بعد توقيع صكوك القروض الربوية ، لباسا وفرشا وإداة موصلات ، كل الأشياء يمكن أن تقدم لك فى مقابل مبلغ زهيد شريطه أن يكتب بالباقى صكوك تدفع على مر الزمن على أقساط مضاف إليها الربا (الفوائد) هذا صك عبودية عالميه ، فالتاجر الذى يبيع بالتقسيط لا يملك كل الأموال التى يقدم بها ما يبيع فهو يقترض ما يحتاج إليه ويقدم هـــذه الكمبيالات والبنك الصغير يقترض من بنك أكبر بالربا

ويعيش المجتمع كلـــه على كتاب الصكوك (الـكمبيالات) ودفع الفوائد ، وترتب على هذه الدورة المصطنعة أزمات أفراط الإنتاج وتعطل المصانع والبطالة والتضخم الذى يعنى بكل وسيلة توفر أوراق النقد دون أن توجد سلع فى مقابلها وينتهى ذلك بالـكساد والبطالة فضـــلا عن الإفلاس الروحى والخلق وسيادة الجشع هذه هى نتيجة الاقتصاد اليهودى الذى طبقه اليهود فى أمريكا ومنها سرى إلى بقية العالم، وتختلف هذا المفهوم العالمى للاقتصاد مع مفهوم الإسلام للاقتصاد الذى يقوم على البيع وتحريم الربا وفيه أن كل قرض جر منفعة فهو ربا ، فالقرض لوجه الله ، ليس له منفعة مادية سريعة وإنما هو ينتظر الثواب والمـكافأة من الله تبارك وتعالى الغنى القدير يوم الحساب وقد عاش المجتمع الإسلامى طويلا وازدهر وقامت التجارة الخارجية دون اعتماد على نظام الربا ، وإذا غرقت لأحدهم سفينه أو أفلس جمع إخوانه له من المـال مايمكنه من استئناف مسيرته .

٢ — قطع الإسلام بتحريم الربا .

ورأى الإسلام أنه لايسمح لرأس المال أن يطغى على العمل وقد اعترض على الربا بأنه يعوق سير الأوضاع التجارية كما يعوق تنفيذ المشروعات الوطنية وفى التنظيم الاجتماعى للإسلام منع الإسلام الربا والتعامل معه ، وقد ازدهر النظام الإسلامى عدة قرون مع تحريم الفائدة ودون أن يحد من نموه مثل هذا التحريم بل قد ساعد على رقيه ونمائه .

وكان ذلك إيمانا بأن الربا يخلق الـكسل عند المرابين لأنهم يربحون من كد سواهم من الناس كما أنه يطوح بالمشاعر النبيلة كالشفقة والشعور بالواجب الاجتماعى نحو المحتاجين وهو ينطوى على الخداع والعبودية ولا يحقق التجانس والمساواة بين أبناء الشعب ، والقرض يعنى استرداد الشىء المقترض نفسه أو مثله ، أى شىء مماثل له فى الجنس ، والبيع مبادلة مابين متباينى القيمه تخضع تباينهما لقانون العرض والطلب واختلاف الرغبات فليس للمقترض أن يسترد ماله الذى اقرضه عند حلول الأجل ، مع التسليم بتقرير التزام المقرض

بالخسارة إذا قرر حقه فى الربح ومعناه قيام عقد يدعى بعقد القراض أو المقارضه أو المضاربة وهو عقد يقوم على الاشتراك فى الربح ويكون رأس المال فيه طرف والعمل من طرف آخر ولابد فيه من بيان كل من المضارب ورب المال .

٣ — هذا والربا مضاد للانفاق ومضاد للزكاة ، ومضاد للمضاعفة وأنه محق والضدان لايجتمعان فالذى يريد أن يكسب فى درهمه درهما آخر دون تعب من المستحيل أن يفضل التصدق به ، والربا ضد الصدقة ، فالصدقة عبارة عن تنقيص المال بسبب أمر الله بذلك ؛ والربا عبارة عن طلب الزيادة على رأس المال مع نهى الله عنه ، والزيادة والنقصان فى الحقيقة ظاهر الأمر وإلا فالزكاة — زيادة فى المعنى والزيادة بسبب الربا نقصان فى الحقيقه :

قال تعالى : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

وفى الحديث : مانقص مال من صدقه ، وقد نادى الله تبارك وتعالى المؤمنين وأمرهم بتقوى الله وأمرهم بترك الربا وحذرهم بالحرب إن لم يفعلوا : (يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) .

قال قتاده : أوعد الله أهل الربا بالقتل فجعلهم بهرجا أينما ثقفوا ولو أن أهل البلد اصطلحوا على الربا استحلالا كانوا مرتدين ، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالا جازما فللامام محاربيهم ، قال ابن جرير رحمه الله : فإن قال قائل أفرأيت من عمل مانهى الله عنة من الربا وفى تجارته ولم يأكله استحق هذا الوعيد من الله قبل نعم . وليس المقصود من الربا فى هذه الآية الأكل ، إلا أن الذين نزلت فيه الآية وهو قوله : لاتأكلوا الربا : كانت طعمتهم ومآكلهم من الربا فذكرهم بصفتهم معظما بذلك أمر الربا ومقبحا اليهم الحال التى هم عليها فى مطاعمهم وإن التحريم من الله كان لكل معانى الربا وإنه سواء العمل به وأكله وأخذه وعطاؤه ، وفى الحديث عن أبى هريرة برفعه : (الربا

إثنان وسبعون جربا أدناها بابا بمنزلة الناكح لامه) . والربا المحرم فى القرآن هو ربا النسيئة وهو الذى تجرى عليه معظم المصارف الآن ويتعامل به الناس، ثم جاءت السنه بتحريم ربا الفضل وقد أجمعت الأمة على تحريم ربا الفضل إلا ماذكر عن ابن عباس وابن عمر ثم رجعا عن ذلك .

إن الإدعاء بأن الربا المحرم هو ربا الاستهلاك لا الاستغلال أو الإنتاج أو غيرها من أسماء فهو قول مردود .

٤ — والربا فى تعريفه . زيادة أحد البدلين المتجانسين ، فقد فرض عليه زيادة فيما أعطاه من دين يردها عند الوفاء ، هذه الزيادة بلغت مابلغت هى حرام ، إن القانون الآلهى يحرم الربا بينما يجيزه القانون الوضعى باعتباره صفقه تجارية، إلى تجوبة التاريخ تثبت صحة القانون الآلهى وبطلان القانون الوضعى فبسبب تحريم الربا استمر الاقتصاد الإسلامى لمدة ألف سنة بدون أن تظهر طبقة فاحشة الغنى وأخرى فاحشة الفقر والنظام الاقتصادى الحديث القائم على الربا هو أول نظام من نوعه أنشأ الوضع الاقتصادى القلق فى المجتمع بتوزيع الثروات بطاريقة غير عادلة : هذا النظام عاجز عن حل المصيبة وإن عملية الربا هى الطريقة الوحيدة فى التعامل الاقتصادى التى تجعل دورة الثروة تجرى فى إتجاه واحد ، وإن هذه الخاصية فى الربا هى التى جعلت النظام الاقتصادى نظاما استغلاليا وكان من نتائجه ظهور اثنين من أكبر مساوىء القرن : وهما القهر الاشتراكى والحرب العالمية الثانية. إن ماركس وآخرين من المفكرين الاقتصاديين فى القرن التاسع عشر الذين ادعوا أن سير العدالة الاقتصادية يكمن فى الغاء الملكية الفردية لم يدركوا أن الشيء الذى جعل من النظام الصناعى نظاما استغلاليا هو ارتباط ذلك النظام بالربا ، وليس الملكية الفردية ، ولو توصلوا إلى هذا السر لطالبوا بالغاء الربا لأنهم بمطالبتهم بإلغاء الملكية الفردية لم يحلوا المشكلة بينما تسببوا فى وضع جزء كبير من الإنسانية فى عذاب اقتصادى لايخرجون منه لو أرادوا ، إلا أن (هتلر) قدشعر بمساوىء الربا الشنيعةوسيطرة الرأسماليين اليهود على اقتصاديات ألمانيا والدول الاوربية الأخرى قبل الحرب العالمية الثانية ، وقد توصل هتلر إلى أن الربا هو إداة الغاية الاقتصادية اليهودية.

ولو ألغى الربا بالقانون لما تت الرأسمالية مثلما يموت الجسد الذى يستخرج منه كل دمه ، ولـكن جنون هتلر الانتقامى قادة إلى الحل العسكرى بدلا من الحل الاقتصادى فشرع فى أبشع حرب عرفها التاريخ لاستئصال اليهود من أوربا ، ووصل بقايا اليهود إلى أمريكا عقب الحرب العالمية الثانية وخلال السنوات الثلاثين الماضية تمكنوا من السيطرة على الاقتصاد الأمريكى بواسطة الاستيلاء على المؤسسات الربوية مثلما كانوا فى أوربا ولذلك بدأ الاستياء الشعبي ضد اليهود فى أمريكا ، ويتنبأ بعض المراقبين بأنه لاعجب لو ظهر هتلر جديد ضدهم فى أمريكا .

وهذا الوضع تواجهه الدول النامية بصورة مختلفة فقد اضطرت هذه الدول للاستدانة من الدول المتقدمـة لأجل برامج التنمية وقد حصلت هذه الدول على هذه الديون بشروط ربويه طبقاً للنظام الاقتصادى السائد ، وقد بلغت هـــذه الديون بسبب السحر الربوى مبلغاً اضطرت الدول المدينة إزاءها الاستدانة مرة أخرى لأجل دفع الفوائد على الديون الأصلية ولو اضطرت معظم الدول الناميـة لدفع ديونها الخارجيـة دفعة واحـدة لاعلنت إفلاسها الـكامل .

٥ — الربا تحرمه كافة الشرائع السابقة على الإسلام ويحرمه الإسلام وتحرمه كافة القوانين ولن يهتز الاقتصاد المصرى بالابتعاد عن الربا وأكبر شاهد على ذلك ازدهار وانتشار البنوك الإسلاميـة ، ولا يسلم أحـد من المتخصصين بأن الربا فيه ضرورة لهذه الأعمال المصرفية ، ذلك لأن الله جل جلاله الذى حرم الربا لم يترك أمر الناس سدى بل شرع لهم من الحلال مايغنيهم اللجوء إلى الحرام ؛ وفى المؤتمر القانونى الإسلامى بباريس (٧ / ٧ / ١٩٥١) تحدث الدكتور محمد عبد الله دراز عن قانون وضعه الملك بوخوريس من ملوك الفراعنة (الأسرة ٢٤) حرم فيه الربا وفى التوراة التى بين أيدينا (سفر التثنية) لاتقرض أخاك بربا وفى الإنجيل الذى بين أيدينا (انجيل لوقا) إعملوا الخيرات واقرضوا غير منتظرين عائدها . وقد أجمع فقهاء الشريعة الإسلامية على أن قول الله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) تفيد تحريم

ربا الفضل وربا النسيئة ، وربا النسيئة تأجيل دفع الدين إلى المدين بالثمن ، وقد نقل إلينا إجماع الفقهاء على تحريم ربا النسيئة فضلا عن تحريم ربا الفضل (صاحب المغنى ابن قدامة) وفى الجامع لأحكام القرآن (للقرطبى) يمحق الله الربا ، لا يقبل منه صدقة ولا حجا ولا جهاداً ولا صلة . ويرى الزمخشرى فى مؤلفه الكشاف أن الآية فى تغليظ أمر الربا إيذانا بأنه من فعل الكفار لا من فعل المسلمين .

وإن علماء الاقتصاد يقررون أن الربا يفسد المجتمع بما يضمه عليه من مادية مسرفة خالصة فالفقير يفرط تحت ضغط الحاجة والغنى يشترى من منصبه ماله الذى يتزايد فتهون الأعراض وتنحل الأسر (أنديه سحفريد الفرنسى وأرثر لنك الأمريكى وارثر ستريد وغيرهم كثيرون) اقرأ وضع الربا فى البناء الاقتصادى للدكتور عيسى عبده .

وقد قرر مجمع البحوث (١٩٦٥) بشأن المعاملات المفرقة أن الفائدة على أنواع القروض كلها ربا محرم لا فرق فى ذلك بين مايسمى بالقرض الاستهلاكى وما يسمى بالقرض الإنتاجى لأن نصوص الكتاب والسنة فى مجموعها قاطعة فى تحريم النوعين وإن كان كثير الربا وقليله حرام لأن الاقتراض بالربا محرم لا تبيحه حاجة ولا ضرورة .

وهكذا فإن الإسلام — كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة — يدعو إلى نظام اقتصادى يقوم على منع الربا ، لأن الربا من شأنه أن يجعل رأس المال منتجا من غير عمل عامل بل من يحمل تبعة العمل وإذا ساد وجدت طائفة من الناس يتخذون التعطيل سبيلا ويأكلون ثمرات غــيرهم ، وفى المسائل المتجددة فإن فى مبادىء الشريعة الإسلامية مايغنى وبذلك يسد الباب أمام النظم الأجنبية بكافة المجالات التشريعية والسياسية والاقتصادية .

وقد أشار الدكتور عبد الناصر العطار فى مؤلفه [نظرية الأجل فى الالتزام) يقرر أن الفوائد الربوية بنوعيها تتعارض مع الأصول القانونية

ولا تستقيم مع مبادىء العدالة ، ذلك أن الربا عقد على منافع موهومة وغير معلومة المقدار وإذا تم العقد على محل متحمل الوجود وغير معلوم المقدار أضحى باطلا وكذلك كان الربا .

وهناك الآن عدد من الكتب تتناول هذا الموضوع فى وضوح :

تطبيق الشريعة الاسلامية : الدكتور صوفى أبو طالب .

النظرية العامة للقانون الدستورى : الدكتور رمزى الشاعر .

المشروعية العليا : الدكتور على جريشة .

السلطات الثلاث : سليمان الطماوى .

مقال الرأى فى التشريع الاسلامى : عبد الوهاب خلاف (مجلة القانون والاقتصاد) .

مبدأ المشروعية : دكتور فؤاد النادى .

وكلها تقرر أن محور الدول الاسلامية هى القانون الإلهى وأن الدولة الإسلامية لها ذاتية خاصة تلتزم بدورها بكفالة تطبيق القانون الإسلامى والالتزام بما أوجبه كلها الشارع من قواعد وأحكام .

(زكريا عامر البكرى)

٦ — إن النظام المصرفى يقوم على أساس السيولة والأربحية ومن هنا فإن التركيز على أحدهما دون الآخر يؤدى إلى فشل القيام بالعمل المصرفى ، فإذا ركز على السيولة أدى ذلك إلى الانخفاض المتزايد فى أرباحه مما يؤدى إلى عدم تحقيق هدفه الأساسى لمشروع اقتصادى (خدمات مصرفية) وإذا ركز على الأربحية كان ذلك على حساب السيولة مما يؤدى إلى عدم إمكانية الوفاء بإلتزاماته قبل المودعين وبذلك يفقد الثقة من قبل المودعين مما يؤدى إلى إفلاسه ولكن الصيغة الإسلامية للعمل المصرفى تأخذ فى الاعتبار هـــذا

التوازن الإجمالى الذى يقوم على الفن المصرفى فهذه الصيغة تؤسس على جمع رأس المال والعمل فى تزاوج إنمائى مضطرداً ليس على أساس جمع رأس المال ورأس المال كما يتم بالنسبة للمصارف الربوية ، أما الصيغة الإسلامية فإنها تعمل وفق عقد المضاربة الإسلام أو القرآن فى صورة مشروعات استثمارية ، وفقاً لمبدأ الاشتراك فى المخاطر وفى الأرباح وفى الخسائر وبهذا لا تكون هناك أحقاد بين الطرفين المشتركين فى المشروع ولا توجد إضرار الربا الذى يقوم على إثراء الغنى من دم الفقير ولا أن يكون القرض الاستهلاكى بقصد الحصول على أكبر ربح ممكن من مشروعات مربحه بصرف النظر عن المشروعات ذات الصالح العام للجماعة مهما كانت مشروعات تحتاج إلى قروض استثمارية تمس حاجة الشعب الأساسية فإن القروض الاستثمارية لا تنظر إلى الربح بل تنظر إلى المصلحة (الدكتور عبد الحميد الغزالى) .

ويقول الدكتور صوفى أبو طالب : إن النص بتحريم الربا قطعى فى ثبوته ودلالته بآيات القرآن الكريم فلا مصلحة البتة فى مخالفتها وليس لنا أمام قول الله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) أن يقول : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فكلمة الله هى العليا وفوق كل عليا) .

ومن هذا يتبين أن الفكر الربوى فكر ضد الإنسان وضد الدين والقانون وتظهر بوادر الخير فى المصارف الإسلامية (فى مصر) ، فقد تأكد أنها تجربه إسلامية ناجحة ومثلا يحتذى فى الاقتصاد الإسلامى لأن الربا لا يدفع إلا من جيوب المستهلكين فيتوزع عبء الربا على كل فرد من أفراد الجماعة — هذ وقد طبقت باكستان نظم الاقتصاد الإسلامى بما فى ذلك الأعمال المصرفية بلا فوائد .

٭ ٭ ٭

ونظره إلى المشاكل التى تعانى منها حضارة العصر التى توشك أن تقذف بها إلى هاوية الدمار يرجع فى جوهرها إلى النظرة المادية التى تسيطر على نظام

الاقتصاد الغربي وهى النظره التى أفرخت فلسفة الاشتراكية العلمية حتى لتذهب فى تفسيرها لتاريخ الإنسانيه بأدبائها وفلسفتها وعلمها وفكرها إلى قوة العامل الاقتصادي دائرة فى توجيه حركة التاريخ بل أنها أقامت جوهر الاختلاف والفضائل على أساس من نزعة المنفعة وسيطرة الجانب المادى على حياة الفرد والمجتمع فارتدت بالمجتمع إلى طابع الغريزة فى المجتمعات البدائية الاولى حيث يشترك المذهب الفردي ومذهب الاشتراكيه العلمية فى حافز المنفعة ويختلفان فى الوسيلة فأرباب المذهب الفردى يرون فى التنافس والتزاحم على الكسب وسيلتهم أما أرباب الاشتراكية العلمية فيرون شيوع الثروة فلا ملكية لاحد وصراع الطبقات هو السبيل الوحيد لسيادة الطبقة الجديدة أما الاسلام فقد أقام نظامه الاقتصادى على أساس من الرحمة وأدب النفس والمروءة . والتعاون والعدل والمغفرة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وأول ماتنكره قيم الاسلام: الربا أساساً للحياة الاقتصادية مع إنكارالابتداع والغش وحجب البضاعة عن المستهلك وأكل أموال الناس بالباطل ، والاسلام يعتبرالقرض بالربا أقرب إلى الوحشية والخسه والدناءه .

ولاريب أن من أبرز الوسائل لإقامة امبراطورية الربا : ذلك العمل المتصل فى سبيل هدم الأسره المسلمه والأخلاق المسلمة ، فإن الاختلافيات ، تقف أمام الخمر وأدوات التبرج وأمام المواخير والمراقص والملاهى، وهذه كلها من صناعة (امبراطورية الربا) ولذلك شنت حربا عنيفة على الأخلاق وكذلك القوانين الأجنبية كانت عاملا خطيراً لفتح الباب أمام هذا الخطر الماحق . ولقد كانت القروض الربويه للدوله الاسلاميه مصدر هزيمتها واحتلالها (الخديوى اسماعيل والشاه كانا أول من أدخل هذا الخطر ثم سارت فيه أجيال) ولاتزال القروض التى تعطى للبلاد الإسلاميه مأخوذه من الأموال البتروليه الإسلاميه المودعة فى الغرب لخدمة الاقتصاد الغربى ، ثم تعرض للمسلمين لتستعبدهم وكان أولى أن يقرض المسلمون من المسلمين وغالب الثروة الإسلامية (٨٠ فى المائة تقريبا) مودعة فى المصارف الأجنبية وقد حيل بين أصحابها وبين اتفاقها فى مشروعات التنمية فى البلاد الإسلامية ، وبينما تتوقف هذه الأموال عن أداء دورها الطبيعي

نجد الاستثمارات الأجنبية هى الغالبة والمسيطره وهكذا نجد أن الغرب يحتضن الثروة الإسلامية كلها ويديرها على الوجه الذى لا يمكن المسلمين من إمتلاك إرادتهم، ويبدو تبعية الاقتصاد الإسلامى للسياسه الغربية ، وقد تنازل المسلمون عن أنظمتهم وإرادتهم ونظامهم الاقتصادي والمالى وأصبحوا يدورون فى فلك الاقتصاد الغربى . وقد انتهبت خيراتهم وثرواتهم الطبيعه بكيفية فيها كل الغبن عليهم ، واضمحلت الصناعة وتراخت الانجازات الضرورية فى العالم الإسلامى وصارت البلاد الإسلامية كلها سوقا مفتوحة لتصريف المنتجات الأجنبية وخضع المسلمون للمعاملات الربويه المحرمه فى قانون الاقتصاد الإسلامى تحريما باتاً : ذلك القانون الذى جاء بإصلاح عظيم فى هذا الباب انقذ الإنسانية فى وقت ما من تحكم أرباب رءوس الأموال واستغلال صيارفه اليهود وبدلا من أن تقف المسلمون فى وجه التيار استسلموا له وبات كثير من قادتهم يعتقدون أنه لا نمو ولا إزدهار إلا باصطناع نظام الغائب والربا المحرم .

(٣)

الدكتور عيسى عبده عاش خمسين عاما من حياته متخصصاً فى قضية الربا المحرم دراسا له فى مختلف بلاد العالم وكاشف عن أثاره على الاقتصاد والتجارة والغلاء وأثره فى المجتمعات .

وقد ترك فى هذا الشأن تجربة ضخمة نستطيع أن نوجزها فى سطور :

والاقتصاد ليس الأجانبا من جوانب النهضة لأى مجتمع يستمد من المثالية التى ارتضاها هذا المجتمع لنفسه يتفاعل معها مؤثراً فيها بقدر ما يتأثر بها وليست النهضة إلا مجموع محصلات هذه الجوانب الأربعة التى تعمل عملها بمجتمعه فى الفرد والمجتمع على السواء والتى تنبعث من المثالية ذاتها جاهدة فى تحقيقها ، فإذا إنعدمت المثالية أو اختلفت لدى أفراد مجتمع ما انعدمت النهضة وانهدمت معالم تلك الجوانب الأربعة التى تشكل نشاط كل فرد فى مجتمعه :

١ — الجانب الاجتماعى : علاقة الفرد بغيره من الأفراد وسلوكه فى الجماعة .

٢ — الجانب السياسى : تنظيم علاقة الأفراد المنعية على الحكم والتى تمس الحقوق الطبيعة للإنسان .

٣ — الجانب الجمالى : الذى يرسى القيم التى تستقر فى ضمير الفرد وتؤثر فى حكمه على الأشياء .

٤ — الجانب الاقتصادى :

ولاخلاف فى أن المسلم خلق ليعبد الله وحده وللعبادة شقين :

١ — شعائر يؤديها المرء وهى علاقة مباشره بين الإنسان وخالقه .

٢ — معاملات تتناول جوانب الحياة المعيشية الأربعة والشقان متكاملان

وعماد الاقتصاد الاسلامى : (الزكاة) التى هى ركن من أركان الحنيفية السمحاء وأخطر مايواجه الاقتصاد الإسلامى فى العصر الحديث هو (الربا) وقد أصبح المسلمون يتنفسون الربا حتى تخدرت أجسامهم وحين يعضهم الفقر ، وتأخذهم العناية الإلهية بالقوارع لعلهم يرجعون إذا بهذه الأجيال المضيعة من المسلمين تفزع إلى مزيد من القروض الربويه تصحبها ظاهرات الضنك والضيق منها البطالة والتضخم والانحلال الخلقى فلا تجد المفزع من الربا إلا إلى الربا من جديد مع التكرار القبيح الذليل كما يتداوى شارب الخمر بالخمر ، أن (الفوائد) التى جاءت إلى البلاد الاسلامية مع ضعفها الراهن هى بعينها (الفوائد) التى جاءت مع غزوات رءوس الأموال الأجنبية للدول العثمانية وأطرافها — فالربا من خصائص الاقتصاد الرأسمالى النقدى الذى يزدهر فى ظل الرأسمالية والأعوام تمر متثاقلة والربا آخذ بخناق الأمة الإسلاميه وغضب الله على هذه الأجيال المعاصره يشتد بما تكتسب ثم تغلب الرحمة وتخف الوطأه بعض الشيء لعلهم يرجعون ولكن جذور المشكله أعمق من أن تعالج بالأسلوب السطحى الجزئى الذى جرى به العمل فى عشرات السنين لايقل عن مائة عام مضت منذ أن تدهورت الأحوال

المالية فى مصر والبلاد العربية بوجه عام قبيل الاحتلال البريطانى ، ومنذ أن انتشر الفساد فى الائتمان والنظم النقدية فى سائر أركان الدولة العثمانية ووفد الخبراء (لإصلاح الحال) وشدد الدائنون قبضتهم على مالية كل بلد عربى فزاد الوهن فى المقومات المالية للأمة الإسلامية ثم فقدت هذه الأمة ثقتها فى تراثها ونظمها وأصبحت تابعة فى السر والعلن ، وإن كانت تتلهى بأعياد يقال لها أعياد الاستقلال وتتعلل بالآمال الكذاب التى يقال لها تنمية وتطور أو يقال لها اكتفاء ذاتى وانغلاق يعقبه عجز وعوز وحرمان وهذه كلها تقتضى هدم الأسوار والدعوة إلى مايسمى بالانفتاح على العالم الخارجى شرقه وغربه وما بينهما .

ليست المشكلة (الفائدة على رأس المال) ومحاددة الله جل شأنه وعصيانه بأكل الربا وتغليبه بين الأفراد والجماعات والدول الإسلامية فيما بينهما والأمة الإسلامية فى معاملاتها مع العالم ، ليست المشكلة فى هذه السطحية وإن كانت جد خطيرة ، بل المشكلة أعمق وأخطر لأنها تتصل بموارد هذه الأمة الإسلامية كلها ، عبر الحدود السياسية الظالمة التى قطعت أوصال الجسد الواحد ، إنها مشكلة دقيقة وذات شعب ، إن المعاملات الربوية وإن كانت من الكبائر — ليست إلا جانبا واحدا من المنهج الخارجى على الكتاب والسنة ، إن الربا على فداحة وزره قد جر على المسلمين ما هو أخطر على الدين والدنيا جميعا .

وهناك قضية خطيرة : هى تكلف التأويل أرضاء لحاكم أو فزعا من أن يقال أن الإسلام قد توقف عن مسيرة الحضارة المادية ، وهذا وهم أفزع فريقا من الكتاب فذهبوا كل مذهب لتطويع أحكام الشريعة لعلها تتسع للمعاملات المعاصرة ، ما كان منها خارجا على حكم الشرع فى جرأة صارخة .

وقد كان (الربا) مصدر تمزق أرضها ونهب مواردها ، وما هما فيه من ذلة وهوان حتى أصبح المال الذى هو مالنا غريبا عنا وهو فى أرضنا وحربا علينا والأصل أن يكون عدة لنا ، ففى دار الإسلام الآن — كما فى دار الحرب سواء بسواء — يعتبر التعامل بالفائدة الربوية أمراً واقعا يقبل المتخصصون

عليه دراسة وتطبيقا وكأنهم لا يفعلون الـكبائر ، ونسمع إلى بعض خبرائنا ونقرأ للمحدثين من المثقفين ثقافة غربية خالصة فيخيل إليك أن (قضية الفائدة) قد استقرت وطويت ملفاتها منذ زمن مضى ، ومن ثم يكون الـكلام فيها عبث والحق غير ذلك ، الحق أن الأوساط المالية التى تذل لها أعناق الجامعات الأجنبية لاتزال تبحث عن أساس علمى أو أساس قانونى تقوم عليه الفائدة وتطالب الباحثين بأن يتابعوا ومضى مائتا عام والبحث متصل والمراجع تصدر تباعا إلى يومنا هذا وليس فيها نص واحد يقول بأن الفوايد ترتكز إلى قاعدة مسلمة .

وقد أعلن الفرنجة أنهم فشلوا فى إرساء الفوائد على قاعدة علمية أيا كانت ونحن المتخصصين الذين تحمل عن الأمة الإسلامية أمانة البحث نسكت عن الخوص فيها ، هـذا الاطار الفـكرى المحكم الذى أخضع العقلية العلميـة المعاصرة فى البلاد الإسلامية لـكل ماهو خصم للإسلام حرب عليه حتى وصلت بنا الحال إلى اعتبار البعد عن العبادات وعن النظر فى التراث من علامات النضج العلمى ، وأن امتناع علمائنا المستغربين عن متابعة علماء الغرب فى إعلان الحقيقة فى أمر الفوايد مجرد خطأ يجرون إليه الشباب المثقف ، هـذا الامتناع مجرد إقرار بسلامة النظام الربوى، هذا الإقرار خطأ، لانه يصطدم باعتراف علماء الفرنجة من عشرات الأعوام إلى وقتنا هذا . ومع الأسف فإن ذلك يقابل باسراف الباحث العربى المسلم إلى إحلال المنهج الغربى والترقى بهذا الاحلال إلى ما يشبه التقديس . ومنهم من قال أن الإسلام عاجز عن تقديم نظرية متكاملة للنشاط الاقتصادى .

أن أكبر الخطر هو تمـكن المرابى من أموال المسلمين بالإيداع عنده ابتداء فإذا علم المسلم الغيور على دينه أن أول الأثم وأكبره هو مجرد إيداع المال بين يدى خصوم الإسلام لأن هذا الإيداع فى حد ذاته يجرد المسلمين من أدوات النشاط الاقتصادى ومن القوة القاهرة فى المبادلات ثم يضعها فى أيدى المشتغلين بالربا وهم أول خصوم الإسلام ، ولو علم المسلم الغيور فداحة وزر الايداع ما يتعين عليه أن يعلمه ما أغمض له جفن وأموال المسلمين بين أيدى اليهود

والذين أشركوا يستعينون بها على استنباط موارد الثروة وإقامة المصانع وأجهزة لا تقع تحت حصر وإنما تقع كلها بين يدى خصوم الإسلام لتكون حربا على المسلمين .

(٤)

وهذه مجموعة من الحقائق فى هذا المجال :

(أولا) هناك ربا الاستهلاك وربا الاستثمار . والحق أن الكل محرم والكل ربا ، لأن الربح فيه محدد النسبة وليس التعامل فيه قائم على الربح والخسارة وكما يقول الحق سبحانه وتعالى (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا) والبيع مثل الربا فى أنهما يربحان لكن البيع معرض للربح ، والخسارة خلاف الربا ومن أجل هـذا قال الله تعالى (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) ويقولون قولا آخر :(إن الربا المضاعف هو المقصود بعملية التحريم) لأن الفائدة فيه مضاعفة وفيها استغلال وجشع ، لكن الربا غير المضاعف ليس محرما) لأن الفائدة فيه قليلة وضئيلة ولا توصل الإنسان إلى الجشع والربح الفاحش والاستغلال للظروف ، هكذا يقول بعض المغرضين . والربا كله محرم ربا الفضل وربا النسيئة ، (ربا النسيئة الذى يتم بأن يبيع الرجل البيع إلى أجل فإن حل الأجل ولم يقبض الثمن ودفع فائدة على التأخير — وربا الفضل ويتم بأن يبيع الرجل الشىء بالشىء على سبيل المثال (تمراً بتمر) والربا كله محرم ، الفائدة صغرت أو كبرت محرمة حفاظا على قيمة العمل والسعى نحو البناء ، حيث أن ذلك يؤدى إلى وجود طبقة من المترفين والأغنياء بشكل غير عادى يصل بالمجتمع إلى الأحقاد والضغائن والحسد ، ولذلك حرم الله تبارك وتعالى الربا ولا بد من أن يعطى المال لمن يعمل فيه ويتم بعد ذلك تقاسم الربح والخساره .

يقول الدكتور يحى الدرديرى : إن الربا صغيره وكبيره حرام وإن حكم الشرع فى ذلك صريح لا يقبل التأويل ، وقد أثبتت الحوادث صواب هـذا الحكم ، لقد كان نظام الربا الذى تسير عليه أوربا سبباً فى المشاكل الخطيرة التى

نشأت بين العمال وأصحاب رءوس الأموال إذ يعتقد العمال أن الربا ما هو إلا سرقة لمجهوداتهم فى الإنتاج ، وقد تحولت أموال الربا بين الحربين العالميتين إلى مدافع ودبابات وطائرات وبوارج وغواصات ، فخلقت الخراب والدمار وقتلت النساء والأطفال ، وتحقق بذلك وعد الله تبارك وتعالى فيهم :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

ثانياً : ليس هناك فارق بين الربا المحرم شرعا وسعر الفائدة من الوجهة الاقتصادية بحال وإن الاسلام يقرر قاعدة (الغرم بالغنم) وهى أن من أراد أن يغنم إذا ربح المال وجب عليه أن يغرم إذا خسر نفس المال المستعمل فى التجارة .

والتعامل بالربا ليس بضرورة ملحة لأمة تريد التحرر الاقتصادى فإذا لم تقلع الأمة عن نظام الربا فلا تحرر يرجى لها وستظل رازحه تحت نير الاستعمار الاقتصادى الأجنبى والاقتراض بفائدة هو الربا بعينه وهو حرام ، أما الآية التى تقول بأن الضرورات تبيح المحظورات فليست قاعدة مطلقة وإذا ذكرت يجب أن يذكر ما بعدها (ومعنى الاضطرار الذى جاء فى الإية (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا أثم عليه) فهو الهلاك ، كأن يكون مسلم فى بيداء وقد نفذ زاده حتى خشى الهلاك فى رفض الناس أقراضه إلا بالربا فله أن يقترض مايخرجه من الهلاك .

ثالثاً : الربا بنوعيه (ربا الفضل وربا النسيئة) حرام وقد إستند البعض فى استحلال ربا الفضل إلى ماروى عن ابن عباس وابن مسعود من القول بإباحته وقد صح رجوعهما عنه إلى ماعليه الجمهور ، وقال ابن المنذر : أجمع علماء الأمصار مالك بن أنس ومن تبعه من أهل المدينة وسفيان الثورى ومن وافقه من أهل العراق والأوزاعى ومن قال بقوله من أهل الشام والليث بن سعد ومن وافقه من أهل مصر والشافعى وأصحابه ، وأحمد — على أنه لايجوز بيع ذهب بذهب ولا فضة بفضة ولا بر ببر متفاضلا يدا بيد ولا نسيئة وإن من فعل

ذلك فقد أربى ، والبيع مفسوخ ، وروى التحريم عن العشرة المبشرين بالجنة وإذا قيل لم كان سعر الفائدة حراما مع أنه نظير ما لو أجر إنسان محراثه قلنا أن هذا قياس مع وجود النص المحرم فلا يقبل ، إذ أن من القواعد المتفق عليها أن لا قياس مع وجود النص وأن الاجتهاد فى موارد النصوص ممنوع

(محمد الحامد)

رابعاً : من الجائز صرف الزكاة إلى البنك الشرعى بمفهوم دفع الزكاة إلى الغارم (الذى لزمته ديون لا يقدر على وفائها) (آية : والغارمين) فإن للبنك الشرعى أن يتناول من المزكين شيئاً لقاء أبرائه المدنيين الذين لم يستطيعوا وفاء ما اقترضوا منه .

وأن الخطر الأكبر فى الربا هو تمكين المرابى من أموال المسلمين بالايداع عنده ابتداء لأن هذا الايداع فى حد ذاته يجرد المسلمين من أدوات النشاط الاقتصادى وعن القوة القاهرة فى المجادلات ، ثم يضعها فى أيدى المشتغلين بالربا وهم أول خصوم الإسلام ولو علم المسلم الغيور فداحة وزر الايداع ما يتعين عليه أن يعلمه لما غمض له جفن وأمواله بين أيدى اليهود والذين أشركوا يستعينون بها على استنباط موارد الثروة وإقامة المصانع وأجهزة لا تقع تحت حصر ، وإنما تقع كلها فى يدى خصوم الإسلام فيكون حربا على المسلمين وأن البورصات نوعان : عمليات آجلة وهى عمليات وهمية الغرض منها المضاربة فهى تدخل فى باب الميسر ، وعلى ذلك فهى منكر يجب القضاء عليه وإلغاء هذا النوع من العمليات .

أما عمليات البضاعة الحاضرة وفيها يتم التسليم والتسلم فلا غبار عليها

(عيسى عبده)

ثانيا : فساد علم الاقتصاد السياسى

والأمر الثانى الذى يجب أن يكشف زيفه المثقف المسلم هو ما يطلق عليه اسم علم الاقتصاد السياسى : يقول الدكتور عيسى عبده : هذا العلم الذى يقال له الاقتصاد السياسى لايزيد علما على مر الأيام إلا غموضا وبعداً عن الحقيقة الاقتصادية فما جاء جيل إلا لينتقص من وجود سابقيه ، وما جاء إلاوله نظرية وفكر وسياسة ، ومن ثم كان الصراع بين درجات المجتمع الواحد وفيما بين القبائل والشعوب حتى إذا ائتلف بعضها من بعض فإن هـذا الائتلاف يجىء جزئيا ويؤدى إلى ظهور معارضين له فى الفكر والعمل ومن ثم كانت التكتلات والحروب الباردة والصدام المسلح كره بعد أخرى ، أما حصاد هذا الفكر المرهق المضطرب فهو زحام وركام ، وهو حصاد قليل الغناء ومع ذلك لامفر لنا نحن المسلمين من النظر فى كل وافدة من هذا القبيل لأن دار الاسلام لم تعد معزولة أو محصنة فى الثغور والحدود ، بل أصبحت كغيرها أرضا تهب عليها رياح الفكر ونزوات الهوى على موجات الأثير وفى الصحف والمجلات والكتب وغيرها من وسائل الاعلام ، وكان لزاما إذا أن ينتظر المسلمون وأن يوازنوا من الأصيل الذى عندهم فى التراث وبين البديل الذى هو وافد بغير دعوة ولكنه وافد ثقيل مقيم ، ومن أجل دفعه ومطاردته يتعين علينا أن نعرف الشىء الكثير عنه ، وماصح عندنا أن (الاقتصاد) ليس علما فى كلياته وتفصيلاته بل أقله علم وأكثره رأى وفكر إلى آخر ماهو معروف وأن الاقتصاد الاسلامى يجب أن يكون مهيمنا على كل ماعداه من الدراسات الاقتصادقة والوضعية والدراسات التكميلية والعناية بدراسة فقه الأموال ليس فى البلاد العربية بل فى العالم الاسلامى كله ، والحاجة ماسة إلى التركيز على دراسة الاقتصاد من القرآن والسنة ويجب أن يكون البحوث مصفاة من المادة الدعائية التى تنشرها أجهزة أعلام شركات التأمين فى البلاد الإسلامية بنظامها الربوى . وقد دخل ميدان الدراسات الاقتصادية الإسلامية كثير من الباحثين المخلصين فى مقصدهم ولكن تبين أن المادة التى قدموها إما أن تكون من الروافد التى بقيت فى القناة الرئيسية

لما يعرف بحق أنه اقتصاد إسلامى ، وأما أنها مناقشات سطحية لفكر غربى وفكر شرقى مع تلمس عناصر صالحة للقياس بين ماهو منتشر فى العالم من اقتصاد سياسى منقطع عن الدين وبين ماهو اقتصاد مستمد من كتاب الله والسنه .

وبالنسبة لبحوث (التأمين) فإنها تتردد بين أصول الفقه الإسلامى وبين القوانين الوضعية وبين المادة الدعائية التى تنشرها أجهزة الإعلام فى شركات التأمين وهيئاته ، وقد اقتحم الباحثون هذه المواد المتناثرة فى مجرى الدراسات الاقتصادية الخالصه مما يحجب أصول الاقتصاد الإسلامى عن الدارسين .

لقد وقعت الأمة الإسلامية فى العشرات الأخيرة من السنين فى خطأ شديد الخطورة عندما تأثر المثقفون بالنزعه العلمانية التى طغت على أوربا فى القرن التاسع عشر للميلاد لحاول بعض المثقفين من العرب المستغربين والمستشرقين أن يقيس فصل الدين عن الدنيا فى أوربا على الأمه الاسلاميه برغم أن التقدم التكنولوجى ماصحبه من ثراء مادى فى الغرب الرأسمالى والشرق الاشتراكى إنما كان من ثمرات النزعه اللادينيه التى بدأت بوجه خاص من عهد نابليون ومعلوم أن هذا خطأ فى الرأى بالغ الجسامة ومما زاد فى خطورته أن طائفه ممن تقدم ذكرهم وصل إلى مركز السلطه وإلى الجامعات وساعدوا فى تعميق هذه النزعة ودعمها بأجهزة الأعلام ومناهج العلم وبرامج التدريب ومن المشهور أن مناهج كليات الاقتصاد والتجارة والإدارة فى معظم البلاد الإسلامية خاليه تماما من دراسة الشريعة بأصولها وفروعها على حين أن كليات الحقوق لاتعنى بدراسة علوم الدين إلا بما يقرب من عشرة فى المائة من مناهجها ، أما الكثرة الغالبه من دراساتها فإنها تستمد أصولها وفروعها من فلسفة الأغريق وتشريع الرومان وما كان بعد ذلك إلى النهضة التشريعية فى فرنسا فى القرن التاسع عشر وسائر البلاد الاوربية وقد صاحبت هذه التحركات الفكريه ثورات صناعية وسياسية .

فى القرنين ١٩ ، ٢٠ للميلاد فيما زاد فى خطورة الوهم بأن الثراء والسلطان إنمــا تواقرآ للعالم الغربى بسبب الفصل بين الدين والدنيا وما دامت هذه هى مناهج التدريس وبرامج التدريب فليس عجيبا أن يصطبغ النشاط الاقتصادى كغيره من وجوه النشاط بصيغة غربيـة عن الاسلام ومن الضرورى وقف هذا التيار الجارف .

إن قيام السوق الأوربية المشتركة التى وقعت معاهدتها فى مارس ١٩٥٧ لدى الفاتيكان لا لدى الأمم المتحدة هى من قبل البعث للرسالة التى بدأها شارلمان عام ١٨١٤ بتحويل أوربا إلى قلعة صليبية تقف فى وجه انتشار الإسلام والتى تابعت عملها فى محاولة نابليون لتوحيد أوربا وتجددت فى عهد بسمارك والتى أخلص لها الأوربيون طوال هذه القرون ومن أهداف السوق الأوربية المشتركة استغلال أفريقيا بوصفها أغنى مستودع للموارد الاقتصادية والتكشيف الحقيقى للسوق ، أنها تـكتل فى صورة مجتمع أوربى موحد أى الصورة الحقيقية لما كان يطوف بخيال شارلمان والمعروف أن البابا دعا فى فبراير ١٩٧٧ إلى عقد مؤتمر فى روما يحضره كبار رجال الكنيسة للنظر فيما أطلق عليه (وجود الإسلام فى أوربا) ومما يذكر أن عام ١٨٥٦ يسمى سنة المخاض لما يسمى بالقانون الدولى :

lmies ndliondl du

وما عرف من قبل شىء بهذه التسمية بل كان القانون المعمول به قبل ذلك مباشرة فى المجال الدولى يعرف بتسمية قطعية الدلاله وهى : (القانون العام للدول المسيحيه) مثل هذا التطور التشريعى الذى صاحب ظهور علامات الضعف على الدوله العثمانية يساعد على تكوين فكرة صحيحة عما يسمى بالمنظمات الدولية الساهرة على إشاعة العدل والأمن كما يجب الانتباه إلى تطور الأساليب البشرية كما تحدث عنها شاتليه وزويمر المثيران فالمدارس والمستشفيات الغنية برجالها ونسائها تستخدم كمراكز للتبشير وكان البابا وفى بعض مراحل الحروب الصليبية يخرج على رأس الحملات العسكرية التى يراد بها غزو كل أرض انتشر فيها الإسلام .

وفى نطاق البحث عن فساد علم الاقتصاد السياسى يقول الاستاذ أحمد حسين المحامى :إن اليهود هم أصحاب الجريمة الكبرى فهم الذين ظلوا يعملون حتى جعلوا العالم كله يتعامل بالربا وتجحوا فى إقناع الكافة بأن الدنيا ستخرب إذا لم يتعامل الناس بالربا وأنشأوا علماً سموه (علم الاقتصاد) وجعلوا الربا جوهرة ولبه ووضعوا على رأس الهرم البنوك ، التى تفرض على الكافة التعامل بالربا وتربع اليهود على عرش هذه البنوك ، وغنى عن البيان أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من خديعة البشر إلا من خلال أوربا وأمريكا وما انتهت إليه من كفر بالمعنويات (الدين) وعبادة للمادة فيستوى ذلك الشرق الشيوعى والغرب الرأسمالى ، والسر فى هـــذا الاتفاق بين الشيوعية « عدوة رأس المال » والرأسمالية « عابدة رأس المال » أن الطرفين لها إله واحد هو المادة ، وعندما كانت الحضارة الإسلامية هى المهيمنة والمسيطرة لم يستطع اليهود أن يطلوا برأسهم فى دنيا المال والاقتصاد وليس إلا بعد أن فقد المسلمون سلطانهم وتفوقت عليهم أوربا أن نجح اليهود فى أن يصبحوا هم ملوك المال وأن يخضعوا الدنيا (بما فيها العالم الإسلامى لسلطانهم) بحيث أصبحت ترى شركات التأمين والبنوك تغمر العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه دون أن يتصور الكثيرون أنهم بذلك يغرقون إلا إذا كان فى خطيئة اشتبهت فى الإسلام الكفر حيث توعد الله المرابين بحرب من الله ورسوله ، ولما شاءت عناية الله عز وجل أن تجعل بلاد المسلمين تنفجر بالنفط وأصبحت الأموال تتدفق ببلايين الدولارات إلى أيدى المسلمين فيقول الاقتصاد اليهودى : أودعوا هذه الأموال فى بنوكنا وخذوا ما شئتم من الفوائد : ٩ أو ١٠ فى المائة أو أكثر من ذلك .

ما الذى يعنيه هذا الأمر ؟ أنه لا يعنى إلا أن يظل المسلمون نائمين غابين لا يعملون شيئاً إلا أن ينتظروا مجىء الفوائد . والله تعالى هو الذى يعلم إلى كم من الزمن ستظل تجىء ، المهم أن الدائن عندما يكون ضعيفاً والمدين هو القوى [والمدين هنا هودول الغرب القوية] فإن الدائن سيظل تحت رحمة المدين ، وذلك هو ما يدعو إليه الإقتصاد اليهودى ، وهـذا هو الربا الذى أنذر الله بحرب من يقول به ، وعلى المسلم أن تختار لنفسه ، أن الإيمان بالله والأخذ بأسلوب العمل

والسعى وهو ما يدعو إليه الاقتصاد الإسلامى وأما أن يظل أسير الاقتصاد اليهودى الذى يقوم على أن تعمل الدنيا من أجلهم عن طريق الربا.

والآن نتساءل : هل آن الأوان لتقول المسلمون للعالم أجمع أن توقن أن لدينا نظام خير من نظام الربا.

٣ ـ النظام الاقتصادى الإسلامى

أحسن أحد الباحثين حين وصف الاقتصاد الإسلامى بأنه : ليس فيه إفراط الرأسمالية ولا تفريط الشيوعية وأنه منهج ربانى مستقل له ذاتيته الخاصة المختلفة تماماً عن الأيدلوجيتين ، يقوم على ثلاثة أعمدة :

١ ـ العمود الأول : (الزكاة) فقد فرضها على رأس المال بالذات ، رأس المال الذى بيد المالك يوهب للمجتمع خلال أربعين سنة وبذلك يحول الإسلام دون تضخم المال بين أيدى أفراد على حساب آخرين وبذلك نجد تحول المال فى المجتمع المسلم كدوران الدائرة يمر بجميع الفئات شمولا بعد إستثناء ، إستمرارية بغير إستقرار.

٢ ـ العمود الثانى : (الأرث) فقد شرع الله فى الإسلام نظام الفرائض وجعل التوارث سبباً من أسباب توزيع الثروة وحائلا دون التضخم المالى : نظام عجيب فريد ونسب حسابية للذكور والأناث.

٣ ـ العمود الثالث : (تحريم الربا) السبيل الأول لتضخم الأموال بأيدى الأفراد وجمع الثروات الضخمة على حساب الفقراء والضعفاء ، وهو الربا وأغنى أغنياء العالم هم المرابون.

٤ ـ العمود الرابع : (وتحريم الربح الفاحش) لكى تقضى على التضخم المالى وجعل الربح فى حدود معقولة لكى تستمر العلائق التجارية ويقوم البيع والشراء بمصالح الناس : [وأحل الله البيع وحرم الربا] والربح الفاحش هو الذى يبلغ ضعف القيمة ، وإن حؤول الإسلام دون الأرباح الفاحشة أبقى على

توازن الثروة بين الناس ، وتحريم الميسر الذى هو مصدر الربح غير المشروع .

٢ — ويقر الإسلام بنيانه الاقتصادى على هذه الدعائم التى تعمل متضافرة على أساس العدالة الاجتماعية وتحقيق التكافل الاقتصادى حيث يقر الإسلام الملكية الفردية وييسر الحصول عليها ويحميه ، ويقر العمل الإنسانى ويحميه ويحمى ثمرات الجهود والإنتاج فى الإسلام يساوى :

رأس المال والقوة الفردية والنفسية أى (العمل الإنسانى + الملكية الفردية ورأس المال) .

ويشجع الحافز الفردى أمام المنافسة والطموح وتحقيق تكافؤ الفرص بين الناس وإعطاء كل مجتهد جزاء اجتهاده ومسايرة الطبيعة البشرية .

٢ — ويتمثل فيما يدخله الإسلام من تصرف المالك من قيود وما نضع على كاهله من أعباء تقيد تصرف الإنسان بقيود كثيرة للصالح العام وتحظر عليه كل تصرف فردى يؤدى إلى ضرر عام أو خاص ، لا يقيد تصرفه الإيجابى بل يقيد تصرفه السلبى ويحظر على المالك أن يعطل ملكيته . (المقصود بالإنفاق هو إعادة توزيع الرزق .

٣ — وقد أجاز الإسلام المعاملات التجارية بشرط أن تكون شرعية ونافعة ووصل إلى الانفاق عن طريق عقد قانونى معروف بعيداً عن الغش والحجز والاحتكار والربا .

٣ — إذا كانت القاعدة الكبرى فى الاقتصاد الإسلامى هى قاعدة الملكية ولها أصولها الفقهية والأخلاقية فالقاعدة الثانية هى حرية العمل والكسب المشروع ثم واجب الفرد ومسئوليته الاجتماعية فيما قرره الشارع من الزكاة ، والصدقات وهى قوام التكافل الاجتماعى وفيما فرضه من الخراج والعشور وهى ما يقابل الضرائب فى الدولة الحديثة وفيما وضعه من أصول الميراث والكفارات ونفقة الأقارب والأهل وانفاق ما يزيد عن الحاجة وواجب بيت المال وفيما حدده وفيما كفله من تأمين مخاطر العوز والمرض والشيخوخة والأمومة والطفولة (حسين فوزى النجار) .

٤ — ويقول الحبيب الشطى : إن النظام الاقتصادى الإسلامى أساسى لتقدم الأمة وقد قدمت البنوك الإسلامية البديل للأنظمة الربوية ، وقد تبوأت النظرية الاقتصادية الإسلامية مكانة عالية بين مختلف النظريات الاقتصادية السائدة ، ولما كانت الاشتراكية والرأسمالية تتقاسمان الاقتصاد العالمى فإن النظامين قد أفلسا فى تحقيق الرفاه الاقتصادى المنشود ، والبلاد التى تقع تحت التأثير الماركسى فى وضع اقتصادى لا ينبعث على الارتياح وكذلك فى البلاد الرأسمالية حيث نشاهدان اقتصادها فى تدهور كبير وهى تشتكى التضخم المالى والبطالة وآفات اقتصادية كثيرة ، ومن هنا فقد كان على المسلمين السعى إلى إيجاد نظام اقتصادى إسلامى ، يعتمد على الشريعة الإسلامية التى تكفل الرفاة المادى والعدالة الاجتماعية للبشر ، وإننا كأمة إسلامية يجب أن يكون لنا نظام خاص بنا لا سيما وإن شريعتنا تحتوى على الدعائم التى يمكن لنا أن نبنى عليها نظاماً مصرفيا جديداً ومهما يكن من أمر فإن (الربا) فى الاسلام حرام ولابد آجلا أو عاجلا أن نعود إلى الشريعة الاسلامية وإلى إقامة نظام يأخذ بعين الاعتبار هذا التحريم وقد أثبتت (تجربة البنوك الاسلامية) إن هذا ممكن . وتنبع مشكلتنا من أننا مرتبطون فى معاملاتنا الاقتصادية بالغرب ومرتبطون بالنظام النقدى العالمى وبالحركة التجارية العالمية وهذا له انعكاسات على اقتصادنا.

فالتضخم الحالى مثلا نحن مضطرون أن نورده مع ما نورده من بضائع الغرب وكذلك الانحدار فى العملة مما يسقط العملة فى الخارج والمشكلة هى كيف نتوصل إلى نظام اقتصادى إسلامى متكامل ومنسق ومنسجم ليواجه هذه التأثيرات الواردة من الخارج فإذا توصلنا إلى هذا أمكن أن نحمى اقتصادنا من التأثيرات الخارجية . إن العالم الغربى فى حاجة إلينا أكثر مما نحن فى حاجة إليه فإذا اتحدنا وقمنا صفا واحداً ونظمنا مواردنا ستجد أن هذا العالم على استعداد للتعامل معنا بما يحمى مصالحنا .

٥ — ويرى دكتور عبد العزيز حجازى إن الاقتصاد الاسلامى يجب أن ينتقل من مرحلة الأفكار المجردة إلى مرحلة التطبيق الفعلى ، ويقول أنه عندما كانوا يناقشون فكرة تأسيس شركة إسلامية للمضاربة مع رجال المصارف

الإيطالية والسويسرية فى جنيف وواجهتهم صعوبة استعمال المرادف لكلمة (المضاربة) فى اللغات الأربيـــة كانوا يستعملون الكلمة العربية فى المكاتبات ، ودخلوا معهم فى مباحثات وأقنعوهم بالاشتراك معهم دون أن يطالبوهم بأن ينهوا أعمالهم أو يغلقوا مصارفهم لكى تتبعوا الشريعة الإسلامية ، ويقول : من واجبنا أن لانعوض فى المفاهيم الفلسفية وأن تبدأ فى إقامة مجتمع اقتصادى إسلامى ن خلال مناقشة المفاهيم الاقتصاديه وتطويعها لأحكام الشريعة الإسلامية .

٦ — وفى ندوة الاقتصاد الإسلامى ثار سؤال أساسى :

هل نحن فى حاجة إلى نظرية للاقتصاد الإسلامى .

وتعالت وجهة النظر التى تطالب بالرجوع إلى الشريعة الإسلامية فى معاملاتنا الاقتصادية والماليه ، وأن تنهى البنوك التعامل بالفائدة على أساس أن الشريعة تعتبرها فى حكم الربا وظهر أيضاً تطبيقا لذلك بعض المصارف الاسلاميه التى تتعامل وفقاً لأحكام الشريعة وقد بدأت بعض البنوك الربويه فى إنشاء فروع لها خاصة بالمعاملات الإسلاميه ، وفى الوقت الذى تعقد فيه فى البلاد الاسلامية لقاءات وندوات تهدف إلى تطبيق الشريعة الاسلامية فى المعاملات الاقتصادية ، يدور البحث فى المراكز الاقتصادية فى العالم وفى الأمم المتحدة بحثا عن نظام اقتصادى جديد يحل المشاكل التى يعانى منها الاقتصاد الدولى بعد أن تعددت مثل التضخم والبطالة وارتفاع أسعار الطاقة وقد أعلن أنه قد آن الأوان لأن ينضم نخبة من علماء مصر من أساتذة الاقتصاد وعلماء الشريعة فى الأزهر الشريف، وأن ينتج من هذا التزاوج خلق نظام إقتصادى يتوائم مع الشريعة الإسلامية ليس بهدف قياس الإسلام ببعض النظم ، وإنما أن ترجع هذه النظم إلى أصولها وأن يتم الوصول إلى التطبيق القيم للشريعه الإسلاميه ولقد تبين للباحثين فى هذه الندوات أن الاقتصاد الإسلامى موجود فى القرآن والسنه ، وأن جميع أحكام الاستثمار وما نص عليه الاقتصاد الحديث موجود فى الشريعة الاسلاميه فالاقتصاد الإسلامى بهذا المعنى سبق الاقتصاد الحديث،إذ أن الاقتصاد الحديث

بدأ كعلم من العلوم التى لها منهج فى القرن السابع عشر حين ألف (أدم سميث) كتابه (ثروة الأمم) أما الاقتصاد الإسلامى فهو موجود من ١٤٠٠ عام إذا اعترنا أن أصوله موجودة فى القرآن والسنه ،فإذا نظرنا إلى الاقتصاد الاسلامى كتأليف وتدوين فقد وجد فى (مقدمه بن خلدون) منذ ستمائة عام وقد أوضح أحكام الشريعة فى الصنائع والكسب والمعاش وكل طرق الاستثمار وما يجب على الأفراد . ولقد وضعت الشريعة الاسلامية من القواعد العامة لتنظيم استثمار المال والعمل ولم تترك عملية الاستثمار بلا قيود كما هو معروف فى الاقتصاد الرأسمالى، والربا هو القيد الأول الذى دعانا إلى إيجاد البديل فى الشريعة وهناك إقتصاد إسلامى يجب أن يحل محل الأساليب المتبعة فى البنوك ، وقال البعض أنه بدون البنوك التى تتبع سعر الفائدة فلن يكون هناك استثمار وقد أخطأو فى ذلك فإذا تم استثمار المال وفقاً للشريعة الإسلاميه فسوف يعود بنتائج أفضل وقد وضعت الشريعة حدوداً واضحة فى هذا المجال فإذا كان البنك يستثمر الأموال فى التجارة فللمودع نسبة من الأرباح وللبنك نسبة ، أما إذا عمل البنك بالأقراض فهو محرم فى حكم الشريعه بالإضافة إلى أن الشريعة الاسلامية عرفت عدة أنواع من الشركات منها شركات الأموال وشركة الصنائع المفاوضه والمضاربه كما أن المصارف الإسلاميه قامت بجميع أعمال البنوك ماعدا الأقراض بالفائدة وإنما عرفت نظام القرض الحسن .

٢ — أما الاتهام الذى يوجهه الاقتصاديون الغربيون إلى الإسلام ويرون أنه سبب تخلف البلاد اسلاميه ، فالقول بأننا متخلفون لأننا مسلمون ليس صحيحاً وإنما نحن متخلفون لأننا أهملنا المبادىء التى نص عليها القرآن والسنه ويرجع هذا التخلف إلى عدة أسباب منها :

١ — محدودية الموارد كما وكيفا فالموارد المتاحة للدول المتخلفة رغم محدوديتها إلا أنها لاتستغل أفضل استغلال وبالتالى يوجد تبديد واضح فى هذه الموارد والدليل على ذلك أن جزء من هذه الموارد لايستخدم فى النشاط الإنتاجى الاقتصادى وقد توجد طاقة إنتاجية معطلة فى بعض الخطوط

الإنتاجية ، كذلك فإن البيئة المحيطه بالعمليه الانتاجيه لاتتناسب والانتاجية المرتفعة ويقصد بهذه البيئة كل العوامل غـير الاقتصادية (عبد الحميد الغزالى) .

٣ — وهناك التحديات التى تواجه الاقتصاد الاسلامى وأهمها :

١ — مشكلات التنمية والتخلف .

٢ — مشاكل الاقتصاديات المتقدمه مثل التضخم والبطاله ومشاكل الطاقة.

٣ — مشـكلات عامة يتعلق بالعالم المتقـدم والمتخلف ومنهـا النظام النقـدى العالمى والفجوة بين الدول المتقدمه والناميـه ، يقول دكتور سلطان أبو على : إن الشريعة الإسلامية تشتمل على كثير من القواعـد والأحكام التى تعالج هذه المشاكل وأن البحث يجرى للوصول إلى تصور يحقق التزواج المرتقب بين الاقتصاد المعاصر والشريعة .

٧ — وفى الندوه القيادية العلمية للمعهد الدولى للبنوك والاقتصاد الاسلامى (القاهرة — ٤ / ٩ / ١٩٨١) حضرها ٧٢ أستاذاً وباحثاً من الدول الأوربية والأمريكية والعربية والأفريكية الأسيوية أسفر البحث عن خطة ترمى للوصول إلى صيغه لإقامـة نظام اقتصادى إسلامى عالمى يخلو من شرور الربا والظلم والاحتـكار ويدفع بالأموال الحـــلال إلى مجالات الاستثمار النافع لرخاء الانسان فى إطار من المثل الخلقية الإلهيـة العليـا وإلى تغيير مؤسسات المال والاقتصاد وفق منهج الاسلام ، والدعوة إلى أسلوب جديد للعمل فى المصارف المصرية بشأن ممارسات العمل فى هذه البنوك ، وإعـداد الـكوادر المدربه على أساليبها المغايره لمـا يجرى فى المصارف الربوية والعمل على توفير المعطيات التى تمـكن الشباب فى العالم الإسلامى ليتسلح بها على طريق المنهج الإسلامى ، وكذلك بلورة الفكر الإسلامى القرآنى اصباغة (منهج إسلامى) (وليس نظريه) يجب القوالب النظرية الفاسده الجاهزة التى حشابها الفكر الغربى عقولنا ، فقـد قدمت

أوربا لنا نظاما مالياً واقتصادياً يقوم على النظام الربوى وسحق الانسان وقد استسلم العالم كله لهذا النظام وكانت النتيجة أن حلت العمله الرديئة محل العمله الجيدة ، ولقد كان مقدم القرن الخامس عشر بادرة لنهضة قوية لتطبيق المنهج الإسلامى فى الحياة ، وقد بذلت جهود لتطهير المجتمع من القوانين والموروثات التى تتناقض مع تعاليم القرآن العظيم والمعروف أنه فى سبتمبر ١٩٧٤ استيقظ العالم على تخبط النظام الاقتصادى العالمى وعلى الكساد والبطاله وتطلعت البشرية كلها إلى النظام البديل وقد أعلن الدكتور عبد الحليم محمود فى الندوه الدوليه التى عقدت فى لندن ١٩٧٧ :

(المنهج الإسلامى المضاد للربا)

وحين بدأ تطبيق هذا المنهاج مجدداً فى المؤسسات الماليـــة الإسلامية أطمأنت نفوس الناس إلى المال الحلال وادركوا أن الربح الرفير يأتى ببركة من الاستثمار الجيد ، وقد بدأ العالم يدرك أن (الربا) ليس هو القاعدة الذهبية التى لاغنى عنها كما يظن الجهلاء .

٢ — وإدخال مصطلح الاقتصاد الإسلامى فى الفكر الإسلامى لا يتجاوز ثلاثين عاما وقد تركز فى السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع عشر ، والاقتصاد الإسلامى يتميز :

(أولا) باقتصاد له ذاتيته الخاصة وبناؤه المستقل .

(ثانياً) منهجه المتميز فى منطلقاته ووسائل وغاياته وهو ليس تجميعاً لآراء حول موضوعات اقتصادية مثاره فى الاقتصاد الوضعى .

(ثالثاً) للاسلام إزاء المشاكل الاقتصادية تصوره وتحليله الخاص لوسائل علاجها وحلها :

والاقتصاد الإسلامى ليس مطروحاً كواحد من الخيارات بين النظم الاقتصادية التى تبحث هذه الدول عن تطبيقها ، أو هى محاولات فرديه متناثرة

تظهر على سطح الحياة الاقتصادية لبعض الدول الإسلاميه ، فالمسلمون مازالوا وهم يواجهون مشاكلهم لما يصلوا لأن يطرحوا على أنفسهم التطبيق الإسلامى ، ولم يتم إجراء حقيق بين الاقتصاد الإسلامى ككل وبين النظرية الاقتصاديه الوضعيه بل إن الاقتصاد الإسلامى غير معروف تماما عند من يشتغلون بالاقتصاد الوضعى .

وهناك ضرورة واضحة إلى معرفة كيف يستطيع التاجر المسلم أن يجعل تجارته حلالا وفق الاقتصاد الإسلامى وكذلك الصانع وصاحب رأس المال .

١ — ولذلك فإنه من الضرورى — كما يقول الأستاذ محمد العربى الخطابى — صياغة نظريه عامة للاقتصاد الإسلامى على ضوء الشريعة الإسلاميه ، إذ الإسلام كفيل بتقديم الحلول الملائمة لمختلف معضلات الاقتصاد التى يواجهها العالم الإسلامى ، فالاقتصاد الاسلامى (علم اجتماعى) يبحث فى المشكلات الاقتصادية لمجتمع متمسك بالقيم الإسلاميه ، إننا فى الاقتصاد الإسلامى لاندرس الفرد الاجتماعى فقط ، ولكن ندرس أيضاً الإنسان بمعتقداته الدينية بينما يهتم الاقتصاد الحديث بحياة الأفراد فى المجتمع ، وإن المشكلات الاقتصادية تنشأ من إجراء يقدر الحاجات وندرة الموارد ، وهذه الموارد يشترك فيها الاقتصاد الإسلامى والحديث ولكن الفرق يظهر فى الاختيار . فالاقتصاد الإسلامى مؤسس على القيم الاسلامية بينما الاقتصاد الحديث مؤسس على القواعد الاجتماعية الرأسمالية التى تتحكم فيها ندوات الأفراد .

وقد نظر كثير من علماء المسلمين القدامى فى شئون الاقتصاد والاجتماع والسياسه ، ولكن أول من توصل إلى النظرية القائلة بان العمل بتشىء القيمه وإن ما يفيده الإنسان ويقتنيه من المحولات — إن كان من البضائع فالمضاد المقتنى منه قيمة عمله — كان هو ابن خلدون ومن

النظريات التي توصل إليها قوله : الاجتماع الإنساني ضروري وأن توافر الأقوات بالقدر الكافي لايكون إلا بتعاون الأفراد وإجتماعهم .

وقد تناول علماء كثيرون قبل ابن خلدون شئون الاقتصاد غير أن نظرياتهم اقتصرت على الجوانب الفقهية في هذه المواضيع ، مع مراعاة ما يتطلبه ذلك من إستنباط الأحكام ومراعاة الواقع الاجتماعي في عصرهم ومنهم أبو يوسف وأبو عبيد وقدامه بن جعفر والشرخسي والماوردي وابن رشد الجد وابن حزم .

أما القول بأن أبن خلدون هو (رائد المادية التاريخية) فذلك قول يجب أن نأخذه بكثير من التحفظ (إذا كان المقصود منه أن إبن خلدون لم يدخل في حسابه العنصر الروحي الخلق ، فضلا عن أثار البيئة الطبيعة والجغرافية في صراع الحياة البشرية) كيف وصاحب المقدمه عالم مسلم مؤمن بربه مطلع على قوانين الشريعة الألهية عارف بأسرارها .

ومما يذكر أيضاً أن إبن تيميه عرض في كتابه : الحسبه ، والسياسه الشرعية طائفة من المسائل الاقتصادية الهامة مستلهماً أصول الشريعة واجتهادات الفقهاء ، ولا شك أن الثروة العلمية التي خلفها السلف في مجال الاقتصاد والأموال تؤلف مادة خصبة ومفيدة للباحثين المسلمين في مجال الاقتصاد الذي أصبح علما رياضياً يقوم على التحليل والإحصاء والتخطيط ويستعين بعلوم أخرى كالجغرافيا والاجتماع وعلم البيئة . ولاشك أن النظريات التي تصلح للمجتمعات الرأسمالية والشيوعية لاتقبل التطبيق بصوره حتمية في المجتمع الإسلامي ولابد من صياغة نظرية عامة للاقتصاد الإسلامي .

وقد قرر مؤتمر مكه ١٣٩٤ — إن الإسلام نظام قائم بذاته يكفل حل المشكلة الإنسانيه بفضل ما اشتمل عليه من دعائم التكامل والتعاون ورعاية كرامة الفرد وحريته داخل مجتمع قادر بتماسكه وإيمانه وتآخيه

على تحقيق التطور والنمو ، وأن الأمة الإسلامية تسعى إلى تجاوز حالة التخلف الاقتصادى ولايمكنها أن تدرك الغاية المطلوبة إلا باتباع التعاليم الإسلاميه وأنه لاخير لها فى إقتفاء أثر المذاهب الاقتصاديه الاشتراكيه والرأسمالية وفى عام ١٣٩٦ حفلت ندوة (القيروان للنظام الاقتصادى) بالدراسات الجادة والآراء الناصحة ، وأظهرت الندوة أن الإسلام كفيل بتقديم الحلول الملائمة لمختلف معضلات الاقتصاد التى تواجهها العالم الإسلامى فى عصرنا هذا وأن مجال البحث والنظر والمقارنة والإستنباط واسع فى هذا الميدان وأن تطبيق منهج البحث العلمى على الاقتصاد الإسلامى كفيل بتوضيح مقاصده وييسر الاستفادة من أصوله ومصادره وأشار إلى عدد من المؤلفات الهامة فى هذا الشأن :

١ — الاقتصاد الرأسمالى بين النظرية والتطبيق : دكتور محمد عنانى (باكستان) ترجمة الدكتور منصور إبراهيم تركى :

٢ — الاقتصاد فى ضوء الشريعة الإسلاميـــة : الضوابط الأخلاقية للاقتصاد الإسلامى : دكتور محمود محمد بابللى (سوريا) .

٣ — التنميـة الاقتصادية فى الإسلام (جاك اوسترى) ترجمـة نبيل صبحى الطويل .

٣ — وهناك أبحاث واسعة للدكتور عيسى عبده ، الذى عمل على إنشاء شبكة من البيوت المالية والمصارف وأدوات الإدخار والاستثمار فى دار الإسلام وقد أشار إلى إدخال الاقتصاد الإسلامى ضمن مناهج معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٠ وكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر ١٣٨٥ وفى مناهج الحضارة الإسلامية بكلية الاقتصاد والتجارة بالجامعة الليبية (بنى غازى ١٣٩١) وكلية الاقتصاد والإدارة بجامعة الملك عبد العزيز بجده ١٣٩٢ .

حيث تشهد الأمة الإسلاميه فى الفترة التى انقضت من نهاية الحرب

العالم الثانية إلى اليوم نشاطاً ملحوظا ودائبا فى كل مجالات الدراسات النظرية للاقتصاد الإسلامى وميادين التطبيقات العملية .

كما جرت محاولات مبكرة لإنشاء البنك الإسلامى فى صوره جمعية تعاونية أو صورة شركة مساهمة (بنوك بلا فوائد — فى كراتشى ١٣٨٦) وبيت التمويل الكويتى ١٣٨٨ — وبنوك أخرى منها بنك فيصل الإسلامى والبنك الإسلامى فى دبى ١٣٩٥ وهو أول بنك باشر النشاط التجارى فى دوائر الأعمال بأساليب تتفق وحكم الشريعة فى معظم الحالات .

وقامت فى المملكة السعودية منظمة للتأمينات للعمال وفقاً للشريعة الإسلاميه بتطبيق العقد التبادلى الذى يجتمع فيه المؤمن والمستأمن فى دائرة محكمه لايتسرب إليها الإستغلال المعروف فى عقود التأمين التجارى وقد أخذت بعض البيوت المالية المتخصصة فى الاستثمار فى إنجلترا والولايات المتحدة فى إنشائها وإدارتها مايشبه إلى حد بعيد (عقد القراض الشرعى) وترجع نشأة هذه البيوت إلى ١٨٦٠م واستكملت تطورها عام ١٩٤٠ كما أن هناك عدد من الجامعات الغربية تتطلع الآن إلى دراسة الاقتصاد الراشد من مصادرة الأصيلة (القرآن والسنة) منها جامعة ستانفورد ، بيريكى ، شيكاغو (الولايات المتحدة) جامعة جنيف ، معاهد عليا زيورخ ، جامعة أوزاكا ، جامعة طوكيو .

٤ — ويشير الدكتور عبد الله العبادى إلى المصارف الإسلامية وموقف الشريعة الاسلامية فيقول : أن المصارف الإسلامية هى البـــديل الشرعى للمصارف الربويه والفرق بين الربا والربح ، أن الزيادة الناتجة عن الربح هى زيادة مرتبطه بالعمل والجهد الذى يبذله العامل والذى يحول المال من حال إلى حال ، أما الزياده الناتجه من الفائدة فقد جاءت منفصلة تماما عن العمل بشكل يزداد المال نفسه (كما هو الحال فى القرض) أو الشكل مبادلة الجنس بجنسه مع الزيادة (كما فى ربا الفضل) أو الزيادة المقدرة بفرق الحلول عن الأصل (كما هو الحال فى ربا النسيئة) .

٧ — لقد تبين من الدراسات المستوعبة التى كتبها المنصفون إن جميع

النظريات والأنظمة الإقتصادية الأخرى غير نافعة للإنسانية لدى مقارنتها بتعاليم الإسلام ، وأن ما يسمى (الظواهر الاقتصادية) عند مذهب الرأسمالية المادية ، وما يسمى (الحتمية الإقتصادية) عند الاشتراكية الماركسية ، هذان المذهبان هما الأصل فى كل ما تعانيه الإنسانية فى هذا العصر من ويلات مدمرة وأزمات خانقة ، أما الحقيقة الاقتصادية القادرة على تحقيق الرفاهية لكثرة من الناس بأقل التضحيات والمتمكنة من إقامة توازن إنسانى بين الدول غير ملتزم بميزان للمدفوعات أو بحساب جارى لا يوفر الأمن على المال والعرض والوالد وعلى جملة الحريات التى يستوى فيها كل العباد . حيث يقدم الإسلام : الصدقة والمساعدة والتعاون والأخوة والعدالة والمساواة ومشاركة الناس فى الثروة وينص على أن الملكيه المطلقة لله تبارك وحده وأن الإنسان مستخلف فى المال .

وهذه الحقائق لم يعد يرددها المسلمون وحدهم ولكنها أصبحت على لسان علماء الغرب الاقتصاديين وهذا (جاك أوستري) أستاذا الاقتصاد بجامعة السربون فى باريس يقول : [إن النظاميين الاقتصاديين العالميين (الرأسمالى الحر والشيوعى المقيد) قد عجزا عن حل مشاكل العالم الاقتصادية إلا أن هذا الحل موجود فى النظام الإسلامى الذى جمع الخير لبنى البشر وبقى على المسلمين أن يمسحوا الغبار عن كنوزهم الثمينة وأن يحسنوا عرضها للناس لتصبح طريق تصحيح وهدف إنجاز]

وقد أعلن اللورد باودن فى صحيفة الماردیان أن على العرب ورأسه تطبيق القانون الاقتصادى الإسلامى لأن فيه حلا للمشاكل الاقتصادية التى يعانيها العالم اليوم ، إن هذا النظام يطبق منذ ألف وأربعمائة سنة ؛ لما كان الإسلام يحرم الربا فقد منع المسلمين من إقراض نقوده بالفائدة ؛ والمهم أن الرجل لا يتوقع أن تنقص قيمة دينه وليحافظ على قوته الشرائية .

وبه نظام الزكاة حيث تتحدد فيه قيمة الوحدات النقدية حسب الأنصبة التى يستخدمها الناس فعلا ، ويصر النظام الإسلامى على أن لا يبيع أحد شيئاً لم يشتره هو ويدفع ثمناً له فلم يكن يجوز لأحد أن يشترك فى مضاربات تجارية كما يفعل الناس فى الغرب اليوم حتى بدون أن يملكوا البضائع .

وكان المسلمون يسيطرون منذ ألف سنه على مناطق واسعة وكان نظامهم التجارى والمالى يستخدم من قبل إناس يتحدثون لغات كثيرة ويستخدمون عدة أنواع من النقود وقد ازدهرت التجارة والاقتصاد فى أنحاء تلك المنطقة الهلكة لانه كان يمكن الحصول على بضاعة فى مكان ما ودفع ثمن نفس البضاعة فى مكان آخر وذلك نظراً للثبات النسبى لقيمة النقد أو قوته الشرائية .

وقد حرص الإسلام على (إنصاف المرأة) ولا يمكن فهم هذا دون دراسة وافية لشقاء المرأة فى ظل الاقتصاد الرأسمالى والاشتراكى والشيوعى والفوضوى فى أرقى المجتمعات وأتعسها ، إلى حد أن بعض علماء الانثربولوجيا ومنهم (مالينوسكى) يرون بحق أن المعايير الإنسانية الرفيعة لكل من الطفل والمرأة إنما يتوافر لدى البدائيين الذين يوصفون بأنهم متوحشون . وإن تشغيل النساء وإستخدامهن واستغلالهن للنشاط الصناعى وفى مجالات الخدمة المتممة للنشاط الاقتصادى قد هبط بقيمة المرأة إلى مستويات السلع أو اللعب التى يلهو بها الرجال .

٨ — وتتلاحق الأحداث وبسرعة مذهلة فى الدول الرأسمالية وتؤكد التطورات الآخرة إن النظام الرأسمالى يترنح تحت وطأة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وأنه قد أخذ طريقه نحو الانهيار ، فالولايات المتحدة والدول التى تدور فى فلكها تعانى من التضخم المصحوب بالركود والبطالة ، وإنخفاض معدلات النمو والتلوث وإضطراب الموارد فضلا الإنحلال الخلقى وتفكك الروابط الأسرية والاجتماعية وإنتشار الجرائم وأمراض العصر . وبادرة السخط الواضح على الشعب الأمريكى بسبب تردى الأوضاع الاقتصادية .

وقد فشلت الرأسمالية كما فشلت الشيوعية فى تحقيق وعودها ولم تتحمل اقتصاديات الدول الرأسمالية عمليات السلب والنهب التى يمارسها طبقة الرأسماليين من أصحاب المصانع والمصارف والمؤسسات الاقتصادية ، وقد صدر الغرب إلى البلاد المختلفة الانحلال الخلقى لتحطيم قيمها الدينية والحضارية كى يفرض عليها البقاء فى دائره التخلف والضياع فيضمن بذلك أستمرار تبعيتها للدول

الرأسمالية فكرياً وإقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ، والنظام الرأسمالى كالنظام الشيوعى يحتضر ويلفظ آخر أنفاسه ولم تتمكن الدول الشيوعية والرأسمالية من أنقاذ إقتصادياتها المنهارة فالشيوعية والرأسمالية توأمان ؛ والاختلاف بينهما ظاهرى فقط ولكن جوهر المذهبين واحد ، فكلاهما نظام طبقى يهدف إلى السيطرة السياسية والاقتصادية وسلب حقوق العمال والشعوب لصالح فئة من الانتهازيين إن ما تشيعة وسائل الأعلام من عداء بين الشيوعية والرأسمالية كذب وتضليل فالوفاق بينهما قائم فى جميع الحالات ؛ وتجمع بينهما وحدة الهدف ؛ ووحدة الجوهر ، ووحدة الأسلوب والشيوعية والرأسمالية ودعاتهما لا يتورعون عن تغيير مبادئهم وإيدلوجياتهم كلها وجدوا أن التمسك بها يهدد النظام بالأنهيار وقد تخلت الرأسمالية عن أهم مقوماتها وهو مبدأ (الحرية الاقتصادية) وأصبح الاقتصاد الرأسمالى موجهاً بدرجة كبيرة وتدخلت الدورة فى إدارة عملية النمو الاقتصادى كما تخلت الشيوعية عن مبادئها وأخذت بمفهوم الربح وقررت مكافئات للعمال وسمحت بالملكية الخاصة .

٩ — وقد عقدت منظمة الأمم المتحدة خلال دورتها ١٩٧٤ / ١٩٧٥ إجتماعات موسعة للبحث عن حلول سلمية لمشكلات المجتمع الغربى وجاء التصريح على هذا النحو :

« إن المشكلات العالمية الحاضرة لا أمل فى إيجاد حل لشىء منها فى ظل الأنظمة الاجتماعية السائدة اليوم فى العالم وخاصة النظام الإقتصادى الحاضر بكل شعب ولمصلحته وحده دون مراعاة مصلحة الآخرين ، أن البشرية قد تقدمت علمياً وثقافياً ، وإن التكنولوجيا المتطورة قد أزالت الحدود فيما بينهم وأنه لم يعد يصلحهم ويليق بهم إلا نظام عالمى جديد يقوم على قواعد إنسانية جديدة ، قواعد تدعو إلى وحدة الأسرة البشرية من غير تفاصيل ، وتؤمن بحق المجتمع فى الحياة الكريمة من غير تمايز ؛ وتعتبر مصالحهم الإقتصادية واحدة ولا يجوز التفاضل والتمايز وأن تتخذ من العدل بين الجميع القاعدة الخيمية لهذا النظام العالمى الجديد » .

ونحن نقول لهم أمامكم الإسلام فإنه النظام الوحيد الذى يحقق هذه الغاية فالإسلام قابل للحياة أبداً إلى قيام الساعة وقابل للتطبيق فى واقع الأرض ، وإن ركب البشرية لم يفته ولا يستطيع أن يفوته لأنه نزل لهداية البشر وتحقيق أمنهم وأن البشرية التى تعانى اليوم الحيرة الشديدة فى كل أمورها لا فى الإقتصاد فحسب لن تجد غيره مخرجاً لها من الخطوب المدلهمة ؛ وأن هذا الاضطراب الذى تعيشه البشرية هو ما تثبته إحصاءات القوم من إضطرابات نفسية وعصبية وحالات قلق وجنون وإنتحار وغير ذلك من الأمراض النفسية والعصبية التى تدل لا محالة على عدم الاستقرار وإن على المسلمين أن يطبقوا منهجهم ليقدموه إلى العالم وأنه لابد للبشرية أن تعرف إن الدين ليس منظما للعلاقة بين الله تبارك وتعالى والإنسان فحسب ولكنه إلى ذلك منظم للعلاقة بين الإنسان والمجتمع ولابد من تحرير المناهج العلميـة التى سيطر عليها المستعمرون من هذا المفهوم الإنشطارى الضال ، وقد قصد بها أن يتيه المسلمون فى بيداء فلا يصلون إلى معرفة حقيقة الإسلام وتخريج أجيال لا تعرف الإسلام ، وأول ما يجب التخلص فيه مفهوم «الطبيعة خلقت» فالطبيعة مخلوقة لله تبارك وتعالى، وهناك ذلك الإزدواج بين مفهوم الإسلام لخلق الإنسان ومفهوم دارون، وهناك عشرات الثغرات الموجودة فى المناهج الدراسية ، أن نظرية دارون قد أستخدمت فى كل أنحاء الأرض لزلزلة العقيدة فى القلوب التى تجرى فيها جوهر الإيمان ؛ إن دارون قدمها على أنها نظرية تخطىء وتصيب وليس حقيقة علمية ، فهى فرض للنظر ، فمن الخطأ أن ندرسها لابنائنا على أنها حقائق نهائية ، لأنها تزلزل إيمان الصبي والشاب الذى يؤمن بأن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ونفخ فيه الروح ودارون يقول باطلا بأن الإنسان هو النهاية لسلسلة التطور الحيوانى وقد أثبتت الأبحاث الحديثة فساد هذا المفهوم وأكدت مفهوم القرآن من أن كل صنف من خلق الله خلق مستقلا وإن الإنسان خلق مستقلا عن كل الحيوانات ومن أخطر ما تحمل كتب المستشرقين دعواها إلى أن الإسلام عقيدة وليس حكما ، وهذا مفهوم كنسى وافد ؛ وذلك إن المسيحية لم يكن لها منهج لأنها كانت متصلة بشريعة التوراة .

١٠ — واليوم ونحن على مطالع القرن الخامس عشر يقول مع القائلين:

« كل النظريات الوضعية تتراجع أمام الاسلام » .

إن كثيراً من المفكرين يجمعون على أن النظريات الوضعية ومنها النظرية الماركسية قد بدأت تنسحب أمام معضلات العصر الفكرية والاجتماعيه — هذا التقهقر والتراجع هو الذى يطرح الآن أقطار الاسلام على الساحه الكونية ، لقد آن الأوان كما يقول دكتور رشدى فكار (فيما يرويه سامى دياب) لأن نقدم لعالمنا المتعطش لمعطيات الإسلام جرعات شافية من جوهر دين كل زمان ومكان وإنسان ، إذا كانت النظرية الماركسية شأن كافة النظريات الوضعية قد فشلت فى إيجاد علاج ناجع وحاسم لمشكلات العصر الاجتماعية والاقتصاديه فهل يستطيع الإسلام أن يقدم البديل ، هل يتوفر فى الإسلام الاجتماعى القادر على طرح الحلول الجذرية لهذه المشكلات ، والحق أن بروز الجانب الاجتماعى للإسلام كدين لايختلف فيه أثنان وقد نص المنهج الاجتماعى للإسلام على القواعد الكلية تاركا التفصيلات والتطبيقات لأبناء كل عصر بما يجد فيه ، وإذا كانت النظرية الماركسية قد استهدفت فيما استهدفت تحقيق العدالة الاجتماعية فقد استهدف المنهج الاجتماعى للإسلام تحقيق هذه العداله بشكل أفضل وأقرب إلى الفطرة الإنسانية . أن العداله الاجتماعية فى نظر الماركسيه هى مجرد مساواة فى الأجور تهدف إلى منع التفاوت الاقتصادى ، أما العداله الاجتماعية كما يراها الإسلام فتعنى تعادل كافة القيم ومنها القيمة الاقتصاديه . أن الماركسية عندما تنظر إلى الإنسان تنظر إليه من خلال حاجاته المادية فقط ، بينما ينظر الإسلام اليا باعتباره مزيجا من المادة والروح ، أن العدالة الاجتماعية فى الاسلام تتناول القيم المادية والروحيه معا ، وأن الإسلام ليفرض الكفايه لكل إنسان بل يفرض له مافوق الكفاية فى أحايين كثيره ، أن الاسلام يرى الحياة تراحما وتكافلا بينما تراها الماركسية صراعا دامياً بين الطبقات من أبناء الوطن الواحد . وحتى تثمر العداله الاجتماعيه يحاول الاسلام أن

يحـــرر الانسان المسلم من شعور الخضــــوع لسوى الله أو الخوف على الحياه أو الرزق أو المنصب لأن مثل هذا الاحساس قد يدفع صاحبه إلى التنازل عن كرامته أو حقوقه ، وكما يحرر الاسلام إنسانه وجدانيا ، يحرره أيضاً من ضغط الفاقه وذل الحاجه بالتشريع الذى يقضى على أسباب هذه الحاجه . أن الاسلام يمنح إنسانه الحق فى الكفاية ويفرض هذا الحق على الدولة والقادرين ، ولكى تثمر (العداله الاجتماعيـة) بنص الاسلام على المساواة الانسانية ، ويقرر الإسلام مبدأ التكامل الاجتماعى بين الفرد والجماعة ، وعندما يقرر الإسلام حق الملكية الفردية يحوطه بقيود تجعل منه وسيلة لتحقيق صالح الجماعة والملك معاً ، أن الملكية فى رأى الإسلام وظيفة اجتماعية والمالك وكيل عن الجماعـة فيما يمتلك والمال حق للجماعة مستخلفة فيـه عند الله وليس للمالك لكى ينمى ماله أن يغش أو يحتكر بمزج ماله بالربا أو يظلم عامـلا فى أجره أو يستغل حاجة أخيـه الإنسان ، وإقرار حق الملكية الفردية لايحول بين أخـذ الدولة نسبة من الربح أو جزء من رأس المـال إذا استدعى ذلك صالح الجماعة بل يقرر الإسـلام للدولة حق التدخـل فى الاقتصاد إذا استدعت مصلحة الجماعة ذلك .

إن ظهور النظرية الاجتماعيـة الاقتصادية للاسلام تجعلنا نتعرف على الوجه الحقيقى للنهج الاجتماعى والاقتصادى لدينا كما يعالج قصور النظريات الوضعية والمتجسد فى الفصل بين الجانبين المادى والروحى وسيحكم على أمور جـدت واستحدثت من اليسير قياسها على أمور ولدت فى عصور سابقة وسيتصدى للتحديات التى تواجه عالمنا الإسلامى الآن .

١١ — ويقول الدكتور أحمد النجار : أن النظرية الإسلاميه ببعديها الإجتماعى والاقتصادى ، تطرح نفسها بعد أن أجمع المفـكرون على أن النظريات الوضعية قد بدأت تنسحب أمام معضلات العصر الفكريه والاجتماعية وأكدوا على أن الإسلام هو القضية المطروحة على الساحه الفكريه العالميه كبديل لـكل النظرياب الوضعيـة . أن مأساة الاقتصاديين لدينا تتمثل

فى ذلك العصر الذى لايجدون منه فكاكا فهم فى جملتهم أثنان : أحدهما يطرح (العقيدة) خلف ظهره لايبالى بها والثانى يختار من خلال رفضه الالحاد والمادية مدرسة أخرى ونجـــد أن محاولاته تدور حول إمكان المواءمة بين بداية ترفض فيها الإلحاد وبين مدرسة يختلف بناؤها النظرى وأرضيتها وتطبيقاتها عن عقيدته الأصلية .

والخطأ هو قبول القول بأن ماوجد من المناهج الاقتصادية (ماركسيه او رأسماليه) هو النهاية التى لايمكن التقدم خطوة بعدها أو فتح طريق إلى جانبها ولو أنصف اقتصاديونا لنظروا إلى القرآن والحديث والتراث وعرفوا من كل ذلك أن هناك منهجا إجتماعياً واقتصادياً للإسلام مغايراً للنظامين .

فالإسلام هو الذى أنشأ قاعدة الترابط بين القيم الاقتصادية والقيم الأخلاقية وهو الذى قسم الأنفاق إلى استهلاكى واستثمارى ، فالمسلم يستطيع أن يستثمر ماله فى الوجوه المشروعة ويلزم بأداء الزكاة لتغطية حاجات المجتمع كما ينفق المسلم فى سبيل الله ، والإنفاق فى سبيل الله فريضة أخرى غير فريضة الزكاة وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن فى المال حقا سوى الزكاة) كذلك يمنع الاسلام صاحب المال من استعمال ماله على نحو يلحق الضرر بالغير أو بمصلحة الجماعة كما يحرم تنميه المال عن طريق الربا ، كما حرم الاحتكار ومن دخل فى شىء من أشياء المسلمين ليغليها عليهم وقد توعده الله بالعقاب فى جهنم كما نهى الاسلام عن التغيير والاسراف والقيود التى يفرضها الإسلام على المال ليست مجرد أحكام متفرقة ، بل هى نتيجة حتمية للنظرية الإسلامية فى الملكية ، أن الأصل فى المال أنه لله سبحانه وتعالى والناس عامة خلفاء الله فى ماله ، من الطبيعى أن يلتزم المستخلف بالقيود التى يفرضها عليه من استخلفه ، فملكية الناس للمال ليست حقا مطلقاً سواء كانت ملكية عامه جماعية مشتركة أو كانت ملكية فردية ، أنها مجرد خلافة لله تبارك وتعالى وهى خلافة مقيدة بأوامره ونواهيـــه فى الإسلام ، إن (الملكية فى الاسلام) وظيفة

إجتماعية دينية ولست حقاً مطلقاً سواء أكان المـــالك فرداً أو مجموعا وهى تزيل التناقض فى الملـكية الفردية فى النظم الرأسماليةو بين الملـكية الجماعية فى النظم الماركسية .

و [نظرية الاستخلاف] : هى التى تميز المنهج الإسلامى عن النظامين الرأسمالى والماركسى التى تتبنى كل منهما نوعاً واحداً من الملـكية وتقاوم النوع الآخر ، ويربط المنهج الإقتصادى للإسلام بين العمل والقيم الأخلاقيه ، والعمل فى المنهج الاجتماعى والاقتصادى للإسلام واجب على كل قادر تحقيقاً لمصلحة الفرد والجماعة معاً ، والإسلام يفتح أمام الإسلام طريقا لبناء نظام إقتصادى وإجتماعى يقوم على العدالة بدلا من النظم التى تؤسس على السيطرة والغلبة .

١٢ — ومن ناحية أخرى يجرى الحديث عن البـــدائل الإسلامية لمأزق الاقتصاد العالمى — يقول دكتور يوسف إبراهيم : إن السبب فى الأخفاق فى تحقيق تنمية إقتصادية فى العالم الاسلامى تتمثل فى إختيار منهج غير قادر على تحقيق التنمية الاقتصادية فى بلدان العالم الاسلامى ، فالتنمية الاقتصادية فى جوهرها هى : (محاولة لادخال عناصر الانتاج المملوكة للمجتمع فى العمليه الانتاجية بصورة مثالية) هذه العملية يجب أن يحكمها منهج معين ؛ وإختيار المنهج الملائم هو بيت القصيد ، والبلاد الاسلامية قد أخطأت المنهج الملائم لها القادر على أن يحكم عملية إستخدام الموارد بصورة مثالية ، ولذلك فهى بعد عدة عقود من جهود التنمية لم تزل متخلفة ، وللخروج من مأزق التخلف هناك ثلاثة مقومات لابد أن تتوفر فى المنهج القادر على تحقيق التنمية الاقتصادية :

أولا : أن يكون المنهج مسئولا بل نابعاً من الظروف الاجتماعية والاقتصادية والبيئــة .

ثانياً : أن يكون المنهج قادر على حشد جميـــع الطاقات وتوجيهها لصالح تحقيق التنمية .

ثالثاً : أن يتمتع المنهج بقدر من المرونة تكفل له القـــدرة على مواجهة المتغيرات التى لا بد أن يواجهها أثناء مسيرته .

وسبب نجاح المنهج الرأسمالى فى تنمية غرب أوربا وشمال أمريكا امتلاكه هـــذه المقومات فلأنه منهج مادى ، طبق فى بيئة مادية ، تكرس مفاهيم (الحرية فى الملكية الفردية) لذلك فهو قادر على أن يجمع الطاقات البشرية باتجاه تكوين الثروات والتقدم المادى وهو مضمون التنمية الاقتصادية فى الفكر الغربى ، لكن ذلك المنهج لو طبق فى ظروف العالم الثالث فإنه سيفشل وبالتالى لو طبق فى العالم الإسلامى سيبوء بالفشل ، لأن البيئة الإسلامية ليست مادية ولا تستهوى المسلمين الأهداف الرأسمالية فى الخدمة ، وجميع المخططين الاقتصاديين فى العالم الاسلامى يعرفون فشل تطبيق النظريات الرأسمالية الاشتراكية فى البلدان الإسلامية فبدلا من أن يبحثوا مفاهيم تلائم ظروف البلاد الإسلامية تراهم يطالبون بمنح هوية الشعوب النامية وصبها فى القالب الغربى بجناحيه الاشتراكى والرأسمالى . إذن لا بد من منهج إسلامى للخروج من المأزق الاقتصادى ولا ريب أن ماهية المجتمع الإسلامى وظروفه التاريخية والحضارية ، أفضل الطرق لحشد طاقات أفراده ، وماهى الأفراد التى تجمعهم . فالفكرة الإسلامية هى التى توحد الشعوب الإسلامية فالمنهج الإسلامى هو المنهج الانمائى المقترح لانماء وتنمية المجتمع الإســـلامى ، ولما كان لكل منهج اقتصادى خصائصه (رأسماليا أو اشتراكيا) فما هى خصائص المنهج الإسلامى .

١ — بناء الإسلام على القيم الإسلامية .

٢ — الملكية المزدوجة .

٣ — تدخل الدولة بقيامها بدور إيجابى .

٤ — اتخاذ مفهوم (حد الكفاية) مؤشرا انمائيا واتخاذ وسائل لتحقيق التنميـة الاقتصادية ، بمعنى أن تؤمن الدولة لكل فرد مستوى المعيشـة اللائق .

بذلك المنهج الاسلامى سنعتمد على ذاتيتنا وتفجر طاقاتنا الكامنة فالارادة البشرية هى أساس التنمية والتقدم ، ضرورة بناء التكنولوجيا والمنبثقة من واقعنا ولا يمكن للتكنولوجيا المستوردة أن تبنى لنا تقدمنا فاستيراد التكنولوجيا لايجعل العالم الاسلامى تكنولوجيا فضلا عن ذلك فإن المنهج الاسلامى سيحقق الوحدة التضامنية فى العالم وسيجعلنا نستخدم مواردنا وطاقاتنا الاسلامية فى صالح شعوبنا . نحن نملك كل مقومات التقدم والفعالية والموارد مايضعنا على طريق التقدم المادى الكبير .

نواة المدرسة الاقتصادية الإسلامية

هناك حقيقة أصبح معترفا بها هى إجماع المفكرين على النظريات الوضعية قد بدأت تنسحب أمام معضلات العصر الفكرية والاجتماعية ، وقد تأكد لهؤلاء العلماء أن الاسلام هو القضية المطروحة فى الساحة الفكرية كبديل لكل النظريات الوضعية .

أولا : النقود فى الاسلام ليست غاية بل وسيلة لتحريك السلع للإنتاج فالانفاق الاستثمارى هو انفاق الانتاج وهو توجيه من الله تعالى إلى المؤمنين فإذا انصرفوا عن ذلك كان توجيها من الله ولى الأمر الذى يجب أن يشجع الناس عليه وللإسلام فى المال تكاليف واجبه هى :

أن يستثمر المالك ماله فى الوجوه المشروعة ، أن يلتزم المسلم بأداء الزكاه لتغطية حاجات الطبقة الفقيرة ،أن ينفق المسلم فى سبيل الله،وقد منع صاحب المال من استعمال ماله على نحو يلحق الضرر بالغير أو بمصلحة الجماعة ، تحريم تنمية المال عن طريق الربا — أو عن طريق الاحتكار مع النهى عن التقتير والاسراف كذلك يربط المنهج الاقتصادى للاسلامين العمل والقيم الأخلاقية ، فالعمل عبادة وهو واجب على كل قادر تحقيقا لمصلحة الفرد والجماعة .

إن الذى تشكو منه النظم الاجتماعية المعاصرة هو (داء السيطرة) الذى هو أساس كل من الرأسمالية والشيوعية ، إن كلا منهما يقاوم سيطرة إحدى الطبقات لسيطرة طبقه أخرى ، وبذلك بقيت المجتمعات فريسة للطبقات الغالبة المسيطرة على السلطة والمجتمع هو الذى يدفع ثمن الصراع من وحدته واستقراره .

وهنا تظهر أهميـة المنهج الاجتماعى للاسلام : أنه يفتح أمام الانسان طريقا لبناء نظام اجتماعى واقتصادى يقوم على العدالة بدلا من النظم التى ترسى على السيطرة والغلبة .

(أحمد النجار)

ثانياً : أن أول المبادىء التى حث عليها المنهج الاجتماعى للاسلام ، محاربة الفقر ، فقد ضمن الاسلام لـكل فرد سواء أكان مسلما أو ذميا فى المجتمع الاسلامى الحد الأدنى اللازم للمعيشة وهو مايسمى فى الشريعة الاسلامية بحد الـكفاف والزم المنهج الاجتماعى للاسلام الحـكومة والفرد معا بهذا الضمان ، وفرض على الأغنياء أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك إذا لم تقم الزكوات بهم فتقدم لهم ما يأكلون من طعام ولباس للشتاء والصيف ومسكن يقيهم المطر والشمس ، أما الفكر الماركسى فيرى أن يقوم العمل بثورة دموية ضد أصحاب رءوس الأموال حتى ينتصروا ، وبالرغم من أن الفكر الماركسى ينادى بإعطاء كل فرد حسب حاجته والأخذ من كل فرد حسب قدرته فإن الفقر لايزال موجودا فى المجتمعات المـاركسية وقد انتهت محاربة الفقر فى المجتمع الشيوعى إلى محاربة الحريات .

(عبد الجليل هويدى)

(ثالثاً) : الزكاة ضريبة إسلامية تـكمل العناصر الأربعة للحضارة الاسلامية وهى العدالة واليقين والملائمة والانتاجية ، وأن الزكاة أكبر من حصيلة الضريبة لأن وعاء الضريبة هو صافى أرباح المنشأة بينما وعاء الزكاه هو صافى رأس المـــال العامل ، ولذلك فإن الزكاه تشكل حجر الزاوية

إذا ما أردنا أن نشكل هيكلا ضريبيا إسلاميه ، وهى إحلال الزكاة كضريبة إسلامية وكنظام عام محل الضرائب المباشرة فإن للزكاة القدرة على مواجهة النفقات بالاضافة إلى إيرادات الدولة الأخرى فى مختلف أنشطتها الاقتصادية وأن الزكاة ضريبة إسلامية مثالية تصلح بديلا عالميا عن نظام الضرائب ، وقد راعت قواعد الضريبة الجيدة التى تحدث عنها (آدم سميث) واعتبرها المفكر المالى نصرا عظيما وحذونا حذوهم وفاتنا أن فكرنا المالى الاسلامى هو مصدر هذه القواعد منذ أربعة عشر قرنا أو يزيد والفكر المالى الاسلامى يواجه الحاجات المالية للمجتمع على أساس فلسفة إسلامية مؤداها :

أولا : مواجهة مصالح المسلمين فى المجتمع من ناحية وتحقيق التضامن الاجتماعى من ناحية أخرى بمورد إلزامى يتمثل فى الزكاة فإن كان لهذا المورد القدرة على المواجهة آخر الأمر .

ثانياً : إذا اتضح عدم كفايتها فإن الاسلام لم يدع لتعاليمه الروحية والمعنوية وللقيود التى أوردها على الملكية وأساسها أن المال مال الله والبشر مستخلفون فيه وهنا يجىء دور الفرد المسلم ومدى تفاعله مع تعاليم دينه ومدى تصديه للمسئولية الجماعية ، والأداة المؤثرة فى هذه المرحلة هى الانفاق فى سبيل الله اختياريا فإن لم يفعل المسلم فإن من حق ولى الأمر أن يرفع الانفاق فى سبيل الله من مرحله الاختيار إلى إلى مرحلة الالزام .

(سامى رمضان سليمان)

(رابعاً) : إن المشكلة الاقتصادية فى نظر الاسلام ليس سببها قلة الموارد الطبيعية مما قد يتعذر التغلب علية ، وليست نابعة من عدم بلوغ التطور غايته ، مما قد يستتبع إقرار الظلم الاجتماعى عبر المراحل التاريخية

السابقة (كما تقول الماركسية) وإنما تتجسد هذه المشكلة فى ظلم الانسان وسوء توزيع الثروة التى نتجت عن كفران النعمة بإهمال استثمار الطبيعة والموقف السلبى منها أو عدم استغلال جميع المصادر التى تفضل الله تبارك وتعالى بها على الانسان استغلالا تاما ؛ وقد عالج الاسلام كفران النعمة بما وضع للانتاج والتداول من أحكام كما عالج مصدر الظلم بما وضعه من على الاستهلاك من تعاليم ونظم ، وقد اعتبر الاسلام السعى على الرزق وخدمة المجتمع أفضل ضروب العبادة وأوجب الاسلام اتقان العمـــل والانتاج واعتبر ذلك أمانة ومسئولية .

٭ ٭ ٭

الباب الخامس عشر

التربية والتعليم

(١)

إن تجربة التعليم العلماني فى البلاد الإسلامية من أخطر التحديات التى واجهت المسلمين ولا تزال تواجههم إلى يومنا هذا ، فبالرغم من أن معظم هذه البلاد قد تحررت من قبضة النفوذ الأجنبى سياسيا وعسكريا فإنها لاتزال تخضع لمناهج تربوية وافدة تتمثل فيما يأتى :

أولا . علوم ذات مصدر مادى ونظريات وفروض قدمها فلاسفة أجانب خاضعون لتحديات عصورهم ومجتمعاتهم تختلف فى أسسها مع مفاهيم التوحيد والرحمة والعدل والآخاء الانسانى والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى والجزاء الأخروى (وهى لا تحمل صفة العموم ولا الكمال ولا الخلود كما فى الشريعة الاسلامية .

ثانياً : مناهج اجتماعية قائمة على عبادة الذات والترف والاباحية والتحلل من القيم الأخلاقية .

وقد صدق الدكتور فاضل الجمالى حين قال : إن جميع أعمال الاستعمار الاجرامى لاتساوى ظلما ارتكبه الاستعمار حين فرض علينا (النظام التربوى) الحديث الغريب من معتقداتنا وتقاليدنا قسرا فى الوضع الذى أهمل فيه نظامنا للتعليم وجعله فى وضع يرثى له بهذه الطريقة أن ينشىء فينا أجيالا تتنكر لشخصيتها الاسلامية وتعق دينها وتبصق على تقاليدها وتنظر إلى تاريخها الحافل بالأمجاد نظرة الاحتقار وتعتبر حضارتها الرائعة شيئاً أكل عليه الزمن وترسخ فى ذهنها أنه إذا كانت هناك معارف فهى التى تدون فى الغرب ، هذا هو أعظم ظلم مارسه الاستعمار فى حقنا ، أما النظام التربوى الذى كان يطلعنا على الدين ويربطنا بتقاليدنا ويوطد أواصرنا بحضارتنا فقد عاد نظاما مرفوضا لم يجد له سوقا رائجة .

ولم يلبث أن مال إلى هذا النظام النخبة الممتازة من الأمة وأصحاب الثراء والفطانة والذكاء ، إن هذا النظام لم يبعدنا عن ديننا وتاريخنا

وحضارتنا فحسب بل مسخ عقليتنا لدرجة أن جعلنا نستهزىء بتراثنا العقائدى والحضارى، وقد قصر الاستعمار كل مجالات التقدم وفرص الرقى على الذين كانوا يتخرجون من هذا التعليم وهناك سياسة الاستعمار فى استخدام المتخرجين، كانت تملى أنه على قدر ما يكون المرء متجرداً من آثار الإسلام قدر مايلقى إليه أرقى المناصب .

٢ — ويقول الشيخ محمد الخضر حسن : التعلم فى المدارس المصرية منذ عهد كرومر إلى يوم الناس هذا تعليم جاف لايعنى بتكوين الإنسانية فى الإنسان والإسلام فى المسلم ولا الوطنية فى ابن الوطن ولا الرحمة والرفق والتعاون فى البر والتقوى فى قلب الرجل المثقف ولا يصل حاضر الأمة بماضيها فى طريقهما إلى أهداف قومية متحدة ، كما يجب أن تكون الأمة الأصيلة التى تحمل لنفسها وللانسانية أكرم أمانات الله وأثبتها .

ولا ريب أن سوء الأخلاق تنشأ عن زيغ العقيدة تارة وعن طغيان الشهوات تارة أخرى فإن الإسلام دين ينير العقول بالحجة ويهذب النفوس بالحكمة .

٣ — وتتحدث السيده مريم جميله عن تجربة الغرب من شباب الإسلام من طلاب البعثات فتقول : إن مواد الدراسة التى تهيأ لهم محرفة وموجهة إلى إحداث تطور فى الطلبة فكراً وتصوراً معاكساً لمجتمعهم السابق ووطنهم لكى ينظروا إليه برؤية العدو ويقبلوا مقياسه للخير والشر ، هذه المناهج تخلق مركب النقص فى أذهانهم والشعور بالتفوق فيما يتصل بالغرب ، وهناك فترة غسل الذهن وشحنه بأخطار جديدة وتصور جديد للحياة لا يترك الطلبة على راحتهم ليتعلموا النظريات والقيم الغربية كدروس إنما تفرض هذه القيم عليهم فتصبح جزءا من أفكارهم ومعتقداتهم ، وهكذا تنقطع سائر الصلات القائمة بين الطلبة وبين القيم والمثل والافكار التى توارثوها من ماضيهم الثقافى والاجتماعى فلا يتذكرون إلا تاريخ بلاد العدو ويعبدون أبطال العدو فيكونوا إبطالهم ويراعى العدو فى إعداد مناهج الدراسة ونظام التربية فى بلاده للوافدين أن يتخرج من مدارسهما رجال تتغير أذهانهم

وتنقطع صلتهم عن تراثهم وحضارتهم وبلادهم كليا فيصبحون عملاء العدو ويخدمون مصالحه ويؤدون المهام التى تستند إليهم والمسئوليات التى تلقى على عاتقهم فى الجيش .

٤ — لقد صاغ الغربيون فن التربية وفق معتقداتهم وأخلاقهم فهى لاتصلح لنا أصلا ، لذلك لابد أن تضع الأمة الإسلامية نظرية خاصة بها مستمدة من كتابها وتراثها وتجعل ولائها للاسلام عقيدة وشريعة وسلوكا ، وقد كان للمناهج الغربية أثرها فى التعليم فى البلاد الإسلامية فقد أدخل عليها :

١ — نظريات العلم المادى الفاسدة .

٢ — تفسير التاريخ الإسلامى تفسيراً مادياً .

٣ — إدخال المفهوم الديمقراطى الزائف للحياة السياسية وهو مجاف لمفهوم الشورى الإسلامية .

٤ - فصل الدين عن الدولة وحجب الشريعة واعتماد القانون الوضعى .

٥ — مسأله تحرير المرأة وإزالة الحجاب وإدخال المرأة ميدان العمل دون حصانة أخلاقية أو دينية كافية .

٦ — الاعجاب بالفنون الاباحية وزبالة الحضارة .

إنما تدعو التربية الاسلامية المسلم إلى بناء الانسان فى إطار الهوية المتميزة من خلال فكر تربوى له معينان لا ينضبان : ـ

(أولهما) معطيات العلوم الحديثة المتطورة فى كافة مجالات الابداع البشرى .

و (ثانيهما) فلسفة حياة ثابتة أصلها فى حضارة هذه الأمة وتراثها المجيد . المعين الأول يزودنا بالمعارف العلمية وأساليب العيش والرفاه والمعين الثانى يعطى جداول للعلم والأخلاق التى تحفظ للانسان اتزانه وانسجامه وتميزه وتحتفظ له بهويته التاريخية الأصيلة .

(عبد السلام العمرى)

ويتحدث محمد أسد (ليوبولد فايس) عن خطر قبول المسلمين لمناهج التعليم الغربي فيقول : —

إذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمى فإنهم لايستطيعون أن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم الغربى من غير وازع ما ، وإن كل تأخرنا العلمى وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذى سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربى من قوى الاسلام الدينية الكامنة ، إذا أردنا أن نحفظ حقيقة الاسلام على أنها عنصر ثقافى فيجب علينا أن نحذر من الجو الفكرى للمدينة الغربية ، ذلك الجو الذى أصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا وميولنا بتقليد عادات الغرب وزيه فى الحياة يصبح المسلمون تدريجيا مضطرين إلى الأخذ بوجهة النظر الغربية وأن تقلتد المظاهر الخارجية يعود شيئاً فشيئاً إلى تقبل الميل العقلى المصاحب لذلك .

(٢)

دخل التعليم الغربى البلاد الاسلامية عن طريق الارساليات والمعاهد التبشيرية ثم انتقلت مناهجه إلى المعاهد الوطنية مع تغييرات طفيفة ، ولا يزال بمثـــابة الخنجر المسموم المغروس قريبا من القلب فى الجسم الاسلامى كله ، والذى مازال يقطر دما ، والذى لا سبيل إلى التحرر من خطره إلا بانتزاعه وعلى المسلمين أن يبدأو نهضتهم من نفس النقطة التى بدأ منها احتوائهم فيلتمسوا منهج التربيـة الاسلاميـة ، ويعلنوا صيحـة التعليم فى إطار التربية الاسلامية ليجعلوا العلم الحديث كله فى إطار العقيدة والايمان بالله ويعلموا أن هذه العلوم كلها لها أصول إسلامية وأن المسلمين هم الذين قدموا للبشرية المنهج العلمى التجريبي الذى تقوم عليـه الحضارة الغربية .

إن معطيات الاسلام هى وحدها القادرة على أن تحفظ للمجتمعات الاسلامية كينونتها وتمنحها قدرة ذاتية فائقة على مواجهة كل محاولات

الاذابة والتشويه التى تعرضت لها حضارة الإسلام . وكان سبيل المستعمرين مغالبة الشخصية الإسلامية المتكاملة البناء بانتزاعها من جذورها الثقافية عن طريق إهمال هذه الثقافة الاسلامية وإنتهاج أسلوب جديد فى تناول المعرفة يتجاوز شمولية الثقافة الاسلامية ويجعلها مادة معزولة تدرس كوحـــدة قائمة بذاتها لا أثر لها فى بقية المعارف التى يدرسها المتلقى والتى تنطلق فى معظمها من منهج يرمى فى جملته إلى هدم الدين وتشكيك المسلمين فى حضارتهم التى أنفصلت فى واقع حياتهم عن حياة المجتمع النشطة التى توجهها حضارة المستعمرين وتدفعها مؤسساتهم الجديدة .

(٣)

لقد أستوردت الدول العربية خبراء تربويون أجانب ليضعوا المناهج التربوية لأبناء أمتنا ، وأرسلوا البعثات من شبابنا ليتعلموا فى معاهد الغرب ، وفى كل العملين وقعنا فى الاحتواء الخطير .

أما هؤلاء الخبراء فقد وضعوا أهدافاً محددة خططوا لتحقيقها وكان أبرز تلك الأهداف تذويب الشخصية الأساسية للإنسان المسلم ثم إتسعت قاعدة المناهج التربوية لتشمل كل مرافق الحياة ووسائل الأعلام وأسس تعليم الأفراد وحصروا الاسلام فى المساجد وقصروا أمر الدين على العبادات ، وإتاحة الفرصة للمذاهب الوافدة للسيطرة على مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة ومن ثم أخذ الخطر الحقيقى يحدق بنا من كل مكان إذ أصبح الاسلام وكأنه دين عبادى — على مفهوم المسيحية فى الغرب — وتوقف عمل الاسلام الحقيقى فى بناء المجتمع الاسلامى .

لقد عمد النفوذ الأجنبى وسخر كل أجهزته وتابعيه لتجريد المسلم من روحه الحقيقية ، وبذلك سيطرت العلمانية على معظم فروع المعرفة الانسانية مما أدى إلى حجب القيم الاسلامية وكان لوجود نظامين للتعلم : النظام الأزهرى الأساسى فى الحقيقة والنظام الوافد الذى تباشره وزارات التربية والتعليم ؛ أوجدت هذه

الأزدواجة تضارباً ثقافياً خطيراً وكان على المسلمين بعد تحررهم من النفوذ الأجنبي العسكرى السياسى أن يعودوا إلى مفهومهم الأصيل الجامع ؛ وأن نصبغ التعليم فى جميع فروعه بصبغة إسلامية أصيلة بحيث يكون منهج الاسلام فى الحياة واضحاً فى جميع مناهج التعليم وما تزال قوى كثيرة تحول دون ذلك .

أما أبنائنا الذين إتجهوا إلى الغرب فقد واجهوا أخطاراً شديدة لأن خلفيتهم الاسلامية كانت قاصرة وناقصة ، ومن ثم إحتواهم المستشرقون اليهود المسيطرين الآن على الدراسات الاسلامية ، ومن عجب أن يسافر أبنائنا إلى أوربا وأمريكا ليتعلموا اللغة العربية والاسلام فى السربون وهارفارد وبريستون التى تتمركز فيها عتاولة المستشرقين والمبشرين الذين يلبسون ثياب العلم ليحطموا فى قلوب أبنائنا روح الايمان وليسيطروا على أفئدتهم وعقولهم حيث نأخذ ديننا من أفواه أعدائنا ، وهناك يعلمونهم كثيراً من السموم فتنشأ فى نفوسهم ظاهرة الغرور والاستهانة بالحق والتكبر على أمر الله تبارك وتعالى ويصبحون إداة طيعة للذين صنعوهم فى بلادهم يحملون لواء نزعات التغريب وكراهية القرآن والاسلام واللغة العربية . وامنهانها وتمتلأ نفوسهم بالزهو إزاء الغرب وبطولاته وحضارته ،ويعارضون طريقة الأصيل فى العودة إلى مناهل الاسلام ومنابعه الأصيلة لنستمد منها أسلوب عيشنا الحقيقى بعد أن فسدت تجربة الاقتباس والتبعية والانتماء إلى الوافد الغريب بكل ما فيه من غربة وتمزق وشر وتلفيق .

ومن ناحية أخرى فقد جرت مؤامرة الاستشراق على تكليف شبابنا المثقف فى إطروحاته أن يدرس موضوعات مسمومة يراد بها إعلاء جوانب ضعيفة وظواهر تافهة وقضايا مشبوهة زائفة ينتزعونها من التاريخ الاسلامى أو الأدب العربى يراد بها إعلاء جوانب ضعيفة وظواهر تافهة وإحياء شبهات وأحقاد الباطنية والشعونية القديمة والتوسع فى عرضها حتى تبدو وكأنها مظاهر حقيقية كالبحث عن الزنج والقرامطة ودعوات الحلول

والاتحاد ومحاولة أعلاء بعض المتآمرين والخونه الذين قتلوا جزاء فتنهم كأنهم أبطال الحرية والعدل الاجتماعى أمثال الحلاج والسهروردى وغيرهما أو دراسة اللهجات الميته أو الفرق الضالة المنقرضة أو أبحاث الباطنية ورجالها وكتبها التى لاتمثل إلا الأحقاد التى تملأ صدور أعداد الاسلام لتفسير ابن عربى ورسائل إخوان الصفا .

(٤)

فإذا ذهبنا نراجع وجوه الايجابيات والسلبيات فى النظريات التربويه المطروحه وجدنا أفضليه النظرية الاسلاميه على النظريات الأخرى :

(أولا) إن خير مافى النظريات التربوية التى قدمها فلاسفة التربية غير المسلمين من محاسن والتى يسمونها حديثه قد احتوتها الشريعة الإسلامية من قبل ممثلة فى القرآن الكريم والسنه النبويه .

(ثانياً) إن جميع هذه النظريات التربوية غير الاسلام قد نظر مفكروها إلى التربيه من زاوية معينة مع إهمال بقية الجوانب .

١ — المذهب الطبيعى فى الدين (روسو) واتباعة يرى أن التربية الصحيحة هى أن تسمح لعقل الطفل وقدراته وميوله بالنمو دون أى تدخل أو إشراف ، فهو أساساً ينكر العقل وينكر أهميته وينظر إلى التعبير عن الذات فقط دون تدخل .

٢ — الفلسفة المثالية التى نادى بها روسو واتباعه والتى نرى أن التربية تتجه بالانسان إتجاها ساميا يرتفع به عن العالم المادى فهى تنكر أهمية الجسم وتتجه إلى كل ماله صلة بالعقل أو الروح ويعتبرونه أهم بكثير من الجانب المادى .

(ثالثاً) الفلسفة البرجمانية (النفعية) التى تستهدف الأعداد للحياة الحاضرة

فقط دون الاهتمام بالحياة المستقبله ودون الاهتمام بما خلفته الأجيال الماضية من تراث ثقافى ذا قيمة فى مجال التربية ، والتى تؤمن أيضاً بأن كل ماجر نفعاً مادياً فهو صواب وما عداه خطأ .

(رابعاً) النظريات التربويه غــير الإسلاميه تتصف بالتناقض والنقص وإختلافها فى أغراضها لأنها تمثل أفكاراً بشرية جاءت نتيجة ظروف حياتيه فرديه وجماعيه ، أما الاسلام فلأنه من الحق سبحانه فقد جاءت نظراته التربويه شاملة ومتكامله لجميع نواحى الحياة ، سواء بالتربيه الفكريه أوالروحية أوالجسمية أو الماديه بما يلائم الفطرة الانسانيه فهو نظام كامل لجميع نواحى الحياة .

(خامساً) : النظريه الاسلاميه : شاملة لكل مجالات الحياة وكافة جوانب النفس الانسانية إلى جانب ثباتها وصلاحها لكل زمان ومكان وقد وضع الله (تبارك وتعالى) أسسها لجميع البشر ، هذا فضلا عن تكامل الأهداف فى التربية فإن هناك الاهتمام بتربية الفرد من جميع نواحيه كما تهتم ببناء المجتمع المسلم القائم على الوحـــده والمساواة والتعاون والشورى والأخلاق الحميدة . (عبد المعين عبد الغنى الحربى) .

(٥)

كشف الدكتور سليمان أسحق عن كتاب من التراث الاسلامى حول تعليم وتربية الأطفال .

[تحرير المقال فى آداب وأحكام وفوائد يحتاج اليها مؤدبو الأطفال]

المؤلف إبن حجر الهيثمى المتوفى ٩٧٤ ﻫ ١٥٦٧ م

وخلاصة رسالته رد على سؤال موجه اليـــه من أحد معلمى الأطفال عن مشكلات تربية وتعليم تلاميذه ـــ قال الدكتور سليمان أسحق : لقد وجدت أن عالمنا الإسلامى بن حجر الهيثمى قد سبق عصره بخمسة قرون ووصل إلى النظريات والمبادىء التى إنتهت إليها ووصل اليها علماء وخبراء التربية فى أمريكا وأوربا

الغربية بعد ذلك فى القرن العشرين فقد دعا إلى تكافؤ الفرص فى التعليم عن طريق التعليم الإجبارى والمجانى ، وقد طالب بالطريقة الفردية فى التعليم التى تعطى كل تلميذ عملا يناسب مستواه وميوله وأعباءه. وهو صاحب الفكرة التى تقول أن المجتمع غير المحمود هو الذى يضع الحواجز الداخلية والخارجية للحيوله دون نقل الخبرة وتبادلها وهى النظرية التى قال بها بعد أربعمائة سنه جون ديوى . كذلك فقد نادى بتحرر التلميذ من سيطرة المعلم . وقد نبه الهيثمى إلى أمرين هامين : الحد من العقاب الجسدى — مع وضع شروط وقيود وحدود له وتكلم عن خطورة الانحراف على الطفل وهذه كلها نظريات يتنباها علماء التربية الحديثة . كما نادى الهيثمى بوصل المدرسة بالبيت ونقل البيت إلى المدرسة .

(٦)
من علمانية التعليم إلى إسلامية التعليم

إن إحتواء التعليم فى إطار التغريب قد حقق مجموعة من الأهداف فى وقت واحد :

(أولا) القضاء على « الذاتية الإسلامية » المستمرة بأخلاقها وإيمانها بالله وصدق الوجهة ، فى التعرف على الحقيقة الأساسية ، وهى : إن الله تبارك وتعالى هو الخالق وأنه جل شأنه من وراء كل معطيات الحضارة ، وليست الطبيعة وليست القوانين الجبرية التى يدعى الماديون أنها تحكم مسار الكون دون تغيير .

ثانياً : القضاء على « الفصاحة العربية » التى أوجدتها منابع البلاغة العربية ممثلة فى القرآن الكريم والسنة النبوية وذلك بعد أن استطاعت وسائل التعليم الحديث أن تقطع الشباب المسلم عن تراثه جميعه .

ثالثاً : القضاء على « الاحساس بعظمة العطاء الذى قدمته الأمة الإسلامية » للبشرية حين قدمت اليها منهج الحضارة الذى حرر الإنسان من عبودية الإنسان وحرر العقل البشرى من العبودية للوثنيات والخرافات والأساطير وأعظم هذه المعطيات إنشاء المنهج التجريبي الذى قامت عليه الحضارة الغربية المعاصرة .

(رابعاً) القضاء على تمثل « الدور التاريخى الذى قام به الإسلام » حين نشر عقيدة التوحيد فى العالمين ، فأخرج هـــذا العالم من ظلمات الوثنية والإباحية والرهبانية إلى مفهوم الحرية والـكرامـــة والعمل والسعى فى الأرض .

كذلك وما كان لأبطال الإسلام من دور فى تقديم الإسلام للبشرية ، وحمله إلى أقصى الأرض بروح الإيمان واليقين والصدق والجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله .

لقد استطاع إحتواء المناهج التعليمية الوافدة القائمة على النظرية المادية المنكرة للدين والأخلاق وبناء الفرد على القيم والمثل ، هـذا الاحتواء للمدرسة الإسلاميـة بفرض مناهج الغرب ، كان له أبعد الأثر فى تدمير الشخصية الإسلامية الناشئة وحرمانها من التعريف على حقيقتها ودورها وهـــدفها .

وفى هذا يقول مستر نيروز أحد رؤساء الجامعة الأمريكية فى بيروت : « لقد برهن التعليم على أنه أثمن الوسائل التى استطاع المبشرون أن يلجأوا اليها فى خلال سعيهم لتنصير سورية ولبنان ، أن الـكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقى مقدس أمراً صعبا جداً » .

وما يتحدث عنـه المبشر الأمريـكى ليس قاصراً على سوريا ولبنـان ولـكنه منبث فى أنحاء العالم الإسلامى من أرخبيل الملايو والجزيرة الهندية إلى تركيا إلى مصر إلى شمال أفريقيا إلى الجزائر والمغرب .

فإن خطـة السيطرة على المناهج التعليميـة التى قام بها النفوذ الأجنبى (وورثها لمن جاء به من حكومات وقيادات نشأت فى إطار الإيمان بالغرب والإعجاب به والتسليم له) قـد شملت مختلف الميادين من السلوك الفردى والآداب الاجتماعية إلى الآداب والفنون .

وقد تحولت الأساليب من التبشير المباشر إلى التبشير الخفى الذى يتصل

بالثقافة والصحافة حيث يقوم الكتاب التغريبيون بأداء دور خطير فى تحويل الأهداف الماسونية إلى حقائق مطبقة .

وقد أسهمت المنظمات الدولية فى هـــذا المجال بما فى ذلك الأمم المتحدة واليونسكو ، والتربية الأساسية على وجه الخصوص التى تعتبر إمتداداً لمخططات ترمى إلى فصل الدين عن الدولة وتخريج شباب متميع منهزم خاضع للاهواء والشهوات .

وقد استعانت على ذلك بالمسرح والسينما والاذاعة والتلفزيون بما يحيط بالعقل والقلب من كل أقطاره ويسيطر عليه ويفرض عليه سمومه وبذلك استطاع النفوذ الأجنبى المستخفى اليوم وراء هذه المنظمات والمؤسسات تطويع برامجنا التعليمية لكثير من أهدافه وأغراضه .

ولم تستطع الدول المحتلة — بعد الاستقلال — أن تحرر إرادتها أو تحقق وجهتها فى التماس أسلوب التربية الإسلامية ذلك لأن النفوذ الأجنبى قد أسلم قيادة الثقافة والصحافة والتعليم فى مختلف أغلب بلاد الإسلام إلى مجموعة من أهل الولاء للغرب — بشقيه : الشيوعى والرأسمالى — فهم مستغربون أكثر من الغربيين أنفسهم وهم يقدمون سمومهم تحت اسم التجديد والعصرية والتقدمية .

ومن أجل مواجهة هذا الخط فقد أوصت مؤتمرات عديدة ، عقدت فى السنوات الأخيرة ، لدراسة هذه التحديات بإنشاء هيئة علمية على مستوى العالم الاسلامى ، تعمل على التحرر من الاستعمار الفكرى والثقافى وصيانة المناهج التعليمية وفقاً للعقيدة الاسلامية .

ولا ريب أن هناك ثلاث تحديات خطيرة تواجه الأمة الاسلامية فى هذا المجال :

(أولا) منهج علمانى قومى فى البلاد :

(ثانياً) الارساليات المنتشرة فى البلاد العربية تلتقط أبناء المسلمين .

(ثالثاً) شبابنا المسافر فى بعثات إلى الغرب .

أما التعليم العلمانى القومى : فإنه ميراث قديم تشكل أبان الاحتلال الأجنبى للبلاد الاسلامية (١) ثم لم تتمكن هذه البلاد بعد استقلالها من التحرر منه ، وقد قام أولا :

على الاقتباس من مناهج الارساليات ومدارس التبشير التى كانت قد شكلت منهجها على أساس إخراج شباب المسلمين من دينهم ، ثم جاء المبشرون الفرنسيون والانجليز والهولنديون . فسيطروا على مناهج التعليم الاسلامية التى كانت مبثوثة فى المدارس القومية فأزالوا منها كل ما يتصل بالدين والأخلاق والتاريخ وعظمة الاسلام والأمة الاسلامية واللغة العربية .

وفى بعض البلاد أعدمت هذه الكتب السابقة لعهود الاستعمار حتى لايبقى لها أى أثر فى دور الكتب القديمة كتراث يمكن الرجوع اليه أو التعرف على وجهة هذه المناهج أو يقيم مقارنة بينها وبين ما صنعه الاستعمار . (وهذا ما حدث فى مصر بعد الاحتلال) .

وقد اعتمدت المدرسة الوطنية بعد الاحتلال على مناهج الإرساليات مع تعديلات يسيرة ، ثم جاءت موجة مذهب ديوى وتشكلت معاهد التربية التى فرضت على المعلمين أن يتخرجوا منه ، فانداحت تلك الفكرة المسمومة الخبيثة فى مجالات التعليم فى العالم الإسلامى وهى حجب الإسلام أو مفهوم الدين والأخلاق عن هذه المناهج .

ويبقى الخطر الثالث قائماً : وهو المتمثل فى أبنائنا الذين تتلقفهم مؤسسات التبشير والاستشراق فى عواصم العالم الغربى لتشكلهم كما تشاء ، حتى يكونوا على ولاء لأهدافها وهم يتابعونهم بعد عودتهم بالمناصب والمؤتمرات والجوائز والنياشين ويردون عنهم أى خطر يتهددهم حتى يحققوا أهداف التغريب فى مجال التعليم على النحو المنشود .

أما المنهج الغربى الذى إعتمدته المناهج المدرسية ، فهو شىء مختلف تماما

عن منهج الإسلام فى التربية وفى الحياة ، فالتعليم الغربى يحمل روحا مستقلة ، ويعبر عن أفكار أهل الغرب ومجموع أقدارهم وقيمهم ، فإذا طبق فى بلاد مسلمة أو مجتمع إسلامى فإنه يحدث صراعاً عقلياً يتدرج ثم يتدرج إلى تدمير العقيدة وإلى خلق الردة الفكرية والدينية .

يقول الأستاذ محمد أسد (المعروف باسم ليو بولد فايس) : أن الإسلام والمدنية الغربية يقومان على فكرتين فى الحياة متناقضتين تماماً ، لا يمكن أن يتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة فى مجموعها على التجارب الثقافية الأوربية ، وعلى مقتضياتها ، خالصة من شوائب النفوذ المعادى للإسلام .

أن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضى حتما إلى زعزعة إرادتهم فى أن يعتقدوا ، أو أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم يمثلوا الحضارة الربانية الخاصة التى جاء بها الإسلام ، وليس ثمة من ريب فى أن العقيدة الدينيـــة آخذة فى الاضمحلال بسرعة بين المتنورين الذين نشأوا على أسس غربية .

وقد أشار أحد الباحثين إلى أنه بمراجعة المناهج التى تدرس للمسلم فى المدارس الاعدادية والثانوية نجد الآتى :

أوربا (٣٧٠ صفحة) .

الحضارة الإسلاميه ٢٥٠ صفحة .

الثورة الفرنسية ٣٥ صفحة .

الدعوة الإسلامية ٢٣ صفحة .

نابليون ١٦ صفحة .

عمر بن عبد العزيز صفحة واحدة .

فإذا ذهبت تبحث عن مضمون الحضارة الإسلاميـة ، وجدتها كلها تنصب على القول بأن المسلمين أخذوا فكر أرسطو وأفلاطون ، وأنه مصدر فكرهم الإســـلامى ، وأن المعتزلة والفلاسفة هم الذين

أنشأوا الحضارة الإسلامية ، وأن هذه الحضارة لم تلبث أن انهزمت عندما سقط المعتزلة وجاء أمثال الغزالى وابن تيمية .

هذا ما يقال عن فكرنا وحضارتنا ويتعلمه أبناؤنا ، وهكذا تمضى مناهج التعليم الإسلامى لتقدم التاريخ الإسلامى لأبنائنا على صورة جماعة من المغامرين المندفعين إلى الصراع والقتل والتآمر .

« وقد أدرك أعداء الاسلام أن النظام التعليمى والتربوى له أثره الفعال فى توجيه حاضر الشعوب الاسلامية ومستقبلها نحو المصير ، نجد ذلك فى مؤتمرات اليهود فى بازل عام ١٨٩٧ حين أكد حكماء صهيون أن أفضل طريقة لتحقيق سيطرتهم على الشعوب الأخرى هو التأثير على النظام التعليمى والتربوى بتدريس الناشئة التاريخ القديم ، المشتمل على المثل السيئة أكثر من إشتماله على المثل الحسنة ، وعلى ضرورة طمس العصور الماضية فى ذاكرة النشء الجديد التى قد تكون معارضة لمخططات اليهود وأمانيهم فى تحقيق السيطرة على العالم » .

وليس اليهود فقط هم الطامعون فى تزييف أهداف التعليم الاسلامى ، وإنما يشترك فى ذلك النفوذ الغربى القائم على مفهوم التبشير والتنصير والاستشراق الذى يطمع دائماً فى تصوير الاسلام على أنه دين عبادى وليس دينا ودولة .

ويجرى مغالطاته على محاولة تزييف منهج الإسلام الاجتماعى والسياسى وذلك بإقامة القانون الوضعى بدلا للشريعة الإسلامية وإقامة منهج الربا فى الاقتصاد الإسلامى ، ومنهج التعليم العلمانى بديلا عن التعليم الإسلامى .

وقد جاءت موجة الغزو الماركسى لتحمل معها مفاهيم مسمومة للثقافة والتعليم ترمى إلى تفسير يقوم على المقاييس المادية ومحاولة القول بأن الفتح الإسلامى كان بهدف البحث عن الطعام .

تزييف مناهج التعليم

وهكذا تتكاثف القوى الغاضبة على تزييف مناهج التعليم والتربية والثقافة فى العالم الإسلامى ، وذلك كله إنما يهدف إلى تخريج شباب غير مؤمن بوطنه أو دينه أو تاريخ أو قيم أو أمجاد أمته .

وقد احتقر هذا المنهج الوجود والتاريخ الاسلامى كله ، بينما عرفه عن الغرب وأبطاله ومواقفه وخاصة الثورة الفرنسية أكثر مما يعرف عن الدعوة الإسلامية ، وعن نابليون أكثر ما يعرف عن خالد ابن الوليد .

وما تزال كتب التاريخ المقررة فى مدارسنا تحوى كثيراً من هذه السموم حيث تركز على المواقع التى تتعرض للخلافات والخصومات والحركات المضادة للإسلام ، مع أن هذه الصفحات كلها لا تصل إلى جزء من ألف جزء من معطيات الإسلام وإيجابياته وحضارته وثمراته الباذخة ، ولكنها محاولة لتصوير التاريخ الإسلامى بصورة سوداء قاتمة فى نفوس الشباب المسلم ، وكيف لا ؟ إذا كان الذين يدرسون له هذه المادة ماركسيون أودو ولاء فرنسى أو بريطانى أو يهودى أو كانوا هم فى ذاتهم غير مسلمين .

وفى دراسات الجغرافيا تجد أن ما كتب عن الولايات المتحدة متضاعف عن مجموع بلاد الوطن الإسلامى .

ويمتد هذا المخطط الهدام إلى مجالات الكيمياء والفيزياء والرياضيات فلا ذكر فى هذه الدراسات للدور الهام والخطير الذى قام به المسلمون منشئو المنهج العلمى التجريبى ، وإنما يبدأ البحث من المرحلة التى تولاها الغربيون وتبدو المسأله غاية فى الصعوبة والغرابة حين يكون معروفاً للعالم كله وباعتراف المنصفين من كتاب الغرب فى العصر الحديث (دوابر — هرنكة — جوستاف لوبون . . الخ) أن علم الفيزياء إنما أوجده المسلمون ، فالحسن بن الهيثم هو واضع علم البصريات وكثير من مكتشفاته لم يضف إليها العلم الحديث أى شىء .

وفى المناهج الأخرى عن الرياضيات والفلك والتقدم العلمى لا يذكر مطلقاً أية منجزات للحضارة الإسلامية مما سبقت فيه الغرب بقرون .

ولا يذكر مثلا أن (ابن النفيس) هو الذى اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل ولادة (وليم هارفى) الذى يقترن اسمه باكتشافها بثلاثة قرون .

ولا يعلم الطالب المسلم أن (الرازى) هو الذى أجرى أدق العمليات الجراحية للعيون بأدوات جراحية دقيقة تثير الدهشة والإعجاب .

ولا يوضح أن ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والنحل » قد أثبت كروية الأرض بدلائل من الكتاب والسنة قبل تسعة قرون .

ولا يدرس طلبة الجغرافيا إن قطر الأرض ومحيطها قد قيسا على عهد المأمون على أيدى محمد وأحمد ابنى موسى بن شاكر .

هذا جزء يسير مما حاول خصوم العرب والمسلمين طمسه ، بتزييف مناهج التعليم فى المدارس الوطنية ، مما لا يزال كثير منه قائماً إلى الآن فى الكتب ، وذلك فى محاولة لتفريغ عقول الناشئة من أمجاد أمتهم ، وحتى يؤمنوا بأن الغرب هو الذى صنع هذه العلوم .

ومن هنا يتكشف للباحث المتعمق أن : القول بدراسة الدين فى المدارس وحتى الجامعات هو إنجاز هام ، فإن حركة اليقظة الإسلامية تتطلع إلى أن يصبغ الاسلام كل ما تقدمه المناهج من المدرسه الابتدائية إلى أرقى درجات التعليم الجامعى ، وأنه لا يمكن فصل الاسلام عن دراسات :

(١) اللغة .
(٢) التاريخ والجغرافيا .
(٣) العلوم والتكنولوجيا .
(٤) علوم الاجتماع والنفس والأخلاق والاقتصاد والسياسة والتربية .

فضلا عن المناهج الوافدة لعزل دور المسلمين الايجابى والأساسى فى بناء هذه المناهج ، فإنها تصوغ الفكرة فى أغلب هذه الدراسات على عزل روح الاسلام ووفق مفهوم الفلسفة المادية التى تقوم على المحسوسات والطبيعة ، وليس فيها روح الايمان بالله خالق كل شيء والقائم على نواميس الكون وسننه ، والقادر على تحويلها كذلك ، فى علوم النفس والأخلاق والاجتماع والنقد الأدبى فإن نوع الانسان يدرس على أنه حيوان يضطرم بشهوتى البطن (الماركسية) والجنس (الفرويدية) وهما اللذان يتحكمان فى كل تصرفاته ، فردا وجماعة سلما وحربا وتقدما وهزيمة .

بينما نرى المفهوم الاسلامى يختلف عن ذلك إختلافاً كبيراً ، ويجعل للروحيات والمعنويات وللعقيدة الدينية والأخلاق آثاراً كبيرة فى تفسير الأحداث والوقائع وتحولات المجتمعات وهزيمة الأمم وسقوط الحضارات .

وفى مجال العلوم الاجتماعية : يجرى المنهج الذى تدرسه جامعاتنا ومدارسنا على مفهوم غربى خاطيء بالنسبة لعقيدتنا وقيمنا ، وأن كان مقبولا فى الغرب ، وهو أن المجتمع ظاهرة متطورة يصنع مبادئه بنفسه ، ولا يأخذها من الله تبارك وتعالى وعلى هذا الأساس تكون الأخلاق من صنع المجتمع غير مفروضة عليه ، ولا يكون لها مفهوم رحى ، ويكون عمل عالم الاجتماع أن يسجل الواقع المتطور للمجتمع ، وقد تقدم لهذا المجتمع قواعد للسلوك مستمدة ، من القواعد التى يمنحها العلم .

ووفق هذا الاتجاه فليس من المنطق العلمى أن يقال : أن الواقع صحيح أو خطأ أو صالح أو سيء .

كما يصبح (الدين) مجرد ظاهرة من ظواهر المجتمع ، تملأ فراغاً فى نفس نفس الفرد ، وهو قابل للتطور مع التطـــور الاجتماعى ومع متطلبات العقل البشرى .

هذا المفهوم المادى كله مضاد لمفهوم الإسلام فى علم الاجتماع ، الذى يقوم على

أساس المفهوم القرآنى للإنسان وعلاقته بالآخرين ، وعلى أساس النظر إلى السلوك نظرة واقعيه يفرق فيها بين الصحيح والخاطىء . وعلى أن يوجه المجتمع إلى الطريق الصحيح .

والمعروف أن الأخلاق فى الاسلام جزء من بنائه لها ثباتها وليست من صنع المجتمع ، ولذلك فهى لا تتطور وهى أمر من أمر الله وليست ظاهرة تتغير بتغير الزمان أو المكان .

وفى المفهوم الاسلامى لعلم الاجتماع لا يمكن فصل التطور الاجتماعى عن المسئولية الأخلاقية ، والفرد فى الاسلام لا يخضع لأوضاع المجتمع إذا إنحرفت ولكن عليه أن يغير هذا الواقع بالتماس مفهوم الاسلام الصحيح .

وفى دراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ : يجب أن تكون روح القرآن واضحة على أساس أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق والصانع وأن الكون فى قبضته تبارك وتعالى . وأن الحياة فى هذه المجتمعات يجب أن تقوم على أمره ، وأن يسعى الإنسان فى الكون لاقامة المجتمع الربانى ، وأن يلتزم بالمسئولية الفردية والجماعية والأخلاقية التى تقرر الجزاء الأخروى والبعث والحساب بعد الموت .

ولابد أن تقوم دراسات الحضارة والتاريخ على أن لله تبارك وتعالى سننا لاتتغير ، وأن لحياة الأمم وتقدمها وكبوتها قانوناً حاسماً . وأن كل أمة تغرق فى الترف والتحلل وتغفل عن المرابطة والقيام على حدود الله ، بالاعداد والتأهب للجهاد ومدافعة الأعداء ، لابد أن تعاقب بالسقوط والهزيمة .

ولابد أن تتجه العلوم الطبيعية لتكون أداة لإثبات قدرة الله وتوحيده وهو عكس ما تراه اليوم مطبقاً فى مناهج التعليم .

وليس إرتباط مناهج التعليم بعقيدة الأمة ونظرتها العامة بالأمر المستغرب ، أو أنه مطلب جديد ، بل هو ما تفعله كل أمة .

فاليابان البوذية والهند البرهمية وروسيا الشيوعية وإسرائيل الصهيونية ، وكل

أمة قد جعلت التعليم والثقافة مصطبغان بصبغتها الحضارية وفلسفتها العقائدية ، فلماذا بعد المسلمون وحدهم عن عقيدتهم ، ولماذا هم الخاضعون للمناهج الوافدة ماركسية أو غربية ، وهم يملكون أعظـــم المناهج وأرقاها وأصلحها لسعادة البشرية .

ففى روسيا : لم تأخذ بمبدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ إنسانى عالمى ، ولم تسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم من خارج المعسكر الشيوعى ، ولا بادخال العلوم أو الآداب التى نشأت فى حضانة الليبراليين أو الرأسماليين، خوفا من أن تضعف مفاهيمهم ونزعاتهم العقيدة الشيوعية أو تشكك فيها .

لقد أخضعت روسيا جميع العلوم والآداب النظرية فيها والتطبيقيه ، حتى علوم الطبيعة والجغرافيا والتاريخ لمبادئها الشيوعية ولنظريات قادتها ومؤسسى دعوتها (ماركس ، وانجلز ولينين) وربطت بين هذه العلوم وبين أسس أولئك القادة رباطا وثيقا مقدسا على حد عبارة الكاتب الذى نقلنا عنه هذا النص — فهى تغار عليه غيرة المؤمنين القدامى على عقائدهم وحرماتهم يقول « جورفين » العالم الطبيعى السوفيتى :

« أن العلم الروسى ليس قسما من أقسام العلوم العالمى ، أنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف فإن سمة العلم السوفيتى الأساسية أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة . . إن التحقيقات العلمية لا تزال فى حاجة إلى أساس وإن أساس علومنا الطبيعية : الفلسفة المادية التى قدمها ماركس وانجلز ولينين وستالين . إننا نريد أن نخوض وفى أيدينا هذه الفلسفة فى معرك العلم الطبيعى ونصارع جميع التصورات الأجنبية التى تناهض فلسفتنا المادية والماركسية بكل حزم وقوة » .

وبذلك استطاعت المناهج التربوية والتعليمية الروسية أن توفق بين العلوم

التى احتاجت إليها والمبادىء التى أمنت بها ، وجعلت منها وحدة متناسقة ولم تترك فجوة بين الحيـــاة التى تعيشها أو تسعى إليها وبين المبـادىء التى تؤمن بها ، وتدعو إليها فى حماسة فسلمت من الاضطراب الفكرى الذى يسود فى عالم تتوزعه القوى المتناقضة ويسوده النفاق والتناقض .

وكذلك إسرائيل بعد الاتحاد السوفيتى تقيم منهج التعليم من أصل دعم نظرية الصهيونية . وتقوم على أساس إحياء لغة ماتت منذ ألف سنة تقريبا فى كافة المواد . والعنايه بالدراسة الدينية — لاثبات الباطل فى العقل الباطن — ورغم اختلاف الأحزاب فهى تلتقى جميعها فى الفكرة الأساسية ، ويرى بعضهم أن التقاليد اليهودية هى النبراس الذى ينبغى أن تستهدى به نظم التعليم وتحتم بعضها على المعلمين أن يحرصوا على التقاليد اليهودية حتى صدقهم العالم رغم خرافة المنهج(١).

وبعد : أليس من الأهداف الهامة أن يكون التعليم فى جميع العلوم باللغة العربية . وهناك تجربة صادقة منذ سنوات طويلة فى إحدى الجامعات العربية (هى الجامعة السورية) .

فعلى الجامعات العربية أن تنطلق من هذا البدء لبناء الحضارة الإسلامية التى لابد أن تقدم العلوم والتكنولوجيا فيها من خلال اللغة العربية ، وهذا لايعنى عدم معرفة اللغات الأجنبية ، ولـكن إيمانا بأن اللغة العربية هى لغة الحضارة والثقافة كانت ولا زالت من أقوى لغات العالم فى قدرتها على النمو والاشتقاق والتعريب والتصريف ، وقد ثبت بالحجة الدامغة بها كلية طب دمشق منذ زمن بعيد نجاح التجربة ، وأوردت ما يفحم المعارضين ومايوضح أن لغتنا الحبيبة قادرة على الاطلاع بأعباء التعليم الطبى والعلوم الأخرى .

---

(١) لقد كان الهدف من هذا المنهج ، إيجاد رمز للولاء ، فكان الولاء القومى بدلا من الولاء الدينى ، هـــذا الولاء الدينى كان العدو الحقيقى والعقبـة الراسخة ، أمام ترسيخ الولاء القومى محله ، فقد عنصر الولاء العقيدى للدين الذى قصر العبودية لله ، ونهى عن عبادة وثن أو فرد أو شكل حاكم .

(٢) السلامة ظاهرية واضحة فى مظهريتها ، لأن يد القهر المادى تسيطر على كل خلجات الحركة الاجتماعية والاقتصادية ، حتى أصبح الأفراد مجرد آلات تتحرك فى نطاق غرائزها ، دون تحكيم لعقولها أو قلوبها . وعندما يفيق أى فرد أو أكثر من غيبوبة التسلط يرى التناقض أمامه واضحا ، وعندئذ يسميه النظام الماركسى منشقا ويسارع إلى عزله أو نفيه والأمثلة بين الأدباء والعلماء أكثر من أن تحصى « المجلة » .

* * *

الباب السادس عشر

قضايا عامة

١ — الترجمة .

٢ — الأخلاق .

٣ — النفس .

٤ — الآثار والعمارة .

٥ — الفن .

٦ — المسرح .

أولا : الترجمة

الترجمة من الآداب الأجنبية لها قوانين وأصول ، تحمى تراث الأمم التى تترجم الجديد بحيث لا يؤثر على قيمها الأساسية ومفاهيمها وتراثها فلابد أن تصنع الأمم خطه دقيقة محكمة للترجمة من آداب الأمم الأخرى خاصة الأمة الإسلامية التى لها مقومات أصيلة تختلف عن مقومات الأمم الغربية والتى تمر بمرحلة تجعلها أكثر حفاظا على ذاتيتها من أن تنهار أو تنصهر ، وهى تضع نصب عينيها دائماً أنها أمة صاحبة رسالة وأن عليها أن تحافظ على هذه الرسالة فى جوهرها الأصيل وأن تعمل على تبليغها للناس ، الذين هم الآن فى أشد الحاجة إليها ، فضلا عن أنها تمتلك أعظم منهج وأقوى أسلوب ، فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والدين بحيث أنها لا تحتاج إلى أساليب الأمم الأخرى الجزئية الانشطارية التى تقوم على الفكر البشرى القاصر ، الذى لا يستطيع أن يوازى ذلك العطاء الربانى الفياض الذى يحمله الفكر الإسلامى والذى لا تحتاج معه الأمة الإسلامية من الأمم الأخرى إلا إلى الأساليب الحديثة والوسائل المستحدثة والأطر التى تحرك فيها فكرها الأصيل.

ومن شروط الترجمة أن لا نترجم إلا ما يضيف جديداً فى مجال العلم والتكنولوجيا والمعطيات البشرية ، أما مايتصل بالنفس والأخلاق والاجتماع والمطمح الذاتى والأدب الانسانى والدراسات المتعلقة بالعقائد والشرائع والقيم والأخلاق فإن تلك لا نحتاج إليه إلا للتعرف على أوضاع الأمم الأخرى ، ولذلك فإن الأمانة تقتضى أن نقدمها على هذا النحو وأن نكشف جوهرها أمام القارىء المسلم ونكشف علاقتها بعصرها وبيئاتها ، ومفارقتها لعصرنا وديننا ، وأن نعرض مفاهيمها على القيم الإسلامية العليا الأصيلة .

ولا ريب أن حركة الترجمة فى العصر الحديث قد جاوزت هذه الضوابط فإن الاسراف فى ترجمة القصص المكشوف (بودلير وأوسكار وايلد

وتلبشه وأزهار الشر وعشيقة اللورد شترلى) قد ترك أثاراً بعيدة المدى على أخلاق الأمة . ماحاجتنا إلى ترجمة هذه الألوان الصارخة وهي لا تمثل مجتمعنا ولا ثقافتنا ولا قيمنا ولا أخلاقنا . إن غاية ما تمطينا هذه الترجمات أن تسمم عقول أبنائنا وتحطم قلوب فتياتنا وتقيم حجاباً بيننا ومن أيماننا الخالص بالله تبارك وتعالى وتحاول أن تلقى من نفوسنا تقبلا للاباحة والشر والدعارة .

٢ — إن الدعوة إلى الترجمة إلى اللغة العربية اليوم ترتكز على ترجمة العلوم والمواد العلمية لتكوين رصيد من شأنه أن يبنى قاعدة أساسية للعلم والتكنولوجيا فى إطار لغتنا العربية لتصاغ بمفهوم الإسلام فى الحضارة والعلم وهو مفهوم يختلف اختلافا واسعاً وعميقاً عن مفهوم العلم فى الغرب .

وقد جرى خلال العقود الأربعة الماضية ترجمة عدد كبير من المصطلحات الحديثة بالمجامع اللغوية فى مصر وسوريا والعراق ولكن الخطوة الأولى فى كسر قيد الدراسات الأجنبية فى الجامعات ما زالت لم تتحقق بعد ، بالرغم من التجربة الرائدة التى تحققت فى جامعة دمشق بتدريس الطب باللغة العربية منذ خمسين عاماً .

أما ترجمة الأدب بمعناه الفنى (القصص والمسرحيات والشعر) :

فذلك أمر نحن فى غنى عنه ويكفى ما ترجم التغريبيون والاستشراقيون والشيوعيون وأفسدوا به مفاهيم الأدب العربى الأصيلة . وهذه هى خطة النفوذ الأجنبي الحريص على حجب العلوم الحديثة عن الأمة الاسلامية ، والحيلولة دون ولوج المسلمين ميدان العلم الحديث والتقنية لأنهم لا يريدون لهذه الأمة أن تمتلك إرادتها .

٢ ـ الأخلاق

رفض الغرب الأخلاق واعتبرها من التقاليد المتغيرة وليست من الأصول الثابتة وقد غاب عن العلم أن القيم والأخلاق وجهان متلازمان بالضرورة للبناء الحضارى لأن العلم بلا أخلاق تحويل لقدرة الإنسان نحو الشر والباطل والأخلاق بلا علم تحويل لقدرة الإنسان إلى سراب حضارى قائم على الفقر والعجز وقد أخذ الغربيون علوم المسلمين وتركوا أخلاق الإسلام ومناهج الوجودية والفرويدية إلا محاولة لهدم الأخلاق .

مفهوم الفلسفة الأخلاقية الغربى المطروح الآن فى أفق الفكر الإسلامى مفهوم مادى مستمد من الفلسفة اليونانية الوثنية ولا يعبر عن أخلاق القرآن .

واقد جرى وراء هذا المفهوم كثير مين الباحثين المسلمين فى مرحلة الترجمة شأنهم فى ذلك شأن العلوم الأخرى ، ومن هؤلاء الذين أقاموا مذاهبهم فى الأخلاق على أساس من الفلسفة اليونانية : الكندى والفارابى وإخوان الصفا وابن مسكويه وابن سينا وابن باجه وابن طفيل وابن عربى ، وأبرز أخطائهم القول بأخلاق السعادة أو نظرية الوسط ويقول محمد إقبال: أن هذا الأساس الأجنبى هو الذى حجب أنظار المسلمين عن فهم القرآن ، ولذلك لم يبرز مفهوم القرآن للأخلاق فى هذه الدراسات ، ولما جاء الصوفية وعرضوا الأخلاق كان مفهومهم أيضاً غير كامل ؟(المحاسبي والتسترى) وأن أفلت من التأثر بالفلسفة اليونانية غير أن روح الأخلاق الإسلامية لم تبرز فى منهجهم ، ويبدو أن تأثيرات رهبانية تسربت إلى مفاهيم الزهد والأخلاق وانضمت عندهما وكانت لها آثار ضارة تمثلت فى تشددهما البعيد الذى يتنافى مع يسر الإسلام واعتباره لطاقات الإنسان المحدودة ، ويقول الأستاذ أحمد عبد الرحيم إبراهيم : —

أن أبرز مؤلفات الغزالى فى علم الأخلاق كتاب (ميزان العمل) وأن أخطر مناقص الغزالى اعتماده على نظرية النفس لدى أفلاطون وتقسيماته

لقواها ، وللفضائل تبعاً لذلك ثم قبوله المطلق لنظرية ، الوسط الأرسطية فكلام الغزالى حسب تعبير ابن تيمية برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة ومما يؤخذ على الغزالى التوفيق بين أفلاطون ونظرية النفس والفضائل وبين فضائل القرآن ، كذلك فقد خضع لنظرية أرسطو بالوسط الأرسطى القائلة بأن الفضيلة وسط بين رذيلتين وحاول أن يثبت ذلك بتأويل آيات القرآن وعلى الرغم من إدراك الغزالى للتعدد الواسع للفضائل الإسلامية وتجاوز عددها للتقسيم الرباعى الأفلاطونى الضيق فإنه تمسك بذلك التقسيم بشدة بل أن هناك من المستشرقين من يقول أن الغزالى تأثر بالنصرانية وبالآداب السلبية التى نادى بها الانجيل . ويقول محمد يوسف موسى أن الإمام الغزالى حاول أن يطبع ما أخذه من اليونان والمسيحية بطابع إسلامى صوفى ،وأن تلك المحاولة كان أقرب إلى روح الإسلام من إتجاه الفلاسفة العرب . وبالجملة فإن الفلسفة الأخلاقية اليونانية قد نقلت جاهزة إلى المحيط الثقافى الإسلامى العربى قبل تبلور علم أخلاق إسلامى أصيل فجمدت أنظار المفكرين المسلمين وخاصة الفلاسفة إلى المضامين الأخلاقية للقرآن والسنة .

ولعل الدكتور محمد عبد الله دارز هو أول من أفصح عن مفهوم الإسلام الأخلاقى فقد طاف بالنظريات الغربية : الفلسفة والصوفية منذ اليونان واليهودية والمسيحية مقارنا بنظرية الأخلاق فى القرآن وكانت جولاته من أكبر أسباب اقتناعه بأن نظريه الأخلاق فى القرآن تفوق كل نظريه أخلاقية عند غيره ومن كل هذه البحوث مجتمعة وذلك فى قواعد أربع :

١ — « الإلزام = الأخلاقى » هو أصل كل مذهب أو نظرية فى الأخلاق فلا مسئولية بلا إلزام ، وإذا عدمت المسئولية فلا يمكن أن تسود العدالة وحينئذ تتفشى الفوضى ويفسد النظام وتعم الهمجية لا فى مجال الواقع فحسب بل فى مجال القانون أيضا .

٢ — « المسئولية » وتولدها من الإلزام فلا معنى لالزام إلا أن الإنسان مكلف بأن يقوم بأشياء وأن يقدم حسابا عنها وهذا فى حدود فكرة

المسئولية الإنسانية ، لا يسأل الإنسان عن عمل غيره ولا عما لا يعلم أنه مكلف به ، ولا عن أعماله غير الارادية ولا عما أكره عليه .

٣ — الجزاء : الرابطة بين الالزام والمسئولية والجزاء ثلاث ميادين: أخلاقى وقانونى وآلهى .

٤ — النية والدوافع : الإنسان مكلف وهو كائن ناقص ولكنه فى الوقت نفسه قابل للكمال فلا بد من العمل وهو مسئول عن عمله ،ووجودنا صراع دائم ضد كل الشرور ، ولكن إلى جانب الجهد الطبيعى الذى تفرضه الغريزة جهداً آخر يقتضيه العقل من أجل مثل أعلى .

وهكذا يقيم الإسلام منهجه الاجتماعى على « الالتزام الأخلاقى » ويمنح البشر الحرية فى أن يختاروا بين السهر قدما فى طريق الأخلاق أو التراجع والنكوص ومهمة الأخلاق تضمن تأديب النفس وتعويدها النظام والطاعة كما تضمن السيطرة على الشهوات وتنظيم الارادة فى السعى وراء مثل أعلى وهذا يتطلب جهوداً متجددة يقوم بها الأفراد والجماعات داخل دائرة الأخلاق وأبرز ما يقرره الاسلام أن الأخلاق ثابتة وليست نسبية على نحو ما يقول الفكر المادى الغربى ومعنى ثبات الأخلاق أن الصدق والشجاعة والشهامة والعفه هى فضائل دائمة خالدة لا يمكن أن يأتى اليوم الذى توصف فيه بأنها رذائل .

وقد اعتمد الدكتور محمد عبد الله دراز فى منهج الأخلاق الإسلامية على القرآن وحده ، إذ ليست أخلاق الإسلام إلا أخلاق القرآن ولم يكن خلق النبى إلا القرآن ، أما ما عدا ذلك من عنعنات الجماعات الاسلامية وآراء الباحثين المسلمين فإنها تقاس بالقرآن وقد رد الدكتور دراز على أخطاء الأخلاقين الذين نسبوا إلى الاسلام ماليس منه ، وعندنا أنه هو أول من حرر مفهوم الأخلاق فى الاسلام (ومع التحفظ على كتابات الامام الغزالى وابن مسكويه فى هذا الشأن) .

وقد أشار الدكتور دراز إلى أن كتابات الفلاسفة المسلمين قامت على تقسيم الفصيلة غالباً على وفق النموذج الأفلاطونى أو الأرسطى مثل تهذيب الأخلاق لإبن مسكويه أو من جمع بين المنهجين مثل كتاب الذريعة للأصفهانى أو أحياء علوم الدين للغزالى .

وترتبط الأخلاق فى الاسلام بالعقيدة ارتباط الجزء بالكل ، فالأخلاق ثابتة بثبات العقيدة وغير قابلة للتغير تبعاً لنزوات شخص أو إنحراف مجتمع أو مرور زمن ، مصدرها مصدر الدين ومنبعها منبعه وهو الله سبحانه وتعالى ولابد لاستقرار المجتمع أن تكون الأخلاق ثابتة وأن يكون الفرد محمولا على التزامها من نفسه ومن قلبه والمحاولات لفصل الأخلاق عن الدين قديمه ، منذ حاول اليونان فصل الأخلاق عن الدين وربطها بالإنسان أو ربطها بالعصور والبيئات ومن هنا يجى خطأ القول بأن الانسان سيد الأخلاق والمتحكم فيها والمكيف لها لتتلائم مع ملذاته وشهواته وهذا هو إتباع ماتهوى الأنفس أن يحل الإنسان لنفسه أتيان كل مايحقق له اللذة : منحرفة أو مسرفة ، إيجابيـــة أو سلبية ، لقد ربط الاسلام الأخلاق بالانسان الفردى لا بالانسانيه ويمتاز الانسان بخاصية أسمها الانسانية تمتاز بالضبط والاراده وحرية الاختيار بين الدوافع وعدم الخضوع المطلق لدفعة الغريزة فالحيوان فى الواقع لا يملك معايير ثابتة ولامقياساً للأخلاق . هذه العملية « الضبط » هى الإنسانية .

٢ — وبالجملة فإن القرآن صحيح الحكمة القديم وأكمل ما فيها من نقص ونزع من الشرائع السابقة مافيها من تطرف فى ظاهر الامر ، إفراطاً أو تفريطاً وخلق التعادل فى ميزانها ودفعها جميعاً فى جانب واحد .

٣ ـ النفس

إن محاولة بناء علم نفس إسلامي هي إحدى المنجزات التي عملت حركة اليقظة الإسلامية على القيام بها وقد شارك فيها كثير من الباحثين وفي مقدمتهم محمدقطب الذي كان أول من ألف كتابا في نقد فرويد ومفاهيمه فيما نعلم ثم توالت الأبحاث وفي السنوات الأخيرة ويولى الدكتور حسن الشرقاوي جهداً وافراً في هذا المجال:

يقول: إن دراسة النفس تكليف قرآني ، إذا كان القرآن دعوة صريحة لتأمل الكون فإنه بنفس القدر دعوة مباشرة لتأمل النفس .

(أو لم يتفكروا في أنفسهم) .

(سنريهم أياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) .

(وفي أنفسكم أفلا تبصرون) .

وهذا تكليف مباشر في القرآن والهدف من دراسة النفس : التعرف على آيات الله في خلق الإنسان ، كما أن هدف دراسة العلوم الطبيعة التعرف على أيات الله في خلق الكون وأيات الله وهي علامات قدرته في خلقه وبهذا يصبح العلم كله مستسلما لله تبارك وتعالى . وقد عبر الحق تبارك وتعالى عن علامات قدرته في خلق الكون والإنسان بأنها آيات « آيات الله متلوة في القرآن ومجلوة في مخلوقاته) هذا الرباط الوثيق بين آيات الله في القرآن وأياته في الكون . أما هدف العلم عامة ومنه علم النفس أن يكون وجها من وجوه اعجاز القرآن ، بالإضافة إلى أيات القرآن في مجال الفلك والفيزياء والإحصاء وإذا كان القرآن بإعجازه اللغوي يتحدى العرب فإنه يتحدى العالم بالعلم ، وحين يصبح العلم سبيل الإنسان للتعرف على آيات الله في مخلوقاته فإنه من خلال العلم ذاته تكتشف حدوده التي لايتعداها مهما أحرز من تقدم وهذه الحدود تتمثل في تحديين : تحدى الخلق وتحدى الغيب ـ سأعطيتم العلم وأريكم أياتي في الآفاق ولكنكم لن تخلقوا ذبابا ولو إجتمع كل علماء الأرض في كل العصور ، وتحدى الغيب : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام .

ويرى الدكتور حسن الشرقاوى إن محاولة بناء علم نفس إسلامى فى إطار المصطلحات والرموز الصوفية وحدها لا يكفى ، ذلك أن التصوف فى جوهره نزعة روحية تسعى للوصول إلى الله ، وفى سبيل ذلك اهتم المتصوفة المسلمون بتحليل النفس البشرية تحليلا عميقاً ، وشرحوا آداب المريد فى علاقته بالشيخ وما يجب أن يتحلى به من الخصال السامية ، كالصدق والإخلاص والقناعة والزهد ، ورسموا لهذا المريد وسائل النجاه (مثل التوبة والندم والتقوى والورع والصمت والتأمل والخلوة والاعتكاف) .

والواقع أن الاتجاه الصوفى فى الإسلام كنزعة روحيه متطرفه قد لا تتفق خاصية التوازن فيه والتى تشمل جميع جوانبه سواء فى الاعتقاد والتصور أو التعبد والتنسك أو الأخلاق والآداب والتشريع والنظام . توازن الاسلام بين الروحية والمادية وبين مطالب الدنيا والآخرة وقد كتب فى ذلك الكندى والفارابى وابن سينا وابن باجه وابن طفيل وابن رشد ، وكان ابن سينا أكثر هؤلاء اهتماما بالمسائل التى تعد نفسية بالمعنى الحديث ، ولذلك نجد أحد رواد الجيل الثانى فى علم النفس فى مصر وهو الدكتور محمد عثمان نجاتى يهتم بمسألة الادراك الحسى عند ابن سينا من منظور سيكولوجى معاصر ، كما يهتم الاهوانى ببعض المسائل النفسية عند ابن سينا خاصة فكرة الشعور وموضوع الصلة بين النفس والبدن والمسأله الأخيرة اهتم بها الفارابى قبل ابن سينا ، وهناك رسالة حى بن يقظان وقد اهتم بها الدكتور عبد الحميد الهاشمى .

والمدينة الفاطلة للفارابى (وعندنا أن هذا التراث كله فى تقدير ميزان الاسلام خليط بين الفكر اليونانى والفكر الاسلامى فهو ليس متحرراً بما فيه الكفاية) وهناك إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم فى إطار علم النفس المرضى والأكلينكى . والمقايسات فى ضوء علم النفس التجريبى، هذا التراث الفلسفى — من هؤلاء الفلاسفة قد تأثر بأرسطو وغيره من فلاسفة اليونان لذلك قد نجد فيما يكتبون أثراً لما يمكن أن يسمى علم نفس يونانى يتصل بنظرة فلاسفة اليونان هؤلاء إلى الإنسان والكون والتى لاتمت بصلة إلى التصور الاسلامى .

وقد يصدق ما قلنا هنا على الاتجاه الصوفى أيضاً خاصة إذا علمنا أنه توجد مؤثرات خارجية عديدة أثرت فى التصوف الاسلامى مثـــل الرهبانية المسيحية والرهبانية الهندية والمانوية الفارسية (وكلها تختلف عن خصائص التصور الاسلامى للكون والانسان) ومن ذلك ما كتبه محمد خلف الله أحمد فى محاولته السيكولوجية لكتاب الأذكياء لابن الجوزى . وهناك دراسة جديدة لكتاب تعليم المتعلم طريقة التعلم لبرهان الدين الزرنوجى وقد استفاد منها فى مفاهيم سيكولوجية التعليم الحديثة .

والأزمة الحديثة التى يواجهها علم النفس الحديث فى ضوء التشخيص الاسلامى هى أزمة المعرفة كلها فى حضارة الغرب والتى يمكن أن نلخصها فى عدم التوازن المعرفى فالتقدم والانجاز يعوزه الترشيد حتى صار الخلل سمة العصر سواء من الوجهة الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية وأكبر الخطر فى الفكر المعاصر : صراع العلم والدين وتقدم التكنولوجيا وتخلف الايدلوجيا .

وفى الاسلام كلمة العبادة التى من أجلها خلق الانسان فى هذه الحياة هى السير فى الطريق الذى يؤدى إلى تحقيق خلافة عن الله فى الأرض ، ومن لوازم هذا بعد الايمان بالله الضرب فى الأرض والتعاون مع الغير وإداء الواجب والمحافظه على حقوق الآخرين ومن مهمة العلم الذى هو عبادة ـــ الكشف عن سنن الله ، ويؤدى بالباحث إلى التعرف على آيات الله فى الكون والانسان . فسبيل العلم الكشف عن سنن الله فى مخلوقاته ، وسنة الله هى ما جرى به نظامه فى خلقه ، وسمى العلوم من أجل ذلك علم الكشف عن سنن الله فى الكون وفى علم النفس يكون هدفنا الكشف عن سنن الله فى سلوك الانسان .

٤ — الإثار والعمارة

ما يزال ميدان الآثار والعمارة الاسلامية مجال بحث واسع من حيث أن علم الآثار قد اتخذه النفوذ الأجنبي وسيلة لاحياء النزعات القديمة التي كانت سائدة قبل الاسلام وإن كثيراً من الأبحاث التي جرت إعتمدت على التوراة المكتوبة بأقلام الأحبار والتي تهدف إلى غايات واضحة والتي لم تقدم التاريخ الصحيح للبشرية ، بينما جاء الاسلام مصححاً لهذه التعديلات ثم جاءت الحفريات مؤيدة القرآن وفي مقدمة ذلك ما جرى أخيراً من ثبوت القرآن في أمور تاريخيه كثيرة منها مسألة غرق فرعون وغيره من الأخبار .

ولقد كشف كهف قمران فيما أطلع عليه مخطوطات البحر الميت حقائق كثيرة تؤكد ما جاء في القرآن عن نبي الله عيسى ورسالته وتناقض ما جاء في كثير من الكتب القديمة في هذا الشأن .

ولقد إدعى بعض الباحثين أن حادث الطوفان ليس سوى أسطورة خرافية غير أن اللوحات الفخارية التي أكتشف في جنوب العراق أكدت حادث الطوفان فإن السير ليونارد وولي وبعثتـــه الأثرية عام ١٩٢٩ أكتشفت ببراهن قاطعة لا يقبل الجدل أن طوفانا حدث في جنوبي العراق حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ولم يكن الطوفان عاماً كما تخيله كتاب التوارة ولم يقض على البشر كلهم بل أصاب منطقة معينة هي بلاد قوم نوح الذين أرسل الطوفان عقاباً لهم وليكونوا آية للناس (سورة الأعراف) وقد أشار القرآن إلى أن قوم عاد جاءوا بعد قوم نوح وأن بلدهم كانت في نفس موقع بلده (وإذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح (الأعراف) .

وأشارت البعثات الأثرية في العشرينات من القرن إلى أن مدينة (أور) وكانت تحريفاً للإسم الحقيقي (إرم) عاشت زمنين فصل بينهما الطوفان وكانت في أيامها الأخيرة مزدهرة إزدهاراً لم يشهد له مثيل في عصرنا إذا أصبحت عاصمة دولة السومريين القوية البأس التي سيطرت على معظم بلاد ما بين النهرين ، واكتشفت في بقايا المدينة وثائق وكتابات متعـــددة منقوشة بالسورية على ألواح فخارية (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد) وفي سورة أخرى يوضح الحق جلاله ماذا فعل بها (فأما عاد فاستكبروا في الأرض

بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة) فصلت — (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم(والذاريات) إنا إرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر (القمر) وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية (الحاقة) وقد ظلت اللوحات الشعرية مدفونة فى آثار المدينة خمسة آلاف عام أو يزيد ولم تظهر إلا فى بداية هذا القرن ومما أظهرته البعثات والنصوص المكتشفة من عظمه مدينة (إرم) وطغيان أهلها فى الأرض لا يترك مجالا للشك إنها هى المقصودة بآيات الله البينات . إن أهل نوح عاشوا فى تلك البقعة إلى أن أهلكهم الطوفان وبعد زوال آثار الطوفان قامت فى الموقع نفسه سطوة أهل عاد إلى أن إستحقت غضب الله فأهلكها .

وهكذا أيدت الكشوف الأثرية ماجاء بالقرآن ، يقول الأستاذ لوى عجان: كان علماء أوربا الذين دونوا تاريخ الشرق القديم قبل إنتشار البعثات الأثرية وتحليل نتائجها العلمية كانوا غالباً يستندون إلى نصوص التوراة ، بالرغم مما فى هذه النصوص من تناقضات واضحة وقد بانت هذه التناقضات بعد ظهور المكتشفات الأثرية فى مناطق كثيرة من البلاد السورية وما بين النهرين . وقد إتضح أن هناك هوة واسعة بين الحقيقة التاريخية وبين ما تخيله الذين عملوا فى نقل التوراة وتحوير نصوصها لغايات سياسية ، وكان القصد الرئيسى منها الحط من مكانة الشعوب المعادية لبنى اسرائيل وتزوير الأحداث لصالح الشعب الاسرائيلى وهم لم يأنفوا من السطو بشكل واسع على نصوص عديدة من أساطير العراق القديم ورأس شمر وغيرها ثم ضمها إلى كتابهم المقدس على أنها من صلب تاريخهم .

وهذا بالنسبة للآثار أما بالنسبة للعمارة الاسلامية فقد حاول النفوذ الأجنبي فرض نموذجه الأجنبي على المبانى فى العالم الإسلامى كمحاولة لتغريب المجتمع الاسلامى وقد تصدى لذلك كثير من دعاة الاصالة فى مقدمتهم المهندس حسين فتحى الذي يقول : إن هناك خلط بين العمارة العربية والعمارة الاسلامية وإن الاسلام نبع فى البلاد العربية وهى ذات مناخ خاص حار جاف ، إنتجت عمارة خاصة بها كما نراها فى عمارات نجد ، هذه العمارات تختلف عن العمارة الاسلامية التى نبعت فى إيران وسوريا ومصر وبلاد المغرب ، قبل عهد التصنيع وقبل الاغتراب والتفرنج ، إن عمارة كل من هـــذه البلاد كان لها طابعها الخاص ولكنها تشترك فى الروح الاسلامية المتميزة عن العمارة الأخرى اليهودية او المسيحية والصفة الاسلاميه تعود

إلى عدة عوامل سيكولوجية وطبيعية واجتماعياً ، إذ أن معظم البلاد الإسلامية تقع بين خطى ١٠ / ٣٥ شمالا وهم متشابهة فى الجو والبيئة مما نتج عنه أن أصبحت تفاعلات الرجل المسلم متشابهة أيضاً فيما يتعلق بالعقيدة وفيما يتعلق بالتأثر بالبيئة ومع وجود الاختلافات بالطبع فى بعض النواحى غير الأساسية ، لهذا تحمل العمارة الإسلامية وحدة ملامح الإسلام مع التنوع كما يحمل الرجل الهندى ملامح العنصر والجنس الهندى بصفة عامة .

وقد أشار أحد الباحثين فى ندوة المدينة العربية الذى عقد بالمدينة المنورة (مارس ١٩٨١) إلى أن أهم عقبه تواجه مدننا الآن هى تخلفها عن طابعها العريق الذى يعتبر أساساً لبيئتنا وتقاليدنا الإسلامية ، من حيث الحفاظ على الخصائص الأصيلة للمدينة العربية ، والحفاظ على الخصائص العمرانية الأصيلة لمدننا الذاخرة بالمعالم الحضارية والنفائس .

وأشار الباحث إلى كيف توقف اليوم التطور فى فن العمارة والتخطيط العمرانى الاسلامى اليوم أمام استيراد الأنظمة العمرانية الغربية عن بيئتنا ومتطالبتنا الحياتية ، والمطلوب هو خلق جو مناسب لتقوية القيم والثقافة الإسلامية فى المجتمع ، والأخذ بمنهج شامل لحماية الشخصية الاسلامية من الضياع ، من أهم مقومات شخصيتنا الاسلامية : الاهتمام بالحضارة الاسلامية الرائعة فى فن المعمار وتخطيط المدن .

وأشار كيف استعدى الاستعمار على المدن العربية وفرض أنظمة غربية عليها فى شئون السياسة والاقتصاد وفى حياة المجتمع ، كما شجع على الاحباط من الاسهام الحضارى للمدينة العربية مما أدى فى فترة ما بين الحربين إلى انتقال كثير من العائلات إلى أطراف المدن حيث الفيلات والمبانى ذات الشكل الأوربى والطرز المعمارية التى لا تنبع من واقع البيئة العربية الأصيلة .

ولما كان من الضرورى تحديد خصائص المدنية العربية (أى الاسلامية) والحفاظ على تراثها الحضارى ، والعودة إلى التراث واستخدام الطابع المعمارى الإسلامى فى مدننا العربية وتعديل الفكرة السائدة عن الطابع المعمارى الإسلامية

فى أنه عبارة عن أشكال هندسية ونماذج زخرفية فقط بينما هو فى الواقع تراث ضخم وتقاج لعصور متوالية وقيم إسلامية أصيلة ، يكون انعكاساً واضحاً للمناخ والموارد التى تنتجها بيئتنا . ويكون فى نفس الوقت نابعاً من عقيدتنا السمحاء وعادتنا وتقاليدنا العربية الأصيلة ، ولذلك فإنه يجب على المخططين والمهندسين فى البلاد الاسلامية والعربية مراعاة قيمنا الاسلامية وتراثنا الحضارى عن تصميم المدن والمساكن من مثل « منع كشف الجار » وبناء الحارات المتجمعة التى تضم كل منها مجموعة متقاربة من البيوت التى تنفتح على فناء داخلى وتربطها فيما بينها شوارع ضيقة مما تؤدى إلى ترابط إسر الحى والجماعة فى المناخ فضلا عن أن هذا النسق يمكنهم من الاستفادة بالشمس طوال اليوم ويمكن الأطفال من اللعب بسهولة دون التعرض لأخطار السيارات .

٥ — الفن

يختلف الفن فى المفهوم الاسلامى اختلاف العصور الإسلامى عن التصور الغربى للحياة حيث يبدأ التصور الإسلامى من الله تبارك وتعالى إلى الوجود فى كل صورة وكائناته ، تصور فيه حب الله تبارك وتعالى صاحب الفضل على الخلق والرزق : هذا الحب القائم على مخافة الله تبارك وتعالى وتقواه ومراقبته . بينما يقوم التصور الغربى على الموروث الأغريقى الذى يصور الآلهة فى صراع من البشر أو صراع فيما بينها والانسان فى صراع مع الكون جماده ونباته وحيوانه بينما تقوم صلة المسلم بالكائنات على المودة والقربى والتعاطف والتعاون وفق سنن الله تبارك وتعالى فالإنسان فى مفهوم الاسلام قبضة من الطين ونفحة من روح الله فلا هو بالحيوان الصرف كما ترى الداروينية ولا يمكن أن يكون ملاكا كما تسعى إلى ذلك الهندوكية والبوذية بالرهبانية وتقرير الاسلام أهمية التوازن فى كيان الإنسان ، مع الاعتراف بتكوين الانسان المزدوج يسعى الاسلام لترقيته بالتهذيب وطلب العمل المستطاع وقبول التوبة الصادقة فيه .

والإنسان - كما يقول الأستاذ قطب — قد يهبط حينا ويرتفع حينا ولكنه ليس هابطا دائما وليس كل الناس من الهابطين فى كل زمان ومكان كما تزعم الواقعية الغربية فهناك أبطال وأنبياء وعلماء ومصلحون وشهداء إلى جانب الآخرين .

(ومن هنا يتبين خطأ (الواقعية الغربية) القائمة على مفهوم دارون الحيوانى ومفهوم ماركس المادى) ومن هنا يبدو خطأ التسليم بما هو كائن ، فإن فطرة الإنسان سليمة ويمكن أن تنطلق إلى الخير ، أما الواقعية فهى تلح على الجانب المظلم ولا تصور الواقع بجانبيه .

فليس الجنس هو كل شىء فى الحياة وليس الحب هو الجنس وحده ، وليس القدر هو الثوب الفاجع وحده ، ولكنه أيضاً العطاء وإكرام الإنسان ، وقد عالجته الفنون البشرية منذ القدم فى ثوبه الفاجع العنيف ولا سيما الادب اليونانى .

والجمال عنصر من عناصر الكون التى تدفع إلى الإيمان بعظمة الله تبارك وتعالى وليس الجمال الجسدى وحده .

والفن الإسلامى يعنى بحقيقة الشمول والتكامل فى النفس البشرية فلا يجب أن نعرض الجانب المادى من الإنسان وحــده ، بمعزل عن الجانب الروحى ولا يجب أن نعرض الصراعات الاقتصادية والطبيعية كأنها الحقيقة الكاملة للحياة البشرية وتغفل بجانبها القيم المعنوية والروحية والأشواق الإنسانية العليا لأن ذلك بتر للحقيقة البشرية وتشويه لصورتها .

وقد فهم الفن الإسلامى على حقيقة كثير من الباحثين الغربيين ومن هؤلاء بوركارت فى كتابه الفن الإسلامى حيث يرى أن وحدة الفن الإسلامى هى السمة العجيبة التى تميزه عن بقية الفنون العالمية وهى نابعة من روح الدين الإسلامى : دين الوحدانية والتوحيد الآلهى وقد كان تحطيم الأصنام عند فتح مكة هو أمثولة الوحدانية ، أى الوعى بأن لا إله إلا الله ، وهكذا أصبح تحريم الصور دعامة من دعائم الاسلام .

ويقول بوركات ، أن التجريد ، هو سمـــه أساسية فى الفن الإسلامى ، والتجريد الإسلامى يختلف عن التجريد فى الفن الأوربى الحديث الذى أراد تجريد الإنسان من قوالب الحياة الالية الجامدة ، فانطلق إلى آفاق اللامعقول . فالتجريد فى الفن الإسلامى يختلف عن إسفاف اللامعقول من حيث أنه رؤية روحية للأشياء .

(٢)

وقد كتب عن الفن الإسلامى كثيرون ولكن من خير ما كتب هذا البحث المركز :

١ — يعبر الفن الإسلامى عن التناسق الرائع للأشياء والقيم الخارجية ، وحين يمجد بطولة الإنسان وإيجابيته إزاء الأحداث وقدرته على تشكيل مصيره (وهذا هو خير مافى الرومانتيكية الحديثة) .

٢ — يعبر عن أعماق الإنسان الايمانى وتجاربه الشعورية الضخمة التى تنبثق من الإيمان بالله والحب العظيم الذى يتفجر عن هذا الإيمان لكل الناس وكل الأشياء (وهذا خير مايوجد فى مذهب الرومانسية) .

٣ — أنه واقعى حين يعلن ثورته الجذرية على كل القيم المنحرفة عن الصراط المستقيم وعلى كل الطواغيت التى لاتقرها وحدانية الله ويأباها التحرر الوجدانى للإنسان المسلم وهو واقعى حين يصرخ فى وجوه القوى المتسلطة التى تعذب الانسان بالظلم الاجتماعى وبالتناقض الطبيعى .

٥ — لا حرية أخلاقية مطلقة من كل قيد (سارتر) ولا تناقضات نفسية لا نهاية لها تنتهى دائما بالضياع ولا تمجد لحظات الضعف البشرى ويقوم على إطفاء الغرائز لا إيقادها ، والاستغفار عن الخطأ والعزم على عدم العودة والمحبة الواسعة لكل خلق الله .

٦ — الاطار الفنى يجب ألا يكون مخالفاً للفطرة ولا لما حرم الله .

٧ — الإيمان بخالق الكون وواهب الحياة وإسلام النفس له وتقبل قدره وعدم الخضوع أو الذل للبشر ورد كل شيء إليه .

٨ — السعي في الأرض والإيمان بأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن لا تذر وازرة وزر أخرى .

٩ — الالتزام الأخلاقي وتقديم الأخلاقي على الجمالي .

١٠ — التكامل بين مظاهر الحياة لا التناقض ، والحوار لا الصراع ، بين الأجيال .

١١ — مفهوم التقدم الجامع بين المعنوي والمادي وعدم تصحية المعنوي من أجل المادي .

١٢ — الإلتزام الأخلاقي والمسئولية الفردية والجزاء الأخروي .

١٣ — التعبير عن الله تبارك وتعالى بالعظيم الخالق ، الذي يبهر بالزهرة الجميلة المونقة في ألوانها ورسمها وعطرها ، وعن جمال السماء والسحب والأصباح والأمساء والمطر من خلال النظرة الشاملة للكون والحياة والإنسان .

أخطاء الفن الغربي

فإذا ما راجعنا مفاهم الفن الغربي وجدنا هناك مجموعة من الأخطاء أهمها : —

١ — العجز عن الارتباط بين السماء والأرض وإنكار إرادة الله فهي تعرض الانسان في صورة مشوهة مبتورة إذ تعرضه من جانبه الأرضي وحده ومن جانب الضرورات القاهرة ، والواقع المادي الغريب المحسوس ولا تعرضه من جانبه الروحي والعلوي .

وهذه واقعية زائفة لأنها تنكر الأقدار والفطرة: هذا الواقع بكل مايشتمل عليه من سنن حتمية هو جزء من إرادة الله الحرة الطليقة التى تملك تغيير هذا الواقع. ذلك أن الواقع فى بيئة خاصة لا يعتبر الواقع الأبدى، وإنما هو مرحلة من مراحل البشرية فى طريقها الصاعد وهناك مرحلة صاعدة ومرحلة منتكسة ولكن الطريق صاعد أبداً والإسلام حداء إلى الصعود. والفن الإسلامى أحد الموحيات القوية للنهوض والحركة والصمود — والخطأ فى الفن الغربى هو أن تجعل لحظة الضعف تشغل مساحة اللوحة الفنية كلها وتحجب بقية اللحظات فذلك مجافاة للواقع فإن الإسلام يعطف على لحظة الضعف البشرى ولكنه لا يجعل منها بطولة تستحق الإشادة والإعجاب. الإسلام قائم على التكامل فى كل المناهج.

(محمد قطب)

٦- المسرح

هناك حقائق إسلامية أساسية فى مواجهة مؤسسة المسرح:

أولا: أن يكون الفن فى خدمة الإسلام وفى خدمة قيم هذا المجتمع.

ثانياً: الالتزام الخلقى للفن. وهو التزام لا يقيده بل يضمن سموه وخلوده واستمراره ويقصد بأخلاقية الفن أن تنزع إلى ترقية الأذواق وتهذيب السلوك وتوسيع الأفق.

ثالثاً: إن الإسلام لا يقر مفهوم الدراما ولا المأساة.

والمقصود بالدراما إن الإنسان يعبر عن إنفعال أو مأساة أو ما شابه ذلك لأن المسلم يؤمن بالإرادة الالهية ويقر بأمر الله ويقرر دكتور مناف منصور: أن إنعدام المأساة الاغريقية فى آدابنا العربية يرجع إلى واقع المواقف العربية (أى الإسلامية) من الموت. إن المسلم لا يعتبر الموت نهاية نهائية للحياة فقد كان الموت فى مفهوم العربى والمسلم طريقاً إلى حياة ثانية وإلى نشور وإلى بعث آخرين، ولم يكن منفذاً إلى طريق مسدود. وهكذا كان الموت مثل الولادة مرحلة أخرى فى قاموس

الحياة ،فالعربى لا يدرك طعـــم الفاجعة لأنه فى أحلك لحظاته يدرك أن الفرج والأمل لابد أن يحل محل واقعه الـكئيب (الفرج بعد الشدة) ومن هنا لم يستطع الموت أن يوحى بالصراع الضرورى ، وبالتوتر الحاد بين الحياة والموت اللذين نجدهما فى المأساة ، ففى مفهوم الفـكر الاسلامى أن هناك إيمان بالموت وبحشر الأجساد بالذات بعد الموت .

فعند كتاب المأساة : إن الانسان وحده يتحمل مسؤلية ما يقرره هو نفسه أما المسلم فإنه يرتبط إرتباطاً وثيقاً كاملا بالله . وليس لعبد الله إلا أن يتقبل إرادة الله التى ليس لها رد (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) وهـذا يعنى إن المسلم رغم تأكيد شخصيته وذاته فى الوجود لا يملك إلا أن يحقق ما تمليه إرادة الله تعالى وله فى هذا التحقق ثمة عزاء وأنس فليس قبول المسلم بالمصيبة بحسد إرادته هو ما يقدر ما يعبر عن تأكيد خضوع المسلمين لارادة الله وهنا تفقد المصيبة طعمها الدرامى القائم بحيث يتجمد الصراع بين الذات والقدر أو بين الارادة والواقع .

رابعاً : لا يقر الاسلام كشف الأجسام والعورات ، ولا يقر الحوار النازل الذى لا يعترف بالأصول القائمة بين الآباء والأبناء والأزواج والزوجات والذى يصور اللقاء المحرم على أنه شيء طبيعى مشروع ، ولا يقر تصوير عالم الدين فى وضع منفر مختصر. أو إبراز حرية المرأة على نحو لا يقره الاسلام لها أو عرض الرزيلة بصورة واسعة فى سبيل خداع المشاهد بجملة إعتراض فى النهاية بعد أن قدم كل التفاصيل المغرية لقبول الجريمة واستيعابها .

خامساً : إن إشتغال المرأة المسلمة بالتمثيل المسرحى يشتمل على منكرات محرمة منها ظهورها متبرجه كاشفة مالا يحل كشفه من أعضـــائها كالرأس والنحر وأعالى الصدر والذراعين والعضدين ومنها الاشتراك مع الرجال الممثلين فى أعمال ليست من لوازم العمل الفنى ولـكنها مقحمة عليه لاشاعة الرزيلة كالمعانقة والمخاصرة والملامسة بغير حائل ومنها غير ذلك من المنكرات التى تشتمل عليها بعض القصص

كالتشبه بالرجال وتمثيل وقائع العشق والغرام والمحبة بما فيها من الأعمال المحرمة لذاتها أو لكونها مدخل إلى المحرم ذاته .

(٢)

يقول دكتورعبد الحميد محمد إبراهيم : إن فكرة الدراما قد ارتبطت بمفهوم القضاء والقدر منذ البدايات الأولى للنشاطات المسرحية ومفهوم القضاء والقدر يختلف من عقيدة إلى أخرى ومن مبدأ إلى آخر حسب التصور الذى ينبنى على المبدأ ففكرة القضاء والقدر هى عنصر من عناصر الدين الذى أنزله الله تبارك وتعالى لهداية الانسان ، والدراما أو المسرح هى وسيلة من وسائل إشباع غريزة التدين التى فطر عليها الانسان ، ولكن لأن تصور الاغريق للمبدأ والعقيدة قام على أساس غير سليم من خلال تصورات بشرية ، فقد جاء مفهوم القضاء والقدر عندهم على أنه [الصراع بين الالهة والبشر] وهذا المفهوم كان يشكل جوهر التراث الاغريقى والمسيحى بأكمله .

وهو يتعارض مع مفهوم الإسلام كفكرة القضاء والقدر فإن الإسلام يرفض هذا التراث المسرحى جملة وتفصيلا .

وقد إستخدم المسرح الدرامى نظرية (الاندماج) مع البطل حتى لحظة التطهير من الانفعالات الضارة ، وقد استغل المبدأ الرأسمالى نظرية الاندماج هذه لما لها من مقدرة فائقة على تمويه الواقع والسيطرة على مشاعر المتفرجين وتقبيح الحسن وتحسين القبيح ، الأمر الذى جعل من المسرح تحت النظام الرأسمالى سلعة كباقى السلع الاستهلاكية .

هذه النتيجة وصل إليها المسرح فى ظل النظام الرأسمالى وهى تعتبر نتيجة حتمية إذا ما نظرنا إلى التصور الكامل لمبدأ النظام الرأسمالى الذى بنى عقيدته على فكرة (الحل الوسط) وفصل الدين عن السياسة ، ولما كان هذا المبدأ يتعارض مع مبدأ الإسلام فإننا نرفض رفضاً تاماً التراث المسرحى الذى جاء معبراً عن الأفكار الرأسمالية .

٢ — ومن ناحية أخرى فإن المبدأ الاشتراكى أو الشيوعى مبدأ يقوم على الإلحاد الكامل الذى لا يعترف إلا بالمادى وبالتالى فإنه يرفض مفهوم القضاء والقدر بالتصور الذى وضعه الأغريق والنظام الرأسمالى وحتما بالتصور الذى بالتصور الذى وضعه الأغريق والنظام الرأسمالى وحتما بالتصور الذى وضعه الاسلام . فقد صور المسرح الاشتراكى الانسان على أنه هو الأول والآخر فى الكون فالانسان هو الذى يصنع أقداره وهو الذى يحدد مصيره داعياً إلى تغيير المجتمع حتى يتغير الكون والانسان وقد إستخدم المسرح الاشتراكى نظرية (الاغراب) لتحقيق هذا التغيير المطلوب ونظرية الاعراب تعنى بأن تجعل من الواقع الذى يراد تغييره شيئاً غريباً حتى يثور الإنسان ضده وحتى تؤدى هذه الثورة إلى التعبير المطلوب إنطلاقا من النظرة التى تقول : إن الإنسان يثور على كل شىء غريب عليه .

٣ — والإسلام يرفض هذا المسرح الذى يتناقض تعاليمه تناقضاً تاما ، لأنه يقوم على المبدأ الاشتراكى الملحد إذ تحول مفهوم القضاء والقدر فى المسرح الاشتراكى إلى مفهوم الصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان متأثراً بالنظرية الماركسية حول استغلال النظام الرأسمالى للشعوب الفقيرة والطبقة العاملة .

ويرى الاستاذ الطاهر حسن دفع الله : إن ما تقدمه المسارح فى البلاد العربية إما إنعكاساً للمسرح الاشتراكى (برشت) أو المسرح الرأسمالى (شكسبير أو برناردشو) وغيرهما من كتاب النظام الرأسمالى ، وحتى المسرحيات العربية التى يكتبها كتاب عرب نجدها مستمدة من أفكار الرأسمالية أو الشيوعية .

أما بالنسبة للمسرح الإسلامى ، فإن الإسلام دين التوحيد الخالص الذى يرفض كل إشارة تدل على التنقيص من ذلك الأصل الحاسم فهو لا يسمح بالتأثر أو التاسى بالقصص أو الخرافات أو الأساطير الجاهلية .

ولما كانت فكرة الدراسا أو المسرح مرتبطه بمفهوم القضاء والقدر منذ نشأتها الأولى ولما كان مفهوم القضاء والقدر فى ظل النظامين الرأسمالى والشيوعى هو الصراع بين الإنسان والإنسان فإن ذلك معارض لمفهوم الإسلام .

ومفهوم القضاء والقدر فى الإسلام يحدد أن الإسلام يعيش فى دائرتين : أحداهما تسيطر عليه والأخرى يسيطر عليها ، أما الدائرة التى تسيطر عليه فإنه يقع فى نطاقها وتقع ضمن هذه الدائرة الأفعال التى لادخل له بها سواء وقعت منه أو عليه ، والأفعال التى تقع فى هذه الدائرة والتى لاشأن له بوجودها قسمان :

١ — قسم يقتضيه نظام الوجود ولذلك فهو يخضع له ويسير سيراً جبرياً لأنه يسير مع الكون والحياة طبقاً لنظام مخصوص لايتخلف ولذلك تقع الأعمال فى هذه الدائرة على غير ما أراده الإنسان وهو فيها مسير وليس بمخير .

٢ — وقسم لايقتضيه نظام الوجود ، تقع فيه الأفعال التى ليست فى مقدور الإنسان ولا قبل له بدفعها ، وهذه هى الأفعال التى تحصل من الإنسان أو عليه جبراً عنه ولا يملك دفعها مطلقاً .

فهذه الأفعال كلها والتى تحصل فى الدائرة التى تسيطر على الإنسان هى التى تسمى (قضاء) لأن الله تبارك وتعالى وحده هو الذى قضاه ، ولذلك لايمارس العبد هذه الأفعال مهما كان فيها من نفع أو ضرر أو حب أو كراهية حسب تفسير الإنسان لها ، وإن كان الله وحده هو الذى يعلم الخير والشر فى هذه الأفعال ، لأن الإنسان لا أثر له فيها ولا يعلم عنها ولا عن كيفية إيجادها ، ولايملك دفعها أو جلبها مطلقا ، وعلى الإنسان أن يؤمن بهذا القضاء وأنه من الله سبحانه .

هذه الدائرة هى دائره استسلام وإيمان كامل بقضاء الله وقدره ، لامجال

فيها للتمرد والعصيان اللذان يحدثان الصراع بين قضاء الله وقدره ، وبين إرادة الإنسان الأمر الذى توهمته المبادىء الملحدة ، وقامت على جوهرة فكرة الصراع الدرامى التى تشكل المضمون المسرحى على غرار ما كان سائداً فى عصر الاغريق: عصر النشاطات الأولى للمسرح الإنسانى .

أما الدائرة التى يسيطر عليها الإنسان فهى الدائرة التى يسير فيها مختاراً يفعل مختاراً ويمتنع عن الفعل مختاراً ، ولذلك فهو يسأل عن الأفعال التى يقوم بها ضمن هذه الدائرة . وإنه وإن كانت خاصيات الأشياء وخاصيات الغرائز والحاجات العضوية التى قدرها الله تعالى فيها وجعلها لازمة لها ، هى التى كان لها الأثر فى نتيجة الفعل ولكن هذه الخاصيات لاتحدث هى عملا ، بل الانسان حين يستعملها هو الذى يحدث العمل بها . وعلى هذا الأساس يحاسب على هذه الأفعال التى تقع فى الدائرة التى يسيطر عليها فيثاب ويعاقب عليها لأنه قام بها مختاراً دون أن يكون إجباراً .

هنا فقط يمكن عنصر الصراع الدرامى للعمل المسرحى فى الاسلام ، لأن العلاقة فى هذا الدين بين الإنسان وربه ، هى علاقة إستسلام لامجال فيها للتمرد على النظام الذى فرضه الله تعالى ، وإن العلاقة بين الانسان والإنسان هى علاقة سلام ، قائمة على المودة والحبة والتآخى المبنى على المفهوم الكامل لمضمون الإسلام ، ولكن العلاقة بين الانسان ونفسه الأماره بالسوء والمدعومه بإغواء الشيطان هى المجال الوحيد الذى يمكن أن يقوم على جدرانه دراما إسلاميــــة أو مسرح دينى إسلامى يدعو إلى الفضيلة ويقبح الرزيلة .

كما تبين طبيعة الصراع بين المادة والروح وبين الانسان والشيطان .

فإذا أردنا أن يكون لنا مسرح إسلامى متميز ، له شكله الخاص ومفهومه المتفرد المستمد من جوهر الإسلام ، فعلينا أن نركز مجهوداتنا فى مجال الصراع بين الإنسان والنفس البشرية) لابرازه فى صورة مقنعة تستمد شرعيتها من نظام الإسلام وعقيدته .

ومن الضرورى تغيير جميع المصطلحات الفنيه والمسرحية المتعارضة فى وضوح كامل مع الاسلام ، والأتيان بمصطلحات مسرحية جديده تواكب التطور الحضارى ولاتخرج عن روح الإسلام .

والكاتب المسرحى يجب أن يكون فنانا مستسلماً لله تعالى ولايؤمن بما يطلقه بعضهم على الفنانين من صفات يختص بها الآله مثل الفنان المبدع والفنان الخلاق بل يجب عليه فقط أن يؤمن بأن القوة الوحيدة التى تخلق من العدم هى قوة الله (تبارك وتعالى) ودور الكاتب إرشاد الجمهور إلى عظمة هذا الخلق الإلهى ، وأن يقوم بدور المفسر البارز والعاكس للحقيقة التى خلقها الله فى هـــذا الوجود ، مؤكداً أن الصورة التى أوجدها الله تبارك وتعالى للحقيقة والكون والحياة والإنسان صوره فريده لاتنكر ولايمكن تقليـــدها .

(٣)

ويرى الدكتور محمد كاظم الظواهرى (فى أطروحته عن المسرح) أن أكثر من خمسين فى المائة من النصوص المسرحيه المعروضة مستورده مترجمه أو مقتبسة بل وصلت إلى مائة فى المائة فى أحيان كثيرة خاصة فى سنوات الركود فهناك تناسب فردى بين الاستيراد والركود وقد أدى ذلك إلى إستيلاء الاداب الأجنبية على العاملين فى هذا الحقل ومايتبع ذلك من تشبع القلوب والعقول بمضامنيه وأشكاله . بل إن كثيراً مما قدم وسمى مسرحاً هو قمامة لنـدن وباريس وخير الأعمال المعروضة بضاعة مستوردة وأغلب جوانبه الفكريه إسقاطات أيدلوجية وسموم عقائديه .

وهو خال من الاصالة المطلوبة لفن أمه آخذه فى النمو والأزدهار ولايمثل روح الفن العربى الاسلامى ، وعنده أن الانتاج المسرحى فى جملته صور شائهة لاتصل إلى مستوى الأدب الغربى فى فنيتـــه ولا فى إصالته ولاتمثل مفاهيم أمتنا العربية الاسلامية وقد حرص الغربيون على

طمس ما كان للمسرح من سحر وسلطان بايهام أمتنا أن الفن شيء والفكر والأخلاق شيء أخر ، وقد ردد هذا كثيرون من أدبائنا ومن أخبار المفاهيم الوافدة ذلك القيد الذى فرض على الأخلاق والمثل والقيم كيلا تنفذ من خلاله إلى المسرح مع فتح الباب على الأدب المكسوف وكل مايناقض القيم والمفاهيم الاسلامية مما يعرض ويزخر به منه المسرح .

وهى ظاهرة خطيره : ذلك الفصل التعسفى بين الفن والأخلاق — والأدب المسرحى الغربى الذى تأثر به كتابنا مبنى على فقدان الثقة بالخالق عز وجل وعلى عدم الايمان بجدوى الوجود والحياة وعدم الايمان بمعقولية العقل ومنطقية الفكر وأنه يزخر بروح تشاؤميه مغرضة نتيجة عدم الايمان ، وقد غلب الطابع المسرحى الماركسى خلال فترة حكم عبد الناصر ، وأن النص المسرحى فى مصر يتنكر لشخصية مجتمعه ومعتقداته وأخلاقه وذوقه وفنه .

وقد استطاع الغرب أن يفرض علينا تراثه الأدبى ونجح فى إقناع الأمم المبهورة به بعالمية هذا التراث ووضع نصب أعيننا نماذج من أعمال كبار كتابه عبر التاريخ وأن القول بعالمية هذه الآداب والنماذج حكم قضى به غيرنا وسلمنا به ، وأن هذه الآداب لاتخلو من مآخذ تؤخذ عليها وأمور يختلف عن الفنا من عادات وتقاليد وحس جمالى وفنى ولاتخلو من لمحات كثيرة تسيء الينا ، وإن هذه النماذج مهما كانت جودتها فإننا نملك فى تراثنا الأدبى ماهو أعظم منها .

(٤)

ولما كان القرآن هو نموذج المثل الأعلى للفن الاسلامى ، فإن النظرية المثلى فى علم الجمال وقواعدها وقوانينها يسهل استنباطها من إعطافه . أن شموخ وجلال الفن فى النص الربانى لا يحول بينه وبين أن تصبح مثلا أعلى لحوال البشر فى آدابهم ولذلك يدعو الدكتور الظواهرى إلى وضع

الأصول العامة للجمال الفنى فى القرآن وبيان للسمات المضطردة التى تميز هذا الجمال عن سائر ماعرفته اللغة العربية وغيرها من أدب . وتفسير الأعجاز الفنى تفسيراً يستمد من تلك السمات المنفردة فى القرآن الكريم ، كذلك فيجب الأفادة من القرآن الكريم إلى أبعد مدى فى وضع حجر الأساس لصرح نقدى فريد تنبع قواعده من مصدر غير ذى هوى ، ومن ذلك البحث عن مقومات اللغة للحوار المسرحى متعقبا فى ذلك الآداب الأجنبية والأدب العربى ومستفيدا من كل جهد فى هذا المجال .

(٥)

يقول الدكتور الظواهرى فى أطروحته عن المسرح فى ضوء القرآن :

أن القصة العربية تفقد التصور الاسلامى لمعنى الفن ووظيفته فى الحياة ، وعلى الكاتب المسلم أن يعى خصائص التصور الإسلامى لكل شيء ومقوماته ثم يطبقها على الفن وفى يسر متناه ، يجد نفسه ، وقد خرج من هذا التيه بالحقيقة المطلقة التى عناها (جوهر) بقوله :

(ليس المسرح بلد الواقع ولكنه بلد الحقيقة)

والواقع أن الحقيقة لايستطيع بشر أن يتوصل إليها بمعزل عن الوحى الآلهى ، لقد بذل الإنسان أقصى جهد فلم يعدو مجهوده على تخرصات تخطىء أكبر مما تصيب ، فكان من نتاجها المذاهب المادية فى العلم : كنظرية دارون وفى الفلسفة (نيتشه) وكانت ، وفى المجتمع والتاريخ والاقتصاد كنظرية ماركس ووجودية سارتر وفى النفس كنظرية فرويد ولكن أحدا لم يستطع قط أن يتوصل إلى الحقيقة الكاملة كما صنع الاسلام إذ فسر للناس لغز الحياة المحير ، وعرفهم الغاية من خلقهم وهى عبادة الله تعالى بمعناة الواسع الذى يشمل الحياة كلها فى إطار من الصلاح والاصلاح والسعى إلى مرضاة الله (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) ـ الزاريات ـ إن العمل المسرحى ليس نسخة

من الطبيعة وليس تقليداً لها وإنما هو تكشيف لها . ومادامت الدراما هى الحقيقة والحقيقة فى تصورنا الإسلامى مطلقة مجردة علوية فهل يعقل أن نتبع هذه الحقيقة المطلقة ثم يبقى على الأرض شيء من موجبات الصراع الذى هو عنصر أساسى فى الدراما . أن أقوى موجبات الصراع باق فى تصورنا الإسلامى ومع إعمال الحقيقة المطلقة التى ينبغى على الأديب المسلم أن يلتزم بها .

فالالتزام فى الإسلام إنما هو التزام بالحقيقة الواحدة ، وما ينبثق عنها من تصور أكبر وأعمق وأشمل لا يسع المجتمع المسلم إقراره إلا أن يلتزموا به إذا أرادوا أن يتخطوا مافرض عليهم من التخلف فى عصور الضعف والاستعمار حتى يلحقوا بركب التطور البشرى .

أما مذاهب الدراما الغربية فهى بمثابة أمراض وجراثيم حضارة أصيب بها المجتمع الاوربى ثم صدرت إلينا ، أن الكلاسيكية مذهب صدر بأمر بابوى لمقاومة تأثير الشعر العربى فى مجتمع فرنسا ، وكان الكاردينال ريشيلو يصدر تعليماته للمؤلفين بكتابة مسرحيات تحاكى أعمال الرواد من الأغريق والرومان ولما بدأ المجتمع يغلى بالثورة على الحكومة (حكومة الاقطاع) راجت أفكار تدعو إلى الحرية الذاتية الفردية وإطلاق العنان للعواطف المكبوته والثورة على كل قيد يكبل الإنسان والمجتمع فكانت الرومانسيه التى أغرقت هذا المجتمع فى الفوضى ، والثورة التى أكلت نفسها بنفسها ، ولم يكن بد من مقاومة هذا التيار بعد أن استفحل خطره فوجدت الحاجة إلى مذهب جديد يوائم الروح العملى والعلمى الذى واكبت ركب التقدم فكانت (الواقعية) التى ظهرت فى منتصف القرن ١٩ الميلادى .

وكلها مذاهب نشأت فى فراغ من العقيدة الحقة وتابعها مع الأسف المجتمع المسلم . ويقول الدكتور الظواهرى : أن رفض هذه المذاهب الأوربية نابع من اعتماد التصور الإسلامى والالتزام به بالحقيقة المطلقة نبعا فياضا لا بد له ليكون دستور حياتنا الفنية ورفضا لكل محاولة يقوم كياننا فى محاكمتنا إلى فكر مستورد .

(٦)

ويرى الدكتور الظواهرى : أن المسرح قد أوجد مشكلة ضخمة هى مشكلة الصراع بين الفصحى والعامية ، وأن النص المسرحى هو المجال الأرحب لتزويد العامية بأغزر تراث مكتوب لم يكن تحلم به .

وأن الدافع الأول والرئيسى للدعوة إلى العامية هو الحقد على الإسلام والقرآن الكريم وأن المحرض الذى دفع إليها وأغرى ببذل الجهد فى سبيل نشرها هم ورثة الصليبية من المبشرين أما من النصارى أو من اليهود أو من المخدوعين بحضارة أوربا وبهرجها وزين لهم سوء عملهم. وأن أول من تولوا كبر هذه الدعوة إلى العامية كانوا من المهتمين بالمسرح وأن المسرح كان منذ وجد فى بلادنا ، ومايزال هو المجال الرحب الواسع الصدر لهذه الدعوة ، ولقد كان المسرح محضنا لكل دعوة هدامة ويقول : أن قوى أربع تقود الصراع لنصرة العامية على الفصحى فى سائر المجالات وخاصة المسرح .

* أعداء الإسلام من المستعمرين وعملائهم .
* حركة التمصير باسم الوطنية .
* حركة التمصير باسم الفرعونية .
* الهازلون .

ولم يقف فى ساحة هذا الصراع من أنصار الفصحى إلا أفراد من رجال الفكر والأدب (محمد عبده — على يوسف — حافظ إبراهيم — مصطفى صادق الرافعى) وهؤلاء لم يكونوا على علم بأسلحة أعدائهم وأولها المسرح وربما لم يكونوا على علم بأهدافه . وأنها كانت دائما بعيدة المساحة التى يفور فيها ولهذا استشرى هذا الداء فى التأليف المسرحى ، وأصبح الشغل الشاغل لأولى المسرح من اتباع هذه الدعوة تحقيق غاية كبرى وأمل منشود هو محاولة مد العامية بتراث مكتوب ودعامة تكون عموداً فقريا لها .

ولما كانت اللغة العربية تمثل فى كيان امتنا الإسلامية معالم شخصيتنا لا آداء

حوار فقط كما فى الأمم الأخرى ، فقد فطن الأعداء إلى هذا فحاربوا الإسلام فى شخصها وقد شهد القرن الرابع عشر الهجرى تأجج نيران الحقد على الإسلام بهذا الأسلوب الخبيث قام به عدد من المستشرقين والمبشرين ومنهم لويس عوض وسلامه موسى ، ولقد كان كتاب لويس عوض طعنة دامية للغة العربية ومحاولة تجديد الدعوة إلى نبذ اللغة العربية واستبدال لغة أوربية بها ، وأن حروفها لاتينية أو على الأقل إحلال العاميات العربية محلها لتفتيت وحدة العرب وحاسهم عن تراثهم وتفريق المسلمين أشتات.

ومن هنا فان قصة الفصحى والعامية هى قضية إسلامية فى المقام الاول . ولقد كان النص المسرحى هو المجال الأرحب لتزويد العامية بأغرز تراث مكتوب لم يكن يحلم به وكتاب المسرح لهم دوافع قـــد تتفق أو تختلف فى تفضيلهم الكتاب بالعامية ، وقد جاد عليهم العامة بزاد طيب من القفشات والنكات والتوريات التى لها فى ذهن السامع خلفية تزيد من جرعة الإضحاك المبتغاة على حساب القيم الإسلامية والفن .

وقد أوغل جماعة الماركسين فى هذا المجال ، واتخذوا من العامية شعاراً للغة الشعب والطبقة العاملة وهؤلاء جميعا يدعون إلى أن العامية تستطيع أن تقوم بمتطلبات الفن وشئون الحياة وأنها لغة شاعرة .

هذا وبالله التوفيق ؟

فهرس هجائي للمصطلحات التي تضمنها البحث

أبواب الفهرس العام

رقم الايداع ٣٢٦٠ / ٨٣ رقم المرحلى ٤ / ٠٣٦ / ١٤٢ / ٩٧٧